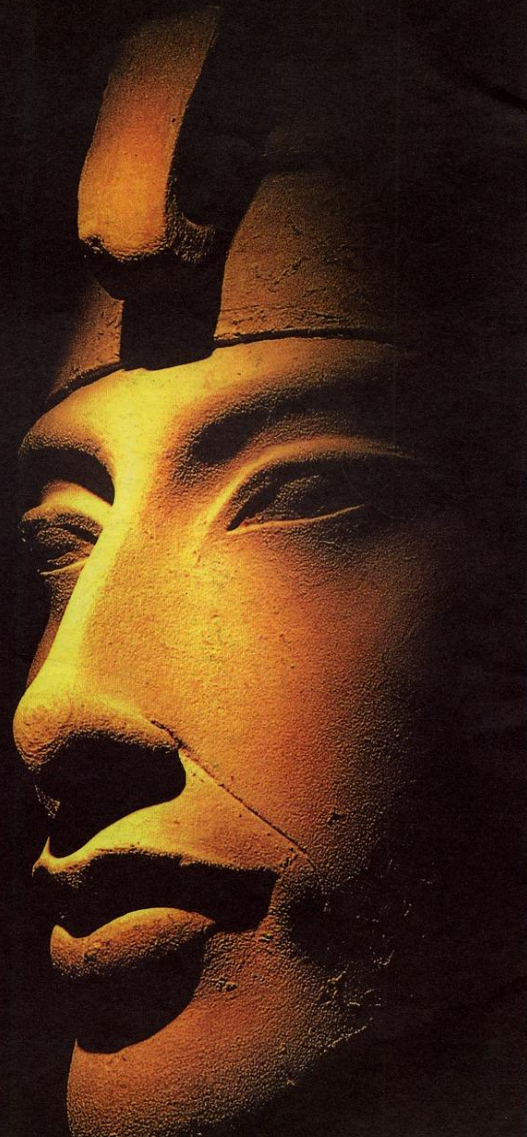
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثامن والثلاثون . السنة الرابعة . مارس ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 38 - March 2002



الخطاب الدينى المعاصر
أحمد كمال أبو المجد

سيناريوهات غياب عرفات
خليل الشقاقى

المرأة التى أنشأت دولة
عبد الرحمن منيف

اقتصاديات الكساد
محمود عبد الفضيل

ماذا حدث للثقافة المصرية ؟
جلال أمين

عن الإسلام والأصولية والحداثة
فوكوياما فى حوار خاص مع :
وجهات نظر

مستقبل المجلات الثقافية العربية
سلامة أحمد سلامة

نبى مصر المزيف !!
أحمد عثمان

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الثامن والثلاثون
مارس ٢٠٠٢

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد :

● كلمة «فوكوياما.. غربى قادم من الشرق» ٣
● أحمد كمال أبو المجد ٤
«حول الخطاب الدينى المعاصر»
● محمد السطوحى ١٠
«فوكوياما لوجهات نظر: عن الإسلام والأصولية والحداثة»
● خليل الشقاقى ١٦
«السلام.. وعرفات».. ضحايا موت أوسلو
● محمد الميلى ٢٠
«قراءات فى ١١ سبتمبر»
● چون ماريسكا ٢٦
«طريق الحرير الجديد»
Tesitmony to: House Committee on International Relations.
● محمود عبد الفضيل ٢٩
«عودة اقتصاديات الكساد».
The Return of Depression Economics، تأليف: بول كروجمان
● عبد الرحمن منيف ٣٢
«جيرتروود بيل: المرأة التى أنشأت دولة ونصبت ملكًا».
جيرتروود بيل من أوراقها الشخصية، ١٩١٤-١٩٢٦، تأليف: إليزابيث بيرجوين
● أحمد عثمان ٣٦
«إخناتون: نبى مصر المزيف».
Akhenaton: Egypt's False Prophet، تأليف: نيكولاس ريفز
● قدرى سعيد ٤٤
«صعود وسقوط محطة فضائية»
● أحمد زويل ٥٠
«مصر: كيف تغادر بوابة العالم الثالث؟»
Voyage Through Time: Walks of Life to the Noble Prize، تأليف: أحمد زويل
● جلال أمين ٥٢
«ماذا حدث للثقافة المصرية فى نصف قرن؟ ١٩٥٢-٢٠٠٢»
فى الثقافة المصرية، تأليف: عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم
● محمد عبد المطلب ٦٠
«قصيدة النثر بين القبول والرفض»
● قاسم عبده قاسم ٦٦
«الطريق إلى مكة: الحجاج الهنود فى القرون الوسطى»
Pilgrimage to Mecca, The Indian Experience 1500-1800، تأليف: ميشيل بيرسون
● عروض موجزة ٧٢
● قراءات جديدة ٧٦
● رسائل ٨٠
● سلامة أحمد سلامة ٨٢
«نون» ««مستقبل المجلات الثقافية العربية»

كتّاب العدد :

- **أحمد زويل**... أستاذ الكيمياء والطبيعة بمعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا.
- **أحمد عثمان** .. باحث فى التاريخ المصرى القديم.
- **أحمد كمال أبو المجد**... أستاذ القانون الدستورى بجامعة القاهرة.
- **جلال أمين**... أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- **جون ماريسكا** .. نائب رئيس يونيون أويل أوف كاليفورنيا.
- **خليل الشقاقى** .. مدير مركز نابلس للدراسات الفلسطينية.
- **سلامة أحمد سلامة** .. صحفى.
- **عبد الرحمن منيف** .. روائى سعودى مقيم فى واشنطن.
- **قاسم عبده قاسم** .. أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق.
- **قدرى سعيد** .. لواء متقاعد. رئيس وحدة الدراسات العسكرية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- **محمد السطوحى** .. صحفى مصرى مقيم فى واشنطن.
- **محمد الميلى**... المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- **محمد عبد المطلب** .. أستاذ البلاغة والنقد الأدبى بجامعة عين شمس.
- **محمود عبد الفضيل** .. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٢٠٤٩٠ / ٣٩٢٠٤٩٢ / ٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

فـــــوكــــــويامـــــا

غــربى قــادم من الشــرق

الصورة لأطفال دون العاشرة، يقذفون ما بأيديهم من حجارة، في الأغلب تجاه دبابة أو جرافة تقتلع أشجار الزيتون المعمرة، وتخلف البيادر وراءها يبابًا وخرابًا. والعنوان ببنط عريض فوق الصورة «إنهم يستهدفون العالم المعاصر».

وكاتب المقال الذى نشر فى العدد السنوى لـ «نيوزويك» هو فرانسيس فوكوياما صاحب «نهاية التاريخ.. والرجل الأخير» (١٩٩٢) والذى يبدو أنه انضم بمقاله هذا إلى صاحبه اللدود صمويل هانتنجتون ونظريته الشهيرة عن «صراع الحضارات» (١٩٩٣) بعد عقد من التنافس بين الفكرتين، وأيتهما أولى بأن يتبناها صانعو القرار فى الغرب، وبالذات فى واشنطن.

كان هانتنجتون قد قال إن نهاية الحرب الباردة وإن كانت نهاية لصراع الأيديولوجيات، لكنها حتمًا ليست نهاية الصراع. وخلافًا لفوكوياما، رأى الأستاذ فى «هارفارد» أن انهيار النظم الاشتراكية لا يعنى وصول قطار التاريخ إلى محطته الأخيرة مؤذنًا بانتصار الليبرالية الغربية. فالصراع سيُستأنف. وتفصيل ذلك حسب نص هانتنجتون فى مقالته الشهيرة: «مقولتى هى أن المصدر الأعمق للصدام فى هذا العالم الجديد لن يكون فى الدرجة الأولى ايديولوجيًا أو اقتصادياً، بل ستكون الثقافة هى المنبع المهيمن على الانقسامات والصدامات الكبرى بين البشر. الدول القومية ستبقى اللاعب الأقوى فى ما يخص شؤون العالم. لكن الصدامات الرئيسية فى السياسة العالمية ستبرز بين دول ومجموعات تنتمى إلى حضارات مختلفة. صدام الحضارات سيسيطر على السياسة العالمية. وستكون الحدود الثقافية بين الحضارات فى الوقت نفسه خطوط القتال فيما بينها».

ينقسم العالم ـ حسب هذه الفرضية ـ إلى كيانات عميقة الاختلاف مادام اختلافها ناجما عن عناصر راسخة شأن اللغة والدين والتقاليد والتاريخ. وبما أننا نشهد تطورًا اقتصادياً واجتماعياً يُضعف الكيانات السياسية التقليدية (الدول)، فإن أفراد الكيانات الجديدة سيعرفون أنفسهم ويحددون ولاءاتهم السياسية بهويتهم الدينية أو الاثنية.. أى الحضارية، لا على أساس الانتماء إلى الدولة ذات السيادة.

ويذهب هذا الرأى إلى أن الازدهار الاقتصادى كما التطور التقنى فى مجال الاتصال والمواصلات، لن يؤدى ـ كما توقع المتفائلون ـ إلى التقارب والتفاهم بفعل الهجرة وإمكانية التواصل الفورى، وإنما إلى حدّة الوعى بالاختلاف الحضارى. وهذا الوعى الحاضر والحادّ بالانتماء إلى حضارات مختلفة سيفضى إلى صراع حتمى، وخاصة أن انتهاء الحرب الباردة بانتصار ساحق و«نهائى» للغرب ـ وهو مايقول به فوكوياما ـ سيحضه على الإمعان فى نشر قيمه ومعاييره، فى حين تلوذ الكيانات الحضارية الأخرى بأصولها الثقافية، باحثة عن هوية متميزة، تحدد ولاءاتها السياسية على أساسها.

وفى حين يتحدث النص عن سبع «أو ثمانى» حضارات رئيسية، ينصبُّ الجانب الأكبر من اهتمامه على الصدام بين اثنتين منها، الإسلام والغرب. مستوحيًا، أو متوازيًا، أو على الأقل مسترجعًا فى ذاكرة القارئ المهتم، مقالة مهمة كان قد نشرها برنارد لويس فى ١٩٩٠ بعنوان «جذور الغضب الإسلامى».

وأيًا ماكان أمرُ تنظيرات الأكاديميين ونقاشاتهم الفكرية حولها، وماقيل عن تصحيح نسبى من جانب هانتنجتون لبعض أطروحاته، إلا أن ماجرى فى نيويورك.. ثم أفغانستان. وما سيجرى لاحقًا على إيقاع طبول الحرب التى مازالت تدق فى واشنطن، دفع بالرجل وأطروحته القديمة المثيرة إلى دائرة الضوء. فأعيد تدويرها على نطاق واسع. حتى بات الشعار ـ الذى سرعان ما أوجد شعارًا مضاداً ـ كأنه عنوان المرحلة ـ يجرى تسويقه وترويجه، بقصدٍ وغرضٍ أحيانًا وعن اقتناعٍ ـ للأسف ـ أحايينَ كثيرة.

على الناحية الأخرى من النهر كان يقف فرانسيس فوكوياما بنظريته عن «نهاية التاريخ»، والتى رآها البعض تتوارى مع اختفاء مركز التجارة العالمى من سماء نيويورك فى ذلك الصباح المجنون. وذهب المنتقدون إلى القول بأنه إذا ما كان لا بد من نهاية فهى نهاية «نهاية التاريخ»! إلا أن المفكر «الخمسينى»، الذى كان قد راجع نظريته جزئياً فى مقالة شهيرة عام ١٩٩٩، التقط الخيط فى مقالة النيوزويك الأخيرة ليؤكد أن «الفاشية الإسلامية» هى أخطر على الغرب من الشيوعية. (فى كتابه نهاية التاريخ ١٩٩٢ وصف فوكوياما الأصولية الإسلامية بأنها تعكس تشبيهًا سطحياً Superficial Resemblance للفاشية الأوروبية، وبالتالى فإن خطر تحديها للغرب وللايديولوجية الليبرالية الديمقراطية الغربية لم يكن قويا).

يقول فوكوياما فى النيوزويك: «إن أحداث سبتمبر تتحدى القيم والنموذج الأمريكى؛ لأن محمد عطا ـ والعديد من الخاطفين ـ كانوا متعلمين عاشوا ودرسوا فى الغرب، ولم يستطع الغرب إغراءهم بل إن النفور مما شاهدوه كان كافياً لدرجة أنهم كانوا راغبين فى الانقضاض بالطائرات على البنايات..» ويضيف: «إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدل بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة..» مؤكداً أن الأصولية الإسلامية الحديثة هى السبب فى ذلك؛ لأنها ترى المجتمعات الغربية مجتمعات فاسدة تسود فيها الموبقات مثل المثلية والإباحية الجنسية وحقوق المرأة. ومن ثم «فالحرب الأمريكية ليست ضد الإرهابيين وإنما مع الأصوليين وهم ليسوا مجموعة صغيرة، ولكنهم يصلون إلى ٢٠٪ من سكان العالم الإسلامى..» ومن ثم ينتهى المفكر الأمريكى إلى القول بأن «بحر الفاشية الإسلامية الذى يسبح فيه الإرهابيون يشكل تحديًا ايديولوجياً هو فى بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية..».

بالتأكيد لم يكن فرانسيس فوكوياما آخر من أغوتهم ـ أو ربما أقنعتهم ـ مقولة «الصدام الحتمى بين الحضارات» وبالذات فى ذروة تعاظم مشاعر الغضب والنقمة جراء ماجرى فى نيويورك. لم تمنعه حقيقة أنه وهو الذى تضرب جذوره العرقية فى تربة حضارة شرقية صامدة عريقة (اليابان) يجلس على كرسى الأستاذية فى قلب عاصمة الغرب «واشنطن»، ويضمه مجلس مستشارى الرئيس بوش، بعد أن عمل لفترة فى إدارة التخطيط السياسى بالخارجية الأمريكية، ثم فى مجلس الأمن القومى. حيث يلعب المفكرون وأصحاب الرأى فى تلك الديموقراطيات دورًا رئيسيًا ويصبح لكلامهم قيمة.

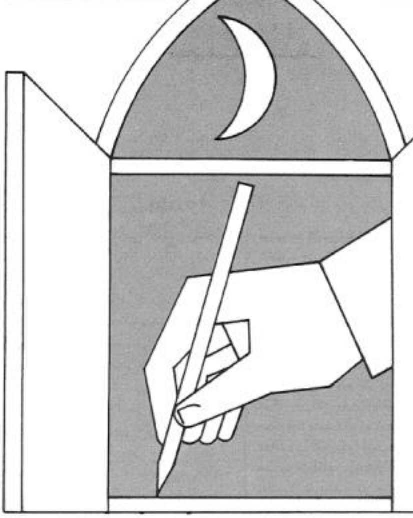
فى مقابلة خاصة تحاور «وجهات نظر» فرانسيس فوكوياما صاحب الكتاب الذى اعتبره الكثيرون أهم كتاب فى العقد الماضى، لتسأله ـ وتحاوره ـ عن رؤيته وأفكاره بعد الحادى عشر من سبتمبر: عن الإسلام والغرب.. والأصولية والحداثة.

بقى أن نقول أن مقال فوكوياما فى النيوزويك ليس الوحيد الذى يقدم الإجابة على سؤال: «كيف يفكر الغرب؟».. فهناك العديد من المقالات لسياسيين ومفكرين «مؤثرين» تكملُ ملامحَ الصورة: ألوانها وظلالها؛ برنارد لويس من جامعة برنستون فى «النيويوركر»، وصمويل هانتنجتون من هارفارد فى «النيوزويك»، ومارجريت ثاتشر فى «الجارديان»، ودانيال بايباس فى «الواشنطن بوست»، وجورج دبليو بوش فى خطاب «حالة الاتحاد». وقبل كل ذلك الرسالة الشهيرة: «ما الذى نحارب من أجله.. رسالة من أمريكا» والتى جاءت فى عشر صفحات كاملة وحملت ٦٠ توقيعًا لأسماء كبيرة بارزة.

وربما نفكر فى «وجهات نظر» أن نعرض لكل هذا فى ملف خاص. إذ تبقى الخطوة الأولى فى أى «حوار» هى الاستماع «جيداً» إلى الآخر. وإذا كانت الخطوة الأولى تتلوها ـ بحكم الرغبة فى السير قدمًا ـ خطوات، فلعلنا فى شرقنا العربى الإسلامى ـ إذا صحت النية والعزم ـ ذاهبون لا إلى الإفراط فى إبراء الذمة وغسل الأيدى، و«إنكار ماهو معلوم بالضرورة». بل إلى التوضيح والتصحيح: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون». (الممتحنة ٨، ٩).

أيّاً ماكان الأمر، تبقى المهمة الأسمى أمام المفكرين والعقلاء على الجانبين هى نزع فتيل الاستقطاب الحاد البادى فى «ثنائية» مطلقة مفرطة فى غلوها؛ سواء كانت فى شعار «فسطاط الإيمان.. وفسطاط الكفر» الذى أعلنه بن لادن فى خطابه الشهير، أو «محور الخير.. ومحور الشر» الذى تبناه جورج بوش فى خطاب الاتحاد قبل أسابيع. لا فرق.. فى التحليل النهائى ـ رغم المفارقة ـ لا فرق.

وجهات نظر



حول الخطاب الدينى المعاصر

أحمد كمال أبو المجد

■■ هذا حديث عن الخطاب الدينى المعاصر، المنتشر عندنا فى مصر وفى سائر بلاد العرب والمسلمين.. ولى فى هذا الخطاب رأى أبديه، ولكنى لا أبتديه.. ذلك أن ابتداءه وسط موجة الهجوم الإعلامى والسياسى على الإسلام والعرب والمسلمين، من شأنه أن يفتح باب الشك فى بواعث هذا الحديث، وقد يتصوره البعض استجابة لا تجوز لتدخل أجنبى سافر فى أخص شئوننا الثقافية والدينية.. وقبولاً ضمنياً للهيمنة الثقافية من جانب قوة أو قوى كبرى تسعى إلى بسط نفوذها على الآخرين، وتمنح نفسها شرعية كاذبة فى تحديد «مفردات» ثقافة أولئك الآخرين ومكوناتها الموضوعية..

لذلك.. أستأذن القارئ فى مطلع هذا الحديث فى أن أذكره بأن كاتب هذه السطور، ومعه عشرات من الكتاب والباحثين والمهتمين بالشأن الثقافى فى عمومه، وبالخطاب الدينى على وجه الخصوص، لم يتوقفوا منذ أكثر من عشرين عامًا عن نقد بعض صور الخطاب الدينى السائد، نقدًا تناول مضمون ذلك الخطاب، كما تناول أسلوب القائمين به، مما يعبر عن حاجة أصيلة لهذا النقد وتلك المراجعة، سابقة فى الزمان على الملابسات المعقدة التى أحاطت بأحداث الحادى عشر من سبتمبر فى الولايات المتحدة، من ذلك على سبيل المثال أننى نشرت فى الصحف المصرية والعربية خلال تلك السنوات نحو عشرين مقالاً، تدور كلها حول الحوار الدينى وآدابه، وحول عناصر الجمود أو عناصر الشطط فى بعض صور الخطاب الدينى المنتشر فى بلادنا وضرورة مراجعة ذلك الخطاب، وتصحيح فهم كثير من القائمين به للإسلام ذاته.. بجوانبه المتصلة بالعقيدة أو بالأخلاق أو بالشريعة..

كما ظهرت خلال هذه الفترة كتب عديدة لعلماء مصريين وعرب ومسلمين تدعو إلى هذه المراجعة وتنادى بتجديد الفكر الإسلامى بصفة عامة والفقه الإسلامى بصفة خاصة.. من أجل ذلك كله كان حرصى على القول بأننى أبدى الرأى فى الخطاب الدينى السائد وإن كنت لا أبتديه..

ويبقى قبل أن نحدد مداخل إصلاح الخطاب الدينى المعاصر، أن نبدأ بتحديد ما نقصده بالخطاب الدينى، وأن نرصد أهم أوجه النقص أو العوج فى الخطاب المعاصر.

وحديثنا هذا لا يتعلق «بالنص» الدينى، قرآنًا كان ذلك النص أو سنة، فكتاب الله كله كلام الله سبحانه، وهو حق كله، وحكمة كله، ونور كله، وهو محفوظ بحفظ الله - تعالى - له.. وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، هى الأخرى وحى يوحى، المعنى فيها من عند الله سبحانه، واللفظ من عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذى أوتى جوامع الكلم.. ولكن النصوص كلها تحتاج إلى تفسير، وهذا التفسير تحكمه ضوابط منهجية لابد من اتباعها حتى لا يتسلل إليه الهوى أو تغيب عنه البصيرة.. وفى التفسير مندوحة عن الكلام الكثير الذى دار بعضه فى صدر الإسلام ودار كثير منه خلال السنوات الأخيرة.. حول «النص» ومحاولة تقييده بالإطار التاريخى الذى أحاط «بتنزيله» على النبى صلى الله عليه وسلم.. فعن طريق التفسير، يستجلى المفسر والفقيه «مقاصد» النصوص، فيتيسر لهما تنزيل حكم النص على الوقائع المتجددة، وهو ما يحقق للنصوص معنى «الخلود» والصلاحية الدائمة من خلال «التجديد» الذى أشار إليه حديث النبى صلى الله عليه وسلم، والذى رواه أبو داود فى سننه الصحيحة من «أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها».. والأمر - عند التحقيق والتأمل - لا يقتضى أن يكون المجدد فردًا واحدًا بعينه يبعث أو يخرج وحده على الناس كل مائة سنة.. بل يحتمل الأمر أن يكون التجديد عمل جماعة أو مدرسة علمية أو فقهية.. وألا يكون عمل تلك الجماعة منسوبًا إلى سنة واحدة كل مائة سنة..

أما الخطاب الدينى الذى نتحدث عنه وحده فى هذه السطور، فهو خطاب الدعاة والوعاظ والخطباء والمفتين والباحثين حين يقدم إلى جمهور الناس على أنه الوصف السليم والفهم الصحيح للإسلام فى عقيدته ونظامه الأخلاقى وآدابه وشريعته.

ولهذا الخطاب الدينى - بتعريفه هذا - دور أساسى فى تكوين «العقل المسلم» و«الوجدان المسلم»، ومنه يتلقى عامة الناس تصورهم للإسلام، وللعالم فى ظله.. وتزداد أهمية ترشيد هذا الخطاب فى ظل أمرين تكاد تشترك فيهما جميع البلاد الإسلامية.. أولهما انتشار الأمية بمعناها العام، والأمية الدينية بوجه خاص.. وهو ما يحول دون الاتصال بمصادر المعرفة الدينية الصحيحة، من المراجع المعتمدة فى التفسير وفى علوم الحديث والسيرة والفقه.. وما يجعل الخطاب الدينى بمعناه الذى بيناه المصدر الأساسى إن لم يكن الوحيد للمعرفة الدينية.. والمسئول الأول عن تحديد معالم «التدين» ورسم صورة «المتدينين» لدى الأفراد ولدى الجماعة، ولدى الغير.. ثانيهما: تعاظم موجة التدين احتجاجًا على المادية التى آل إليها أمر الحضارات المعاصرة.. وما صاحبها من تراجع فى «نوع» العلاقات الإنسانية السائدة، وفساد لذات البين داخل الجماعة الواحدة، وداخل المجتمع الدولى كله، وهو التراجع المسئول - مع أسباب أخرى - عن انتشار ظواهر الأنانية والانحصار على الذات، وظواهر العنف الفردى والجماعى، الذى يتخذ أشكالاً متعددة باختلاف ميادينه، بدءًا بالعنف الفردى والحكومى، وانتهاء بالإرهاب الداخلى والدولى، ووصولاً إلى الحروب الأهلية والإقليمية والدولية.

وتعبر موجة التدين - بالإضافة إلى معنى الاحتجاج - عن حرص جديد على الاتصال بالجذور والأصول الاعتقادية والثقافية والسلوكية التى تصنع «الهوية» وتؤكد معنى «الخصوصية» الثقافية، وتيسر الانتماء الواضح لثقافة محددة وأمة معينة.

والتدين حين يرتبط بأصوله الاعتقادية والسلوكية وحين يفهمها الفهم السليم ويضعها موضعها الصحيح.. ظاهرة جديرة بالاحتفال والتشجيع، فهو مصدر هداية للفرد، وانضباط للجماعة، يغرى بالصلاح والإصلاح، ويعصم من الفساد والإفساد.. ويؤدى - فى نهاية الأمر - إلى الارتفاع بمستوى العلاقات الإنسانية بين أفراد الجماعة، وبين الجماعات المختلفة داخل النظام الدولى.. وهذا الارتفاع هو الذى ييسر التعاون، ويوظف التنوع الإنسانى، ويعين على احترام حقوق الأفراد والجماعات، ويفتح الباب أمام السلام الاجتماعى، والسلام الدولى.. أما حين ينحرف التدين عن أصوله، وحين ينفصل - ولو بالنيات الحسنة - عن إطاره المرجعى، فإنه يصير تدينًا مغلوطًا، يفضى إلى حالات فكرية ووجدانية فردية وجماعية بعيدة الصلة بالصورة التى سعى «الدين» إلى بنائها وإقامتها فى الفرد وفى الجماعة على السواء.. والدين - من قبل ومن بعد - دعوة ونداء وخطاب، تتحقق غاياته فى الناس بقدر ما يستجيبون الاستجابة الصحيحة لهذه الدعوة وذلك النداء: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (٦٦ ـ النساء).

وبمراجعة الخطاب الدينى المنتشر هذه الأيام، والذى يصنع صورة المتدين المعاصر، يتضح أن هناك مظاهر سبعة لانحراف هذا الخطاب عن توجهات الإطار المرجعى الثابت للدين، والدين الذى أخصه بالحديث فى هذه الدراسة هو «الإسلام» الذى عرفته البشرية ولا زلنا نعرفه، ونحتكم فى معرفته إلى مصدريه الأساسيين: القرآن الكريم، وسنة النبى - صلى الله عليه وسلم، وسيرته التى جسدت الوحى فى سلوك إنسانى مشهور لييسر للناس فى عصره ومن بعده سبيل التحقق بما جاء فى الكتاب والسنة من هداية فى العقيدة واتباع للشريعة..

حديثنا هذا لا يتعلق «بالنص» الديني.
قرآنا كان ذلك النص أو سنة. فكتاب الله كله كلام الله سبحانه.
وهو حق كله، وحكمة كله، ونور كله، وهو محفوظ بحفظ الله ـ تعالى ـ له..
وأحاديث رسول الله ﷺ ـ هي الأخرى وحي يوحى. المعنى فيها من عند
الله سبحانه، واللفظ من عند رسول الله ﷺ ـ الذي أوتي جوامع الكلم

والمظاهر السيئة لهذا الانحراف هي موضوع هذا الحديث كله.. وقد وجدت أن أيسر المداخل لإصلاح الخطاب الديني المعاصر أن أستعرض هذه المظاهر واحدًا بعد الآخر وأن أبين ـ ما وسعني ـ مدى انحرافها عن المنهج الصحيح في فهم الإسلام وتصور عقيدته، وإقامة نظامه في المجتمع.

ولست في حاجة إلى أن أقرر ـ قبل الحديث عن مظاهر الانحراف ـ أن من الخطأ التعميم في إصدار الأحكام.. وأن من الخطباء والكتاب والمفتين من خلا «خطابهم» من هذه المظاهر، فقدموا بذلك للإسلام وللتدين به، صورة مشرقة موصولة بالأصول، مستجيبة لحاجات الناس، واعية بما طرأ على الدنيا من حولهم من تغيرات.. فرضها تطور إنساني متعدد الساحات موصول الحلقات، وهو تطور استجاب له أولئك الدعاة والخطباء والمفتون.. ولكن يبقى صحيحًا ـ في تقدير كاتب هذه السطور ـ وتقدير كثير ممن معه، أن الصورة الغالبة للخطاب الديني المعاصر تحتاج إلى النقد، وإلى المراجعة الهادئة في غير مبالغة أو تهويل.

العنصر الأول: الترهيب والتخويف

أول عناصر الخطاب الديني المعاصر، وأكثرها انتشارًا، وأشدها حاجة للمراجعة، الدعوة للإسلام عن طريق الترهيب والتخويف، وإغفال الدعوة إليه عن طريق الترغيب والتبشير.. وقد كان من ثمرات هذا الخلل أن وجدنا كثيرًا من المتدينين يقبلون على التدين «مذعورين» مخوفين، تلاحقهم صيحات الوعيد. وما ينتظرهم يوم القيامة من عذاب أليم مهين.. وهو ذُعر يملأ النفوس قلقًا، ويحول بينها وبين السكينة والرضا.. وقد يحول بين أصحابه وبين التوجه للعمل البنائي الصالح الذي هو رسالة المسلمين في الدنيا وطريقهم إلى السعادة في الآخرة.. ذلك أن الخائفين المذعورين لا يصلحون لبناء الحضارات العظيمة، وحمل تبعات هذا البناء.. ومخالفة هذا التوجه لصحيح الإسلام لا تحتمل الجدل الكثير.. فالنبي صلى الله عليه وسلم ـ شأنه شأن سائر الأنبياء والمرسلين ـ قد بعثه الله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.. فهو (صلى الله عليه وسلم) شاهد على الناس بما بلغهم من كلمات الله، وما ذكرهم به من نعمه وآياته.. وهو مُبشرٌ لهم بالفلاح في الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.. وهو ـ كذلك وبعده ـ نذير يذكرهم بعواقب الاستكبار والجحود بعد الإعذار وإقامة الحجة ووضوح الحقيقة ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾ (١٤ ـ النمل)، ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (١٦٥ ـ النساء).

وهكذا جمع الإسلام ـ دائمًا ـ بين الترغيب والترهيب حثًا للنفوس والعقول على اتباع الحق وإقامة العدل والسعي في الناس بالخير.. فلم يعد من حق أحد أن يجعل الترهيب وحده أداة لهذا الحث، وأسلوبًا يعتمد عليه وحده، في الدعوة إلى الإيمان والإسلام، وإقامة الدين..

وإغفال أسلوب الترغيب فيه ـ فوق ذلك ـ إغفال لمعنى أساسي آخر هو معنى الرحمة والمغفرة من الله.. فهو سبحانه الرحمن الرحيم الودود الغفور التواب.. وهو القائل لعباده: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ (٥٣ ـ الزمر) وهو ـ سبحانه ـ القائل: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ (١٥٦ ـ الأعراف) ونبينا (صلى الله عليه وسلم) قد روى لنا عن رب العزة سبحانه قوله في حديث قدسي: «يا ابن آدم لو جئتني بقراب الأرض ذنوبًا لجئتك بقرابها مغفرة».. وبعد هذا كله لا يكون من حق أحد ـ مهما حسنت نيته ـ أن يأخذ ببعض الكتاب دون بعض.. وأن يشيع في أفق المؤمنين جوًا من الذعر والرهبة والخوف المقيم.. تتراجع معه معاني القرب من الله والأنس بمعرفته والتوجه لحبه ـ سبحانه ـ لما يغذونا به من نعمه، كما يقول الحديث الشريف.. إن الدعوة إلى الله بالترهيب وحده ليست منهج الإسلام الصحيح. وعواقبها قد لا تكون ظاهرة للداعية أو المفتي أو الناصح للناس.. ولكن ثمرتها المحققة أن يحل الذعر محل الاطمئنان وأن يسد الخوف المقيم أبواب الإحساس بالطمأنينة والرضا ـ وهما حالتان من حالات الإيمان الصحيح وأثران من آثار وقعه في النفوس: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ﴿٢٧﴾ ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ (٢٧: ٢٨ ـ الفجر)، ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ (١١٩ ـ المائدة).

إن الترغيب، والتبشير يظلان معًا المدخل الأساسي لجذب النفوس إلى الحق.. وهما يفعلان فعل السحر عند أكثر الناس، ويشيعان في النفوس جوًا من الطمأنينة والسكينة والرضا، ويفجران ينابيع الخير والتوجه إليه انطلاقًا من حقيقة وجودية وإيمانية كبرى مؤداها أن الله تعالى خلق عباده كلهم «حنفاء» كما يقول الحديث القدسي. وحين تتفجر ينابيع الخير تتفجر معها طاقة العمل والقدرة على الإبداع والبناء والتعمير، وهي غايات كبرى من غايات الوجود الإنساني على هذا الكوكب «هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» (٦١ ـ هود). إن الخوف وحده يبعث على التراجع والانكماش.. أما الاطمئنان والثقة فإنهما يبعثان على الحركة والتقدم والانتعاش.

العنصر الثاني: الميل إلى التشديد على الناس

جوهر التشديد التوسع في إيجاب الواجبات والتضييق في إباحة المباحات.. واختيار أعسر الأمور وأجلبها للمشقة وأدعاها إلى وقوع الحرج مع وجود البديل الذي يرفع الحرج ويجلب التيسير.

والمتشددون ـ في كل زمان ـ يصدرون في تشددهم عن تصور خاطئ لمهمتهم وحدودها. فهم يتصورون أنفسهم وصاة على الدين وعلى الناس، وهم لذلك في خوف دائم مقيم أن يؤدي التيسير على عباد الله إلى الخروج على حدود الله وتكاليف الشريعة.. وينسى هؤلاء أنهم دعاة ومبلغون، وليسوا أوصياء على أحد من الناس.. إذ تظل الطاعة والمعصية أمورًا منوطة باختيار الأفراد والمكلفين. يسألون عنها بين يدي خالقهم الذي علمهم أنه ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ (٢٥٦ ـ البقرة). وعلمهم رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن ما يلقونه يوم الحساب لا يعدو أن يكون ثمرة أعمالهم «ترد إليهم»..

كذلك يتصور المتشددون أن تشددهم من شأنه أن يقفل أبواب الشر والعوج، وأن يسد الذرائع في وجه الانفلات من تكاليف الشريعة.. وينسون أن سد الذرائع طريق احتياطي من طرق التشريع والإفتاء.. وأنه كما يسد مداخل الشر، فإنه يفتح أبواب الخير.. كما ينسون أن المرجع في حل الأفعال والتصرفات وتحريمها إنما هو إلى الخالق سبحانه.. وأن الوصول في التشديد إلى الاقتراب من تحريم الحلال لا يقل إثمًا عن الوصول إلى تحليل الحرام. يشهد لذلك ويقرره قوله سبحانه: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ (١١٦ ـ النحل).

والتشديد ـ فوق ذلك كله ـ من شأنه أن يصور للناس أن طاعة الله أمر عسير، وأن التدين يُحمل أصحابه عناء ومشقة.. مما يغري كثيرين «بالإعراض عن جملة الشريعة» كما يقول ابن قيم الجوزية.

والتشديد ـ في حقيقته ـ هو الاجتهاد الأسهل وليس الاجتهاد الأفضل. إذ الأمر كما قال الفقيه الكبير سفيان الثوري عليه رحمة الله: «ليس العلم في التشديد، فإنه يحسنه كل أحد، إنما العلم الرخصة من ثقة».. والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه كما يقول حديث النبي صلى الله عليه وسلم.

ويحتاج الدعاة والخطباء والمتحدثون والمفتون إلى أن يعرفوا معرفة لا شك فيها، ولا مكابرة معها أو جدال.. أن شريعة الإسلام قد بنيت على التيسير ورفع المشقة ورفع الحرج، ولم تبن أبدًا على التعسير والمشقة والحرج.. وهذا من أصول الإسلام الكبرى التي تشهد لها نصوص عديدة في القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة التي لا ترد.. يقول الحق سبحانه: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ (١٨٥ ـ البقرة). ويقول: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ (٧٨ ـ الحج). ويقول: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا﴾ (٦٦ ـ الأنفال). ويقول في وصف مهمة نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ (سورة الأعراف ـ الآية ١٥٧).

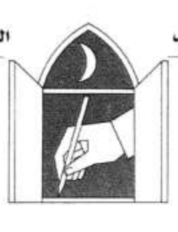
ويعلم الله المسلمين أن منهج الإسلام في تقرير الحل والحرمة منهج توسعة على الناس وتخفيف عنهم، وعفو عن كثير من الأعمال والتصرفات.. يقول سبحانه في سورة المائدة (الآية ١٠١): ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم﴾.. وبيانًا لمعنى هذه الآية يقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث رواه الحاكم عن أبي الدرداء: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو. فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا».. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وما كان ربك نسيا﴾ (٦٤ ـ مريم).

وتصف عائشة رضي الله عنها منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاجتهاد بقولها: «ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً».. فقد كان أبعد الناس عنه.

ويبقى في أمر المفاضلة بين التشديد على الناس والتيسير عليهم أن نلاحظ أمرين، يتصل أولهما بمضمون رسالة الإسلام ذاته، ويتصل الآخر بأصول دعوة الناس ومنهج تلك الدعوة.

١ـ فأما الذي يتصل بمضمون رسالة الإسلام فهو تحديد موقف الفرد المسلم والجماعة المسلمة من الحياة. ففي بعض نماذج الخطاب الإسلامي المعاصر دعوة غريبة إلى مخاصمة الحياة، والتحريض على الزهد فيها، والإعراض عنها، ووصف هذه الدنيا بأنها جيفة وطلابها كلاب. ومن شأن هذه الدعوة أن تصرف جمهور المسلمين عن الإقبال على الحياة والسعي لتعمير الأرض، ومنافسة أهلها على مواقع الريادة والقيادة، وهي دعوة تناقض نداء الإسلام الصريح للعمل النافع والضرب في الأرض ابتغاء الرزق وتحقيق التوازن الذي تشير إليه الآيتان الكريمتان في قوله سبحانه: ﴿وابتغ فيما آتاك الله

تعبر موجة التدين.
بالإضافة إلى معنى الاحتجاج.
عن حرص جديد على الاتصال بالجذور
والأصول الاعتقادية والثقافية والسلوكية التي تصنع
«الهوية» وتؤكد معنى «الخصوصية»
الثقافية، وتيسر الانتماء الواضح
لثقافة محددة وأمة معينة



الدّار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدّنيا﴾ (٧٧ ـ القصص). وقوله على لسان المؤمنين الصالحين: ﴿ربنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار﴾ (٢٠١ ـ البقرة).

والزهد المحمود فى الدنيا هو الزهد مع القدرة.. وليس الزهد مع العجز.. والمؤمن الحق هو الذى يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا. والتوجه الإسلامى الصحيح هو توجه يملؤه الأمل والتفاؤل والتطلع إلى المستقبل والإعداد له، وهو المعنى الذى عبر عنه حديث نبوى شريف قلما ينتبه قارئوه إلى دلالته الكبرى على موقف الإسلام الإيجابى من الحياة.. يقول صلى الله عليه وسلم: «إذا قامت الساعة على أحدكم وفى يده فسيلة، فاستطاع ألا تقوم عليه حتى يغرسها فليفعل، فإن له بذلك أجرا».

والإسلام بهذا كله لا يضع أصحابه فى صراع مع الحياة، والمسلم الحق لا يكره الناس والدنيا، ولا يقضى عمره فى معركة ـ صنعها الوهم ـ مع قواها ونواميسها، وأنى له ذلك وهى صنع الله الذى أحسن كل شيء خلقه ثم هدى، ثم أنّى له ذلك وهى ـ دون الآخرة ـ دار العمل وأرض الابتلاء.. ثم كيف يكون هذا موقف المسلم فيها وقد أسبغ الله عليه فيها نعمه ظاهرة وباطنة، وخلق له ما فيها جميعًا، ثم دعاه إلى تعميرها بسلطان العقل وقوة العمل وأحب منه ـ بين ذلك ـ أن يرى أثر نعمته عليه..

إن موقف المسلم من الحياة قضية بالغة الأهمية لابد أن ينتبه إليها المشتغلون بالخطاب الدينى، إذ إن الخلل فيها هو أول أبواب الانحراف الذى تقع فيه جماعات من الشباب، الذين يبدأون تدينهم بالعزلة عن المجتمع، وفى العزلة يلقنون كراهية الحياة وكراهية الناس، ويقيمون فى أنفسهم حربًا باردة يحاكمون فيها مخالفيهم.. وبعيدًا عن نور المعرفة وإشراقات السماحة تكون مفاصلة المجتمع، واتهام أهل الزمان كلهم جميعًا بالكفر، ووصف العصر كله بالجاهلية.. وهى آفات خطيرة نبه إليها العلماء المحققون، فوجدنا ابن القيم يقول فى أمثال هؤلاء: «ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلم بالذنوب والخطايا، فإنه أول بدعة ظهرت فى الإسلام، فكفر أهلها المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم.. وسموا دارهم دار هجرة، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب»..

٢ ـ أما الأمر الذى يتصل بمنهج الدعوة فهو ضرورة مراعاة أحوال الناس عند مخاطبتهم.. وإلا لم تصل رسالة الداعى إليهم.. حين لم تتصل بواقعهم أو تخاطب همومهم وشواغلهم.. وهذا ما نسميه «تفريد الفتوى» و«تفريد القضاء» أى ضرورة استجابتها لحال السائل، من حيث قدرته وما يحيط به من ظروف.. وهو منهج النبى صلى الله عليه وسلم فى الفتوى وفى القضاء.. ومن أمثلته الواضحة أنه أذن للأحباش أن يرقصوا ويغنوا فى بيت النبوة أو مسجده الشريف، وحين اعترض عمر على ذلك لم يقبل اعتراضه بل راجعه قائلاً: «دعهم يا عمر» ثم أذن لزوجته عائشة أن تنظر إليهم حتى اكتفت، وقد فطنت رضى الله عنها إلى أن هذا قد كان منه صلى الله عليه وسلم مراعاة لسنها الصغيرة حينذاك، فقالت فيما يرويه عنها البخارى ومسلم: «فاقدروا قدر الفتاة الحديثة السن الحريصة على اللهو».. ترى هل ينتبه المتشددون إلى هذه المعانى الإنسانية الرفيعة، وهل يسعهم من التيسير ما وسع نبيهم صلى الله عليه وسلم فى هذا.. وحين قال لعائشة وقد زفت فتاة إلى رجل من الأنصار: «يا عائشة ما كان معهم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو».

وتفريد الفتوى باختلاف حال الفرد السائل منهج أصولى رده بعض الفقهاء إلى العرف كمصدر تكميلى للأحكام الشرعية.. وفى هذا يقول الفقيه الحنفى الشهير ابن عابدين: «إن كثيرًا من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله أو لحدوث ضرورة، أو لفساد أهل الزمان، بحيث لو بقى الحكم على ما كان عليه أولاً، للزم منه المشقة والضرر بالناس ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد»..

وقد عبر عن قاعدة التيسير هذه فقيه ثقة معاصر بقوله: «إنه يختار الأيسر لا الأحوط فى زماننا[1]».

العنصـــــر الثــــالث: هو الغفلة عن مقاصد الشريعة، والوقوف عند ظاهر النصوص وحروفها

وهذا المنهج النصى الخالص الذى لا يلتفت إلى المقاصد يسميه البعض تجاوزًا أو خطأ بـ«السلفية»، وهى كلمة حمالة أوجه استعملها ابن تيمية وغيره فى ميدان العقائد والإلهيات إشارة إلى منهج الالتزام بالنصوص القرآنية المتضمنة لأمور العقيدة، وهى نصوص تنفى عن الخالق سبحانه مشابهة مخلوقاته ولا يتكلف أصحابها تكلف الفلاسفة الذى وصل بالبعض منهم إلى مقولات من التشبيه والتجسيد، أو الحلول، أو وحدة الوجود التى يندمج فيها الخالق بالمخلوق.. أما فى مجال الشريعة والاجتهاد فى استنباط أحكامها فإن ابن تيمية قد تحرر من المنهج الحرفى، وكانت له اجتهادات رائعة أوصله إليها بصره بالمقاصد القائمة وراء النصوص.. ولذلك عده مؤرخو الفقه من المجددين، بل عدوه شيخ المجددين.. وأصحاب هذا النظر الحرفى الضيق للنصوص القرآنية والنبوية يسيئون الظن بكل مذهب أو اجتهاد يدعو إلى التجديد واستخدام العقل فى فهم النصوص وتفسيرها وتطبيق حكمها على الوقائع المتجددة بدعوى أن ذلك يفتح باب الحكم بالهوى.. ودعوى أن المؤمن الصالح متبع لا مبتدع.. وهذا كله لا حجة فيه، فالاتباع الذى أمرنا به إنما هو اتباع العقلاء المبصرين لا اتباع المقلدين المنقادين.. والابتداع الذى نهينا عنه هو أن ندخل فى الدين ما ليس منه إضافة إليه أو حذفًا منه، أو قولاً فيه على الله بغير علم.

أما الابتداع المحمود فهو ثمرة الاجتهاد على منهج فى استقراء الحكم الشرعى من دليله الجزئى فى إطار من مجموع النصوص وفى ظل من الوعى بمقاصدها الكلية وبالمصالح التى اعتبرها الشارع بالنص عليها أو تركها «مرسلة» يتغياها المجتهدون فى اجتهادهم، وتسعى الأمة من ورائهم إلى تحقيقها، غير خارجة على نص قطعى، ولا ساعية لتحقيق مصلحة ألغى الشارع اعتبارها بدليل يقينى لا يحتمل التأويل.

والأمر فى شأن المقاصد على ما ذكره الإمام الشاطبى فى موافقاته (كتاب الموافقات فى أصول الشريعة) حين قال: «إن تكاليف الشريعة ترجع كلها إلى تحقيق مقاصدها فى الخلق».. ثم فصل ـ رحمه الله ـ هذه المقاصد إلى رعاية الدين، ورعاية النفس، ورعاية النسل ورعاية العرض، ورعاية المال..

ثم عاد فقرر أن المصالح المتصلة بهذه المقاصد تتدرج تنزلاً من الضروريات، إلى الحاجيات، إلى التحسينات (الكماليات).

ولا غنى لأحد من المشتغلين بالخطاب الدينى، والممارسين له، عن معرفة ما قرره علماء الأصول فى كيفية رعاية هذه المصالح التى تتفاوت مراتبها، ويحتاج الأمر إلى منهاج دقيق للتوفيق بينها عند تعارضها، ولتقديم الفقيه أو المفتى أو القاضى بعضها على بعض عند تزاحمها، فقد قرر علماء الأصول قواعد عديدة فى هذا الشأن.. فى مقدمتها القاعدة المعروفة من أن درء المفسدة، فى موقف معين، مقدم على جلب المنفعة فيه ومنها:

أن مصلحة الجماعة تقدم على مصلحة الفرد.

وأن مصلحة الكثرة تقدم على مصلحة القلة.

وأن المصلحة الدائمة تقدم على المصلحة العارضة أو المؤقتة.

.. ولا ندرى كيف يغفل البعض عن هذه الضوابط التى يفرضها المنطق وتقتضيها الحكمة وتوجبها البداهة، خصوصًا حين يدلهم القرآن الكريم على هذا المنهج فينص فى أحيان كثيرة على المقاصد القائمة وراء الأحكام، وهو منهج لم تستثن منه أحكام العبادات، مع أن الأصل فيها مطلق الطاعة نزولاً عند قوله سبحانه: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (٣٦ ـ الأحزاب). فيدل على القصد من فرض الصلاة بقوله: ﴿إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ (٤٥ ـ العنكبوت) ويدل على الحكمة من فرض الصيام على المؤمنين بقوله: ﴿لعلّكم تتّقون﴾ (١٨٣ ـ البقرة) كما يدل على الحكمة من فرض الزكاة بقوله: ﴿صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها﴾. وأخيراً يدل على الحكمة من فريضة الحج بقوله: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله﴾ (٢٨ ـ الحج).

ثم تكشف الأحاديث النبوية الصحيحة عن زوال القبول والثواب عن الفعل العبادى حين تغيب عنه مقاصده، لقول النبى صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه».. ويقول: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش».. ويجمع فقيه مصر الأشهر العز بن عبد السلام هذه المعانى فى عبارته الشهيرة: «كل أمر تقاعد عن تحصيل مقصوده فهو ردّ» (أى مردود على صاحبه ولا قيمة له).

إن إدراك مرامى الأحكام الشرعية، ومقاصد التكاليف التى تنطوى عليها تلك الأحكام من شأنه أن يحقق المنفعة القصوى للفرد والجماعة من إقامة أحكام الشريعة.

أما حين تنفصل الأحكام عن غاياتها، وتنفك الرابطة بين التكاليف الشرعية ومقاصدها.. فإن المنفعة تفوت والمصلحة تغيب.. ويقع الناس بذلك فى العسر والعنت والحرج.. ما أدق وأحكم قول ابن القيم: «اعلم أن الشريعة عدل كلها وقسط كلها، ورحمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الظلم، ومن القسط إلى الجور، ومن الرحمة إلى ضدها، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل..».

العنصـــر الرابع: الغفـلة عن ترتيب الأولويات ومراتب الواجبات الدينية

والواقع أن من أعقد المشاكل التى تواجه حركات التغيير الفكرى والاجتماعى تحديد نقطة البداية فى هذا التغيير وترتيب الأولويات فى برامج الإصلاح.. وتتخذ هذه المشكلة طابعًا أشد تعقيدًا فى خصوص الخطاب الدينى، وفى إطار العمل الإسلامى حيث تتنازع هذا الترتيب اعتبارات مختلفة ومعايير عديدة، فهو ليس قائمًا على تقدير الأهم والمهم من حيث المصلحة الاجتماعية فحسب، وإنما يتداخل فى تحديده عنصران إضافيان:

أولهما: ترتيب القيم فى إطار التصور

جمع الإسلام ـ دائماً ـ
بين الترغيب والترهيب حثاً للنفوس
والعقول على اتباع الحق وإقامة العدل والسعى
فى الناس بالخير.. فلم يعد من حق أحد أن يجعل
الترهيب وحده أداة لهذا الحث، وأسلوباً يعتمد
عليه وحده، فى الدعوة إلى الإيمان
والإسلام، وإقامة الدين



الاعتقادى الشامل الذى يقوم على الإسلام، وهو ترتيب قد لا يتطابق بالضرورة تمامًا مع الترتيب القائم على رعاية المصلحة الاجتماعية كما يراها الناس، أو كما تراها أكثريتهم العددية.

ثانيهما: ملاحظة درجة الثبوت، وقطعية المصدر الذى يستند إليه الحكم محل البحث، فما ثبت بدليل قطعي يكون عادة أوفر نصيبًا من الطلب والإلحاح في برامج الإصلاح، بينما تتراخى فى الترتيب أمور أخرى إذا لم يحمل ثبوتها درجة اليقين التى تحملها نصوص أخرى ربما كانت تعالج أمورًا أقل أهمية أو أقل اتصالاً بالمصلحة الاجتماعية الظاهرة.

وفى تقديرنا - مع ذلك - أن درجة ثبوت الدليل الجزئى لا يجوز أن تكون العنصر الأساسى الحاكم فى تحديد مراتب الأعمال.. فقد يثبت دليل جزئى ثبوتًا قطعيًا دون أن يؤثر ذلك على نوع الحكم التكليفى الذى يقرره ذلك الدليل، مما يتعين معه الرجوع إلى معيار موضوعى مستمد من مجموع النصوص لا من واحد منها فحسب، ولا نريد أن نطيل الحديث أكثر من ذلك فى هذه القضية الفنية التى قد لا يستوعبها غير المتخصصين، وإنما نقرر أن الذين يمارسون الخطاب الدينى ويوجهونه للناس لا يملكون إغفال الواقع الاجتماعى الذى يعملون فى إطاره، وأن يصنعوا لأنفسهم أولويات خاصة بهم، منعزلة عن حاجات الناس فى الأزمنة المختلفة والأمكنة المختلفة، مستندين إلى أن الإسلام «حاكم لا محكوم» وأن على الناس أن يعيدوا ترتيب حياتهم على أساس هذه الأولويات كما يحددها لهم أولئك المصلحون والدعاة. ذلك أن الفقه والاجتهاد والفتيا تقتضى جميعها رعاية مصالح الناس، وهذه الرعاية هى جوهر «السياسة الشرعية».. والسياسة الشرعية كما يقول ابن القيم قسم من الشريعة، أى جزءًا من أجزائها، وليست قسيمًا لها أو بديلاً عنها، وهى على ما عرفها ابن عقيل: «فعل ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد».

فإذا انتقلنا من هذا التحليل العلمى لمسألة ترتيب الأولويات والفتيا نظرة فاحصة إلى ما آل إليه أمر كثير من المتدينين الذين تحددت معالم تدينهم فى إطار الخطاب الدينى الذى شكل رؤيتهم للإسلام ولواجباتهم فى ظله وجدنا عوجًا لا شك فيه، فهم - على سبيل المثال - لا يفرقون بين أساسيات العقيدة التى لا يكتمل بغيرها معنى الإيمان بالله والتصديق برسوله والاعتقاد فى اليوم الآخر، وكلها من أركان الإسلام التى بنى عليها، وبين أمور فرعية تتصل - من بعيد - بهذه الأركان كزيارة المقابر، وبناء الأضرحة، والحلف بغير الله.. فيظل بعضهم يشدد فى أمر تلك الفروع، ويشد الناس إليها، ويشغلهم بها.. فتمتلئ الساحة بجدل لا طائل من ورائه ولا نفع فيه.. ومنها - ولعله المثال الواضح المتكرر أمامنا - أن هؤلاء لا يفرقون بين الفرائض - أى الأمور التى أوجبها الشارع - سبحانه - على سبيل الفرض - وبين ما أمر به على سبيل الندب والاستحباب.. فيهمل بعضهم أمر الفرائض، ويشدد على نفسه وعلى الناس فى أمور لا تجاوز حد الندب والاستحباب.. وأكثرهم لا يعرف الفرق بين ما هو فرض عين وهو يجب على كل فرد مكلف.. بحيث لا يسقطه عنه أداء غيره له، وما هو من فروض الكفاية التى تجب على مجموع الأمة، بحيث إذا قام بها فرد أو عدد كاف من الناس سقط الإثم عن باقيهم.

كذلك لا يفرقّ عامة المتدينين - متأثرين بما يستقبلونه من خطاب دينى - بين الأمور المجمع عليها بين الفقهاء، وتلك التى اختلف حولها الرأى بين المدارس الفقهية أو داخل المدرسة الواحدة، . والنتيجة العملية التى يؤدى إليها هذا الخلل فى فهم مراتب الأحكام والتكاليف الدينية أننا نرى كثيرًا من الناس، رجالاً ونساءً وشبابًا يشغلون أنفسهم بأداء أعمال ليست لها فى منطق الأولويات قيمة كبرى، ويهملون أمورًا أخرى لها الوزن الأكبر والقيمة العظمى، ويظهر ذلك عند استقراء الأسئلة وطلب الفتاوى التى يتقدم بها أكثر الشبان والفتيات إلى العلماء والمفتين والمتحدثين عن الإسلام، فهم - على سبيل المثال - يسألون عن نوافل العبادات، وعن أمور متعلقة بالأشكال والمظاهر، وعن أمور جزئية تعددت فيها آراء الفقهاء، دون أن يؤدى الأخذ برأى منها دون آخر، إلى الوقوع فى إثم أو ضياع أو فوات مصلحة فى الدنيا أو ثواب فى الآخرة.. وحسبى فى هذا المقام أن أشير إلى خلل هائل يقع فيه بعض المتدينين من الشباب، حين يتعرف بعضهم على دينه من جديد، وتتجه نيته إلى الالتزام بأوامره ونواهيه، فيكون أول ما يبدأ به الاهتمام بالتزام صيغ معينة فى الدعاء والذكر والتسبيح والحرص على أداء السنن والنوافل والإنكار الشديد على الذين يتساهلون فى أدائها.. والتعبير عن ذلك بإرسال اللحية، وتقصير الثوب (على هيئة لا أصل لها فى الدين، ولا وزن لها فى ميزان الشرع) وارتداء الجلباب، وهو بدوره أمر شكلى خاص لا علاقة له بالدين، وإنما هو عُرف من الأعراف، وأزياء الناس لا استقرار لها كما كان يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب خلاف - رحمه الله.. ثم يبدأ الواحد منهم فى نصح أمه وأبيه وإخوته وأخواته فى غلظة وصلف واستكبار، مهملاً فى ذلك كله أصلاً كبيرًا من أصول الإسلام، هو بر الوالدين، وإكبارهما، وإحسان معاملتهما التى جعلها الله سبحانه تالية فى الوجوب للإيمان به الذى هو أصل الأصول فى عقيدة أهل الإسلام، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (٢٣ - الإسراء)، وقوله الذى يحدد للمسلم مرتبة هذا الإحسان: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (١٥ - لقمان).

المتشددون - فى كل زمان - يصدرون فى تشددهم عن تصور خاطئ لمهمتهم وحدودها، فهم يتصورون أنفسهم وصاة على الدين وعلى الناس، وهم لذلك فى خوف دائم مقيم أن يؤدى التيسير على عباد الله إلى الخروج على حدود الله وتكاليف الشريعة.. وينسى هؤلاء أنهم دعاة ومبلغون، وليسوا أوصياء على أحد من الناس

العنصر الخامس: الغفلة عن دور العقل وأهمية العلم فى بناء التصور الإسلامى

وهذه الغفلة تقع فى ميدانين، أولهما: الميدان العام الذى يجعل للعقل الإنسانى دورًا أساسيًا إلى جانب دور النقل، أى النصوص القرآنية والنبوية.. وذلك فى مقام فهم الطبيعة التى تحيط بنا، وسائر أمور المعاش التى يشترك فيها المسلمون مع غيرهم من سائر خلق الله.. أما الميدان الثانى، فهو ميدان الفقه ومعرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال الناس، أفرادًا وجماعات.

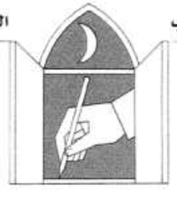
والواقع أن قضية دور العقل مع وجود النقل أى النصوص التى مصدرها الوحى الإلهى المنزل على الأنبياء والمرسلين قضية قديمة فى الفكر الإنسانى وفى تاريخ الأديان السماوية.. والمناقشة حولها تخرج بنا عن نطاق هذه المحاولة لرصد «الثغرات» القائمة فى الخطاب الدينى السائد عندنا، ولكن الذى نحرص على وضعه فى إيجاز ووضوح كامل أمام أمتنا الإسلامية، وأمام الأجيال الناشئة، وشباب الإسلام أنه آن الأوان لوضع حدٍ ونهاية لهذه المقابلة المغلوطة بين العقل والوحى.. وأن نعرف جميعًا أن صاحب «العلم» هو صاحب «الشريعة».

فإن واهب العقل هو الموحى بـ «النقل» وأن الرواية فى أمور الدين لا تكفى وحدها ولا تغنى أبدًا عن التعلم والفقه والدراية.. وأن «المسلم» العاقل التقى عليه أن يقرأ - فى خشوع - كتاب الله المنزل على رسوله، وأن يقرأ - فى خشوع مماثل - كتاب الله المثبوت فى الكون.. آيات بينات تدل على القدرة والرحمة والعلم واللطف والوحدانية. إن على المسلمين المعاصرين أن يودعوا - إلى غير رجعة - منهج الخرافة فى فهم الدين ونصوصه ومنهج تعطيل العقول، التى بغيرها لا تفهم النصوص.. وأن يعلموا - علم اليقين - أن تكاليف الشريعة ليست عقوبات يفرضها الله على المكلفين، فهو سبحانه غنى عن العالمين.. والنصوص ليست إلا شواهد وعلامات على تحقيق مقاصد الشريعة.. وإن كارثة ترك الاجتهاد والنظر ينبغى أن تنزاح عن كاهل هذه الأمة حتى تستطيع عمل شيء، أى شيء لإنهاء الجمود القاتل، والخروج من بياتها الحضارى الطويل..

ودعونا نذكر هؤلاء الخائفين من العقل وسلطانه، والمشفقين أن تتطاول العقول على النصوص، دعونا نذكرهم بأن الله تعالى هو المتكفل بحفظ تلك النصوص، وأن الفقهاء وأهل العلم كانوا - ولا يزالون - ورثة الأنبياء فى المحافظة على تلك النصوص، ولكن الأزمة الحقيقية فى ثقافتنا السائدة وفى خطابنا الدينى المعاصر أن العقل قد أنزل عن عرشه، وأن قضية العلم قد تراجعت مكانتها فى عقول كثير من المتدينين.. وأنه إذا كانت آفة الدنيا من حولنا أن بعض الناس قد تصوروا أن العقل يستطيع - بغير النقل وهداية الوحى - أن يهدى إلى الرشد، فإن آفتنا - نحن المسلمين - أننا عطلنا العقول وركنت عامتنا وخاصتنا إلى المنقول، فتوقف كثيرون عن إعمال العقول، وتوقف بعضهم عن السعى وإحسان العمل، واختلط التوكل بالتواكل، وامتزجت القناعة بالخمول، كما اختلطت العفة بالعجز، فتقدم الناس وتأخرنا، وتحركت الدنيا وتجمدنا.. ولا خير اليوم فى خطاب دينى لا يتصدى لهذه الثغرة، ولا يعالج هذا الخلل.

العنصر السادس: مداومة الحديث عن الماضى، والذهول عن الحاضر، والخوف من المستقبل

إن استقراءً سريعًا للخطاب الدينى السائد عندنا يكشف على الفور عن ظاهرة شديدة الغرابة تتمثل فى أن الجانب الأكبر، والوحيد أحيانًا، فى هذا الخطاب يتصل بالماضى ويكاد يقف بالسامعين والمشاهدين عند عصر النبوة وعصر الصحابة وقليل من التابعين.. حتى صار الإسلام فى تصور العامة هو تاريخ هذه الحقبة وحدها، وسيرة الخلفاء الأربعة الراشدين، وقد يضاف إليهم الخليفة الأموى العادل عمر بن عبد العزيز.. وتلك آفة بالغة الخطورة على جيلنا كله.. فقد التوت أعناق هذا الجيل وهو مشدود أبدًا إلى الوراء، منكفئ على الماضى، مشغول بالذات.. وحجتهم الحاضرة - ولا غناء فيها - أن من يقطع صلته بماضيه لا رجاء له فى مستقبله، وتلك حجة داحضة، أو هى كلمة حق يراد بها باطل، فإن أحدًا من العقلاء الأتقياء لا يقول بقطع الصلة بالماضى ولا يتصور - من حقه - أن يعرض عن جملة التراث، أو أن يهون من قدسية النصوص التى نزل بها الوحى على



رسـول الله صلى الله عليـه وسلم، أو أن يغض من فـضل صـحـابة رسـول الله صلى الله عليـه وسلم، الذين عـاشـوا مـعـه، وتلقوا منه الحكمـة، وتأسـوا بسـيـرته، وكـانـوا همـزة الوصـل بين عصره ومن جاء بعدهم... ولكن يبقى أن نذكر أمرين:

أولهمـا: أن الماضي ـ بكل مـا فيـه ـ ليس من صنعنا نحـن، وأمـجـاده مـاض نعـتـز به ولكن لا فضل لنا فيه.. ثم إن الماضي على امتداده ساحة هائلة اجـتـمـع فـيـهـا الحق والبـاطل، والهـدى والضـلال وتصـارع فـيـهـا العـدل مع الظلم، والإسـلام مـع الكفر والنفـاق.. ومن ثم فليس كل قديم نافـعًـا.. وليس كل مـا مضـى خيـرًا نجـتـره ونلتزم به واهمين.

ثانيهما: أن الاسـتـغـراق في الماضي يشـغل عن مـعـالجـة «الحـاضـر» واسـتـشـراف المستقبل والإعداد له والاحـتفال بأمره.. ولست أدرى كيف ينسى بعض الخطبـاء والمتحـدثين والمفتين أن يذهلوا عن السـرعـة الهـائلة التي تتـحـرك بهـا العلوم والمعـارف الإنسـانيـة بأشكالها وصـورها التي لـم تكن تخطر على بال الأقـدمـين.. وكـيـف يسـتطيع هؤلاء أن يعـزلوا عقـولهم ووجـدانهم ومعـهم عقول المخـاطبين والسـامعين عن الإيقاع السريع لحركة الحياة من حولهم.

لقـد آن الأوان لتكون النـغـمـة الغـالبـة على الخطاب الديني المعـاصـر دعوة للجيل كله، يرفع بها أصـابـعـه عن آذانه، ويزيل غشـاوة الرتابة والجمود عن عيونه ويشحذ الهمة لعمل كبير، وجـهاد طويل بخطو سريع يمد بها أبصـاره إلى المستقبل، ويرتحل ـ ولو قليلاً ـ عن الماضي الذى حصر نفسـه فيـه، ووقـع في أسره وهو يظن أنه يتقرب ـ بهذا كله ـ إلى الله.

وبعـــد..

فـهـذه وقـفـة ـ على طولهـا ـ سـريعـة مع الخطاب الديني المعاصر.. نؤكد بعدها من جديد، أننا لسنا غافلين عن جهود صادقة تبذل هنا أو هناك لترشيد هذا الخطاب، ولكن الحـقيقة التي لا نحب لأحد أن يكابر فيها دفاعًا عن نفسـه، أو اعـتـذارًا عن تقصـيـره، أو مـجـاملة لصـاحـب سلطان.. إن هذا الخطاب الديني يحـتـــاج إلى ثورة حقيقية عمادها الأكبر مزيد من العلم والفقه ومزيد من التوجـه لفهم علل الأحكام ومقاصـدها الكبرى.. ومزيد من مـعرفة الواقع المعقد الذى يحـيط بنا وبسـائر الناس من أهل هذا الزمان.. وبغير جـهد علمي صـادق يبذل على طريق هذه الثورة.. فإن الحـديث عن صـحـوة إسـلامـيـة، أو مشروع إسلامي للنـهـضـة لن يكون إلا فرقـعـة لفظية، وكلامًا مرسلاً لا غناء فيه، ولغوًا لا يصح به دين ولا تصلح به حياة.

العنصـــــر الســـــابع:
عـلاقـة المسلمـين بالغيـر

هذه القضيـة بالغة الأهمية، وعلى فـهمها الصحيح يتوقف مستقبل العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الإسلامي الواحد.. ومسـتقبل العـلاقات بين المسلمين وغيرهم من شعوب الأرض.. ومن المؤسف أن بعض نماذج الخطاب الإسلامي المعاصر تقع في أخطاء فادحة وهي تصف هذه العـلاقـة «لجمـاهيـر المسلمـين»، ويتمـثل الخطأ الأكبـر في إقامة سور نفسي واجـتمـاعي يحـاجـز بين المسلمـين وسـائر النـاس، وإقامـة سـور آخـر يحـاجـز بين المسلمين بعضـهم البـعض داخل المجتمع الواحـد.. فـتكون عـاقـبـة ذلك «مـحـاصـرة» المسلمـين داخل حـوزات مـغلقـة، تحـول دون تواصلهم مع غيرهم، وتتركهم في عزلة تضـر بهم وبالناس جميعًا.. وتمنح شرعية كاذبة للدعاوى التي تملأ الدنيا من حولنا هذه الأيام.. زاعمة أن الإسـلام يضع أتباعه في حـالة «جهاد ديني مقدس» متواصل الحلقات ضد من لا يدين بدينهم ولا يرى رأيهم، وأنـهم سـيظلون ـ لذلك غـرباء ـ عن مسـيرة الإنسـانيـة المعاصـرة.. وستظل الفـجوة قائمة وواسـعة بينهم وبين سائر الشعوب بسبب اعتناقهم لفكرة «الجهاد» وتفـسيرها تفسيـرًا يتسع يومًا بعـد يوم.. وبسبب إصرارهم على أنهم مـختلفون تمامًا عن سـائر الشعـوب، وأن عقـيدتهم وثقـافـتـهم لا تفسحـان مكانًا للاختـلاف.. ولا تحرصان على التعـايش مع «الآخـرين» في ظلال من المسـاواة والاعتراف المتبادل، والحوار الذى لا يحول دونه وجود الخلاف.

والحق أن قضية «العـلاقة بالآخر» تقع في نطاقين متميزين:

أولهما: النطاق الداخلي، أي خلاف المسلمين بعضـهم مع بعض، والآخر: علاقة المسلمين مع غيـرهم ممن لا يدينون بالإسـلام، وينتسـبون لعقائد وثقافات أخرى.

فأما الأمر الأول: فيقتضي ملاحظة أن الفرد المسلم ليس وصيًا على الفرد المسلم الآخر، وأن اخـتـلاف الأفكار والمواقف العـمليـة بين أفراد المسلمـين، وتحت مظلة الدين الـواحـد الذى يدينون به، أمر وارد تمامًا، وهو ـ في النهاية ـ نافع لمجـمـوع الأمـة.. ولا يجـوز أن تضـيق به الصدور أو أن يكون سـبيلاً للتفرقة والقطيعة وتبادل الاتـهـام، كمـا أنه لا يقتضي ـ أبدًا ـ أن يكون أحد أطرافه مؤمنًا، والآخر فاسقًا ومارقًا.. إذ الصواب والخطأ في الاجتهاد غير الاستقامة والخطيئة. والقرآن يذكرنا ـ وقلما نتذكر ـ بأن وحـدة الأمـة لا تحـول دون وقوع الخـلاف بين أفـرادها، بل يظل المؤمنون ـ رغم خـلافـهـم ـ «كالبنيـان يشـد بعضـه بعضـا». وحتى إذا اسـتفحل أمر الخـلاف ووصل إلى حـد الاقتـتال المنهي عنه، فإن الفريقين المختلفين يظلان «إخوة» ويظلان «مؤمنين». ﴿وإن طائفـتـان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ (٩ـ الحجرات) لذلك نلح في الرجاء على المشتغلين بالخطاب الإسلامي أن يراجـعـوا أنفسـهم وأن يـعـيـدوا التـأمل في آيات الكتـاب الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ليـعـرفـوا ـ من جديد ـ كـيـف اعـتـبـر الإسـلام التنوع وتعـدد الآراء واختلاف الثقافات نعمة تستوجب شكرها «بالتعـارف» الذى يشير إليـه قوله تعـالى: ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ (١٣ـ الحجرات) ثم ليقفزوا ـ بعد ذلك ـ قرونًا من الزمان ليسمعوا الإمام أباحنيفة وهو يقول: «علمنا هذا رأى وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بخير منه قبلناه». ثم ليسمعوا الإمام الشافعي وهو يقول: «رأينا صـواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصـواب».. وليذكروا بعد ذلك أن الصحابة وهم حواريو النبي صلى الله عليه وسلم الذين لازمـوه وأخذوا منه الدين والعلم والعمل، قد اختلفوا في أمور عديدة، وأن التابعين من بعدهم كانت بينهم خلافات في الرأى أكثر من اختـلافات الصحابة.. وأن الأئمة أصحاب المدارس الفقهية الكبرى في تاريخ التشريع الإسـلامي.. كانت لهم أصولهم الفقهية، واجتهاداتهم الخاصة بهم في فروع الفقه وفيما انتهوا إليه من رأى.. فما ذكر أحد منهم أحدًا بسوء.. فضلاً عن أن يتهمه في خلق أو دين.. إن هذا السجل المشرف أثر من آثار البصر الدقيق بالأصول الاعتقادية الكبرى للإسلام وعثرة من عثرات الإيمان بأن الحكمة ليست حكرًا على أحد.. وإنما هي موزعة بين الأفراد، مبثوثة فيهم جميعًا.. وأن على طالبها أن يبحث عنها عند الآخرين ولو كان هؤلاء الآخرون غير داخلين في الإسلام بحدوده الجغرافية أو التاريخية.

أما غير المسلمين فقد علمنا القرآن الكريم أن نجادلهم بالتي هي أحسن ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (٣٤ـ فصلت) كما بين لنا أن العدل معهم، والبر بهم (والبر تقديم ما يجاوز حد العدل) هو أقوم السبيلين.. ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ (٨ ـ الممتحنة).

وحـين يتـصـل الأمـر باخـتـلاف العـقـائد الدينيـة، فإن القـاعـدة الذهبيـة الكبرى التي لا يتصور ورود النسخ عليها أو تبديلها هي قوله تعـالى: «لا إكراه في الدين» وهي قـاعـدة بين القرآن مظهرها العملي بقوله تعـالي على لسان المؤمنين: ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ (٢٥ـ سبا). كما تردد صداها في آيات أخرى عديدة: يقول تعالى لنبيه: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (٩٩ـ يونس) ويقول له: ﴿فذكر إنما أنت مذكر (٢١) لست عليهم بمسيطر﴾ (٢١:٢٢ـ الغاشية)

ويبـدو أن الإحـسـاس المرير بالـتـراجـع السيـاسـي والاقتصـادى والعسكرى للشعوب الإسلامية المعاصرة قد دفع كثيرًا من الدعاة إلى التورط في تحريض المسلمين على مـخـاصـمـة الدنيا كلها، والدخول مع الناس «الآخرين» في مـعـركـة مـواجـهـة ورغـبـة في الاسـتـبـعـاد والإقصـاء.. ولازلت أذكر ـ في دهشة يمازجها الأسف الشـديد، خطيبًا أديت خلفـه صـلاة الجمعة منذ عشرين سنة، ختم خطبته بدعاء على «الكافرين» أن يحصيهم الله تعالى عددًا، وأن يهلكهم بددًا، ويجـعلهم وأمـوالهم غنائم للمسـلمـين.. ثم بدا له أن يفـصل اللعنة التي صبها عليهم مستعرضًا علمه بأسماء بعض البلاد، فأخذ يذكرهم بجنسيـاتهم وأقطارهم، حتى لم يترك بلدًا من البلاد الأوروبية إلا وقد أدخله باسمه في «لعنته» العامة التي ختم بها خطبته.

إن هذا كله انـحـــراف صـــارخ عن جـــادة الإسلام الصـحـيح ومـخـالفـة واضـحـة لسنة رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وسـيـرته وأدبه في الدعوة إلى الله.. يشـهـد بهـذا مـا تعلمناه من أن بعض أصحابه سالوه أن يدعو على المشركين فـرفض قـائلاً: «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة». وبعد هذا كله، فقد تغير الزمان، وتبدلت أوضاع الدنيا كلها، ولم يعـد المسلمـون «متحـازين» وحـدهم في بلد واحد، ولم يعد غير المسلمين.. هم الآخرون «متحازين» في أقطار لا يدخلها أو يقيم فيها المسلمـون.. وسقطت بهـذا التطور الكبيـر ترتيبات وصيـاغات صنعها الفقهاء في عصر غير العصر وملابسات غير ما يحيط بنا اليوم من ملابسات.. فلم يعد لتقسيم الدنيا إلى دار حـرب ودار إسـلام ذات المعنى الذى كـان له.. ولسنا اليوم ولا قبل اليوم ـ نحن المسلمين ـ في حالة قتال دائم مع غير المسلمين.. وإنما نحن وإياهم شركاء في مسيرة واحدة، نتبادل ثمرات الخبرة والتجربة، ونوظف تنوعنا في العقائد والثقافات لما ينفع الناس. متعاونين فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، ملتزمين، كلٌ في ناديه، بثوابت ما يؤمن به، وليت فقهاءنا وأهل الاجتهاد فينا يقدمون للأمة صياغات جديدة تشرح العلاقات الجديدة بين المسلمين وغير المسلمين.. بما يستحق أن نسميه «فقه التعايش والاتصال» بديلاً عن فقه «العزلة والانفصال»...■

يحتاج الدعـــاة والخطبـــاء
والمتحـــــــدثون والمفتـــــــون
إلى أن يعرفـــوا معـــــرفة لا شـــك فيهـــا،
ولا مكابرة معهـا أو جـدال.. أن شـريعة الإسـلام قد بنيت
على التيســـير ورفــع المشقة ورفـع الحـرج،
ولـــم تـبن أبـداً عـــلى التعســـير
والمشـــــقة والحـــــرج

هـامش

(١) هو الدكتور يوسف القرضاوى في كتابه: «نحو فقه ميسر معاصر» مكتبة وهبة ص ٢٦.

فوكوياما يتحدث إلى:
وجهات نظر

عن الإسلام .. والأصولية ..

محمد السطوحي

■■ منذ نحو خمسة عشر عاما، كان نائب وزير الدفاع الحالي بول ولفويتس يتحدث كمن يقرأ المستقبل، فقال: «إن فوكوياما الصغير (٣٥ عاما في ذلك الوقت) سيكون أول وزير خارجية أمريكي من أصل ياباني».

وإلى الآن لم تتحقق نبوءة ولفويتس، وربما تثبت السنوات القادمة ذلك إن كانت صحيحة. غير أن الدلالة الأهم لهذه العبارة، هي ما تكشف عنه من جوانب أساسية في شخصية فرانسيس فوكوياما. فهو ليس مجرد منظر، يمضي وقته في القراءة والكتابة، ثم يذهب لممارسة لعبة الجولف. لقد استهل حياته العملية بعد حصوله على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة هارفارد، بالعمل في وزارة الخارجية الأمريكية كنائب لمدير إدارة التخطيط السياسي. وشارك أثناء هذه الفترة في بداية الثمانينيات ضمن الوفد الأمريكي في المحادثات المصرية الإسرائيلية، إلى أن توقفت بعد الغزو الإسرائيلي للبنان. ورغم أن فوكوياما ركز بعد ذلك على الكتابة، والعمل الأكاديمي، إلا أن تأثيره وصلاته لم تنقطع يوما عن العمل السياسي ومؤسساته في الكونجرس أو وزارة الخارجية، أو البيت الأبيض الذي عين فيه مؤخرا ضمن مجلس استشاري للرئيس بوش لاقتراح السياسات الخاصة بقضايا الهندسة الوراثية.

صحيح أن فوكوياما لم يصبح بعد وزيرا للخارجية كما تنبأ ولفويتس، إلا أن البعض يعتقد أن دوره في تشكيل السياسات الخارجية الأمريكية، بل والغربية بشكل عام، ربما يفوق في تأثيره بعض من تولوا هذا المنصب بالفعل. فقد شارك في صياغة نوع من التأصيل الفكري، أو الإطار النظري لتلك السياسات، في وقت كان فيه المسئولون الأمريكيون يبحثون عن إطار نظري جديد يحكم عمل مؤسساتهم وتوجهاتها، بعد أن تهاوت المنظومات الفكرية القديمة بانتهاء الحرب الباردة.

واعتبر كتاب فوكوياما الأخير «نهاية التاريخ، والإنسان الأخير» مع كتاب صامويل هنتينجتون الشهير «صراع الحضارات» أهم ماظهر من مؤلفات خلال العقد الماضي لتقديم هذا الإطار الفكري المفقود، وإن كانا من منظورين مختلفين، بل و متناقضين. غير أن النظرة الأكثر تفاؤلا في كتاب فوكوياما واتفاقها مع الروح التي سادت تلك الفترة مع نهاية الحرب الباردة، جعلته الأكثر تأثيرا، حتى إن خبيرا استراتيجيا مثل توم بلو وصف «نهاية التاريخ» بأنه أهم ما كتب خلال العقد الماضي على الإطلاق.

وقد تعرض الكتاب منذ صدوره لانتقادات عديدة، إلا أن فوكوياما ومؤيديه أصروا على أن التطور البشري بلغ قمته بالليبرالية الديمقراطية، بمفهومها العلماني كما هو مطبق في الغرب، وبما يعنيه من تعددية، وحريات مدنية ودينية، واقتصاد السوق الحرة.

ثم جاءت أحداث سبتمبر الماضي وما أعقبها من حرب ـ لا تزال مستمرة ـ ضد الإرهاب، بكل ما تحمله من مخاطر واحتمالات. وقد اعتبر البعض تلك الأحداث نهاية لـ «نهاية التاريخ»، لتبرز بشكل أكبر النظرية المقابلة لهنتينجتون المعروفة بصراع الحضارات.

وقد تمسك فوكوياما بنظريته حتى الآن، باعتبار أن الليبرالية الديمقراطية لا تزال هي المحرك الرئيسي للسياسات العالمية. وحقيقة أن فوكوياما لم يتجاهل تماما ذلك «التحدي الإسلامي» في كتابه «نهاية التاريخ» إلا أنه لم يجد فيه مايهدد الليبرالية الديمقراطية، لاعتقاده بانحسار جاذبية المنظور الإسلامي في بعض الدول الإسلامية، كما أنه لم ير مايمنع المواءمة بين الإسلام كدين، وبين مفاهيم الليبرالية الديمقراطية.

إلا أنه نشر مؤخرا مقالا مهمًا في مجلة «نيوزويك» ركز فيه على ما وصفه بالإسلام الراديكالي أو المسلح، أو الفاشية الإسلامية، باعتبارها تهديدًا خطيرًا تنبغي مواجهته وهزيمته.

وعندما يصدر هذا الكلام الخطير عن مفكر في ثقل وتأثير فوكوياما، فلابد من الوقوف عنده، ومناقشته، خاصة أننا بدأنا بالفعل نرى انعكاسات له في منظور وسياسات إدارة بوش، وهي تتجه لتوسيع الحرب ضد الإرهاب فيما بعد أفغانستان.

لذلك اتصلت بفرانسيس فوكوياما، أو فرانك كما نناديه منذ بدأت معرفتي به عندما كان أستاذا لي بجامعة جورج ماسون في منتصف التسعينيات. وقد رحب على الفور بهذا اللقاء الذي تمنينا فيه معًا أن يكون بداية لحوار حقيقي وجاد عبر المحيط. فالفكرة الآن لاتقل تأثيرا عن السلاح، وتجاهلها أصبح ترفا لا نقدر عليه. فمن الضروري الآن أن نشارك في حوار فعال، وناضج، بعيدا عن التشنج و الانفعالات، لايعمينا فيه اعتزازنا بانفسنا، ورغبتنا في (إفحام) الآخرين، عن رؤية نقائصنا وعيوبنا والتعامل معها بصراحة وموضوعية.

بقي أن أشير إلى أن مقال فوكوياما الأخير بمجلة نيوزويك بعنوان «هدفهم العالم المعاصر» قد صحبته صورة لأطفال فلسطينيين وهم يلقون الحجارة، بما في ذلك من دلالات ذات مغزى، ولا تتفق مع مضمون المقال ذاته. ورغم معرفتي بأن نشر الصورة هو قرار محرر المجلة في المقام الأول، إلا أنني سألت فوكوياما في البداية عن رأيه في اختيار الصورة، وقد وافقني الرأي في أنها لم تكن موفقة ولا تعبر عن مضمون المقال، مشيرا إلى أن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي يمثل قضية مختلفة.

وبعد هذا التوضيح الواجب، انتقلنا مباشرة إلى صلب الموضوع: الإسلام، والغرب، والحداثة حيث بدأ المفكر الأمريكي بتوضيح رأيه في القضية بشكل عام:

ـ فوكوياما: أنا أرى أن التوفيق ممكن بين الإسلام كدين، وبين الحداثة. فالإسلام يمثل دينًا ونظامًا ثقافيًا معقدًا للغاية. وقد أثبت قدرته على التوافق مع الحداثة في عدد كبير من المجتمعات، ولدى كثير من الأفراد، ولا أرى هناك سببا يمنع وجود شكل «حديث» للإسلام. غير أن «نوع الإسلام» الذي يروج له الوهابيون في السعودية، وأسامة بن لادن وحركة طالبان، لا يمكن أن يتفق مع الحداثة، وأنا أعتقد أن القضية الأساسية هي إمكانية وجود دولة علمانية، ولكن يجب أن نفهم أن العلمانية ليست فكرًا موروثًا في الحضارة الغربية، فمنذ خمسة قرون لم تكن هناك علمانية في أي مجتمع مسيحي غربي، كان هناك أمراء وأديان للدولة. لكن المجتمعات الغربية تعلمت المبادئ العلمانية في إطار عملية التنوير نتيجة الحروب الدينية التي اشتعلت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والتي تقرر بناء عليها فصل الدين عن مجال السياسة، وفي اعتقادي أن هذا الأمر ـ ليس فقط ممكنا ـ لكنه أيضا ضروري ومطلوب في إطار التقاليد الإسلامية. فالإسلام السياسي أوالمسيس يؤدي إلى الصراع المستمر، كما أن العلمانية يمكن توفيقها مع الإسلام، وهي أيضا ضرورية لتحديث المجتمعات الإسلامية، كما حدث في تركيا، ومصر وبعض الدول التي قبلت هذا المبدأ الأساسي للحداثة.

● لكن كما تعرف فإن التجارب التاريخية للإسلام والشعوب الإسلامية تختلف جوهريا عن تجارب الشعوب الغربية المسيحية في تحولها إلى العلمانية، وبالنسبة لكثير من المسلمين فإن الإسلام كدين لا يقف عند حدود العبادات أو المبادئ الأخلاقية، بل يتجاوزها إلى تحديد مفاهيم عامة لنظام الدولة، وأسلوب إدارة شئون الحكم. وهذا في ذاته يجعل من الصعب تحقيق هذا الفصل بالأسلوب الذي تم به في المجتمعات العلمانية الغربية.

ـ أعتقد أن هناك فارقا بين العلمانية، وبين معاداة (الإكليركية) كتعبير عن الدين، فالدين يمثل مكونا أساسيا للمجتمع، ولابد أن يكون له دور في تشكيل السياسة وفي تحديد أسلوب حياة الناس داخل المجتمع. لكن المشكلة التي تواجهها كل المجتمعات الحديثة، هي التنوع الكبير بداخلها. وحتى في العالم الإسلامي هناك فروق بين السنة والشيعة، وبعض الطوائف الإسلامية الأخرى، ولابد أن تكون هناك طريقة للتعامل مع هذا التنوع. ولاشك أن هناك أشكالا ووسائل سياسية تتواءم مع ما يفرضه الإسلام كدين. ولكن يبقى هناك مبدأ أساسي يتطلب فصلا معينا بين السياسة والدين، حتى في المجتمعات الإسلامية، وأنا لا أستطيع أن أحدد لك نوعية المؤسسات، أو أن أرسم الخطوط الفاصلة بين الإسلام والسياسة، فهذا أمر متروك لكل مجتمع يقرره لنفسه. لكن هذا الأمر يمثل قضية أساسية لنا جميعا.

● لكن المشكلة أنه إذا أخذنا دولة مثل تركيا، التي ذكرتها كدولة قبلت العلمانية كمبدأ للحداثة، نجد أنها تجاوزت مرحلة الفصل بين الدين والسياسة، إلى ما يمكن أن نعتبره نوعا من الرفض أو المعاداة لأشكال التعبير عن الدين، التي يفترض أن تصان حتى في المجتمعات العلمانية، وأنا لا أدري إن كان هناك نموذج يحتذى به بالشكل الذي تتحدث عنه في الفصل بين الدين والسياسة في الدول الإسلامية، بما يرضي دعاة الطرفين.

ـ لقد كان هذا هو الرأي الذي عبرت عنه في محاضرة ألقيتها أمام مجموعة من الطلبة الأتراك هنا في واشنطن، وقلت لهم إن الأتاتوركية ليست مجرد علمانية لكنها

أنا أرى أن التوفيق ممكن بين الإسلام كدين، وبين الحداثة. فالإسلام يمثل دينا ونظاما ثقافيا معقدا للغاية، وقد أثبت قدرته على التوافق مع الحداثة فى عدد كبير من المجتمعات

تنطوى على معاداة للإكليركية أو الدين، وقد تعرضت منهم لوابل من الانتقادات، حيث أكدوا أن الأمر ليس معاداة للدين، ولكن منع تسييس الإسلام. و أنا لا أريد أن أتخذ الآن موقفًا صارمًا بشأن هذا الموضوع، لكنك محق فى أن هناك نوعًا من العلمانية التى تتحول إلى معاداة الدين. ويمكنك أن ترى ذلك فى الولايات المتحدة، فهناك من يعادون أى شكل من أشكال التعبير عن الدين فى الحياة العامة، وأنا شخصيا أعتقد أن من غير الممكن أو الملائم وجود هذا النوع من كبت الدين، سواء فى المجتمعات الإسلامية أو المسيحية الغربية، فلابد أن تتاح الحريات الدينية بشكل حقيقى وأن يسمح للناس بالتعبير عن معتقداتهم الدينية، ولكن عندما يرتبط دين معين بسلطة الدولة، فإن هذا يمثل مشكلة حقيقية.

● اللافت للنظر أنك عبرت قبل ذلك عن اعتقادك بأن إيران هى المؤهلة لقيادة العالم الإسلامى لحل هذه المعضلة، كيف يكون ذلك؟

- إن إيران هى التى قادت العالم الإسلامى لإحياء الأصولية منذ الثورة ضد الشاه عام ١٩٧٨، ووصول آية الله خومينى للحكم. وهناك دولتان عاشتا فى ظل شكل صارم للإسلام الأصولى، هما إيران وأفغانستان، ويمكن القول إنه لا أحد ممن عاشوا هذه التجربة يريد أن يستمر فيها، فالناس قد يعتقدون برغبتهم فى ذلك قبل الثورة، لكن بعدها يتبين لهم وجهها القمعى، وتقييدها لحرية المرأة، وحرية الصحافة، وأشكال التعبير الأخرى. وفى إيران الآن نجد أن سبعين فى المائة من السكان تحت سن الثلاثين، ولا أجد بينهم تأييدا لاستمرار هذا النظام الثيوقراطى، والاحتمال الأكبر هو أنه مع نمو هذا الجيل سوف تتحول إيران إلى الليبرالية. وبما أن إيران هى التى قادت الحركة الأصولية الإسلامية، فإنها ستكون فى وضع يمكنها من توضيح إمكانية وجود مجتمع إسلامى أكثر حداثة.

● ربما يكون ذلك صحيحا لو أن تلك الحداثة لم تكن انقلابًا كاملاً، أو سيرًا فى الاتجاه المعاكس لكل ما جرى خلال العقدين الماضيين، فهل ترى ذلك ممكنًا؟

- لا أعتقد ذلك، وفيما أراه من اتصالاتى مع الإيرانيين، فهم ليسوا راغبين فى نظام معادٍ للإكليركية أو قمع الدين، لكنهم يريدون الاحتفاظ بهويتهم الإسلامية فى ظل مجتمع لا يسيطر عليه رجال الدين، بل يكون مجتمعا أكثر حداثة، به حكومة أكثر تكنوقراطية، ومؤسسات حديثة مع المزيد من التعددية والحريات.

● لكن تجربة الإسلاميين فى كل من إيران وأفغانستان، ربما لا تكون كافية بذاتها للحكم. فكما تعلم أن القضية ليست فقط فى تولى الإسلاميين السلطة، ولكن أيضا فى الوسيلة التى يصلون بها إلى الحكم، فهى إلى حد كبير تحدد نوعية أولئك الإسلاميين، فلو كانت من خلال ثورة أو انقلاب عسكرى، فإننا بالتأكيد سنرى تلك النوعية من الإسلاميين التى تحدثت عنها. لكن ماذا عن الإسلاميين الذين يتعايشون داخل المجتمع المدنى، ويقبلون بالمفاهيم الأساسية للديمقراطية من حيث التداول السلمى للسلطة من خلال انتخابات تحدد إرادة الشعب؟ إننا لم نر بعد تجربة حقيقية مكتملة من هذا النوع تسمح لنا بالحكم المستند إلى تجارب الواقع، وليس المبنى على مخاوف.

- هذا صحيح..وقد كانت هناك حالة الجزائر التى كان يمكن فيها للإسلاميين أن يصلوا إلى السلطة عن طريق الانتخابات، ولكن هذا لم يحدث نتيجة الضغوط الخارجية وتدخل الجيش. وأنا أميل للقول إن هذا كان خطأ، وأنه كان من الأفضل السماح لهم بالوصول إلى الحكم. فمن الأشياء التى تتعلمها عندما تتولى السلطة، هى أن عليك الوصول إلى صيغ توفيقية بشأن القضايا المعروضة، كما أن دخول هذه الأحزاب فى العملية السياسية يقلل بطريقة ما من جاذبيتها، وهذا ما حدث مع حزب الرفاه فى تركيا. وبصفة عامة فأنا أعتقد أن من المفيد السماح للأحزاب الإسلامية المستعدة للمنافسة الديمقراطية أن تفعل ذلك، مادامت تلتزم بقواعد تلك المنافسة. إلا أن ما يخشاه الكثيرون، هو أن أغلبهم من الراديكاليين، وأنهم لن يسمحوا بتكرار الانتخابات التى وصلوا عن طريقها إلى الحكم، ولن يسمحوا بالتعددية، وهذا قلق حقيقى، وهو يفسر تدخل الجيش التركى ضد حزب رفاه لإبعاده عن مجال السياسة التركية.

● لكن أليس ذلك انتهاكا للمبادئ الديمقراطية الأساسية، حتى وإن كان يتم باسم الدفاع عن تلك المبادئ؟

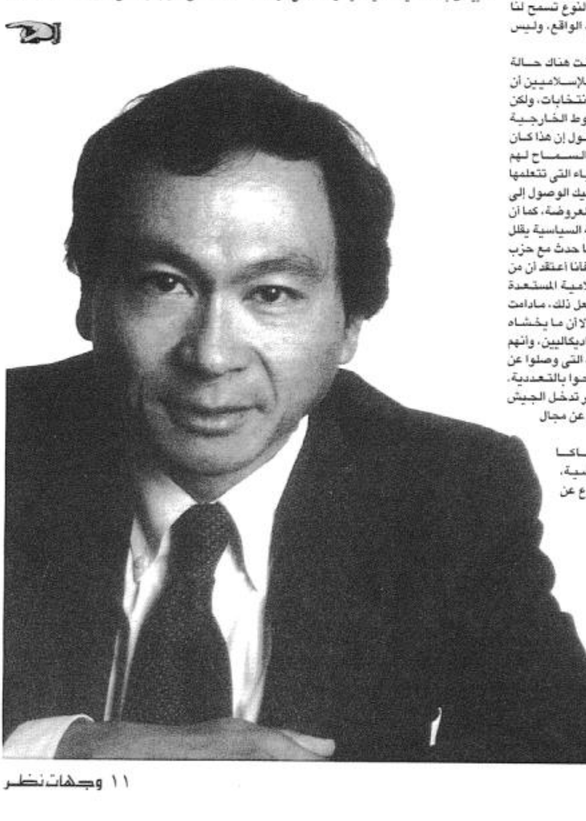
- هذا صحيح تمامًا، وهذه مشكلة صعبة، لذلك فأنا أعتقد أن من الأفضل على المدى الطويل السماح بهذا النوع من التعبير الديمقراطى، حتى لو أدى ذلك إلى بعض السياسات الراديكالية أو كبت للحريات على المدى القصير، لأن هذا سيؤدى فى النهاية إلى نوع من النضج الديمقراطى فى تلك المجتمعات، بما يسمح بحريات التعبير.

● هل تعتقد أن فى المنظور الفكرى للإسلاميين ما يحول دون قدرتهم على التطور الديمقراطى، بما يسمح بحرية التعبير واستيعاب الجماعات والتوجهات المختلفة أو المتناقضة؟

- هناك قضيتان : الأولى هى الديمقراطية، والثانية هى الليبرالية، وهى حرية الناس فى أن تكون لديهم أنظمة تعددية تسمح لهم بالمشاركة. والمشكلة مع الإسلاميين أو الراديكاليين الإسلاميين، هى أنهم ديمقراطيون بمعنى أنهم يقبلون بإرادة الشعب، لكنهم ليسوا ليبراليين من حيث الإيمان بالتعددية السياسية والتسامح، وهذا ما حدث فى إيران، فقد كانت أكثر ديمقراطية فى ظل آية الله خومينى عنها أيام الشاه، الذى لم يسمح بالانتخابات. إلا أنه فى عهد الخومينى أصبح المجتمع أقل تسامحًا وأقل ليبرالية فتم اضطهاد البهائيين ومن لا يشاركونهم معتقداتهم الدينية. وهنا تكمن المشكلة مع الإسلاميين، فهى ليست كونهم غير ديمقراطيين، ولكن أنهم لايسمحون بأى تعددية، بينما المطلوب هو وجود الحريات، والديمقراطية، لكى تتمكن المؤسسات السياسية من العمل بشكل سليم.

● لكن، على فرض صحة ذلك لدى بعض الإسلاميين، هل ترى فى الإسلام - كمنظومة فكرية، ما يتعارض مع هذه المفاهيم الديمقراطية والليبرالية؟

- بالتأكيد لا فيما يتعلق بالديمقراطية، ولا أعتقد أن الإسلام كدين فيه ما يتعارض مع ذلك، لكن لست أنا من يتحدث عن هذا الموضوع، فهذا نقاش ينبغى أن يدور بين المسلمين أنفسهم حول حجم التعددية ودرجة التسامح الموجودة فى مجتمعاتهم، وأنا



والحداثة

فوكوياما

عن الإسلام.. والأصولية.. والحداثة

يمكنني أن أحدثك عن آرائي ونصائحي من الخارج، غير أن هذه في الأساس قضية يتعين على المجتمعات الإسلامية أن تواجهها. لكن بناء على ملاحظاتي الشخصية فإنه يمكن أن تكون إسلامياً وفي الوقت نفسه متسامحًا وتؤمن بالتعددية.

● لقد أثرت تساؤلات كثيرة في مقالك الأخير بمجلة نيوزويك بشأن الدول العربية والإسلامية، وأشرت إلى التراجع الكبير في كل الدول العربية وأغلب الدول الإسلامية عن التحرك في اتجاه الديمقراطية كما حدث في كثير من الدول الآسيوية أو في أمريكا اللاتينية، وذكرت أيضا أنه لم تفلح دولة عربية واحدة في وضع أسس التنمية الاقتصادية السليمة، أو اتباع السياسات التي تدمج اقتصادياتها في الاقتصاد العالمي بالشكل الذي رأيناه في تايوان وكوريا الجنوبية، وتشيلي والمكسيك وغيرها، وأنا أذكر أيضا أنني عندما كنت أدرس المؤسسات السياسية معك طرحت علينا هذا الموضوع وطلبت رأيي الشخصي فيه، لكني لم أعرف أبدا رأيك في تفسير هذه القضية المعقدة، وإن كان تكرار طرح السؤال في ذاته قد يوحي باتجاه الإجابة عنه. لذلك فإنني أود أن أستمع منك الآن لرأيك الشخصي.

- لقد شغلني هذا الموضوع لفترة طويلة، وأنا بدأت بدراسة الاتحاد السوفيتي والحركات الشيوعية، وكان من الأشياء التي لاحظتها في آسيا وجود أشكال عديدة من الأحزاب الشيوعية القوية التي تمكن بعضها من الوصول إلى الحكم في الصين وفيتنام، وأماكن أخرى. أما في الشرق الأوسط فكانت هناك بعض الأحزاب الشيوعية المتفرقة التي لم يتمكن أي منها من الوصول إلى السلطة باستثناء اليمن الجنوبي لفترة قصيرة نسبياً. وقد تساءلت كثيرًا عن سبب ذلك، وأعتقد أن الإسلام هو أحد الأسباب التي منعت وجود أحزاب مناهضة عسكرياً للإكليركية مثل الأحزاب الشيوعية، فكان ذلك تعبيرًا عن التأثير الواضح للدين. لكن يبدو لي أن ذلك أيضًا كان أحد العوامل التي ساعدت شرق آسيا على التحديث بسرعة أكبر من الدول الإسلامية. ففي شرق آسيا لا يوجد دين بالشكل المتعارف عليه في أوربا أو الشرق الأوسط. فهناك بعض التقاليد الأخلاقية مثل الكونفوشية، لكن بشكل عام هناك دول علمانية، مع درجة عالية من التسامح الديني. فهذه الدول لم تنشغل بصراعات داخلية أو بعنف طائفي بسبب الدين، لقد تصارعوا لأسباب أخرى. غير أن الدين لم يكن قضية بالنسبة لهذه المجتمعات. أما في الشرق الأوسط فإن إنشاء الدولة العلمانية كان أكثر صعوبة، كذلك فإن الإسلام الراديكالي كان في اعتقادي إحدي العقبات أمام تحقيق قدر من الديمقراطية، في ظل التخوف من أن وصول الإسلاميين إلى الحكم بوسائل ديمقراطية، سيؤدي إلى تراجع العملية الديمقراطية، وقد كان ذلك أحد أسباب تعثر التنمية السياسية في عدد من الدول الإسلامية.

● لكن حتى إذا سلمنا جدلاً بكل ذلك، ألا ترى أي تأثير إيجابي للإسلام أو للقيم الدينية التي يمكن أن يستفاد بها في عملية التنمية السياسية والاقتصادية لتلك المجتمعات كما حدث بالفعل في عدد من الدول الإسلامية الآسيوية؟

- إنني لا أعني بذلك أنه مجرد تأثير سلبي، فهناك عدد من الدول الإسلامية التي كانت قادرة على التحديث، منها ماليزيا على سبيل المثال، فقد كانت في فترة ما، واحدة من أسرع الدول نموًا في العالم، وكذلك إندونيسيا، التي تمكنت من تحقيق إنجازات كبيرة مع احتفاظها بهويتها الإسلامية. فمن الواضح أنه لا توجد مشكلة هنا وأعتقد أن الإسلام يمكن أن يأتي بحلول مبتكرة وخلاقة للتوفيق بين المعتقدات الدينية والمؤسسات العصرية. وكتابي الأخير *The Great Disruption* يتناول قضية الأسرة والتفكك الاجتماعي الذي يحدث في المجتمعات الغربية. وفي جوانب عديدة نرى أن المجتمعات الإسلامية أكثر تماسكًا، وبها معدلات أقل للجريمة، فهناك أمور إيجابية عديدة في تلك المجتمعات.

● لقد ذكرت في مقال لك حول هذا الموضوع إنه إذا استندت السياسة لشيء مثل الدين فإنه لن يحدث أي نوع من السلام المدني، وفي اعتقادي أن هذه عبارة أو حكم قوي، وأود أن أعرف مبرراتك للوصول إليه.

- إنه بيان يستند للتجارب التاريخية، في مجتمعات عديدة، فمن الممكن أن يكون هناك مجتمع صغير، مثل القبيلة أو مجموعة منعزلة من الناس، وأن تعيش في ظل دين واحد، بدون مشاكل لسنوات ولأجيال عديدة. ولكن من المستحيل تقريبًا أن نتصور مجتمعًا حديثًا به مثل هذا التجانس أو التماثل الديني لأنه يتعارض مع طبيعة المجتمع الحديث، الذي يعيش فيه عدد كبير من السكان، لهم آراء متنوعة، وفي أي إطار فإن هذا المجتمع لابد أن يفرز خلافات في الآراء والمواقف، حتى في ظل التقاليد المشتركة، فهي لابد أن تنقسم إلى فروع متعددة، وهكذا .وعندما تسيس الدين، فإن هذا سيقود إلى صراع سياسي، وهذا هو الهدف الأساسي للعلمانية، فهي تقول إننا لن نتفق أبدا على مبادئ المعتقدات الدينية، فعلينا إذن أن نضعها بعيدا عن السياسة، وأن نتفق على أنه لا اتفاق بيننا بشأنها، لكن أن يكون ذلك في إطار الحياة الخاصة لكل منا، وليس كموضوع للصراع السياسي .أما الدولة غير العلمانية فتقتضي أن يعتنق الجميع نفس المعتقدات الدينية.

● لكن حتى في الدولة الدينية، يمكن وجود معتقدات دينية أخرى مخالفة؟

- صحيح طبعا، كان تكون هناك أديان أساسية ثابتة، لكن مع وجود مبدأ التسامح الديني، أما بالنسبة لكثير من الإسلاميين الراديكاليين فهذه ليست القضية، إنهم لا يريدون التسامح مع الأديان الأخرى، بل يريدون أسلمة المجتمع بما يتفق مع رؤيتهم الخاصة للإسلام، وهذا ما يؤدي إلى الصراع.

● إن التجربة التاريخية للإسلام، تؤكد أيضا أن أصحاب المعتقدات المختلفة يمكن أن يعيشوا بسلام في مجتمعات إسلامية بدون مشاكل، أليس ذلك صحيحا؟

- بالتأكيد، لذلك فإنني أقول إنه لا يوجد شيء جوهري في الإسلام يفرض تلك الأرثوذكسية غير المتسامحة، فمثلا النظام العثماني : كان متسامحًا تمامًا وسمح للجماعات الدينية المختلفة بالاستمرار في ممارساتها الدينية، فالإسلام ذاته لا يمنع ذلك، لكنها بعض التفسيرات الخاصة بالإسلام.

● أود أن أتوقف هنا عند قضية الأصولية الإسلامية، صحيح أنها الآن تسلط عليها الأضواء لارتباطها بأحداث سبتمبر الأخيرة من الهجوم على مركز التجارة العالمي في نيويورك والبنتاجون في واشنطن، وما أعقب ذلك من حرب في أفغانستان، والحملة ضد الإرهاب، لكن هناك أيضا الأصولية المسيحية، والأصولية اليهودية، وغيرها من الأشكال الأصولية، التي تحدثت عنها في كتابك «نهاية التاريخ» فهل ترى فيها مشاكل مشابهة لتلك التي تراها في الأصولية الإسلامية؟

- أعتقد أن أغلب أشكال الأصولية معادية للحداثة، لكن هناك أيضًا فروقًا بينها، ومن الخطأ وضعها جميعا في سلة واحدة، لأن العامل الاجتماعي يميز بينها. وعلى سبيل المثال فإن إحدي أكبر الحركات الثقافية الجارية الآن، هي تحول الكاثوليك في أمريكا اللاتينية إلى البروتستانتية (الإنجيلية) وهناك أعداد هائلة من البعثات التبشيرية وغيرها تشارك في تلك العملية، لكن لأنه لم يتم تسييس هذا الشكل من الإنجيلية البروتستانتية، فإنه لم يؤد إلى راديكالية سياسية، وكان لها في الحقيقة تأثير حميد على قضايا التنمية الاقتصادية وغيرها. وفي المقابل فهناك صعود الأصولية الهندوسية في الهند، مما أدى إلى هدم المسجد الشهير في أيوديا.. وما يحدث أيضا في سريلانكا بين التاميل والهندوس.وهي كلها تمثل هذا النوع من تسييس الدين، وهو أمر خطير للغاية.

● في هذا الإطار، هل ترى هناك ما يميز الأصولية الإسلامية عن غيرها من الأشكال الأصولية الأخرى؟

- لا أدري إن كان هناك ما يميز الأصولية الإسلامية بشكل خاص، فجميع الحركات الأصولية ترفض الدولة العلمانية، أو الفصل بين الدين والسياسة.

● عندما تحدثت عن الراديكاليين الإسلاميين قلت إنهم يمثلون من عشرة إلى خمسة عشر في المائة من العالم الإسلامي، مستندًا في ذلك إلى الباحث دانيال بايبس، وهو كما تعلم مشكوك في مصداقيته على الأقل لدى جانب من الخبراء المسلمين، أو المتعاطفين مع قضايا العالم الإسلامي وهذه قضية أخرى، لكن إذا سلمنا جدلا بصحة هذا التقدير، فإنه يعني ببساطة وضع نحو مائة وخمسين مليونا من المسلمين في سلة الراديكاليين، وهذا رقم هائل، ويفرض التساؤل حول الأسلوب الذي تقترحه للتعامل معهم؟

- أولاً أنا لا أعرف ما هو الرقم الحقيقي، وقد كان هذا هو التقدير الوحيد الذي رأيته، وربما يكون الرقم أكثر أو أقل، لكن ما تقوله صحيح، فرقم مائة وخمسين مليونًا يمثل عددًا كبيرًا من الناس، وهم ربما لا يمثلون أغلبية في العالم الإسلامي، كما أنهم موزعون بطريقة غير متساوية بين الدول الإسلامية، لكنهم يظلون قوة سياسية مهمة ينبغي احتواؤها، والمسألة ليست اضطهادهم أو قمعهم سياسيًا، ولكن بإجراء حوار داخلي حول قضايا الإسلام والحداثة، وأنا أعتقد أن المملكة العربية السعودية كان لها دور مهم في ترويج الأفكار الوهابية الراديكالية، فهم لديهم الأموال التي مكنتهم من نشر تلك الأفكار ليس فقط في السعودية ولكن في مناطق عديدة من العالم بما فيها الولايات المتحدة، وهي الأموال التي مكنت أسامة بن لادن وأتباعه عمليًا، من شراء دولة في أفغانستان.

● لكن هذه المذاهب والأفكار بما فيها الوهابية كانت مسالمة في أغلبها، وربما لا يكون من الإنصاف إلصاق ما حدث من سلوكيات مرفوضة أو عمليات إرهابية بها.

إن الأتاتوركية
ليست مجرد علمانية
لكنها تنطوي على معاداة
للإكليركية أو الدين

أعتقد أن من المفيد السماح للأحزاب الإسلامية المستعدة للمنافسة الديمقراطية أن تفعل ذلك، مادامت تلتزم بقواعد تلك المنافسة

ـ الحقيقة أن سجلها خليط من هذه الناحية، و إذا استخدمنا باكستان كمثال، فإنها لم يكن من الممكن أن نرى بها هذه الحركات الراديكالية بدون التأييد السعودي لنشر الأفكار الوهابية من خلال ما يعرف «بالمدارس» التي تروج لأفكارهم.

● حتى فيما يتعلق بهذه المدارس، لقد ظلت قاصرة على أداء دورها التقليدي بنشر التعليم الديني البسيط للفقراء في باكستان، دون الدخول في الكثير من القضايا السياسية التي تثير القلق الغربي الآن بشأن توجهاتها، لكن نقطة التحول فيها كانت الغزو السوفيتي لأفغانستان، الذي حول اهتماماتها إلى مساندة الأفغان في مواجهة الغزو الشيوعي، وكانت النتيجة ما يوصف الآن بظاهرة الإسلام الراديكالي أو المسلح .فالقضية ليست فيما يدرسونه، ولكن أساسًا في العوامل أو الأحداث الخارجية التي كثيرًا ما تفرض نفسها عليهم.

ـ هذا الكلام صحيح بالتأكيد، فهو تطور معقد للغاية، وقد كانت تجاربهم بدون شك عاملاً في هذا التحول الراديكالي، ولكن تبقى القضية أن هناك معاداة للحداثة بشكل أساسي في جوهر الوهابية، حتى لو كانت تروج لتعاليم سلمية. فالمجتمع الوهابي يمكن أن يثرى بسبب البترول كما حدث، لكنه من وجهة نظرى غير قادر على التحديث.

● لكن هذا يجرنا للحديث عن مصادر الراديكالية الإسلامية أو العمليات الإرهابية كما تراها. فيبدو لي من بعض كتاباتك المنشورة أنك تقلل من أهمية العوامل المتعلقة بالسياسة الخارجية الأمريكية خاصة بشأن الفلسطينيين أو العراق.

ـ إنني لا أريد بالضرورة أن أقلل من تأثير هذه العوامل، ولكن يبدو لي أن الراديكالية لا يمكن تفسيرها ببساطة من منطلق المعارضة للسياسة الخارجية الأمريكية. فهناك شكاوى في مناطق عديدة من العالم تجاه السياسة الأمريكية، لكن قليلاً منها يمكن أن يفرز أسامة بن لادن كرد فعل. وأنا أعتقد بوجود أسباب أكثر عمقًا تتمثل في الفقر، وانعدام التنمية، والركود السياسي بالإضافة طبعا للسياسة الأمريكية تجاه إسرائيل. فأنا لا أحاول أن أقلل من ذلك، غير أنني لست واثقًا أيضًا من أن هناك ما يمكن عمله بالنسبة لهذا الموضوع .فالولايات المتحدة يمكن أن تقوم بدور أكبر للتوصل إلى تسوية للصراع العربي الإسرائيلي، وهو ما شاركت فيه شخصيًا عندما كنت في الخارجية الأمريكية (فوكوياما عمل نائبا لمدير إدارة التخطيط السياسي بالخارجية الأمريكية في بداية الثمانينيات) إلا أنني لست متأكداً أن شخصًا مثل أسامة بن لادن يمكن أن يقبل بنوعية التسوية. فلو افترضنا جدلاً أن عرفات وباراك تمكنا من التوصل إلى اتفاق خلال العام الأخير لإدارة بيل كلنتون، وتفاهما بشأن العديد من القضايا التي لا تزال تفصل بين الجانبين، لا أعتقد أن ذلك كان سيؤثر بأي درجة على أسامة بن لادن، وكان سينظر إلى ذلك الاتفاق على أنه غير شرعي.

● قد يكون ذلك صحيحًا بالنسبة لأسامة بن لادن، لكن التوصل إلى اتفاق معقول كان سيحرمه من الغطاء السياسي الذي يستخدمه كمبرر لعملياته الإرهابية، والذي يجعل الكثيرين ـ حتى من بين المعتدلين ـ يستمعون إليه، ويشاركونه بعض مشاعره الغاضبة تجاه السياسات الأمريكية.

ـ ليكن، وأنا أعتقد بالتأكيد أن تحقيق تقدم بشأن قضية فلسطين سيكون شيئًا جيدًا.

● لكن كل هذا الجدل لا يدور نظريًا في الفراغ، إنه يأتي بعد أحداث سبتمبر الأخيرة، وفي إطار ما وصفته واشنطن بالحملة أو الحرب ضد الإرهاب، وقد سبق أن كتبت أن الإسلام الراديكالي يمثل تحديًا أيديولوجيًا أكبر من الشيوعية، أو أنه يمثل قوة يمكن أن تحدث دمارًا هائلاً في العالم الحديث. وبصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا حول هذا التقييم، لابد أن نتساءل عما تنصح به الولايات المتحدة أو الغرب لمواجهة ما تراه من هذا الخطر؟

ـ لا أعتقد أنه يمكن عمل أكثر مما يتم الآن، فقد كانت هناك مشكلة في أفغانستان، كمكان تعمل منه منظمة القاعدة. ولكن يبدو أن هذه المشكلة يتم التعامل معا بالفعل، صحيح أنه لا تزال هناك عناصر منتشرة للمنظمة، أو قضية التعامل مع صدام حسين، لكن هذه مشكلة منفصلة، وربما تشغل واشنطن على مدى العام أو العامين القادمين .كذلك فأنا أعتقد أن من الضروري إعادة النظر في العلاقات مع السعودية، فالحكومة الأمريكية تنظر للنظام السعودي على أنه معتدل وصديق مع وجود بعض الجوانب السلوكية الغريبة لديه، لكني أعتقد أن السعوديين لهم دور أساسي في ترويج هذا النوع من الراديكالية.

● لكنك هنا تتحدث أيضًا عن العراق أو صدام حسين، ولا أعتقد أنك تريد وضعه في سلة واحدة مع الراديكاليين الإسلاميين.

ـ بالطبع لا، فهو يعتبر علمانيًا .وليس إسلاميًا على الإطلاق .وهو يمثل قضية منفصلة. لكن ما حدث بعد الحادي عشر من سبتمبر هو أن الجميع أدركوا ما تمثله أسلحة الدمار الشامل من تهديد كبير. قبل ذلك كان هناك فهم نظري بإمكانية حصول شخص أو جماعة ما على سلاح نووي أو قنبلة قذرة أو سلاح بيولوجي وأن يستخدمها، لكن كان هناك تجاهل لهذا الخطر لأن أحدًا لم يصدق أن يكون هناك أشخاص على هذه الدرجة من السوء. أما الآن وبعد ١١ سبتمبر فلم يعد من الممكن الاعتماد على هذه الفرضية، وصدام حسين لديه هذه الأسلحة، ولديه بالتأكيد النوايا السيئة، وهي مشكلة كان يتعين مواجهتها حتى لو لم تقع أحداث سبتمبر.

● لكن لا يوجد ما يشير إلى امتلاكه لأسلحة نووية، وحتى بالنسبة للأسلحة البيولوجية والكيماوية، فمن شهادة شخص مثل سكوت ريتر رئيس فريق المفتشين سابقا في العراق، فإنه تم تدمير قدر هائل من مخزون العراق بل وإمكانياته اللازمة لتصنيع تلك الأسلحة؟

ـ أعتقد أنه عندما غادر المفتشون العراق عام ١٩٩٨ كان ما اكتشفوه يزيد بكثير عن كل تصوراتنا السابقة بشأن ما يمتلكه العراق، ثم كان ما كشف عنه المنشقون العراقيون حيث تبين أنه نفذ كثيرًا من هذه البرامج.

● لكن هناك دولاً أخرى عديدة تملك هذه الأسلحة بما فيها الأسلحة النووية مثل إسرائيل والهند و باكستان..

ـ بالتأكيد، لكن ليس هناك قلق من أن أيًا من هذه الدول سوف تعطى قنبلة لإرهابي لكي يهاجم بها الولايات المتحدة، لكنه احتمال قائم بالنسبة للعراق.

● دعنا نعود إذن لقضيتنا الأساسية في هذا الحوار، فقد لاحظت أيضًا أنك عند استعراضك لأسلوب مواجهة «الخطر الراديكالي»، ذكرت أن الفاشية الألمانية لم تفشل لتناقضاتها الأخلاقية الداخلية، بل لأن قوات الحلفاء دمرتها وحولتها إلى حطام ثم احتلتها، وهو ما يعطي انطباعا بأن هذا هو الأسلوب الذي تقترحه لمواجهة ما وصفته «بالفاشية الإسلامية» .فهل هذا ما تقصده بالفعل؟

ـ لا.. فهناك أسلوبان للتعامل مع الظاهرة: إما على المستوى الفكري أو العسكري، وكلاهما مهم. لكن المشكلة أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تهزم «فكرة» الإسلام الراديكالي. وأنا لا أرى فائدة من حملة العلاقات العامة التي تقودها تشارلوت بيرز في العالم الإسلامي.

(تشارلوت بيرز كانت مسئولة تنظيم حملات إعلانية في ماديسون أفنيو بنيويورك ثم استقدمها وزير الخارجية كولين باول لتكون نائبة له لشئون الدبلوماسية العامة، ولتتولى تنظيم حملة دعائية لتحسين صورة الولايات المتحدة في العالمين العربي والإسلامي. وقد شكك البعض فيما إذا كانت السيدة التي نجحت في ترويج أرز «العم بن» يمكن أيضا أن تروج «العم سام»)

ويضيف فوكوياما: إنني لا أعتقد أن مديرة من ماديسون أفنيو يمكنها أن تقنع الناس في العالم الإسلامي بأمور تتعلق بالدين، إنهم يمكنهم فقط أن يقدموا صورة أو تفسيرا أفضل لمواقف السياسة الخارجية الأمريكية، وإن كنت لا أعتقد أيضًا أن بإمكاننا الانتصار في هذا المجال. غير أن الأمر المؤكد أنه لا يمكن الدخول في حوار مع أسامة بن لادن، وفي هذه الحالة يكون اللجوء للعمليات العسكرية. فإذا كان نجاحه في الحادي عشر من سبتمبر قد أعطاه بعض الشرعية، إلا أنه فقد الكثير منها بانتزاع قاعدته التي كان يعتمد عليها في أفغانستان. فهذا إذن عنصر مهم في المواجهة، لكن ذلك لا يعني أنه الأسلوب الوحيد، فهناك أيضًا وسائل غير عسكرية للتعامل مع بعض القضايا، وأنا لا أعتقد مثلاً بضرورة وجود الولايات المتحدة في منطقة الخليج الفارسي (العربي) أو أن تكون لنا قواعد في السعودية، والسبب الوحيد لذلك هو فرض منطقة الحظر الجوي فوق العراق، وإذا أمكن بطريقة ما التخلص من صدام حسين، فإن الولايات المتحدة يمكنها أن تخرج من المنطقة، وأعتقد أننا جميعًا هنا في واشنطن سنسعد بذلك .فأنا لا أقول إن العمل العسكري هو الوسيلة الوحيدة لحل تلك المشكلة.

● لكن إذا أخذنا منظمة القاعدة كمثال، فإنها لم تمارس نشاطاتها من داخل الدول العربية رغم أن أغلب أعضائها من العرب، بل وجدت ضالتها في أماكن بها حالات خاصة جدًا مثل أفغانستان أو الصومال حيث لا توجد حكومات قوية، وتمكنت المنظمة من فرض وجودها في هذه الأماكن. وهذا في ذاته يعطي مؤشرًا على أبعاد القضية على المدى الطويل.



كتـــاب الـزاويـة

من أشعار ناظم حكمت *

احتفالاً بالذكرى المئوية الأولى لمولد رائد الشعر التركى الحديث، أعلنت منظمة اليونسكو عام ٢٠٠٢ «عام ناظم حكمت». وقد اشتهر شعر حكمت أثناء حياته فى العالم كله لما تميز به من طابع نضالى وتحررى؛ فترجم للعديد من اللغات من ضمنها العربية. ويعد ناظم حكمت أول من أدخل «التفعيلة الحرة» فى الشعر التركى الحديث بعد تأثره بمدرسة الحداثة الروسية. ومع هذا وبسبب معتقداته الماركسية، ومعاداته للكمالية تعرض فى وطنه للسجن والنفى أكثر من مرة إلى أن تم حرمانه من الجنسية التركية عام ١٩٥٩، وتوفى فى موسكو عام ١٩٦٣.

إلى فيـــرا

قالتْ لى: لمَ لا تأتى؟

قالتْ لى: لمَ لا تبقى؟

قالتْ لى: لمَ لا تضحك؟

قالتْ لى: لمَ لا تموت؟

أتيتُ

بقيتُ

ضحكتُ

ومُتُّ

١٩٦٣

---

* مختارات من كتاب: ناظم حكمت.. الأعمال الشعرية الكاملة،
ترجمة فاضل لقمان، دار الفارابى.

فـوكـويـامـا

عـن الإســـلام.. والأصـــولية.. والحــــداثة

- هذا صحيح، لهذا كان من الضرورى اتخاذ إجراءات فى تلك الأماكن التى يعملون فيها بحرية، لكن الموقف يبقى قابلاً للاشتعال فى مصر والجزائر ودول أخرى، فرغم عدم السماح لهم بحرية العمل، إلا أنهم يبقون كقوة سياسية أساسية، وكعامل زعزعة للاستقرار.

● لكنك تشير إلى هذه النوعية من الإسلاميين باعتبار أنها هى التى ترفض تصديق أن مسلمين تورطوا فى هجمات سبتمبر، وتعزوها لإسرائيل، وهذا بالتأكيد - بصرف النظر عن مدى صحته - يشير ولو بشكل غير مباشر إلى الرفض الضمنى لهذه الهجمات أو لاتباع هذا الأسلوب الإرهابى، لكن يبدو أنك خرجت بنتيجة مختلفة.

- نعم، فما يزعجنى حقيقة فى تلك الآراء، هو انفصالها الكبير عن الواقع كما أراه أو يراه أغلب الأمريكيين.وهو يعنى أن الأمر سيكون أكثر صعوبة فى التعامل من أناس يرون العالم بهذه النظرة المخالفة تمامًا.وهذا يعنى أنهم كما تقول يعتقدون بأن ما حدث ليس شيئًا جيدًا، لكن عدم القدرة على قبول الحقائق الأساسية لما وقع بالفعل، يوضح اختلافًا هائلاً فى الرؤية.

● لكن هذا أيضًا قد يكون نتيجة أزمة عدم الثقة فى الولايات المتحدة، أو فيما تقدمه من أدلة.

- نعم، وهناك بالتأكيد تفسيرات عديدة لعدم الثقة، لكن إذا كنا غير قادرين على الاتفاق بشأن الحقائق الأساسية لما حدث، فإن هذا يعنى وجود مشكلة حقيقية، تجعل سوء الفهم أمرًا لا مفر منه.

لكن مع التسليم بسوء الفهم للولايات المتحدة من جانب الكثيرين فى الدول الإسلامية، فإنه ليس من الإنصاف القول بأنه من جانب واحد، فالولايات المتحدة تواجه أيضا مشكلة سوء الفهم للعالم الإسلامى.

-ربما يكون من المأمون القول إنه لا توجد حدود أو نهاية لسوء الفهم الأمريكى للعالم الإسلامى، ولكن فى هذه القضية بالتحديد، فإنه حتى بعد إذاعة شريط الفيديو الذى يصور أسامة بن لادن وهو يعترف بجريمته،فإن هؤلاء الناس لم يكونوا مستعدين لقبول أن أسامة بن لادن وراء تلك الهجمات، فمن الصعب تصور ما يمكن أن يقنعهم.

● أود أن أنتقل بك الآن للحديث عن قضية صراع الحضارات، التى أثارها صامويل هنتينجتون، وقد ذكر فى مقال أخير بمجلة نيوزويك أن أحداث سبتمبر الأخيرة وتوابعها من الممكن أن تؤدى إلى وقوع هذا الصراع. هل تشاركه هذا التخوف؟

- لا بد من التأكيد هنا على أنه لم يقل إن هذا سيؤدى إلى صراع الحضارات، ولكن كما ذكرت، فإنه قال إن ذلك ممكن، وأعتقد أن ذلك يمثل قلقًا حقيقيًا، وأنا أتفق معه فى أن ما حدث يمكن أن يتضخم ليؤدى إلى هذا الصراع، وبالتالى فمن المهم عدم السماح بتفسير تلك الأحداث بهذه الطريقة. فهذا ما يقوله أسامة بن لادن بأن ذلك صراع للحضارات، لكن هذا غير صحيح.

● ماذا يمكن عمله إذن لتجنب وقوع مثل هذا الصدام؟

- إن ما تفعله إدارة الرئيس بوش بهذا الشأن مهم للغاية، من خلال التأكيد للمسلمين فى أنحاء العالم، وفى الولايات المتحدة، بأن ما يحدث ليس حربًا ضد الإسلام، ولكن ضد هؤلاء الذين قادوا الطائرات المدنية لاقتحام المبانى الأمريكية.

● لكن يبدو من خلال مقالك حول هذا الموضوع، أنك توسع من هدف هذه الحرب. فهى ليست قاصرة كما تقول على الإرهابيين الذين كانوا وراء اقتحام مركز التجارة العالمى، ولكنها أيضًا - كما كتبت - تشمل قطاعًا أوسع ممن تصفهم بالراديكاليين الإسلاميين أو الفاشية الإسلامية؟

- كما سبق أن ذكرت، فأنا أعتقد بوجود مشكلة حقيقية فى هذا الشكل من الإسلام الراديكالى، وحقيقة الأمر أنها ليست مجموعة صغيرة من الإرهابيين، ولكنها تشمل أيضا قطاعًا أكبر من أصحاب الأفكار الراديكالية فى العالم الإسلامى.وهى بالطبع لا تمثل الأغلبية أو القوة المسيطرة، لكنها جزء من العالم الإسلامى.

● هل ترى أى تأثير للأحداث الأخيرة بعد هجمات سبتمبر والانتصار فى أفغانستان، من حيث تحجيم هذه الجماعات، أو تقليل نفوذها؟

- أعتقد أن التأثير وقع بالفعل، فقد كان السقوط السريع لحركة طالبان مؤثرًا بقوة فى الرأى العام الإسلامى، إن الناس تحب المنتصرين، والنجاح يجلب معه نوعًا من الشرعية.

● منذ عشر سنوات خرجت بنظريتك الشهيرة عن «نهاية التاريخ» والتى أكدت فيها أن تطور المجتمعات البشرية، بلغ نهايته بالليبرالية الديمقراطية، والرأسمالية القائمة على اقتصاد السوق. الآن - وبعد ١١ سبتمبر - قال بعض الكتاب مثل فريد زكريا إن هذه الأحداث تمثل نهاية لـ «نهاية التاريخ» هل توافق على هذا التحليل؟

المشكلة مع الإسلاميين أو الراديكاليين الإسلاميين، هى أنهم ديمقراطيون بمعنى أنهم يقبلون بإرادة الشعب، لكنهم ليسوا ليبراليين من حيث الإيمان بالتعددية السياسية والتسامح، ولا أعتقد أن الإسلام كدين فيه ما يتعارض مع ذلك

- لا أعتقد أن هذا صحيح، «فنهاية التاريخ» كان يمثل رأيي في قضية الحداثة، وأنها عملية ستستغرق وتسيطر على السياسات العالمية، ولا يوجد فيما حدث بعد الحادي عشر من سبتمبر ما ينقض هذه الرؤية. فأسامة بن لادن يمثل بطريقة ما حركة رد فعل يائسة ضد عملية التحديث.

● لكن لاشك أيضًا أن «شجرة الزيتون» إذا استخدمنا رمز توماس فريدمان للتعبير عن القيم والمفاهيم، أو الصراعات التقليدية التي تربط أو حتى تقيد الإنسان المعاصر - ربما لا يزال لهذه الشجرة جذورها القوية التي تمكنها حتى الآن من مواجهة تيار العولمة أو الحداثة أو سيارة اللاكساس، وهي التي تجعل البعض يتمسك بها ولو على حساب ما تقدمه له الحداثة من مكاسب اقتصادية.

- هذا صحيح، والواقع أن الحداثة لم تكن لها أبدًا نفس الجاذبية لدى كل المجتمعات، لكنها تظل المشكل الأساسي للسياسات العالمية، حتى بالنسبة لمن يرفضون الحداثة، فالاستقطاب الآن أصبح بين من يختارون شجرة الزيتون، ومن يختارون اللاكساس، وهذا يمثل التركيبة الحالية للسياسات العالمية. فحتى عندما ترفض الحداثة، فإنها تظل الطريقة التي يتحدد بها العالم الآن.

● وكيف ترى الإسلام والدول الإسلامية في إطار هذه التركيبة العالمية، هل هو جزء منها أم أنه بديل لها؟

- هذا يعتمد على شكل الإسلام الذى تتحدث عنه، فلو كان الإسلام الراديكالي، فالإجابة ستكون: أنه البديل. فهو في هذه الحالة لا يمكن توفيقه مع الليبرالية الديمقراطية، وجوانب عديدة للحداثة. واعتقد أن الشعوب التي ستختار هذا الشكل من الإسلام سوف تكون رافضة للحداثة بشكل أساسي. وعلى الجانب الآخر هناك مجتمعات إسلامية عديدة تريد التعددية والديمقراطية والدولة العلمانية والتنمية الاقتصادية مع الاحتفاظ بهويتهم الإسلامية والثقافية. وأعتقد أن هذا أيضا ممكن.

● لكن حتى من بين من سيقبلون بالكثير من مفاهيم الحداثة، فإن هناك من لا يرونها مفاهيم غربية أو جديدة عليهم، ويعتقدون أن لها أصولاً في التراث والثقافة الإسلامية، مما قد يعني على الأقل إطلاق تسميات مختلفة؟

- هذا ممكن جداً، فهذه مفاهيم عالمية. وهي تشبه الوسائل العلمية التي تستخدم لتحقيق تقدم في العلوم الحديثة فقد ابتكرت في الغرب المسيحي، ولكنها بعد ذلك لم تعد تمثل فكرة مسيحية أو غربية. إنها فقط فكرة يمكن تطبيقها عالميًا. فالبشر كلهم متشابهون تحت الجلد، والطبيعة البشرية واحدة، وهذا الكلام ينطبق على آسيا أيضًا، وما بها من قيم خاصة مثل قيم العمل الصينية أو اليابانية. فالمجتمعات تصل إلى أشكال مؤسساتية متشابهة، من خلال طرق ثقافية مختلفة.

● لو طبقنا ذلك على قضية الديمقراطية على سبيل المثال، فإن كثيرًا من الإسلاميين يعتقدون بأن في الإسلام مفاهيم ديمقراطية خاصة مثل الشورى وأنه لا يوجد شكل واحد لتطبيق الديمقراطية بالمفهوم الغربي.

- هناك أشكال مؤسساتية مختلفة للديمقراطية، وحتى في الغرب هناك النظام الرئاسي والنظام البرلماني، والأنظمة الفيدرالية وغيرها. وللإجابة عن هذا السؤال لابد من معرفة نوع المؤسسات التي تتحدث عنها، لأن هناك مواصفات أساسية للديمقراطية، إذا تم تجاوزها إلى درجة معينة، فإنه يصعب عندها القول إنها ديمقراطية. لكنني أتفق معك في أنه توجد وسائل عديدة لخلق نظام سياسي ديمقراطي.

● لكن ماذا لو سادت الراديكالية الإسلامية بالشكل الذى تحذر منه، هل يمكن القول إنها ستكون نهاية «نهاية التاريخ».

- نعم إذا سادت بالفعل في العديد من الدول، لكني لا أعتقد أن ذلك سيحدث، فكما رأينا في إيران وأفغانستان. إنهما الآن في مرحلة التخلص من هذا التطبيق الراديكالي للإسلام، وبالتالي فإنه لا يمثل بديلاً على المدى الطويل.

● إذا كان الحادي عشر من سبتمبر لم يبدأ تاريخًا جديدًا حتى الآن على الأقل، فما معنى العبارات المكررة بأنه قد غير العالم؟ ما هي أوجه هذا التغيير كما تراها؟

- ربما كان أكثر التغييرات الجوهرية إدراك الجميع لحجم المخاطر التي تتعرض لها المجتمعات التكنولوجية الحديثة. فبعد سنوات عديدة من تصنيع الطائرات وبناء ناطحات السحاب، فإن المؤامرة كانت في استخدام هذين الرمزين للمجتمعات الحديثة ضد تلك المجتمعات. وأعتقد أن هذا الإحساس بالخطر لن يتلاشى. لذلك فهو يمثل تغييرًا مهمًا. أما فيما يتعلق بتركيبة السياسات العالمية فلا أعتقد أنها تغيرت بصورة جوهرية، فهي سوف تستمر بالشكل الذى كانت عليه. ■



كتاب الزاوية

من أشعار ناظم حكمت

يا عيني يا حبيبي! *

صاحبي منصور من بورسعيد
في الثالثةَ عشرة، في الرابعة عشرةَ
من عمره،
جلسَ، حافيَ القدمين،
حليقَ الرأس،
يَمْسَحُ الأحذيةَ، يلمّعُها،
خلفَ صندوقه المزخرف
والمزيّن بالمرايا.
صاحبي منصور أسودُ ناحِلٌ،
ما أشبهه ببذرِ البلح.
صاحبي منصور شهي لذيذ.
باستمرارٍ يغني الأغنية ذاتها:
يا عيني، يا حبيبي! . . .
أحرقوا بورسعيد، قتلوا منصور.
رأيتُ صورتَه في الصحف
هذا الصباح
صورةُ جثة طفل بين الموتى
يا عيني، يا حبيبي!
كم أنتَ شبيهٌ ببذرِ البلح . . .

براج ٢٥/١١/١٩٥٦

* عنوان القصيدة باللغة العربية في الأصل.

السلام .. وعرفات

ضحايا موت أوسلو!

خليل الشقاقى

هل تَظَلَّم ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية، الانتفاضة الفلسطينية وقادها كي يكتسب شعبية وشرعية بينما يضعف بذلك إسرائيل ويجبرها على قبول المطالب الفلسطينية المتطرفة؟ أم كانت الانتفاضة رد فعل عفويا من جانب «الشارع» الفلسطيني الغاضب وغير المنظم لزيارة زعيم حزب الليكود (ورئيس وزراء إسرائيل فيما بعد) أرييل شارون لموقع يعرفه اليهود باسم جبل الهيكل ويعرفه المسلمون باسم الحرم الشريف، وفشل عملية أوسلو للسلام في إنهاء الاحتلال العسكري الإسرائيلي؟ الواقع أن معظم الإسرائيليين يأخذون بالرأى الأول، في حين يأخذ معظم الفلسطينيين بالرأى الثانى، وكلاهما مخطئ فيما يراه.

فالحقيقة هي أن الانتفاضة التي بدأت في أواخر شهر سبتمبر من عام ٢٠٠٠ لم تكن رد فعل من جانب «الحرس الجديد» في الحركة الوطنية الفلسطينية تجاه زيارة شارون وركود عملية السلام وحسب، بل كذلك تجاه فشل «الحرس القديم» داخل منظمة التحرير الفلسطينية في تحقيق الاستقلال الفلسطيني وأسلوب الحكم الجيد. وقد اتجه الحرس الجديد إلى العنف لإجبار إسرائيل على الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة من جانب واحد (كما انسحبت من جنوب لبنان في مايو ٢٠٠٠) وفي الوقت نفسه لإضعاف الحرس القديم وإقصائه في آخر الأمر.

وبعد مرور أكثر من عام على الانتفاضة، لم يتزعزع التزام الحرس الجديد بالهدفين، ولديه أسبابه في ذلك. فقد بدأ الإسرائيليون في التفكير بصورة جادة في الانسحاب من جانب واحد، وتولى الحرس الجديد زمام الأمر بصورة فعلية في معظم المؤسسات المدنية في السلطة الفلسطينية، واخترق أجهزة الأمن التابعة لها، وأجبر عرفات على ترضية القادمين الجدد خوفاً من فقدان شرعيته أو التسبب في نشوب حرب أهلية فلسطينية. والواقع أنه عند هذه النقطة وحدها يمكن لاحتمال وجود عملية سلام حقيقية والالتزام الجاد من جانب السلطة الفلسطينية بأسلوب الحكم الجيد أن يقدم لكل من إسرائيل والحرس القديم استراتيجية للخروج مما هما فيه من مأزق.

تحديد الاتجاه

بلورت الانتفاضة اتجاهين مهمين داخل السياسة والمجتمع الفلسطينيين. فقد قيَّد أول هذين الاتجاهين، وهو الانقسام بين الحرسين القديم والجديد داخل الحركة الوطنية، قدرة قيادة السلطة الفلسطينية على إدارة الأزمة الحالية والدخول في مفاوضات فعلية مع إسرائيل على المدى القصير تقييداً شديداً. أما ثانيهما، وهو تضاؤل نفوذ الوطنيين مقارنة بالإسلاميين (مثل حماس)، فخلق تحدياً طويل المدى لقدرة الوطنيين على قيادة الشعب الفلسطيني.

وعندما وُقِّعت اتفاقية أوسلو في عام ١٩٩٣، حظيت على الفور بتأييد ثلثي الجماهير الفلسطينية. ذلك أن الآمال كانت عريضة؛ فقد كان من المفترض أن تؤدى أوسلو إلى إنهاء الاحتلال، وإقامة نظام منفتح وديمقراطي، وتحسن سريع في الظروف المعيشية والاقتصادية. إلا أن العصر الذهبي لعملية السلام لم يدم طويلاً. وبلغت نسبة التأييد الشعبي الفلسطيني ٨٠ بالمائة في أوائل عام ١٩٩٦، بينما هبط معدل تأييد العنف ضد الأهداف الإسرائيلية إلى ٢٠ بالمائة. وقبيل الانتخابات العامة الفلسطينية في يناير من ذلك العام، بلغ ما تحظى به فتح، وهي الحركة الوطنية الرئيسية التي يتزعمها عرفات، مستوى غير مسبوق هو ٥٥ بالمائة، وقفز معدل تأييد عرفات إلى ٦٥ بالمائة. وفي الوقت ذاته هبط معدل تأييد كل الجماعات المعارضة مجتمعة - القومية منها والإسلامية - إلى ٢٠ بالمائة، مقابل ٤٠ بالمائة قبل ذلك بعامين.

وعندما جاء النظام السياسي الفلسطيني الحالي إلى الوجود بعد تلك الانتخابات، كان يتمتع بشرعية حقيقية. فقد شارك في الانتخابات ٧٥ بالمائة ممن لهم حق التصويت، رغم دعوة المعارضة إلى مقاطعة الانتخابات. وحصل عرفات على أكثر من ٧٥ بالمائة من مجموع الأصوات، في حين كانت نسبة الأصوات الباطلة ٢٢ بالمائة، وكان ما حصلت عليه منافسته سميحة خليل هو ٨ بالمائة فقط، وفازت فتح بنسبة ٧٧ بالمائة من مقاعد المجلس التشريعي الفلسطيني الجديد.

وفيما بين عامي ١٩٩٣ و٢٠٠١، باستثناء ١٩٩٤ وحده، لم يهبط التأييد لأوسلو عن ٦٠ بالمائة قط. إلا أن الآمال الفلسطينية أخذت تتلاشى نتيجة لانتخاب بنيامين نتانياهو رئيساً لوزراء إسرائيل في منتصف ١٩٩٦ واستمرار بناء المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة. وهبطت التوقعات الفلسطينية القائلة بأن عملية السلام سرعان ما ستؤدى إلى إقامة الدولة والتسوية الدائمة من ٤٤ بالمائة خلال رئاسة شيمون بيرس للوزراء في عامي ١٩٩٥ و١٩٩٦ إلى ٣٠ بالمائة في العام الأول من رئاسة نتانياهو للوزراء. وبعد أربع سنوات، حين حل إيهود باراك محل نتانياهو واستمرت المستوطنات اليهودية في التوسع، هبطت توقعات التسوية الدائمة إلى ٢٤ بالمائة. وما إن فاز أرييل شارون في الانتخابات ليصبح رئيساً لحكومة إسرائيل في أوائل ٢٠٠١، حتى بلغت نسبة من يتعلق بذلك الأمل من الفلسطينيين ١١ بالمائة فقط.

وكان لفقدان الثقة في قدرة عملية السلام على توفير اتفاق دائم بشروط مقبولة أثره شديد القوة على مستوى الدعم الفلسطيني للعنف ضد الإسرائيليين، بما في ذلك التفجيرات الانتحارية ضد المدنيين. وفي يوليو ٢٠٠٠، وبعد محاولة الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون الفاشلة لرعاية تسوية سلمية نهائية في كامب ديفيد، وقبل اندلاع الانتفاضة الثانية، كان ٥٢ بالمائة من الفلسطينيين يؤيدون استخدام العنف؛ وبعد عام من ذلك بلغت تلك النسبة ٨٦ بالمائة. ومن ضحايا موت أوسلو الأخرى شعبية عرفات ومنظمة فتح التي يرأسها. فقد هبطت قمة كامب ديفيد بشعبية عرفات، التي كانت في هبوط مطرد منذ ١٩٩٦، إلى ٤٧ بالمائة. وبعد عام آخر هبطت إلى ٣٣ بالمائة. وفي الوقت نفسه هبط التأييد الذي تحظى به فتح إلى ٣٧ بالمائة في يوليو ٢٠٠٠، ثم إلى ٢٩ بالمائة بعد ذلك بعام.

والمستغرب أن الإسلاميين الفلسطينيين لم يستفيدوا استفادة كبيرة من هبوط شعبية عرفات وفتح قبل الانتفاضة - فقد اختار من تخلوا عن القضية الوطنية الأساسية البقاء في موضع المتفرجين، وتراوحت مستويات التأييد للإسلاميين بشكل ثابت حول ١٥ بالمائة. إلا أن الانتفاضة غيرت تلك المعادلة. فما إن حل يوليو ٢٠٠١ حتى ارتفعت شعبية الإسلاميين إلى ٢٧ بالمائة. ولأول مرة تعدت نسبة التأييد للإسلاميين والمعارضة الوطنية مجتمعين، وهي ٣١ بالمائة، النسبة التي حصلت عليها فتح وحلفاؤها، وكانت ٣٠ بالمائة.

ولبست عملية السلام المنهارة ولا الظروف الاقتصادية والمعيشية المتدهورة وحدها هي العوامل التي استنزفت صفوف مؤيدي عرفات وفتح. فقد تغير تقييم الشعب الفلسطيني لوضع الديمقراطية الفلسطينية، والفساد الرسمي، والأداء الحكومي من السيئ إلى الأسوأ على مر السنوات الست الماضية. ففي عام ١٩٩٦ منح ٤٣ بالمائة ممن استطلعت آراؤهم الديمقراطية وحقوق الإنسان الفلسطينية شهادة تفيد خلوها من الأمراض؛ وبحلول عام ٢٠٠١ لم يقر بذلك سوى ٢١ بالمائة. وفي الفترة نفسها، هبطت التقديرات الإيجابية لأداء مؤسسات السلطة الفلسطينية من ٦٤ بالمائة إلى ٤٠ بالمائة، بينما ارتفع معدل الاعتقاد بأن السلطة الفلسطينية فاسدة من ٤٩ بالمائة إلى ٨٣ بالمائة.

ولم تفض الانتفاضة إلا إلى زيادة شعور الفلسطينيين بخيبة الأمل. فقد أدى الحصار الإسرائيلى المحكم وإغلاق الأراضى الفلسطينية، وما تبع ذلك من قيود مدمرة على الحركة، إلى توقف الحياة المدنية والاجتماعية والاقتصادية. وفي يوليو ٢٠٠٠ كان أقل من ثلث الفلسطينيين بقليل يعتقد أن العنف سوف يحقق الأهداف التي لم تحققها المفاوضات؛ وبعد عام انتهى ذلك ٥٩ بالمائة إلى تلك النتيجة. والواقع أنه بعد تسعة أشهر من الانتفاضة كان ٧١ بالمائة يظنون أن القتال له بالفعل ذلك الأثر.

وقد ألحق فشل عملية السلام، بالإضافة إلى التقدير شديد السلبية لكل القضايا المتصلة بأسلوب حكم السلطة الفلسطينية، وتقديم الخدمات، الضرر بشرعية السلطة الفلسطينية والحرس القديم الذي يمثلها. كما أتاح الفرصة للقوى الأخرى داخل المجتمع الفلسطيني كي تتقدم. وهذا على وجه الدقة ما فعله الجيل الأصغر من القادة في خريف عام ٢٠٠٠ - حيث انتهز فرصة انتهاكات شارون وما أعقبها من اضطرابات كي يغتنم اللحظة ويتحدى منافسيه الداخليين.

تغيير الحرس

عاشت القيادة الوطنية الفلسطينية خلال الفترة من ١٩٦٧ حتى ١٩٩٤ في الشتات، حيث انتقلت قيادة منظمة التحرير من الأردن إلى لبنان، ثم إلى تونس. وفي ذلك الوقت كانت القيادة المحلية في الضفة الغربية وقطاع غزة تسعى إلى إثبات نفسها من حين لآخر، حيث لم تكن تحظى إلا بالقتل من جانب الإسرائيليين أو تثبيط الهمة من جانب منظمة التحرير الفلسطينية. فقد قللت الهزيمة التي ألحقها الجنود الإسرائيليون بمنظمة التحرير حين غزت إسرائيل لبنان عام ١٩٨٢ من مركزيتها في السياسة الفلسطينية وأضعفت قبضتها على الفلسطينيين في الأراضي المحتلة. والواقع أن مركز الجاذبية في السياسة الفلسطينية أخذ ينتقل من الخارج إلى الداخل. فعلى سبيل المثال، كانت القيادة الناشئة حديثاً في الأراضي المحتلة هي التي بدأت الانتفاضة الأولى خلال الفترة من ١٩٨٧ إلى ١٩٩٣.

إلا أنه في عام ١٩٩٤، وتنفيذاً لإعلان المبادئ الذي جرت حوله المفاوضات في أوسلو، عادت قيادة منظمة التحرير إلى الضفة الغربية وقطاع غزة لإقامة السلطة الفلسطينية. ومنذ ذلك الوقت والعلاقة بين القيادة الوطنية الأكبر سناً المعترف بها والقيادة الناشئة الأصغر سناً ليست على ما يرام. ولم تنجح جهود الحرس القديم لكسب قيادات الانتفاضة الأولى الشابة أو احتوائها قط، وهو ما يعود في المقام الأول إلى ميول الحرس القديم السلطوية. ومع ذلك فقد خلقت الفرحة الغامرة التي صاحبت الانسحاب الإسرائيلي الجزئي من الأراضي الفلسطينية المحتلة، وإجراء أول انتخابات وطنية عام ١٩٩٦، وتشكيل أول حكومة

اتجــــه الحـــرس الجــــديد إلى العنــف لإجبـــــار إســــرائيل علــى الانســـحـــاب من الضفـــة الغربيـــة وقطـــاع غـــزة مـــن جـــانب واحــــد (كما انســحبت من جنــوب لبنـــان فى مـــايو ٢٠٠٠)

فلسطينية فى التاريخ الحديث، مظهراً من مظاهر الانسجام.

ويضم الحرس القديم مؤسسى الحركة الوطنية الفلسطينية، إلى جانب قيادات المنظمات الفدائية العديدة وبيروقراطية منظمة التحرير الفلسطينية. وقد أمضى هؤلاء الرجال، ومنهم عدد قليل دون الخمسين، معظم حياتهم السياسية خارج الأراضى الفلسطينية. وتسيطر هذه المؤسسة السياسية على كل من فتح والسلطة الفلسطينية. وتسيطر الشخصيات الرئيسية فى هذه الجماعة، مثل محمد عباس (أبو مازن) وأحمد قريع (أبو علاء) ونبيل شعث، على الفريق الفلسطينى فى مفاوضات السلام.

ويشمل الحرس الجديد القيادات المحلية الناشئة حديثاً وكذلك قيادات الانتفاضة الأولى. ومعظم هؤلاء لا تزيد أعمارهم على الأربعين. وقليلون منهم فى مجلس وزراء السلطة الفلسطينية والمجلس التشريعى الفلسطينى. وقليلون منهم رؤساء أو كبار اعضاء أجهزة الأمن المختلفة. إلا أن المجموعة إجمالاً تفتقر إلى التماسك والقيادة والسلطة الرسمية. وفى حين يوصف بعضهم كأفراد عصابات أو أمراء حرب؛ كان آخرون، مثل سامى أبو سمهدانة فى رفح وعاطف عبيات فى بيت لحم، هدفًا للاغتيال من قبل الجيش الإسرائيلى، وقد قُتل الأخير فى شهر أكتوبر. إلا أن بعض الأعضاء البارزين فى الحرس الجديد، مثل مروان برغوثى فى رام الله وحسام خضر فى نابلس، أكثر احتراماً. ومع أن صوت الحرس الجديد أكثر خفوتاً فى مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية، فإن له بعض النفوذ فى تنظيمات فتح، مثل اللجنة العليا والمجلس الثورى، وكذلك فى «التنظيم» التابع لفتح الأشبه بالميليشيا، وفى الجناح العسكرى «كتائب الأقصى».

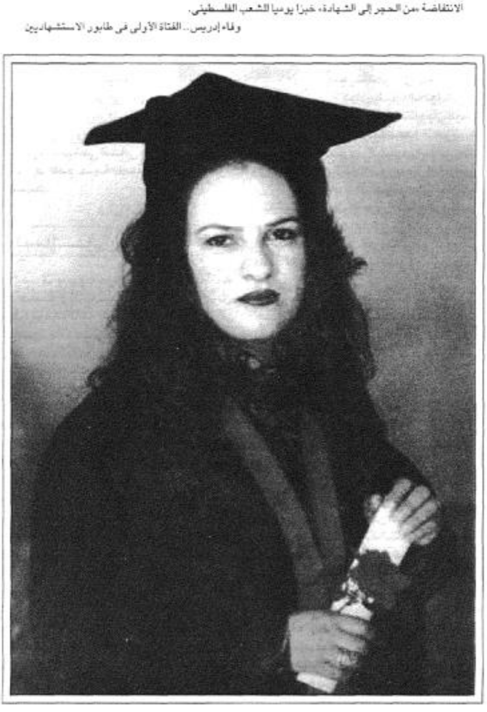
وتستمد المؤسسة السياسية الفلسطينية شرعيتها من إرث منظمة التحرير الفلسطينية التاريخى، وكذلك من اتفاقية أوسلو وما نتج عنها. وهى تسيطر على الموارد المالية لمنظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية، وتحظى بالاعتراف الدبلوماسى من جانب المجتمع الدولى. وتسيطر على بيروقراطية السلطة الفلسطينية وأجهزتها الأمنية. إلا أن الوجوه السياسية الجديدة استمدت قوتها خلال الانتفاضة الثانية من تحالفها مع المعارضة الإسلامية، ومن عدم الرضا العام فى كل مكان عن تقدم مفاوضات السلام وإعادة الإعمار الوطنى. وقد استخدم المتمردون هذه الأدوات لتحييد سلطة الدولة الرسمية. ومع أن الجناح العسكرى للحرس الجديد لا يزال صغيراً، فقد استطاع السيطرة بهدوء على كثير من مؤسسات السلطة الفلسطينية المدنية المتداعية ومنع اتخاذ أية إجراءات قمعية ضده. ولم يسعَ الحرس الجديد إلى إنشاء أية مؤسسات وطنية، بل عمد إلى السيطرة على المؤسسات الموجودة بالفعل.

وللحرس القديم تراتب قيادى واضح. ولا يهيمن عرفات على هذه المجموعة وحسب؛ بل إن بقاءها مرهون بوجوده ودعمه لها. وبينما يعترف الحرس الجديد بقيادة عرفات، فإنه لا يستمد شرعيته منه؛ فالواقع أن عرفات هو الذى يشعر بالحاجة إلى إبداء المصداقية للقيادات الشابة، بالتغاضى عن تحالفها مع الإسلاميين ومواجهاتها العنيفة مع الجيش الإسرائيلى. ومنذ مارس ٢٠٠١، حين بدأت إسرائيل فى استهداف قوات الشرطة الفلسطينية النظامية، سمح عرفات لوحدات من حرس الرئاسة وأجهزة الاستخبارات الفلسطينية بالمشاركة فى الهجوم على الجنود والمستوطنين الإسرائيليين، رغم ما ينطوى عليه ذلك من مخاطر. ومن الواضح أنه يشعر بأنه حتى الأسلوب البديل لاكتساب قبول الحرس الجديد - وهو انفتاح النظام السياسى الفلسطينى وتشجيع التحول الحقيقى إلى الديمقراطية - أقل جاذبية.

ولكن الحرس الجديد مازال يطلب المزيد من معسكر عرفات. فهو يريد الشفافية والمحاسبة وشن حملة على الفساد والمزيد من المواجهات المباشرة مع إسرائيل. كما أنه دعا إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية لا تضم ممثلين من صفوفه وحسب، بل كذلك كبار أعضاء الجماعات الإسلامية وغيرها من الجماعات المعارضة. وأيد الحرس الجديد بشدة المطالب المحلية والدولية الخاصة بأسلوب الحكم الجيد، بما فى ذلك احترام حكم القانون، والقضاء المستقل، ودور أكبر للمجلس التشريعى، والمؤسسات العامة الأكثر قوة وكفاءة.

مع انهيار أوسلو وتنامى الشك فى قدرة أو رغبة الطرف الإسرائيلى فى سلام حقيقى عادل، أصبحت الانتفاضة «من الحجر إلى الشهادة» خبزا يوميا الشعب الفلسطينى.

وفاء إدريس.. الفتاة الأولى فى طابور الاستشهاديين



غـــايات ووســـائل

يعارض الحرس الجديد بشدة أى اتفاق لوقف إطلاق النار يستتبع اتخاذ إجراءات قمعية ضد المناضلين الوطنيين أو الإسلاميين الفلسطينيين. والواقع أنه أدان علناً كلاً من تقرير ميتشل (وهو النتائج التى توصلت إليها لجنة تقصى الحقائق برئاسة السناتور الأمريكى السابق جورج ميتشل للنظر فى أعمال العنف الإسرائيلية الفلسطينية الأخيرة) وخطة تينت (وهى خطة وقف إطلاق النار والأمن التى وضعها مدير الاستخبارات المركزية جورج تينت فى يونيو ٢٠٠١). فبدلاً من قبول هاتين المبادرتين من أجل إنهاء العنف، يريد الحرس الجديد من عرفات أن يؤيد علناً أهداف الانتفاضة وأساليبها بتوجيه أوامر إلى قوات الأمن بالانضمام إلى المواجهات المسلحة. وفى المقابل يشك الحرس القديم فى فاعلية العنف وينتقد حتى المشاركة القليلة من جانب بعض قوات الأمن فى القتال. ومع ذلك فإن الكثيرين من أعضائه مقتنعون بأن عرفات لا يسعه الدخول فى مواجهة جادة مع الحرس الجديد فى غياب فرصة معقولة لاتفاق سلام مع إسرائيل. ويقبل البعض مقولة أن مشاركة قوات الأمن الرسمية من حين لآخر فى القتال ضرورية فى سبيل تحقيق هذا الهدف. وهم يظنون أنه عندما يحين الوقت لوقف المواجهات المسلحة، فإن من لديهم سجل قتالى بحق هم فقط الذين ستكون لهم الشرعية فى الداخل، وسيقررون مواجهة من يرغبون فى الاستمرار واعتقالهم.

ويسعى بعض أعضاء الحرس القديم خارج السلطة الفلسطينية إلى الابتعاد عن الحكومة وإقامة منبر جديد للتعبئة السياسية والإصلاح. وفى يناير من عام ٢٠٠١، على سبيل المثال، طالب رئيس المجلس الوطنى الفلسطينى، الذى يمثل

ضحايا موت أوسلو!

الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة وكذلك في الشتات، بأن تعالج السلطة الفلسطينية الفساد الحكومي وغياب حكم القانون معالجة تامة، ودعا أعضاء مجلس وزراء عرفات إلى الاستقالة، وطالب بإنشاء «تنظيم للاستقلال الوطني». إلا أن الحرس الجديد لم يتقبل الفكرة وسعى إلى إثبات ذاته، ليس من خلال الإدانة المباشرة للسلطة الفلسطينية، وإنما من خلال هزيمة الجيش الإسرائيلي.

وفيما يتعلق بأهداف الحرس الجديد النهائية، فإنه يشارك النظام القديم ـ رغم ما يظنه البعض في إسرائيل والغرب ـ في هدفي إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة (وعاصمتها القدس الشرقية العربية) التي تعيش إلى جوار إسرائيل في سلام، والحل العادل لمشكلة اللاجئين. ومع أن معظم أعضاء الحرس الجديد أكثر تشدداً من نظرائهم القدامى فيما يتعلق بشكل هذا الموقف المبدئي الذي يدعون إليه، فإن موقفهم قد يعكس إدراك الخطر المتزايد الناتج عن إراقة الدماء اليومية؛ ولدى بعض أفراد الجماعة، مثل سري نسيبة رئيس جامعة القدس وممثل ياسر عرفات في القدس الشرقية، أهداف غاية في الاعتدال فيما يتصل بعملية السلام ويعارضون السعي لتحقيقها من خلال العنف.

ويكمن الفرق الرئيسي بين الحرس الجديد والحرس القديم فيما يتعلق بإسرائيل في الطريقة التي يعرِّفون بها الانتصار في المعركة ضد الاحتلال. وتسعى جماعة عرفات إلى التفاوض على تسوية لا تنهي الاحتلال وحسب، بل تسمح كذلك للقيادات المعترف بها بالبقاء في السلطة داخل فلسطين لسنوات مقبلة. وعلى النقيض من ذلك، لا يعتبر الحرس الجديد المفاوضات جزءاً ضرورياً في المعادلة؛ ذلك أن الانسحاب الإسرائيلي من جانب واحد أو الفصل من جانب واحد يفي بالغرض كذلك. وقد لا يعارض المتمردون التفاوض على أية تسوية تدعمها غالبية الفلسطينيين، إن وجدت هذه التسوية في يوم من الأيام. إلا أنهم يدركون أن الحرس القديم وحده هو الذي يمكنه التفاوض على مثل هذا الاتفاق، ذلك أن له قيادة وطنية موحدة ورؤية شديدة الوضوح، وكذلك الخبرة والاتصالات مع الإسرائيليين. ولذلك فإن الحرس الجديد يرى أن الانسحاب الإسرائيلي من جانب واحد أو الفصل من جانب واحد أسلوب أكثر جاذبية لتحقيق الأهداف الوطنية الفلسطينية؛ فالتفاف الحرس الجديد حول المفاوضات بين الإسرائيليين والسلطة الفلسطينية، سيجعل الحرس القديم خارج الموضوع ويرتقي هو إلى السلطة.

وكانت السلطة الفلسطينية قد رحبت في البداية بالانتفاضة الجديدة، لظنها أن الضغط المتزايد على إسرائيل سوف يعزز موقفها على طاولة المفاوضات. إلا أن الحرس الجديد كان ينظر إلى الانتفاضة على أنها وسيلة لوقف المفاوضات وليس لاستمرارها. فقد أكد الفشل في تحقيق أي نجاح في كامب ديفيد اعتقاد القيادات الشابة بأنه لا يمكن للفلسطينيين إنهاء الاحتلال حسب شروطهم هم إلا من خلال المواجهة الشعبية المسلحة.

ولكي يزيد الحرس الجديد من الضغط على إسرائيل ويزيد من عزم المعارضة الداخلية في الأسابيع الأولى من الانتفاضة، أقام تحالفاً، مع الإسلاميين وغيرهم من قوى المعارضة. ورغم اختلافهم على الأهداف النهائية، فإن الحرس الجديد يفضل وجود الإسلاميين في تحالفه وتحت قيادته، على الأقل لتذكره الطريقة التي خلق بها الإسلاميون قيادة موازية، وبنية مؤسسية، وجناحاً عسكرياً في الانتفاضة الأولى.

وليست الفجوة بين الأجيال هي الحاجز المهم الوحيد في المجتمع الفلسطيني. فالحاجز القائم بين الوطنيين والإسلاميين هو الآخر له أهميته، وكذلك الجدل الخفي في بعض الأحيان بين المؤيدين لعملية سلام أوسلو والمعارضين لها. ويتفق بعض أفراد الحرس الجديد، وخاصة هؤلاء الذين أُدمجوا في مؤسسات السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية ـ إلى جانب من هم على شاكلة نسيبة ممن تأثروا بتقليد اللاعنف ـ مع معظم الحرس القديم على أن الانتفاضة الحالية خطأ كبير. إلا أن هذه الجماعة هُمِّشت في ظل الجمود السياسي الحالي والتأييد الشعبي الجارف للمواجهة المسلحة، ولا زالت تلوذ بالصمت.



عند ملتقى الطرق

سوف يتوقف حل التوترات الفلسطينية الداخلية أو تفاقمها على ظهور أي من سيناريوهات ثلاثة محتملة. ففي حال استمرار الجمود الفلسطيني الإسرائيلي الذي يجيش بالغضب، سيكون المستفيد الرئيسي هو الإسلاميون. إلا أنه في حال اختيار إسرائيل الانسحاب واسع المدى أو الفصل من جانب واحد، فسوف يستفيد الحرس الجديد. أما إذا تمكنت القيادتان الإسرائيلية والفلسطينية من الاتفاق على شكل له أهميته من أشكال التسوية التي يتم التفاوض عليها، سواء أكانت تسوية مؤقتة أم دائمة، فسوف يمد ذلك في أجل الحرس القديم.

وسوف يؤدي استمرار الوضع القائم إلى مزيد من الهبوط في الدعم الفلسطيني لعملية السلام وما تستتبعه من تسويات، إلى جانب استمرار مستويات الدعم المرتفعة لاستخدام العنف. وسوف تستمر شرعية السلطة الفلسطينية في التلاشي، وسوف تنخفض معها شعبية عرفات. وسوف يؤدي الصراع بين الحرسين القديم والجديد إلى مزيد من الانقسام والضعف في المعسكر الوطني، حيث يحقق الحرس الجديد انتصاراً على الحرس القديم عند حدوث تغيير في القيادة. وقد يبقى عرفات في السلطة، إلا أن ما لديه من مساحة للمناورة سوف تتقلص إلى حد كبير. وإذا قُدِّر له أن يختفي من على الساحة، فإن خروجه سوف يعجل بموت الحرس القديم ويؤدي إلى الاقتتال بين أفراد الحرس الجديد المتطلعين إلى أن يحلوا محله. وقد تنضم تلك القيادات الشابة الموجودة في السلطة الفلسطينية حالياً إلى الحرس الجديد وتقدم الرجال والدعم الشعبي، وفوق هذا وذاك كل الاحترام السياسي. إلا أنه سواء بقي عرفات أم ذهب، فإن توازن القوة العام سوف يستمر في الانتقال من الوطنيين إلى الإسلاميين، حيث ينجح المعسكر الإسلامي في نهاية الأمر في أن يصبح القوة المهيمنة في السياسة والمجتمع الفلسطينيين.

ومقابل ذلك، فإن الفصل أو الانسحاب الإسرائيلي من جانب واحد سوف يحقق نصراً مبيناً للحرس الجديد. ويبدو الفصل من جانب واحد جذاباً لأنه لا يتطلب وجود شريك على الطرف الآخر. وبما أن إسرائيليين كثيرين يستنتجون أن الفلسطينيين لا ولن يقبلوا الحلول الوسط المقدمة، فإنهم آخذون في الاقتناع بأن الفصل هو الطريقة الوحيدة للحد مما تتعرض له بلادهم من هجوم. واليوم يؤيد معظم الإسرائيليين فكرة إقامة سور بفصل المجتمعين، وإن كان حجم تأييد ذلك يتوقف على مكان خط التقسيم. فكلما اتسع مدى الانسحاب والجلاء الإسرائيلي، كان ما يحظى به من تأييد أكثر فتوراً. ومع ذلك فإن الفكرة تلقى من الدعم على امتداد الطيف السياسي ما يكفي لجعلها احتمالاً حقيقياً.

وسوف يقارن أي انسحاب إسرائيلي من جانب واحد من المناطق الفلسطينية بالانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠. ومن المحتمل أن يتصرف الحرس القديم تصرف الحكومة اللبنانية، بينما يسلك الحرس الجديد سلوك حزب الله. فالسلطة الفلسطينية لن تتولى السيطرة على الأراضي والمستوطنات التي أخليت حديثاً، تاركة تحالف الوطنيين الشباب والإسلاميين الذي جرت تقويته حديثاً ليعلن تحرير تلك المناطق ويستخدمها قواعد يستمر منها في محاربة الجيش الإسرائيلي في المناطق التي لا تزال تحت الاحتلال.

ومن المحتمل أن يرفض الحرس الجديد أية محاولة من جانب قيادة السلطة الفلسطينية لاستغلال مناسبة الانسحاب الإسرائيلي كفرصة لبدء استئناف المفاوضات. والواقع أن القادة الشباب قد يسعون لتحويل ما حققوه من «انتصار» إلى تحد للحرس القديم أو إقصاء له، وبذلك يقوون قبضتهم على الحركة الوطنية (رغم أنهم سيُبقون عرفات لحين ظهور قيادة بديلة لديها ما هو أكثر مما يحظى به من مصداقية في الداخل). وبما أن الجماهير الفلسطينية ستنظر إلى الانسحاب الإسرائيلي من جانب واحد على أنه نصر مبين للحرس الجديد، فإن أسهم الوطنيين بصورة عامة سوف ترتفع، بينما تنخفض أسهم الإسلاميين.

أهو تحرك للأمام؟

قد يفضل الإسرائيليون والفلسطينيون، ناهيك عن العالم الخارجي، سيناريو التفاوض على تسوية ما. ولكن هل حتى هذه النتيجة ممكنة في الوقت الحالي؟ إن أياً من أنواع التسوية الثلاثة ـ الاتفاق الشامل الذي يهدف إلى إنهاء الصراع، وحزمة تهدئة الأوضاع التي يُقصد بها تخفيف حدة العنف ومساندة الوضع الراهن، والاتفاق الانتقالي الواقع بين الاثنين ـ لا يبدو ممكناً اليوم. إلا أنه في وجود القيادة الأمريكية والبريطانية القوية، قد يجد عرفات، بل وربما شارون كذلك، أن اتفاق تهدئة الأوضاع أمر مقبول.

وسوف يحل الاتفاق الشامل كل القضايا موضع النزاع، بما في ذلك القدس واللاجئين، لينهي بذلك الصراع. وكما أوضح التقدم الذي تحقق في مفاوضات كامب ديفيد، فإن هذه التسوية ممكنة. وإذا عاد الجانبان إلى المناقشات الجادة، فإنهما قد يحاولان استكمال العمل الذي بدأه حسب الخطة التي وضعها الرئيس كلينتون في ديسمبر ٢٠٠٠ وتلك التي وضعت في طابا بمصر في الشهر التالي. إلا أن مجرد وضع الشروط التي يمكن أن تبدأ على أساسها تلك المحادثات يوضح كم هي بعيدة المنال. ذلك أن هناك ثلاثة شروط لابد من تحقيقها كي توجد تسوية شاملة لا يتوفر أي شرط منها الآن. أول هذه الشروط هو أنه يتعين على الإسرائيليين أن يأتوا إلى الحكم بقيادة وائتلاف أقل تمسكاً بأيديولوجيا إسرائيل الكبرى تكون على استعداد للانسحاب من كل الأراضي الفلسطينية المحتلة التي احتلت عام ١٩٦٧ تقريباً، وإخلاء معظم المستوطنات، وقبول مقايضة الأرض للسماح للمستوطنات الباقية بأن تظل تحت السيطرة الإسرائيلية. وثاني هذه الشروط هو الحاجة إلى وجود إدارة أمريكية ملتزمة التزاماً قوياً بإنجاح العملية. أما الشرط الثالث فهو ضرورة تحقيق كل من الحرس القديم والحرس الجديد على الجانب الفلسطيني وحدة الهدف. (وهذا الشرط الأخير يمكن تحقيقه إذا تقبل الحرس القديم فكرة الإصلاح السياسي الداخلي الذي يمهد السبيل للنظام السياسي ويوجد الشراكة الممكنة بين الجماعتين القياديتين.)

ولا يعتقد أي من الشعبين الإسرائيلي أو الفلسطيني أن هذا الاتفاق ممكن. فالواقع أن أياً منهما غير مستعد في الوقت الراهن لأن يغض الطرف ويقبل الحلول الوسط المؤلمة التي يقتضيها مثل هذا الاتفاق. وينبغي ألا تؤدي

كان لفقدان الثقة في قدرة عملية السلام على توفير اتفاق دائم بشروط مقبولة أثره شديد القوة على مستوى الدعم الفلسطيني للعنف ضد الإسرائيليين، بما في ذلك التفجيرات الانتحارية ضد المدنيين

هذه الحقيقة إلى اليأس وإنما إلى استنتاج أن القيادة القوية ذات الشرعية المعترف بها هي وحدها التي يمكنها التفكير في السير في هذا السبيل. وفي حالة وجود هاتين القيادتين في يوم من الأيام، فمن الأرجح أن يقبل شعباهما في نهاية الأمر الحلول الوسط اللازمة لأي اتفاق يجرى إبرامه - وهو ما لن يحدث قبل يوم واحد من وجودهما.

وفي الوقت نفسه يمكن أن تكون حزمة تهدئة الأوضاع بمثابة إجراء مؤقت يهدف إلى تهدئة الوضع الحالي، واستعادة ثقة الجماهير في عملية السلام، وتيسير العودة إلى مفاوضات الوضع النهائي التي تبشر بقدر أكبر من الخير. ولا بد لهذه الحزمة أن تشمل وقف كل أشكال العنف، والعودة إلى ما كان عليه انتشار القوات العسكرية قبل الانتفاضة، وتجميد بناء المستوطنات، وتنفيذ التعهدات الانتقالية القائمة (وأوضحها وفاء السلطة الفلسطينية بالتزاماتها والانسحاب الإسرائيلي الحقيقي من المناطق التي عرفتها اتفاقية أوسلو بأنها «المنطقة ج»، وهي تمثل في الوقت الراهن حوالي ٦٠ بالمائة من الضفة الغربية وتشمل مناطق ذات كثافة سكانية منخفضة وكذلك المستوطنات والقواعد العسكرية الإسرائيلية والطرق التي تربط بينها)، والاتفاق على استئناف محادثات الوضع النهائي. ولا بد أن يكون كل من الإسرائيليين والفلسطينيين على استعداد لدعم مثل هذا الاتفاق، حيث يمكن وصفه والترويج له بحق على أنه طريقة بناءة لتنفيذ الإجراءات التي اتفق عليها الجانبان بالفعل.

وقد توافق الحكومة الإسرائيلية الحالية على هذه الحزمة، وإن كان الحصول على هذه الموافقة يتطلب قدراً أكبر بكثير من المشاركة الإيجابية للمجتمع الدولي، وخاصة الولايات المتحدة. ولن يحظى التجميد التام لبناء المستوطنات بالقبول. كما لن تُقبل ثالث وآخر إعادة لنشر القوات من «المنطقة ج» التي نص عليها اتفاق متابعة أوسلو لعام ١٩٩٥، والاتفاق الإسرائيلي الفلسطيني المؤقت - ذلك أنها ستشمل الجلاء عن عدد من المستوطنات المعزولة والمواقع العسكرية المتقدمة في الضفة الغربية. وعلى الجانب الفلسطيني، سوف يتطلب التنفيذ الناجح لهذا الاتفاق اندماج الحرس الجديد التام في النظام السياسي. وفي غياب هذا الاندماج، سيتعين على الحرس القديم فرض وقف لا يحظى بقبول شعبي لإطلاق النار في مواجهة مقاومة يحتمل أن تكون قوية وعنيفة من جانب كل من منتقديه الوطنيين والأجنحة المسلحة التابعة للجماعات الإسلامية وغيرها من جماعات المعارضة. إلا أنه حتى في حال امتثال الحرس الجديد للأمر بالفعل، فمن المحتمل أن تستمر بعض أعمال العنف الصغيرة وتقضي في نهاية الأمر على محاولة تهدئة الأوضاع، ما لم يصاحب ذلك تقدم كبير.

وسوف تتطلب تهدئة الأوضاع مراقبة متعددة الجنسيات، كإجراء لبناء الثقة. وسوف تُصعّب المراقبة الدولية على الحرس الجديد مهاجمة أهداف إسرائيلية دون تحدي عرفات تحدياً صريحاً وإحراجه، وهو ما ليس على استعداد للقيام به. وبذلك يزيد نشر المراقبين ثمن خرق وقف إطلاق النار ويزيد من احتمالات المراقبة الذاتية لوقف إطلاق النار. كما أن المراقبة سوف تساعد على طمأنة كل جانب بشأن نوايا الجانب الآخر، بينما تكون بمثابة دافع مستقل لتنفيذ المراحل الصعبة من الاتفاق، وتخلق بالتالي حوافز لكلا الجانبين على الالتزام التزاماً تاماً.

وإذا أضيفت أربعة مكونات أخرى إلى حزمة تهدئة الأوضاع، فإنها ستكون بمثابة ترتيب انتقالي، وهذه الإضافات الأربع هي الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة، بما في ذلك إزالة كل المستوطنات الموجودة فيه؛ والمزيد من إعادة نشر للقوات الإسرائيلية في الضفة الغربية بما يؤدي إلى الربط التام بين الأراضي الفلسطينية هناك؛ وإقامة الدولة الفلسطينية؛ وتوسيع تفويض المراقبين الدوليين ليشمل الإشراف على نشر القوات الإسرائيلية والسيطرة الفلسطينية على معابر الحدود الدولية؛ وقد يسمي شارون هذا اتفاقاً مؤقتاً طويل المدى، بينما قد يفضل عرفات النظر إليه على أنه آلية جديدة ومحسّنة لتنفيذ الاتفاق المؤقت القائم. ولكن إذا كانت هناك رغبة للتحرك قدماً، فيمكن إقناع الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني بحزمة جديدة لتهدئة الوضع.



وقد دعا بالفعل شيمون بيرس - وهو الآن وزير خارجية إسرائيل - إلى معظم هذه المكونات. كما قيل إن شارون على استعداد لمناقشة الانسحاب من غزة منذ زيارته الأولى للولايات المتحدة كرئيس للوزراء. في الوقت الذي أعلن فيه مراراً استعداده لقبول الدولة الفلسطينية المجاورة. ومع ذلك فإن من المؤكد تقريباً أن أي تقدم نحو الاتفاق المؤقت لا بد أن يكون في البداية من خلال حزمة تهدئة للأوضاع أكثر تواضعاً.

الإصلاح أو الفناء

كان لهجمات الحادي عشر من سبتمبر أثر مهم، ولكنه مؤقت، على المجتمع الفلسطيني، إذ خلق الغضب العالمي من الإرهاب وتصميم الولايات المتحدة على قيادة تحالف لمواجهته مخاوف جديدة، بينما أتاح فرصاً جديدة. فقد كان عرفات مصمماً على تحاشي أي ربط بينه وبين الإرهاب ضد المدنيين، وكان حريصاً على إبداء تضامنه مع الولايات المتحدة. وكان معظم الفلسطينيين، بمن فيهم الحرس الجديد، يخشون انتهاز إسرائيل فرصة الأزمة وشن هجوم مدمر ضد المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية. وكان الإسلاميون الفلسطينيون يخشون الربط بينهم وبين أسامة بن لادن وشبكته. ونتيجة لذلك امتنع الإسلاميون عن الهجمات الانتحارية ضد المدنيين الإسرائيليين لبعض الوقت، وابتعد الحرس الجديد عن حلفائه، وأصبحت مصداقية الحرس القديم الدولية شيئاً له قيمته وغطاء مفيداً. وكان عرفات يرى أن ثمن الترضية المستمرة للحرس الجديد قد زاد زيادة كبيرة، وربما كان يخشى على بقائه هو.

إلا أن حاجة الولايات المتحدة إلى الدعم الإسلامي في الحرب ضد الإرهاب أتاحت في الوقت ذاته بعض الفرص. فلم تفعل الإدارة الأمريكية ما يلزم بشأن مؤتمر سلام الشرق الأوسط، الذي أدى إلى بدء مفاوضات سلام مباشرة غير مسبوقة بين إسرائيل وكل جيرانها العرب، إلا بعد حرب الخليج. وكان الحرس القديم يأمل هذه المرة في حدوث ما يشبه ذلك. وهكذا استخدم عرفات الضغط والإقناع لجعل معارضيه في الداخل يقبلون الهدوء المؤقت.

ومع ذلك لم يصدق الحرس الجديد ولا الإسلاميون أن شارون سوف يبدي تعاوناً؛ وشكهم في محله حتى الآن. فالتزاماً بفكرة أن يد عرفات وراء كل حادث عنيف، يبدو أن شارون وكبار أعضاء الحكومة الإسرائيلية ومجتمع الاستخبارات قد توصلوا إلى نتيجة مؤداها أن عرفات لم يعد شريكاً. والواقع أنهم يقومون بعملية مطردة ولكنها غير منتظمة لإلغاء شرعية سلطته وتصفيتها. وقد أدركوا أن الهدوء النسبي على الجانب الفلسطيني قد لا يكون سوى أمر مؤقت وسعوا إلى حرمانه من طوق النجاة الذي قد توفره له دبلوماسية ما بعد الحادي عشر من سبتمبر. وما زالت سياسة إسرائيل الخاصة بالاغتيال وغزو الأراضي التي تخلت عنها من قبل مستمرة، رغم نجح عرفات في خفض مستوى العنف بنسبة تزيد على ٨٠ بالمائة في وقت قصير. ويبدو كذلك أن المساعي الدبلوماسية الحميدة الخارجية لن تتمكن من إجبار عرفات على الالتزام الكامل بوقف إطلاق النار أو كبح جماح استفزازات شارون المستمرة.

وبذلك فمن غير المحتمل أن يختار عرفات والحرس القديم الوقف التام لإطلاق النار، بل قد لا يكون في وسعهم فرضه. ومنذ اندلاع الانتفاضة الثانية وهم مضطرون للتحرك بحذر شديد: فلم تعد السلطة الفلسطينية تتمتع باحتكار استخدام القوة في أراضيها. كما أن شرعيتها موضع شك من جانب الشارع الفلسطيني، بينما يؤيد شعبها العنف ويعارض اتخاذ إجراءات متشددة ضد الإسلاميين أو راديكاليي الحرس الجديد، ولا تبدو في الأفق أية عملية سياسية ممكنة. وإذا أقدم عرفات على قمع معارضيه في الداخل فإنه يخاطر، في حال نجاحه، بأن يُنظر إليه على أنه أحد أعوان إسرائيل أو أنه صورة من سعد حداد (قائد جيش جنوب لبنان الذي أقامته إسرائيل في أواخر السبعينيات لتوفير الأمن لشمال إسرائيل). وإذا لم ينجح، فإنه سيواجه بحرب أهلية.

ولذلك فإن خيارات عرفات محدودة. ففي بيئة سياسية طرأ عليها تغيير يحصل فيها عرفات على الشرعية والدعم الجماهيري، استطاع رئيس السلطة الفلسطينية التحرك لفرض وقف إطلاق النار. وهذه البيئة يمكن تحفيزها بتحريك عملية السلام، التي بدأتها وقادتها الولايات المتحدة وأيدها المجتمع الدولي، وإن كانت احتمالات حدوث ذلك ضعيفة جداً.

إلا أنه إذا كان الوضع الحالي يبدو سيئاً - وخاصة في أعقاب استئناف الهجمات الانتحارية الفلسطينية الكبرى في أوائل ديسمبر - فمن السهل تخيل ما يمكن أن يكون عليه من سوء أشد. واليوم تعد قيادة عرفات هي العامل الذي يحافظ على تماسك الحرس القديم والحرس الجديد معاً، ويحول دون استيلاء الحرس الجديد التام والقريب على السلطة. ورغم ضعف مهارات الاتصال لدى عرفات، فهو لا يزال يعطي الجماهير الفلسطينية إحساساً بالاستقرار، وبذلك يحول دون انهيار واسع المدى للقانون والنظام. كما أن وجوده يمنع الإسلاميين من أن يشكلوا خطراً مباشراً على هيمنة الوطنيين غير المستقرة: ففي غيابه قد تتفتح أبواب جهنم.

ولدى عرفات والسلطة الفلسطينية بطبيعة الحال بديل لهذا المستقبل المظلم: فبدلاً من أن ينتظروا بلا جدوى خطة سلام أمريكية أو دولية لإنقاذهم، يمكنهم الشروع الآن في عملية إصلاح سياسي. وسوف يتيح ذلك للحركة الوطنية كسب تأييد معظم الفلسطينيين، في الوقت الذي يؤدي فيه إلى دمج فئتيها الرئيسيتين. وسوف تكون الرسالة الموجهة إلى عرفات والحرس القديم والمجتمع الفلسطيني بصورة عامة هي الإصلاح أو الفناء. ■

(Foreign Affairs, January/February, 2002)

ترجمة: أحمد محمود

قـــــــــــراءات فـــــــى

لم يمر قرن دون أن تستقبل الدنيا حروبًا كريهة. لم تولد أمــة ولم تعرف الشيخوخة أو المــوت فى ظل السلم

«ديجــول»

■■ يتفق الخبراء الجيوسياسيون وعلماء السياسة من ألفريد جروسر إلى محمد حسنين هيكل إلى جان دانيال إلى فرانسوا فورى وغيرهم على أن القرن العشرين ابتدأ عام ١٩١٤ وانتهى عام ١٩٨٩، بسقوط حائط برلين وما تلاه من تفكك الاتحاد السوفيتى. أى أن بداية القرن العشرين اقترنت بحرب وضعت حداً لما كانت تتمتع به دول أوروبية قوية من حصانة تجعلها مستعصية على من يفكر فى الاعتداء عليها. فى حين أن نهاية القرن اقترنت ببقاء دولة واحدة متمتعة بالحصانة وهى الولايات المتحدة الأمريكية التى انفردت بهذه الخاصية منذ ١٩٨٩ مثلما انفردت بالتفوق العسكرى. ولعل هذا هو ما حمل عددًا من الخبراء على اعتبار يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ يوماً فاصلاً بين عهدين. لأن انهيار برجى نيويورك والهجوم على البنتاجون وضعا حداً لانفراد أمريكا بالمنعة والحصانة. لذلك اعتبره كثيرون هو البداية الحقيقية للقرن الواحد والعشرين.

فهل كُتب على الإنسانية أن تكون الأيام الفاصلة بين قرونها مرتبطة بالحروب؟ يبدو أن الجواب بالإيجاب. وقد سبق للجنرال ديجول أن كتب بأن العالم لم يعرف فى تاريخه قرنًا ساده السلام «.. إذ لم يمر قرن دون أن تستقبل الدنيا حروبًا كريهة. لم تولد أمة ولم تعرف الشيخوخة أو الموت فى ظل السلم. إن تاريخ الإنسانية مع الأسف هو تاريخ أسلحتهم».

إن الخسائر المهولة التى لحقت بالإنسانية فى الحرب العالمية الثانية وما سجلته هذه من دمار وما شهدته من جرائم ضد الإنسانية جعلت الناس يتصورون أنها هى آخر الحروب. لذلك احتفلت شعوب الدنيا كلها بذلك الانتصار، بما فيها شعوب المستعمرات التى اعتبرته إيذانًا باقتراب موعد تحررها، وخصوصًا أن كثيرين من أبنائها ساهموا فى تلك الحرب وكانوا وقوداً لها.

وهذا ما يفسر اندفاع الجماهير فى مظاهرات ضخمة دعت إليها حركات وطنية كما حدث فى الجزائر. لكن السلطات الرسمية واجهتها بالحديد والنار فى عمليات عسكرية شارك فيها سلاح الطيران، (كان مساعد وزير الطيران الفرنسى آنذاك من الحزب الشيوعى الفرنسى) كان شعوب المستعمرات غير معنية بالانتصار على النازية رغم أنها شاركت فى محاربتها، وكان دورها يقف عند حد تقديم دمائها وأرواحها. وكان ذلك إعلاماً للمستضعفين فى الأرض المهمشين فى التاريخ أن هناك مكيالين ومنظارين للحكم على الأشياء وتقييم التصرفات.

إن رد الفعل ذاك زاد سمعة الدول الاستعمارية الأوروبية تشويهاً، وجعل النخب المثقفة فى المستعمرات تتطلع إلى أمريكا أن تساعدها على التحرر، أو تراهن على الاتحاد السوفيتى. فقد كانت أمريكا تتمتع بسمعة طيبة منذ إعلان مبادئ ويلسون فى بداية القرن الماضى. (لم تكن ممارساتها فى أمريكا اللاتينية معروفة). لذلك فكر أحد زعماء الحركة الوطنية الجزائرية وهو فرحات عباس فى الاستعانة بأمريكا، أقوى دولة فى معسكر الحلفاء، فتقدم إلى ممثلها فى الجزائر بمذكرة تضمنت مطالب سياسية، تحمل عنوان: «البيان الجزائرى» وما لبث أن تحول هذا العنوان إلى اسم حزب سياسى جماهيرى واسع انضوت تحت لوائه أهم الحركات الوطنية بما فيها من كان نشاطه محظوراً. لذلك انصب عليه التنكيل الاستعمارى فى ٨ مايو ١٩٤٥.

إن السمعة الطيبة التى كانت تتمتع بها أمريكا، هى التى جعلت جبهة التحرير الجزائرية تهتم بخطاب ألقاه السيناتور «كينيدى» (قبل أن يصبح رئيساً) فى مجلس الشيوخ، تعرض فيه للقضية الجزائرية. لذلك قررنا فى هيئة التحرير «المقاومة الجزائرية» نشر نصه كاملاً فى كلتا الطبعتين العربية والفرنسية فى ربيع ١٩٥٧.

ومعروف أن الحرب الباردة بين الغرب والمعسكر الشيوعى بالإضافة إلى تناقضات داخل المعسكر الغربى نفسه، وبروز تيار عدم الانحياز بعد مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥ (الذى سجل ظهور العالم العربى بقوة عبر شخصية جمال عبدالناصر).. كل ذلك ساعد على انتزاع الاستقلال السياسى لعدد من الشعوب المستعمرة.

رؤســاء أمــريكا منذ ١٩٤٥

رؤســــاء حــــرب

مــاعــــدا كلينتـــون

إذن فقد كان عام ١٩٤٥ محطة مهمة فى تاريخ الإنسانية، أصبحت معه أمريكا والاتحاد السوفيتى تنفردان بالتفوق والحصانة. وإذ نجحت كل منهما فى صنع القنبلة النووية فإن الرعب المرتبط باستخدامها قد أصبح عامل تجميد لها وعنصر توازن قائم على الرعب، إلى أن تفكك الاتحاد السوفيتى فانفردت أمريكا وحدها بالتفوق والهيمنة.

اطمأنت دول أوروبا الغربية لهذا الوضع الجديد فقررت تخفيض ميزانياتها العسكرية؛ فى الوقت الذى استغلت فيه أمريكا ذلك الوضع كى تطبق اختراعات الثورة الصناعية الثالثة على المجال العسكرى وليس على الميدان الاقتصادى وقطاع الاتصالات فقط. بذلك كانت الولايات المتحدة هى أول دولة فى العالم تطبق ثورة الاتصال والرقمية على فنون الحرب فأصبحت قواتها الجوية والبرية والبحرية تتمتع بمرونة فائقة، وانسجام فريد ودقة متناهية.

وهكذا «دشنت» أمريكا فى العقد الأخير من القرن الماضى حرباً جديدة تختلف كل الاختلاف عن سابقاتها، ولا تنطبق عليها قواعد الحرب التقليدية التى فلسفها «كارل فان كلوسويتز» فى كتابه المعروف عن الحرب.

فقد برمجت رقمياً «عاصفة الصحراء» فى قاعدة عسكرية بولاية فلوريدا، قبل أن تطبقها بدقة متناهية، فى بلاد العرب، بعد عدة أشهر. لقد تضاءلت الفروق بين الخطط الافتراضية المرسومة على خرائط مجسمة، وبين تنفيذها فى ميدان العمليات. وبذلك انعدم هامش المجهول أو كاد ينعدم، عكس ما كان عليه الأمر فى الماضى.

لذلك أصبحت الخطط الأمريكية تنص على «صفر» أموات، بالنسبة لجنودها، مما جعل بعض الكتّاب يعتبرون أن حرب الخليج الثانية لم تقع.

هكذا أصبح البون شاسعاً بين أوروبا وروسيا من جهة وأمريكا من جهة أخرى، بحيث يمثل هوة كبيرة يستحيل تداركها.

بذلك توفر لأمريكا مالم يتوفر لغيرها: مستوى فائق من التقدم التكنولوجى فى جميع المجالات فانفردت بالتفوق والهيمنة على العالم، إضافة إلى موقع حصين بين المحيطين الأطلسى والهادئ يجعل مستحيلاً على أية قوة معادية أن تأخذها على غرة.

مع ذلك فكرت واشنطن منذ عهد ريجان، فى تعزيز تلك الحصانة عبر مشروع «حرب النجوم» واستمر هذا التوجه فى عهد بوش الأب. ففى العام الرابع والأخير لولايته الأولى، وضع البنتاجون سنة ١٩٩١ دليلاً يحدد الأولويات لسنوات ١٩٩٢ - ١٩٩٤ على أساس أن بوش سينجح فى الانتخابات لولاية ثانية، خصوصاً وقد انتصر فى حرب عاصفة الصحراء وكرّس التفوق الأمريكى. ينص ذلك الدليل على أن من واجب أمريكا «أن تمنع أية قوة معادية من إحكام سيطرتها على مناطق غنية بموارد تسمح لها بأن تصبح دولة كبيرة». كما ينص على ضرورة صرف البلدان المتقدمة صناعياً «عن التفكير فى أية محاولة تهدف إلى تحدى الزعامة الأمريكية أو تغيير النظام السياسى القائم».

أعدّ هذا التقرير كل من النائب الحالى لوزير الدفاع، ومستشار نائب الرئيس الحالى لشئون الأمن القومى، وقد سبق لوزير الدفاع فى حكومة بوش الأب أن أدلى ببيان أمام لجنة الدفاع فى مجلس الشيوخ بتاريخ ٢١ فبراير ١٩٩١، جاء فيه:

«إن هذه الحرب نموذج لنوع الحروب التى يمكن أن نخوضها فى العهد الجديد.. إن لنا، زيادة على مصالحنا فى جنوب غربى آسيا، مصالح مهمة فى أوروبا وآسيا والمحيط الهادئ وأمريكا اللاتينية والوسطى. فيجب أن نضبط سياساتنا ونعد قواتنا بحيث تردع أى تهديد، وتسمح (فيما إذا لم يكن بد من الحرب) بالانتصار السريع فى المستقبل على أى خطر..»

لكن نجاح بيل كلينتون فى انتخابات نوفمبر ١٩٩٢ أوقف العمل بتلك الأولويات. فهو أول رئيس أمريكى يفكر فى الخروج عن خط الحرب، منذ ١٩٤٥.

«كل الرؤساء، من ترومان إلى بوش الأب كانوا رؤساء حرب» حسب تعبير المؤرخ Ronald Steel.

فقد صرح كلينتون بعد انتخابه وقبل أن يتسلم مقاليد الحكم بأن لإدارة المفضلة للدبلوماسية الأمريكية مستقبلاً ستكون هى حرية الاقتصاد والمبادلات التجارية. وقد جسمت هذا الخيار اتفاقيات التبادل الحر التى أبرمتها واشنطن مع المكسيك وكندا عام ١٩٩٣، والتصديق على منظمة التجارة العالمية عام ١٩٩٤ والتقارب مع كل من روسيا والصين.

نتيجة لهذا التوجه، تحول مركز الثقل من أجهزة الأمن القومى ووزارة الدفاع إلى وزارة المالية والمجلس الجديد للأمن الاقتصادى التابع للبيت الأبيض.

وذلك يتطلب إعادة النظر فى مستلزمات منطق الحرب الباردة الذى كان هو السائد قبل ١٩٩٣. ومن هنا كانت علاقة كلينتون سيئة مع المؤسسة العسكرية. وتولدت عن ذلك معركة ليّ ذراع انتهت لغير صالح كلينتون.

عـــــسكرة الفـــضــــاء

هــل تــنــهـــى الإرهـــاب؛

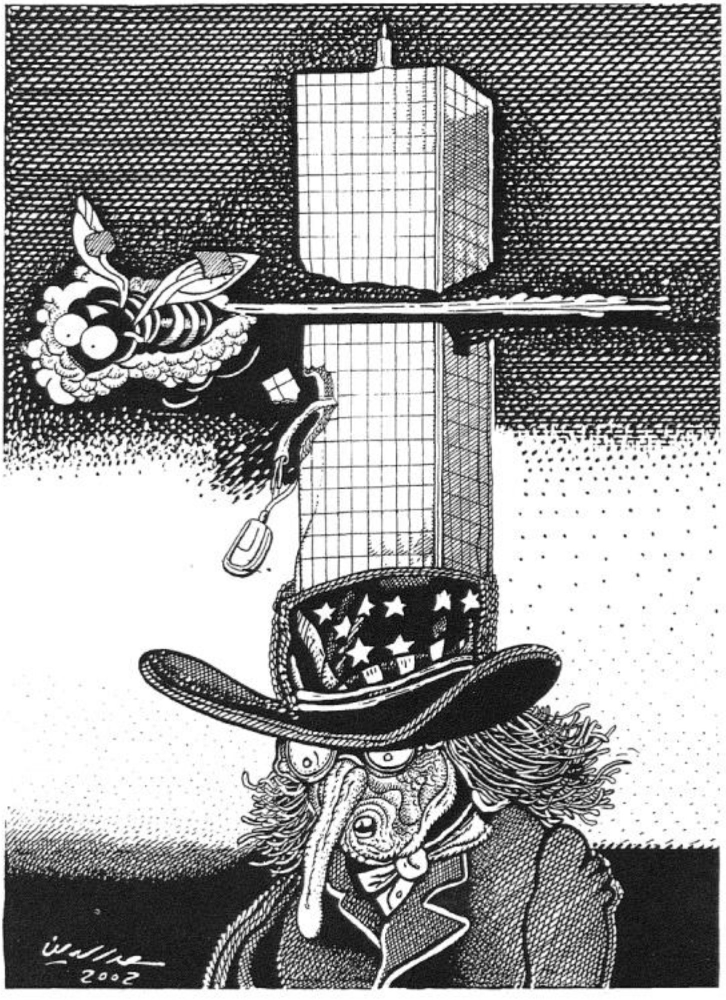
مع مجىء الرئيس بوش الابن، أصبح الذين يحتلون أهم مناصب المسئولية، من أنصار إعطاء الأولوية للإستراتيجية العسكرية، وممن سبق لهم ممارسة مسئوليات أمنية وعسكرية زمن الحرب الباردة وخلال حرب الخليج الثانية، مثل ريتشارد شينى (نائب الرئيس) وكولين باول (وزير الخارجية) ودونالد رومسفيلد (وزير الدفاع) وجيمس كيلى (مستشار نائب الرئيس لشئون الأمن القومى) وبول وولفوفيتز (نائب وزير الدفاع).

وتجدر الإشارة إلى أن وزير الدفاع الحالى كان أحد منظرى الحرب الباردة، فيما بين ١٩٧٥ و١٩٨٩، وسعى إلى إزالة مصطلح «الانفراج» من قاموس السياسة الخارجية الأمريكية.

فليس من محض المصادفة أن يكون هو الذى وضع تقريراً يحمل اسمه، نشر بتاريخ ١١ يناير ٢٠٠١ (بعد الانتخابات الرئاسية وقبل التنصيب الرسمى للحكومة الجديدة)

١١ سبتمبر

محمد الميلي



هذا التقرير يتعرض بالتفصيل لأهم المخاطر التى تهدد أمريكا؛ مثل الخطر الذى يمكن أن يصدر عن رجال «مثل أسامة بن لادن، قد يتحصلون على أسلحة باليستيكية» ومثل الخطر الذى قد يتخذ شكل هجومات تأتي من الفضاء. ويترتب على ذلك ضرورة أن يُمنح الرئيس خيار نشر أسلحة فى الفضاء للدفاع عن المصالح الأمريكية.

وقد تساءل أحد الذين علقوا على هذا التقرير، فى شيء من السخرية: ما هى الجهة التى يمكن لها أن تتحدى أمريكا فى أعالى الفضاء أو فى أعماق البحار؟ هل هى روسيا التى تبحث عن سياح أمريكان أثرياء حتى يمولوا برنامجها الفضائى»؟

أما خطر بن لادن فلم يتعرض له أحد بالتعليق. ومهما يكن من شيء، فإن الإدارة الأمريكية الحالية لم تخف خططها لتحقيق أهدافها من أجل عسكرة الفضاء حتى من قبل ١١ سبتمبر. فميزانيتها العسكرية المعدة لعام ٢٠٠٢ تتجاوز ميزانياتها السابقة: ٣٤٠ مليار دولار مقابل ٣١٠ فى السنوات الماضية وهى ميزانية تفوق الميزانيات العسكرية لكل من الصين وروسيا وألمانيا وفرنسا مجتمعة.

كما أن سياسة الطاقة التى اقترحها الرئيس بوش فى شهر مايو الماضى، تنص على مواصلة نمو الاستهلاك فى الطاقة بنسبة ١,٣٪ سنوياً لغاية عام ٢٠٢٠. وهذا يعنى استحالة اللحاق بها فى هذا الميدان أيضاً من طرف أية قوة فى العالم: فمعدل استهلاك الفرد الأمريكى سنوياً يقدر الآن بـ٥,٥ طن، بينما لا يتجاوز معدل الاستهلاك الفردى فى العالم طنا ونصف.

من المعروف أن أمريكا واجهت مع انتهاء الحرب الباردة مشكلة زوال عدو واضح يساعدها على تعبئة قواها، ويمكنها من تحقيق مزيد من الانصهار لوحدة شعبها.

وقد سبق لأحد رجال جورباتشوف، وهو «جورجى أرباتوف»، أن قال للأمريكان عام ١٩٨٨: إن الاتحاد السوفيتى سوق ينصب لكم فخاً رهيباً، سوف يحرمكم من وجود عدو.

بعد زوال الخطر السوفيتى ظهرت نظرية صدام الحضارات، وتم التلويح بالخطر الإسلامى. ولم يغب على الإدارة الأمريكية أنها فى حاجة إلى عدو خارجى. وهو ما عبر عنه هنرى كيسنجر فى كتابه الضخم «دبلوماسية» بقوله: «إن ما تحتاج إليه أمريكا هو تهديد واضح معروف وأيديولوجية معادية. هاتان الخاصيتان من خصائص الحرب الباردة لم تعودا موجودتين».

بماذا يمكن والحالة هذه تعويض الخطر الشيوعى!

لم يتبَنَّ كيسنجر نظرية صدام الحضارات ولكنه استعمل مثلاً

أسبانياً يقول: «أيها المسافر، لا توجد أمامك طرق، فانت الذى تشقها عندما تمشى».

فهل كان حادث ١١ سبتمبر هو الذى شق أمام واشنطن الطريق الذى كانت تبحث عنه؟

إن الذى لاشك فيه الآن هو أن واشنطن وجدت فيما حدث فرصة فذة تمكنها من ضرب عصفورين بحجر واحد: تحديد العدو الذى هى فى حاجة إليه، وتحقيق الأهداف التى لم تتمكن من تحقيقها فى المنطقة بعد أن خاب الأمل الذى كانت علقته على الطاليان.

فقد راهنت أمريكا، على نظام الطالبان عندما انتصر عام ١٩٩٦، أن يمكنها من الاستيلاء على المنطقة وثرواتها الطاقوية. لقد علق أحد المسئولين فى جهاز المخابرات الأمريكية على انتصار الطالبان بقوله:

«إن هؤلاء الشباب (الطالبان) ليسوا أسوأ من غيرهم. إنهم شديدو الاندفاع، لكن بسط نفوذهم على البلاد أفضل من الحرب الأهلية. فهم يسيطرون على كل التراب الواقع بين باكستان وحقول غاز تركمانستان لذلك قلنا: قد تكون سيطرتهم أمراً جيداً. فذلك يسمح ببناء أنبوب يمر عبر أفغانستان لنقل مصادر الطاقة إلى السوق الجديدة وهو ما يرضى الجميع».

وقد عبّر نائب رئيس الشركة الأمريكية Unocal عن تأييد شركته للطالبان عندما وصف انتصارهم بأنه «تطور إيجابى» لأن من شأنه أن يساعد على تحقيق مشروع أنبوب الغاز».

لكن تفجير السفارتين الأمريكيتين فى نيروبى ودار السلام عام ١٩٩٨، كشف لواشنطن عن انفلات نظام الطالبان من حساباتهم.

تسبب ذلك فى تقارب أمريكى ـ هندى، فى الوقت الذى وجد فيه النظام الباكستانى نفسه رهينة لنظام الطالبان، المعزول عالمياً، دون أن يتمكن من الحصول على العمق الاستراتيجى الذى ما فتئت إسلام أباد تسعى لتحصيله.

حتى كان يوم ١١ سبتمبر، فادخل متغيرات جيوسياسية فى المنطقة وفى عدة جهات من العالم: فاضطرت باكستان إلى التخلى عن «الطالبان» فتحسنت علاقتها مع أمريكا التى وجدت فى ذلك مسوغاً لرفع العقوبات التى كانت قد فرضتها إثر التجارب النووية عام ١٩٩٨.

لكن لم تكن المتغيرات الجيوسياسية هى النتيجة الوحيدة ليوم ١١ سبتمبر، فلأول مرة تتعرض أمريكا لعدوان خارجى منذ ١٨١٢، عدوان ضرب رمز قوتها الاقتصادية فى نيويورك ورمز هيمنتها العسكرية فى واشنطن، وإن كان فشل فى ضرب الرمز السياسى (البيت الأبيض).

فيما عدا ذلك لا يوجد وجه شبه، لأن عدوان ١١ سبتمبر ضرب التراب الأمريكى فى العمق بينما كان هدف الهجوم اليابانى هو بيرل هاربور فى جزيرة هاواى. وإذا كان المزارعون الأمريكان تمكنوا من قلب النظام الملكى الأهلى هناك عام ١٨٩٨، فإن مجموعة جزر هاواى لم تصبح الولاية الخمسين إلا عام ١٩٥٩، زيادة على كونها بعيدة عن الشواطئ الأمريكية المطلة على المحيط الهادئ.

ما حدث فى سبتمبر الماضى يمثل أسلوباً فى الحرب لم يسبق له مثيل، زيادة على كون الطرف المعتدى لا يمثل دولة، بل هو تنظيم له فروع منتشرة فى جهات مختلفة من العالم، بما فيه التراب الأمريكى.

إن الدقة التى نفذت بها العملية و«الخبطة» الإعلامية التى حققتها على مستوى المعمورة ضاعفت من الفزع الذى ألحقته بأمريكا وغير أمريكا. ومما يزيد فى مضاعفة مخاوف العالم من هذا السلاح الجديد أن تاريخ الحروب علمنا بأن ظهور أى سلاح جديد، يعنى أن استعماله سوف يتكرر مهما بلغ مفعوله من الفظاعة والوحشية والتدمير. فقد استعمل غاز الحرب أكثر من مرة رغم تحريمه دولياً بعد ظهوره فى الحرب العالمية الأولى. وإذا كان قد خُيّل للعالم أن تدمير Gueruice فى أسبانيا عام ١٩٣٧ من طرف الطيران الألمانى لن يتكرر فى تاريخ الحروب، فقد تواصل تدمير المدن بعد ذلك فى حروب بين دول وفى حروب أهلية.

وقد سجل بعض المنظرين أن التاريخ القديم عرف «المدينة الدولة» (أثينا وإسبرطة) وعرف التاريخ الوسيط «المنطقة الدولة» ممثلة فى الإقطاع وسلطات الإقطاعيين وعرف التاريخ الحديث «الأمة الدولة».. أما الآن فالعالم يواجه إمكانية وجود «تنظيم ـ دولة» إن لم يكن «فرد ـ دولة» كما يوحى بذلك التركيز على أسامة بن لادن.

وإذا كانت أمريكا قد توقعت حدوث هجوم عليها يشنه مثل هذا التنظيم ـ الدولة، فإنه لم يخطر على بالها أن يأتى الهجوم فى صورة طائرات مدنية يتم تحويلها بالسكاكين والمدى والتهديد بالقنابل اليدوية.

إن ١١ سبتمبر إذ وضع حداً لاستحالة ضرب أمريكا فى العمق، فهو يعنى أن الولايات المتحدة أصبحت مندمجة فى المجموعة الدولية، مما يستلزم صهر عولمة جديدة.

لماذا قالت أمريكا: كيف حدث هذا؟ ولم تتساءل:

لماذا حدث هذا؟

فى مواجهة هذا الوضع الجديد يمكن لأمريكا أن تتخذ أحد موقفين، يقع كل منهما على طرف نقيض الآخر.

الأول: هو أن تستخلص العبرة فى اتجاه تفهم أى محاولة فهم ما يجرى فى العالم خاصة مطامح وتطلعات الشعوب، وهذا يستلزم حداً أدنى من مراجعة سياستها الخارجية، أى حد أدنى من النقد الذاتى.

وهذا ما تصوره أو تمناه Stephen Schle Sivgo، وهو من أنصار الحزب الديمقراطى، لكنه أعجب بشخصية بوش كما بدت بعد ١١ سبتمبر، وهو يرى أن ذلك اليوم أحدث صدمة نبهت أمريكا إلى أنها لم تعد جزيرة عملاقة محصنة، بل أصبحت جزءاً من عالم حقيقى وليس افتراضياً.

وهو يتصور أنه إذا لم تستخلص واشنطن العبرة من الحدث ولم تنفتح انفتاحاً حقيقياً على العالم، غير آبهة بالآخرين، فإن هناك مبانى وعمارات أخرى سيلحقها الدمار فى المستقبل.

الثانى: أن تكون قراءتها للحدث متمشية مع منطق الحرب المعتمد لدى الإدارة الأمريكية؛ وتتمثل فى استخراج نتيجة أخرى مغايرة خلاصتها أن الخطر أضخم مما كان يتوقعه منظرو البنتاجون، وأن الأمر يقتضى المزيد من الاستعداد لتجنب مثل ذلك اليوم فى المستقبل. حينئذ يتطلب الأمر تطوير القوة العسكرية والتعجيل بعسكرة الفضاء.

ولا يخفى أن مثل هذا الاتجاه يعنى تعزيز الهيمنة الواحدة، والانفراد بالقرار فى مواجهة الوضع الجديد: ويترتب على ذلك أن أمريكا تمثل بمفردها المجتمع الدولى. على هذا الأساس يعتبر النظام الأمريكى ليس فقط متفوقاً، بل مدعو لمزيد من التفوق؛ ومن هنا فلا يمكن لمثل هذا الحدث أن يجبرها على مراجعة سياساتها، لأن يوم ١١ سبتمبر، رغم خطورة دلالاته، حسب هذه القراءة يمثل جملة اعتراضية بين قوسين، لا تدخل تغييراً أساسياً على السياق العام ولا تتسبب فى أى تعديل لميزان القوى. هذا التوجه ينسجم مع ثوابت السياسة الأمريكية المعروفة منذ الحرب العالمية الثانية، وليس فقط منذ عهد ريجان، ففى ربيع ١٩٤٢ عندما زار مولوتوف ـ وزير خارجية الاتحاد السوفيتى ـ واشنطن واستقبله الرئيس روزفلت، عرض هذا الأخير على مبعوث ستالين برنامجاً يتمثل فى تكليف أربع دول بالسهر على السلم فى العالم وهى الولايات المتحدة، بريطانيا، الاتحاد السوفيتى والصين.

لكن الرئيس الأمريكى لم يكن مقتنعاً، فى قرارة نفسه، بهذا العرض أو على الأقل لم يكن يجعل الدول الأربع فى مستوى واحد: يؤكد ذلك ما قاله لابنه إيليوت، بعد ذلك «إن بريطانيا فى حالة أفول، والصين لاتزال تعيش فى القرن الثامن عشر، والاتحاد السوفيتى يتخوف منا، ويدفعنا إلى التخوف منه. فأمريكا هى وحدها القوة الكبرى التى تستطيع أن تحافظ على السلام فى العالم».

إذن فاعتبار أمريكا هى الدولة الوحيدة القادرة على أن تسهر وتضمن السلام العالمى، فكرة قديمة نسبياً، وقد تأكدت بعد حائط برلين ولم تعد محل نقاش.

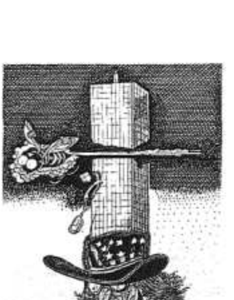
فليس من المستغرب إذن أن ينتصر الخيار الثانى لدى الفريق الحاكم الآن.

ويرى عدد غير قليل من الخبراء والمهتمين بالشأن السياسى، سواء فى أوروبا أو أمريكا اللاتينية أو حتى فى الولايات المتحدة نفسها أن ذلك الخيار سوف ينتهى إلى مأزق. بل هو يؤدى إلى تعميق الأزمة.

ويبدو أن هذا التوجه يتماشى مع الرأى العام، فأغلب الأمريكان يتساءلون: كيف وقع هذا، وقليل هم الذين تساءلوا: لماذا وقع هذا؟ والفرق واضح: فسؤال «كيف وقع» يتطلب جواباً «فنياً» إن صح هذا التعبير، أى يوجه الجواب نحو ثغرات محتملة فى أجهزة آلية وشبكات بشرية متفوقة على كل نظائرها فى العالم، وطرح السؤال السابق: كيف وقع، يغنى عن طرح سؤال «لماذا وقع» فضلاً عن أن يوجه إلى البحث عن الأسباب.

ومن العوامل التى ساعدت على عدم التفكير فى طرح سؤال «لماذا» هو ما عرف عن الرأى العام الأمريكى من عدم الاهتمام بما يجرى فى الخارج.

أما ما ذهب إليه بعض المعلقين من تشبيه ذلك العدوان بواقعة «بيرل هاربور» فهو غير وارد؛ لأن وجه الشبه الوحيد بين الهجومين يتمثل فى أن المخابرات الأمريكية توقعت فى كلتا الحالتين حدوث شىء ما، إلا أنها لم تستطع أن تحدد توقيته ولم تنجح فى إحباطه.



التاريخ عرف «المدينة الدولة» و«المنطقة الدولة» و«الأمة الدولة».. أما الآن فالعالم يواجه إمكانية وجود «تنظيم ـ دولة» إن لم يكن «فرد ـ دولة»

وقد حاول الكاتب والصحفى الأمريكى David Halberstam أن يقدم تفسيراً لعدم الاهتمام بما يدور فى العالم الخارجى، خلاصته أن نهاية الشيوعية جعل أمريكا تبتعد عن العالم، فانحسرت المعلومات الخارجية. وهكذا قلصت الصحف الكبرى مساحاتها المخصصة لأخبار العالم، كما أنقصت القنوات التليفزيونية المدة الزمنية التى تغطى أنباء الخارج. لذلك لوحظ منذ التسعينيات أن أجور أرباب الصحف ومرتباتهم ارتفعت بنفس النسبة التى أغلقت بها مكاتبها الخارجية.

هناك خلفيـة أيديولوجية تبرهن عـلى أنه إذا اسـتطاعت أمريكا أن تنتـصر فى الميـدان الأفغانى فإنها لاتزال بعيدة عن تحقيق الانتصـار فى معركـة الأفـكار

إن هذا التفسير وارد لكنه لا يكفى لتفسير عدم اهتمام الناس بطرح سؤال: «لماذا؟». والحقيقة أن طرح سؤال لماذا، يستلزم السير عكس التيار الجارف الذى يتمثل فى سخط الرأى العام والحاحه على الانتقام. فليس من الممكن والحالة هكذا أن يرفع صوت نشاز يشذ عن المعزوفة التى يرددها الجميع. صحيح أنه من الصعب أن يخرج الإنسان عما يبدو من إجماع كل الشعب.

إلا أن ذلك يستدعى ملاحظتين تكمل إحداهما الأخرى..

الأولى: أن هناك فعلاً نصيباً كبيراً من التلقائية وراء تشكل الرأى العام والطريقة التى تحقق بها الإجماع أو ما يشبه الإجماع حول رد الفعل الذى استقبلت به الجماهير الأمريكية ما حدث يوم ١١ سبتمبر.

وهو أمر طبيعى فى وضع مثل الوضع الأمريكى: فقد كان المواطنون مطمئنين إلى استحالة أن يتعرّض بلدهم لأية ضربة. وهو قبل ذلك وبعد ذلك أمر طبيعى فى بلد تعود فيه المواطن على قصر اهتمامه بشئونه الداخلية، فالديمقراطية الأمريكية ما فتئت، منذ عهد «دى توكفيل» حقيقية فى حدود الولاية. أما السياسة الخارجية فهى لا تعنيه غالباً لأن مركز الثقل الذى يوجهها لا يوجد فى الهيئة التنفيذية المسئولة عن تسيير شئون الولاية، إذ إنه موجود فى البيت الأبيض وبطانته الخاصة.

هذه الظاهرة ليست جديدة، بل ترجع إلى عدة عقود. نعم إن الدستور الأمريكى ينص على الفصل بين السلطات، كما يتضمن ضوابط ومؤسسات تراقب مؤسسة الرئاسة، خاصة فيما يتعلق بشئون الحرب والسلم. ومعروف أن الكونجرس هو الذى يمثل أداة الرقابة الشعبية على أنشطة الحكومة. لكن التجربة دلت على أن السلطة زمن الحرب تصبح من اختصاص الرئيس. لأن مؤسسة الرئاسة ما فتئت منذ زمن بعيد تستحوذ تدريجياً على السلطة كاملة، مستغلة ظروف الحرب والأزمات: وهو ما أدى إلى أن يتخلى الكونجرس عن صلاحياته لقائدة الرئاسة. وبذلك اختفت تدريجياً أهم الضوابط التى ينص عليها الدستور.

هذه الظاهرة كانت موضوع دراسة قيّمة كتبها Arther M.Schlesinger سنة ١٩٧٣، وترجمت إلى الفرنسية عام ١٩٧٦، بعنوان «الرئاسة الإمبريالية».

فى هذه الدراسة يسجل المؤلف أن الاستحواذ على صلاحيات الكونجرس من طرف مؤسسة الرئاسة قد تحقق على مراحل فى المجالين الداخلى والخارجى. ثم يضيف فى المقدمة:

«أعتقد أن الرئاسة الإمبريالية انطلقت أساساً من السياسة الخارجية، خاصة امتلاك قرار بالغ الأهمية بالنسبة للأمة، وهو قرار إعلان الحرب».

ثم يصف مدى السلطات التى أصبح يتمتع بها الرئيس منذ بداية السبعينيات (فى القرن الماضى) فيقول: «إن الرئيس الأمريكى هو الوحيد الذى يملك حقاً ملكياً مطلقاً فيما يتصل بالسلم والحرب دون رؤساء الدول الكبرى فى العالم، باستثناء ماوتسى تونج ربما» (المقدمة ص٣. الترجمة الفرنسية. نشر المطبوعات الجامعية. باريس ١٩٧٦).

هذا الوضع يجعل المواطن الأمريكى يطمئن إلى رئيسه فيما يتصل بالسياسة الخارجية، ويتجاوب مع توجهاتها دون تساؤل غالباً. بل إن بعض ردود فعله تنم أحياناً عن سذاجة بالغة.

فى أوج إحدى الأزمات مع ليبيا صادف فى إحدى المدن الداخلية أن اخترقت طائرة حاجز الصوت فتصور بعض المواطنين أنه هجوم ليبى!

فى هذا السياق تبرز الملاحظة الثانية، وهى تتصل بمسئولية الدولة والبيت الأبيض فى توجيه الرأى العام الأمريكى. فمسئولية الرئيس واردة، وهى قد تفرض عليه السباحة ضد التيار. لأن انسياق المواطن العادى وراء التيار الغالب ظاهرة تعرفها كل الشعوب. لكن ذلك لا يبرر ممارسات وسياسات لا تعود بالفائدة على الأمة، وعلى مجموع الإنسانية عندما يتصل الأمر ببلد مثل الولايات المتحدة الأمريكية. إن مجاراة التيار لا تصلح لأن تكون سياسة، لأن «مسايرة الرياح هو أقصى ما تطمح إليه الأوراق الميتة» حسب تعبير أحد الحكماء.

لماذا يكرهون أمـــريكا؟

أجرت صحيفة «نوفيل أوبسرفاتور» الصادرة فى الأسبوع الثانى من يناير ٢٠٠٢ (١٠-١٦ يناير) حديثاً مع الفيلسوف الفرنسى أندرى جلوكسمان، (Andre Gluksman) حول الإرهاب تعرض فى هذا الحديث إلى النتائج التى يمكن أن تترتب على ١١ سبتمبر، وهو يربط بين العمل الإرهابى و«العدمية»، مذكراً بالإرهاب الذى ظهر فى روسيا والذى وصفه الأديب الروسى دوستوفسكى فى رواياته. وقد تحدث هذا الفيلسوف بإسهاب عن هذه الظاهرة فى كتاب أصدره أخيراً ونزل الأسواق فى النصف الثانى من يناير ٢٠٠٢ بعنوان «دوستوفسكى فى منهاتن».

فى حديثه مع مجلة «جان دانيال» تعرض إلى احتمال استعمال الأسلوب الذى دمر البرجين التوءم فى نيويورك، من طرف إرهابيين ملحدين فى المستقبل. فهو لا يستبعد أن تظهر شبكات إرهابية تستخدمها دولة على حافة الإفلاس، تهدد بها دولة أخرى كى تجبرها على دفع قروض هى فى أشد الحاجة إليها. ويقول فى حديثه هذا: «كما سمح نظام التكتم والسرية فى البنوك، باستعمال حسابات تمويل شبكات (القاعدة)، فقد يسمح بتمويل أى عمل إرهابى عَدَمى مُلحد مناهض للغرب» ثم يلاحظ أن العدمية واقع راهن.. «كما يدل على ذلك ارتياح ثلاثة أرباع الإنسانية لما حدث يوم ١١ سبتمبر، سواء كانوا ينتمون إلى الطبقات البورجوازية فى أمريكا اللاتينية التى ترسل أبناءها للدراسة فى جامعات نيويورك، أو كانوا من سكان الصين حتى إنه مايزال الأطفال يتعلمون فى المدارس تاريخ الهزيمة المهينة التى ألحقها الغرب بهم عام ١٨٥٠ أثناء حرب الأفيون، أى كانوا فى اليابان حيث نجد النخب المثقفة فيه متجاوبة مع عبارات بن لادن عندما ذكر أن «الذين ارتكبوا هيروشيما يحصدون الآن ما زرعوه». ثم يضيف جلوكسمان: «إن هناك خلفية أيديولوجية تبرهن على أنه إذا استطاعت أمريكا أن تنتصر فى الميدان الأفغانى فإنها لاتزال بعيدة عن تحقيق الانتصار فى معركة الأفكار».

إن ما لاحظه الفيلسوف الفرنسى عن ارتياح ثلاثة أرباع الإنسانية يكشف عن مدى الكراهية التى يحملها الناس لأمريكا فى أنحاء من العالم مختلفة. هذه الكراهية لا نلمسها فقط لدى بعض الشعوب المستضعفة، المضطهدة، التى تحمّل أمريكا مسئولية معاناتها، بل تظهر فى بلدان غربية أيضاً.

على أن حقيقة الشعور الذى يحمله الناس هنا وهناك إزاء أمريكا هو مزيج من الكراهية والإعجاب. ففى عدد من البلدان التى يتظاهر جماهيرها ضد أمريكا ويحرقون أعلامها، تتشكل طوابير طويلة أمام قنصلياتها طلباً للتأشيرة وتلهفاً على الالتحاق بجنة الله فى أرضه.

لكن إذا كان شعور الكراهية مفهوماً فى بلدان المشرق العربى والعالم الإسلامى لارتباطه بالموقف الأمريكى من فلسطين، فما هو تفسير الكراهية الخفية التى لا تظهر دائماً بوضوح فى بلدان حليفة لأمريكا مثل بلدان أوروبية ومثل اليابان؟

يرجع ذلك إلى نوعين من العوامل: سياسى وفكرى.

بالنسبة للعوامل ذات الطابع السياسى يصعب استعراضها كلها، لأن بعضها لا يظهر عادة للعلن نظراً للمصالح المشتركة بين أمريكا وحلفائها من أوروبا أو آسيا. لكن يمكن أن نسوق مثالاً ماضياً من فرنسا لاتزال تأثيراته موجودة فى الحاضر، فموقف الجنرال ديجول من أمريكا بوصفها زعيمة الحلف الأطلسى معروف، خاصة بعد أن عاد إلى الحكم فى مايو ١٩٥٨ وأنهى الجمهورية الفرنسية الرابعة، التى كانت تسير فى ركاب أمريكا دون نقاش، وأقام بدلها الجمهورية الخامسة.

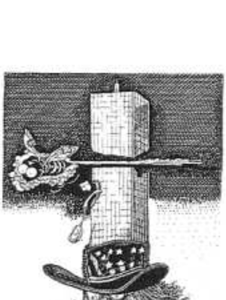
فقد قرر تزويد فرنسا بقوة نووية كخطوة أولى على طريق تأكيد استقلالها عن الولايات المتحدة الأمريكية. وهو نفس المنطق الذى دفعه إلى الانسحاب من الحلف الأطلسى عام ١٩٦٦. فاضطرت القيادة العسكرية للحلف - وهى أمريكية - أن تنتقل من باريس حيث كان مقرها إلى بروكسل.

ويمكن أن يضاف للعامل السياسى، عامل آخر هو مزيج من الموقف السياسى ورد الفعل النفسى: ويتمثل فى كون الضعيف أو الأقل قوة ينحاز عاطفياً ضد الأقوى والأكثر عتواً. فمنذ عهد التوراة تعوّد الناس على كراهية جالوت أو من هو فى حكم جالوت. ولعل هذا ما يساعد على تفسير مواقف أوروبية، مثل ذلك الذى أعلنه الجنرال ديجول عندما زار مقاطعة «كيبيك» فى كندا وألقى خطاباً صاح فى ختامه: «يحيا الكيبيك حراً»، متحدياً بذلك جارتها الجنوبية ومؤكداً على فرنستها لغوياً.

ولا شك أن تحليل البيان الذى أعلنه الاتحاد الأوروبى عقب ١١ سبتمبر يعكس بعضاً من موقف يتحدى الأقوى ويود التعبير عن نوع من الاستقلالية. فالموقف الذى اتخذه وزراء خارجية الاتحاد فى بروكسل لا يخلو من التعبير عن شىء من التحفظ السياسى الذى لا يصل إلى درجة التحدى، ولا يعيد النظر فى التضامن التام مع الولايات المتحدة الأمريكية. وقد عبرت صحيفة لوموند «الصادرة يوم ١٤ سبتمبر (تاريخ ١٥ سبتمبر) عن موقف الاتحاد الأوروبى ودلالته، فى افتتاحية جاء فيها:

«سوف يتحصل الأمريكان على دعم المجموعة الدولية إذا كان رد الفعل ضد الإرهاب يستهدف

إذا كان شعور الكراهية لأمريكا مفهوماً بين العرب والمسلمين، فما هو تفسير ظهوره فى بلدان حليفة كالبلدان الأوروبية واليابان؟



مرتكبى الأحداث ومن يحركونهم. وإذا كانوا - أى الأمريكان - يقبلون بالتعاون والنقاش ومشاركة بلدان أخرى فى معركة طويلة المدى ضد الرعب والإرهاب. هذا ما قاله الأوروبيون للأمريكان فى اجتماعات بروكسل.

إن مثل هذه السياسة المصممة والمدروسة هى التى نتضامن معها. وليست السياسة التى يتحكم فيها منطق إما الله وإما الشيطان».

أما العامل الفكرى فيمكن أن نشير إلى تيار فلسفى فى أوروبا الغربية يمثله أكثر من فيلسوف. وهناك مارتن هايدجر الألمانى، (١٨٨٩-١٩٧٦).

فقد نشر عام ١٩٥٢ «مدخل إلى الميتافيزيقيا» تحدث فيه عن أوروبا المسحوقة بين فكى كماشة ضخمة. روسيا من جهة وأمريكا من جهة أخرى. وهو إذ يندد بكل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية. فإنه يقصد إلى مهاجمة العالم المادى وتدهور الفكر وتحكم الرتابة فى دنيا عمّ فيها الانحلال وتدهورت الأخلاق وانعدمت فيها القدرة على الإبداع.

ويمكن أن نعتبر الفيلسوف الفرنسى «إيما نويل مونيى» فيلسوف «الشخصانية» ومؤسس مجلة «Esprit» من الذين عبروا عن هذا التيار بصيغة أخرى. فهو ينادى بالعدالة ويدعو إلى المسيحية، ويشن هجومًا قويًا على أمريكا بوصفها «أكثر بلدان العالم لا أخلاقية» ولأنها تخضع لسلطان المال الذى هو عندها بمثابة الروح».

وهو يعتبر أن أمريكا «بربرية» «تهدد مجموع الحضارة الإنسانية». وكان يرى أن مواجهة الخطر تكون ناجحة إن هى «انتهجت روحانية تتفوق على الليبرالية الأمريكية ووجهها العكسى أو المعكوس، الفكر البلشفى».

وفى مجال آخر هو اللغة، نجد رونى إبتيانبل، الذى توفى مطلع هذه السنة عن عمر يناهز ٩٢ عامًا، قد هاجم انتشار ما يسميه «الفرانجلى» أى مزج كلمات فرنسية بكلمات إنجليزية، فى كتابه الذى صدر عام ١٩٦٤ بعنوان (Parlez-Vous Frangleis) ومعروف أن النخب المثقفة فى أوروبا الغربية قد أفرزت فى الستينيات من القرن الماضى تيارًا يساريًا قويًا هاجم الشركات متعددة الجنسيات بقوة بوصفها مظهرًا من مظاهر الهيمنة الأمريكية. كما اتخذت حرب فيتنام مناسبة لتهييج الجماهير ضد نظام الولايات المتحدة الأمريكية.

فى هذا السياق يمكن أن نشير إلى كتابات أحدث، مثل كتابات «ريجيس دبراى» التى صدرت أخيرًا. فهو يشيد بالقيم الجمهورية الفرنسية ويضعها فى مواجهة «أنانيات الديموقراطية الأمريكية المتدينة».

وإذا انتقلنا إلى ميدان الأدب نجد كتابات «جورج دوهاميل» (١٨٨٤ - ١٩٦٦) الأديب والأكاديمى الفرنسى المعروف. (وقد كشف د.طه حسين، عميد الأدب العربى، عن جوانب من فكره). فقد ندد هو الآخر بـ «الآلة الأمريكية التى يرى أنها تمثل «حضارة الحشرات» وتعمل على إقامة عالم آلى مثل الذى وصفه البريطانى «جورج أورويل» (١٩٠٣-١٩٥٠) فى قصته المعروفة (١٩٨٤). فهى تندد بمخاطر الاستبداد والديكتاتورية، وتصور عالمًا بئيسًا تتحرك فيه كائنات تعيسة تنوء تحت ضغط الحاجة والفاقة والهموم.

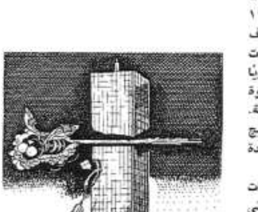
وقد اتخذت كراهية أمريكا فى غرب أوروبا صيغًا جديدة فى الوقت الراهن، مثل الدفاع عن الخصوصيات الثقافية والتنديد بإخضاع العلم واختراعاته لمنطق الربح، وتسخير كشوفاته وتطبيقاته لخدمة سلطان القوة ومنطق الهيمنة.

صحيح أن رد الفعل فى أوروبا وفى غير أوروبا عمومًا، كان إدانة تامة وشديدة للعملية الإرهابية، بل إن كثيرين فى أوروبا هتفوا «كلنا أمريكان» تعبيرًا عن مدى تضامنهم مع شعب الولايات المتحدة الأمريكية.

لكن هناك تعليقات عديدة فى فرنسا وفى غير فرنسا داخل الاتحاد الأوروبى خاصة، تختلف كليًا عند الحالة التى تصورها جملة «كلنا أمريكان».

فقد بادرت مارى جوزى ماندزان إلى توجيه تعليق نشرته «لوموند» بتاريخ ١٩ سبتمبر (أى أن القراء اطلعوا عليه يوم ١٨ أى بعد أسبوع واحد من الحادث) - وهى مديرة بحوث فى المركز الوطنى الفرنسى للبحث العلمى. ومما جاء فى هذا المقال:

«أصبح مطلوبًا منا أن نكون كلنا أمريكان، شخصيًا لا أشعر أبدًا أنى أمريكية. لكنى على العكس من ذلك أحس بمشاعر مختلفة تدفعنى إلى إدانة عالم يغنى مع رئيس - كارثة، ويهتف له، رئيس يدافع عن عقوبة الإعدام ولا يحمل للشرق الأوسط إلا الاحتقار. إن فظاعة الحدث تغرقنا فى الحزن وتثير لدينا الفزع. لكن الانفعالات العاطفية لا ينبغى أن تشل إرادة التفكير لدينا أو تجردنا من حقنا فى التقييم الموضوعى للحدث.



إن تحليل الإعلام المصور وغير المصور الذى ينهال علينا يكشف عن دلالة واضحة عندما نقرأ الحدث ميثولوجيا: رمز امبراطورية اقتصادية ينهار، لاينقص شعاراته أى شىء: برج بابل، الصاعقة الإلهية، وخاصة خطاب الحرب المقدسة الذى ينقلب إلى تبرير قداسة الحرب عند الآخرين.. إن الكون كله يُصلّى مع أمريكا ويدعو لها، وهى واثقة أن الله سوف يعبر عن غضبه على أعدائها، ورغبته فى الانتقام منهم لها».

ثم تشير إلى ما ينتظر الشعب الأفغانى من تدمير (لأن المقال نشر قبل بدء الهجوم على أفغانستان) فتقول بعد أن تسجل شدة ضغط الإعلام الأمريكى على الرأى العام العالمى:

«إنهم يحرصون على أن نظل مذهولين، يجب أن يدخلوا «غير المتوقع» فى «غير المعقول»، إن مثل هذا الإعلام يتضمن عنفًا كبيرًا، ويهيئنا لعنف أكبر لم يكن ليخطر لنا ببال، عنف تحمله الأجوبة والردود التى يجرى الإعداد لها الآن.. لتكن واضحين، إن السؤال الذى يطرحه كل من يحقق فى جريمة قتل هو: من المستفيد من الجريمة؟ هل هم الفلسطينيون؟ قطعًا لا. فشارون أصبح طليق اليدين ويتجرأ على وصف عرفات بأنه «بن لادن إسرائيل»، مواصلاً سياسة عمياء ضد الشعب الفلسطينى فى وجود دول مشلولة! هل يستفيد من ذلك الأفغان الذين يسحقهم الطالبان؟ كلا. فها هم مهددون بالانقراض تحت القنابل الأمريكية. هل هم الفقراء؟ هل هم المضطهدون؟ أبدًا». ثم تنهى مقالها بما يلى:

«كل ما أتمناه أن لا يندفع حكامنا الغربيون، دون تفكير فى هذه المتاهة المعقدة من المصالح الاقتصادية التى تسعى لأن تجعل العالم رهينة لها. يجب علينا جميعًا أن نصمد أمام رغبة الانتقام الأعمى الذى يفتح الباب واسعًا من جديد للعنصرية والتعصب، مما يجعلنا ننسى البحث عن الأسباب الحقيقية، الاقتصادية والاجتماعية لهذه الطامة الكبرى.

اتخذت كراهية أمريكا فى غرب أوروبا صيغًا جديدة فى الوقت الراهن، مثل الدفاع عن الخصوصيات الثقافية والتنديد بإخضاع العلم واختراعاته لمنطق الربح

شبيه بهذا الموقف، ما عبرت عنه «سوزان جورج» وهى أمريكية تعيش فى فرنسا وتناضل ضد العولمة فى صفوف التنظيم المعروف باسم (أتاك) قالت فى حديث لصحيفة «نوفيل أوبسرفاتور»، جوابًا عن أسئلتها: «.. طبعًا لقد صعقت لهول ما حدث.. لكن أرفض أن أتوقف عن التفكير.. إنى أدين الوحدة المقدسة والخطب الداعية إلى الحرب والشعارات التى يصدّعون بها رؤوسنا. أنا ولدت أمريكية.. لكن لسنا كلنا أمريكان. نحن كلنا أناس ضعاف قابلون للعطب، هذا ما نسيناه.. لقد كافحت طيلة حياتى حكامًا أمثال نيكسون وكيسنجر وبوش، فلن أسير فى ركابهم الآن.. إن قتل المدنيين، وإلقاء القنابل على أفغانستان لن ينجح إلا فى شىء واحد وهو تغذية كراهية أمريكا بمزيد من الوقود.. إن الأمريكان عاجزون عن فهم سبب كراهية الناس لهم. إنهم لا يعرفون أدنى شىء عما يعمله حكامهم.. لست أحمل أى تفهم لعمل بن لادن وأرى أنه يجب منعه من الإضرار. لكن هذا السيد وجماعته كانوا يعتبرون «مكافحين من أجل الحرية» عندما كانوا يحاربون ضد موسكو فى أفغانستان. إن الولايات المتحدة هى التى اخترعت هذا الإرهاب زمن الحرب الباردة.. وهى التى قتلت أو أمرت بقتل المدنيين فى السودان وفى شيلى وفى بنما. وهى التى تركت النزاع الفلسطينى - الإسرائيلى يتعفن». (عدد ٢٤ سبتمبر ٢٠٠١).

وقد أجرت صحيفة لوموند فى عددها الصادر بتاريخ ٢٣-٢٤سبتمبر الماضى حوارًا مع المثقفين من بينهم «آلان جوكس» وهو باحث متخصص فى أمريكا والقضايا الاستراتيجية. وهو إذ يشير إلى شعار «كلنا أمريكان» يرد عليه قائلاً:

«إن ما حدث لا يمس فقط الولايات المتحدة وحدها. إنها مركز النظام العالمى. لذلك تبدو كراهية الأمريكان غير مفهومة لهؤلاء. لكن أن يقول الناس: كلنا أمريكان، فإن ذلك غير صحيح على الإطلاق. إننا أوروبيون، ومع ذلك فقد تأثرنا، غير أن دوافعنا (فى التأثر) تختلف. إن اشتراكنا مع الأمريكان فى رد الفعل يرجع إلى الطابع الفاشى والصبغة الإبادية للعملية، ولا يصدر عن تفكير سياسى مشترك. يجب أن تحتفظ بالقلب حارًا، لكن يتعين أن يكون الرأس باردًا».

وهو يعنى بالقلب «الحار»، التضامن عاطفيًا مع الأمريكان، وبالرأس البارد، أن يكون تقييم الحدث بعيدًا عن العاطفة؛ ويتضح ذلك من تعقيبه على الجملة السابقة بقوله:

«إن بن لادن، فى جنونه، يقول أيضًا أشياء حقيقية رغم ما فيها من إحراج. فهو يصف تطور النظام العالمى وصفًا حقيقيًا. إنه يهذى فقط عندما يتصور أن بإمكانه تغيير نظام الأشياء بمثل تلك العمليات الانتقامية المدمرة. وعندما يقول الرئيس بوش «إن الله معنا» فهو ومن يرددون معه ذلك - يضعون

من اليابان أيضًا انطلق صوت رئيس وزراء ياباني سابق، هو «ياسو هيرو ناكاسوني» يدعو أمريكا إلى «التخلي عن الوقاحة التي جعلتها تتصرف كما لو كانت تملك العالم».

أنفسهم في نفس موقع أسامة بن لادن، وهو موقع الحرب المقدسة. في حين أن أية حرب لا يمكن أن تكون مقدسة».

ويرد على مقولة الذين ينادون بوجوب الثقة في الشعب الأمريكي قائلاً: «يجب أيضًا أن نثق في المعايير الخاصة بالأوروبيين التي تختلف، منذ سنوات، عن الأساليب الأمريكية. إن النظام الأمريكي يهدف إلى فرض سيطرته على العالم، ولا يهمه تحقيق السلام. في حين أن الوضع السياسي والإقليمي في أوروبا، لا يمكن أن يعالج بالاستراتيجية التي يقترحها الأمريكان. لا شك أن نقاشًا سوف ينشب (بين أوروبا وأمريكا) حول التحدي المجنون الذي رفعه الإرهابيون. وإذا نحن أخذنا في الاعتبار الأهداف التي يعلنها بن لادن، فيجب أن نسلم بأن هناك مصاعب حقيقية ستواجهنا. إن العمل الأمريكي، المتمثل في الغفلة عن المشكل الإسرائيلي ـ العربي عندما تركوه يتعثر حتى سمح لشارون الذي هو إرهابي ومرتكب جرائم إبادية، لم يكن عملاً ذكيًا. ولا يتلاءم طبعًا مع مصلحة الأوروبيين».

ويثير آلان جوكس بعد ذلك مسألة طرح سؤال: «لماذا؟» فيتساءل: هل البحث عن الأسباب خاصية أوروبية؟ ليلاحظ أن الأمريكان مدعوون إلى البحث عن الأسباب وإجراء مراجعة عميقة لاستراتيجيتهم. ثم يبدي تشككه في قدرة أمريكا على إجراء هذه المراجعة لأن «الأمريكان غير مُبَرْمَجين (ذهنيًا) لطرح السؤال وفهم المسألة الاجتماعية على مستوى العالم. إنهم مبرمجون لإنكار ذلك، إذ يعتبرون أن الإرهابيين يتشابهون وأن الإرهاب شر مطلق. وهذا ما يفسر ترددهم إزاء الانتفاضة الفلسطينية وإطلاق العنان لشارون كي يقمع الجماهير الفلسطينية ويستمر في التنكيل بها».

ويستخلص آلان جوكس من تحليل الموقف الأمريكي، أن واشنطن تقصر اهتمامها على ما تعتبره قضية كبرى وهي مكافحة الإرهاب، وهذا ما جعلها تعمى عن رؤية الأبعاد الحقيقية للقضية الفلسطينية، ثم يعقب على ذلك قائلاً:

«إن الاهتمام فقط بمحاربة الإرهاب غير كاف. فالمهم هو محاربة الإرهاب ومعالجة أسبابه. وفيما إذا لم يتحقق ذلك فإن المتطوعين للعمل الإرهابي لن ينقص عددهم، وخاصة في المناطق التي يسودها اليأس ويلفها القنوط، كما هو الشأن في غزة والضفة الغربية».

وفيما إذا لم يعالج موضوع الإرهاب على ذلك الأساس فإن محاربة بن لادن كما يقول غير واحد، سوف تستغل من طرف الآخرين «مادام لا يوجد مقابل للانتصار الأمريكي الساحق»، وهذا ما يفرض على أوروبا اتخاذ مواقف أكثر وضوحًا من النزاع الفلسطيني الإسرائيلي وأن تعلم الأمريكان بذلك» كما يرى عدد من المثقفين الأوروبيين.

وفي شرق آسيا، اليابان، نجد الكاتب الحائز على جائزة نوبل ١٩٩٤ وهو Kenzebura يتعرض هو أيضًا للأسباب السياسية التي تفسر كراهية أمريكا؛ ولكنه لا يكتفي بذلك، إذ يُرجع ما حدث في ١١ سبتمبر إلى أسباب هيكلية.

أجرت صحيفة لوموند الصادرة بتاريخ ٢٧ نوفمبر الماضي حديثًا أعرب فيه عن رأيه في الموقف من اليوم المذكور: فهو يرى أن على أمريكا أن تعترف بهزيمتها وتضع سياسة لما بعد ١١ سبتمبر على مستوى العالم «مع تركيز الجهد على معالجة الكراهية الشديدة التي تراكمت ضدها والتي تمثل الخلفية الحقيقية لذلك العمل الإرهابي. إن مثل هذه السياسة تعتبر خيارًا بطوليًا يقضي في المهد على حرب إرهابية ثانية». ثم ينتقد الرئيس الأمريكي فيقول: «لكن الرئيس بوش المعتمد على دعم شعبه، أراد عكس ذلك عندما شن حربًا بجزم أن الانتصار فيها حتمي. وهذا غير مؤكد.

إن الآلام التي تعتصر الشعب الأفغاني والفوضى التي استقرت في البلد تجعل الطابع اللا إنساني للإرهاب ملتبسًا مُكْسُوًا بالغموض».

بناء على هذا المنطق يعتبر أنه كان على حكومة الولايات المتحدة أن تتمهل في رد الفعل حتى تلتئم جراح الشعب الأمريكي؛ وتجد الوقت اللازم لتدرس الأسباب التي أفضت إلى عمليات ١١ سبتمبر، بدل أن تسارع بانتقام أعمى. ثم يضيف:

«وحتى إذا نجحت أمريكا وحليفتها بريطانيا في قتل بن لادن أو إيقافه، فلست أعتقد أن ذلك «الحل» ينفع في معالجة قابلية أمريكا للضرب. بل هو على العكس من ذلك سوف يتسبب في موجة إرهابية ثانية وثالثة تغرق الأطراف المتحاربة في مزيد من وحل معركة مشبوهة طويلة الأمد».

ولما سألته «لوموند» عن سبب هذه الكراهية لأمريكا، أجاب بما يلي:

«هي أسباب قريبة وواضحة، لكنها بدتْ بعيدة لأننا غفلنا عنها حتى فوجئنا بما حدث. إننا إذ تعامينا عنها، رفضنا أن نراها. إن الإرهاب الذي ضرب أمريكا غذّته العولمة، وتحكم الليبرالية الجديدة في مفاصل الاقتصاد مما أدى إلى مزيد من المظالم، إضافة إلى التفوق العسكري. كنت أرى في تلك الهجومات تعبيرًا عن عاطفة حاقدة، ولكني أراها مرتبطة بأسباب هيكلية. إلا أن الرئيس بوش ومجموع الشعب الأمريكي شعروا بهذا الإرهاب في المستوى العاطفي، فاندفعوا في حشد قوات عسكرية ضخمة وتعبئة وسائل اقتصادية كبيرة صرفت أنظارهم عن رؤية السبب الأساسي».

ومن اليابان أيضًا انطلق صوت رئيس وزراء ياباني سابق، هو «ياسو هيرو ناكاسوني» يدعو أمريكا إلى «التخلي عن الوقاحة التي جعلتها تتصرف كما لو كانت تملك العالم».

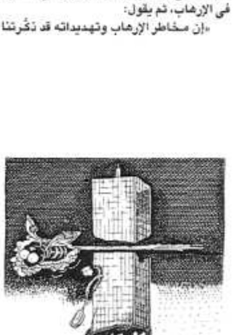
إن الولايات المتحدة تزعم أنها تدين الإرهاب، وتنسى أنها مارست إرهاب دولة ضد إندونيسيا وكمبوديا وإيران وأفريقيا الجنوبية وأمريكا اللاتينية

وفي أمريكا اللاتينية ارتفعت أصوات عديدة تذكر الولايات المتحدة بممارساتها هناك. وقد لخص كاتب مكسيكي شعور شعب المنطقة عندما كتب:

«إن الولايات المتحدة تزعم أنها تُدين الإرهاب، وتنسى أنها مارست إرهاب دولة ضد إندونيسيا وكمبوديا وإيران وأفريقيا الجنوبية وأمريكا اللاتينية التي عرفت بلدانها تلك الحرب القذرة التي شنتها ضدها أمريكا في إطار ما عُرف ببرنامج «كاندور».

ويروي الكاتب التركي «أورهان باماك» أنه كان يجلس في مقهى شعبي، محاطًا بأناس بسطاء، سائقي عربات، عندما سمع النبأ، ويسجل ردود فعلهم. فيذكر «أنهم أصيبوا بالذهول ثم ظهر عليهم الفرح والابتهاج».

ويربط الألماني Uri Back بين ١١ سبتمبر واقتصاد السوق الليبرالي، كما فعل الأديب الياباني. ثم يلاحظ أن أمريكا عاجزة عن أن تتصور إمكانية وجود بديل عن الليبرالية الاقتصادية الجديدة التي تسببت في الكوارث، مؤكدًا على أن الليبرالية الجديدة هي السبب في الإرهاب، ثم يقول:



«إن مخاطر الإرهاب وتهديداته قد ذكّرتنا ببعض الحقائق البسيطة، كانت الليبرالية المظفرة قد أخفتها: فالفصل بين الليبرالية الاقتصادية والشأن السياسي وَهْمٌ على خلاف ما تعتمده الليبرالية، وهو وهم كلف العالم ثمنًا باهظًا.. إنه لا وجود للأمن في غياب الدولة وفي غياب الخدمات العامة. إن غياب الضرائب يعني انعدام سياسة تربوية وصحية معقولة، وهو يستلزم انعدام الأمن في القطاع الاجتماعي.. آنذاك تفقد الدولة شرعيتها، وعندما تنعدم الشرعية ينعدم الأمن. ثم يقرر: «إن مساعدة المهمشين ليست فقط مطلبًا إنسانيًا مُلحًا، بل هو يخدم أيضًا المصلحة الخاصة للغرب ويمثل مفتاح أمنه الداخلي».

على أن انتقاد السياسات الأمريكية وتحميلها مسئولية ما حدث قد تطور بعد بدء الهجوم على أفغانستان ونظام الطالبان. ويكفي أن تستشهد في هذا المجال بالموقف الذي أعلنه نيلسون مانديلا: فقد كان أبدى تضامنه مع أمريكا وأيد حربها ضد الإرهاب، لكنه عندما تابع وقائع الحرب في أفغانستان، غير رأيه وكتب إلى الرئيس بوش رسالة خلال شهر (يناير ٢٠٠٢) يعلمه فيها أنه يتراجع عن تضامنه المطلق معه في حربه، لأن الاستمرار في ذلك التضامن يعطي انطباعًا «بأننا نفتقد إلى الحساسية الإنسانية وأننا لا نهتم بما يسلط على الشعب الأفغاني ولا بآلامه».

وبعد فمن الصعب أن يرصد المرء أهم ردود الفعل أو يستعرض أبرز النتائج التي تسببت فيها أحداث ١١ سبتمبر. فهنا فيض من دراسات تعرض بإسهاب لما يسمى «ما بعد الإسلامي». والواقع أن الأفكار التي تسجل نهاية ما يسميه البعض «التطرف الإسلامي أو التعصب الإسلامي، قد ظهرت قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بأربع سنوات، سواء في شكل أبحاث نشرتها مجلات متخصصة أو كتب لمفكرين ومؤرخين ومديري مراكز أبحاث.

وقد يتطلب الأمر تخصيص هذا الجانب من الموضوع بدراسة خاصة ومتعمقة.

على أن أخطر ما يحمله الغد هو أن تظل الأوضاع التي كانت قائمة يوم ١٠ سبتمبر ٢٠٠١، على حالها بعد ذلك اليوم، كما لاحظ ذلك الأمين العام للأمم المتحدة يوم ١٠ نوفمبر الماضي.

إن تركيز الجهود كلها على محاربة الإرهاب، دون أية التفاتة للمشاكل الكبرى الأخرى التي يعاني العالم منها، ليس فقط يعد نوعًا من الانتصار للذين دبروا عمليات يوم ١١ سبتمبر، ولكنه ينذر بأن يقود العالم إلى مرحلة حُبلى بعدد من المجاهيل ستضاعف من بؤس الدنيا مادام لم يتفرغ العالم متضامنًا لمعالجة الأسباب العميقة التي أدت إلى ذلك اليوم. ولا شك أن نجاح مثل هذا المسعى يتوقف إلى حد كبير على صياغة إجابة موفقة عن سؤال: لماذا حدث هذا؟ بدل الاقتصار على طرح سؤال واحد: كيف حدث هذا، كما فعل الفريق الحاكم في الولايات المتحدة الأمريكية. ■

طريق الحرير الجديد

لماذا ذهبت أمريكا إلى أفغانستان؟

جون ماريسكا

لم يكن اهتمام الولايات المتحدة والغرب عمومًا بأفغانستان وآسيا الوسطى وليد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها، رغم أهمية تلك الأحداث. بل إنه يعود لفترات طويلة مضت بالنظر إلى طبيعة الصراع الدولي خلال الحرب الباردة. ثم تجدد الاهتمام في عقد التسعينيات مع توالي الإعلان عن اكتشافات بترولية ضخمة في آسيا الوسطى وتأكيد الخبراء والمتخصصين أن المنطقة تعوم فوق بحيرة من البترول والغاز.

والشهادة التالية التي قدمها جون ماريسكا نائب رئيس شركة يونيون أويل أوف كاليفورنيا، التي بلغ عائد عملياتها عام ٢٠٠٠ حوالي ٩,٣ مليار دولار أمام لجنة العلاقات الدولية في مجلس النواب الأمريكي في ١٢ فبراير ١٩٩٨ تلقي مزيدًا من الأضواء على الأهمية الاستراتيجية لأفغانستان بالنسبة للقوى الرأسمالية الغربية وتطرح رؤية كاشفة عن الدوافع الحقيقية التي ذهبت من أجلها الولايات المتحدة للحرب في أفغانستان.

وقد خلصت اللجنة الأمريكية يومها إلى أن اهتمام الكثيرين بالمنطقة ومواردها بات متزايدًا.. وأن من مصلحة الجميع توفير ما يكفي من الطاقة للاحتياجات المتزايدة. لأن عدم تلبية الاحتياجات سيحدث ضغوطًا في كل أسواق العالم تؤدي إلى رفع الأسعار.

المحرر

Testimony by John Mareska
To: House Committee on International Relations, Subcommittee on Asia and the Pacific
Washington, D.C.: February 12, 1998.

أنا جون ماريسكا، نائب رئيس شركة يونيون أويل أوف كاليفورنيا UNOCAL للعلاقات الدولية وهي واحدة من الشركات العالمية الرائدة في مشروعات تنمية مصادر الطاقة، وأنشطة شركتنا متركزة في ثلاث مناطق أساسية هي آسيا وأمريكا اللاتينية وخليج الولايات المتحدة في المكسيك. ونحن منتج كبير للغاز والنفط في آسيا والخليج الأمريكي.

وأنا أقدر دعوتكم لي للحديث هنا تقديرًا عظيماً. واثق في أهمية جلسة الاستماع هذه وأنها تأتي في الوقت المناسب. وأهنئكم على الاختيار والتركيز على مسألة احتياطيات الغاز والبترول في آسيا الوسطى، وعلى الدور الذي تلعبه في تشكيل سياسة الولايات المتحدة.

إن هناك حاجة ماسة لمضاعفة طرق خطوط الأنابيب لبترول وغاز آسيا الوسطى. كما أن هناك حاجة لدعم الولايات المتحدة للجهود الدولية والإقليمية لإنجاز تسويات سياسية متوازنة ودائمة بين روسيا والدول المستقلة حديثاً، وفي أفغانستان أيضاً هناك حاجة ماسة للمساعدة المنتظمة وذلك لتشجيع الإصلاحات الاقتصادية وتطوير المناخ الاستثماري الملائم في المنطقة. وفي هذا الخصوص نحن نطالب بإلغاء القسم ٩٠٧ من مرسوم دعم الحرية.

لأكثر من ٢٠٠٠ عام، ظلت آسيا الوسطى نقطة التقاء بين أوروبا وآسيا، فقد كانت نقطة التقاء طرق التجارة القديمة بين الشرق والغرب والذي أطلق عليه طريق الحرير، وفي لحظات عديدة من التاريخ كانت هذه المنطقة هي مهد العلم والثقافة والقوة. وهذه المنطقة غنية جداً بالثروات الطبيعية التي تشجع على قيام التجارة عبر الحدود، وتخلق علاقات سياسية إيجابية وتحفز التعاون الإقليمي. هذه الثروات من المرجح أن تعيد تعزيز وتقوية اقتصاديات الدول المجاورة وتضع كل بلدان المنطقة على طريق الازدهار والرخاء الاقتصادي.

منذ حوالي ١٠٠ عام، ولدت صناعة النفط الدولية في منطقة آسيا وبحر قزوين، وذلك نتيجة لاكتشاف البترول في هذه المنطقة، وفي سنوات التدخل، تحت الحكم السوفيتي، فإن وجود موارد للغاز والبترول في المنطقة كان شيئًا معروفاً بشكل عام، ولكنها كانت متطورة بشكل جزئي.

وبما أننا نقترب من نهاية القرن العشرين، فإن التاريخ يعيدنا دورة كاملة. فبسقوط العوائق السياسية، فإن آسيا الوسطى ومنطقة بحر قزوين تعود لتجتذب ناسا من حول العالم يلتمسون طرق ووسائل لتطوير ونقل موارد الطاقة السخية إلى الأسواق العالمية.

إن منطقة بحر قزوين تحتوي على احتياطيات هائلة من مادة الهايدروكاربون، وكثير منها موجود في حوض بحر قزوين نفسه.

إن احتياطيات الغاز الطبيعي المؤكدة في أذربيجان وأوزبكستان وتركمانستان وكازاخستان تبلغ أكثر من ٢٣٦ تريليون قدم مكعب. وأن احتياطيات النفط الكلية ربما تصل إلى أكثر من ٦٠ بليون برميل - أي ما يكفي لخدمة احتياجات أوروبا البترولية لمدة ١١ سنة - والبعض يقدر هذه الاحتياطيات بأكثر من ٢٠٠ بليون برميل.

في ١٩٩٥ كانت المنطقة تنتج حوالي ٨٧٠ ألف برميل يومياً (٤٤ مليون طن في السنة). وبحلول عام ٢٠١٠ فإن الشركات الغربية ستزيد الإنتاج إلى حوالي ٤,٥ مليون برميل يومياً - أي بزيادة نسبتها أكثر من ٥٠٠٪ في ١٥ عاماً فقط. إذا حدث هذا فإن إنتاج المنطقة سيمثل حوالي ٥٪ من الإنتاج العالمي من البترول، و١٠٪ تقريباً من إجمالي البترول المنتج خارج دول الأوبك.

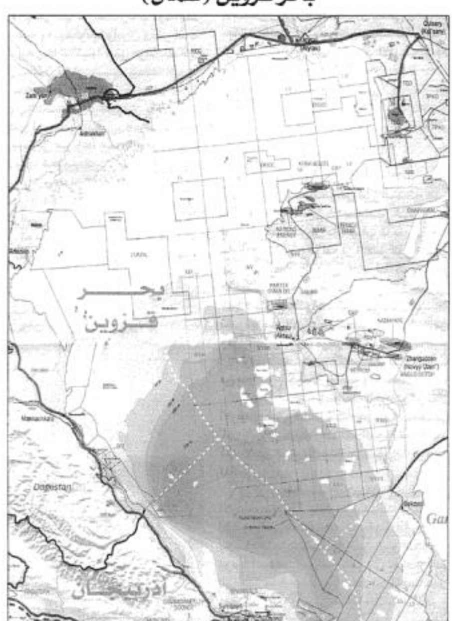
المشكلة الرئيسية الوحيدة التي لم تحل بعد هي: كيف ستصل موارد الطاقة الهائلة الموجودة في المنطقة إلى الأسواق التي تحتاجها؟ إن الحل يبدو سهلاً وهو بناء طريق حرير جديد. ومع ذلك فإن تنفيذ هذا الحل ليس بهذه البساطة فالمخاطر عالية ولكن الفوائد عالية أيضاً.

اكتشاف وبناء طرق إلى الأسواق العالمية

إحدى المشاكل الرئيسية هي أن آسيا الوسطى منطقة منعزلة. فهي محاطة من ناحية الشمال بالمنطقة القطبية الشمالية، وتحيطها مساحات هائلة من الأراضي اليابسة من الشرق والغرب، ومن الجنوب محاطاً بسلسلة من العوائق الطبيعية - الجبال والبحار - وأيضاً عوائق سياسية، مثل مناطق صراع سياسي أو دول فرضت عليها عقوبات. وهذا يعني أن المصادر الطبيعية لهذه المنطقة محاصرة، جغرافياً أو سياسياً. وكل بلدان القوقاز وآسيا الوسطى تواجه تحديات سياسية صعبة. فالبعض يواجه حروبا لم يتم تسويتها بعد أو صراعات كامنة ومستترة. والبعض الآخر يطور أنظمته باستمرار. حيث القوانين دائمة التغير والتبدل. فتعهدات وقوانين العمل يمكن إلغاؤها بدون سابق إنذار، كما يمكن إنهاء الأعمال نتيجة وجود حقائق جيوبوليتيكية جديدة.

بالإضافة لذلك، فإن العقبة الفنية الرئيسية التي نواجهها في نقل البترول هي البنية التحتية لخطوط الأنابيب الموجودة في المنطقة، لأن خطوط الأنابيب الموجودة قد تم

بحر قزوين (شمال)



بناؤها فى الفترة التى كانت فيها موسكو مركز الحكم السوفيتى، فهى تتجه ناحية الشمال والغرب فى اتجاه روسيا، ولم تكن هناك وصلات للجنوب والشرق.

إن الاعتماد بشكل كامل على هذه البنية التحتية لتصدير بترول آسيا الوسطى غير عملى، فروسيا حالياً من غير المحتمل أن تكون قادرة على امتصاص كميات كبيرة جديدة من البترول الأجنبى، ومن غير المحتمل أن تكون سوقا مهمة للطاقة فى العقد القادم. كما أنها تفتقد القدرة على توزيعه إلى الأسواق الأخرى.

من المؤكد أنه ليس هناك مخرج سهل من آسيا الوسطى. فإذا كانت هناك طرق أخرى فى اتجاهات أخرى فيجب إنشاؤها.

إن البنية الأساسية لمشروعى الطاقة الكبيرين تسعى لتلبية هذه الاحتياجات والتحديات، المشروع الأول برعاية كونسورتيوم خط أنابيب قزوين، الذى يخطط لبناء خط أنابيب غربى من شمال قزوين إلى الميناء الروسى على البحر الأسود فى نوفوروسيسك. وسيتم نقل البترول من نوفوروسيسك بواسطة ناقلات بترول خلال البسفور إلى البحر المتوسط والأسواق العالمية.

المشروع الآخر برعاية شركة التشغيل الدولية الأذربيجانية (AIOC)، وهى كونسورتيوم (اتحاد مالى) مكون من ١١ شركة بترول أجنبية منها أربع شركات أمريكية هى أوناوكال وأموكو واكسون وبنز أويل. وهو سيتبع أحد أو كلا الطريقين غرباً من باكو. الخط الأول سينحرف شمالاً ويعبر شمال القوقاز إلى نوفوروسيسك، والآخر سيعبر جورجيا ويمتد إلى محطة الشحن على ميناء سوبسا فى البحر الأسود. الطريق الثانى ربما يمتد غرباً وجنوباً عبر تركيا إلى ميناء سيحان على البحر المتوسط، ولكن حتى لو تم إنشاء هذين الخطين، فلن تكون قدرتهما الإجمالية كافية لنقل كل البترول المتوقع تدفقه من المنطقة فى المستقبل، وليس لديها القدرة على نقله إلى الأسواق المناسبة. ومن هنا يجب بناء خطوط تصدير أخرى.

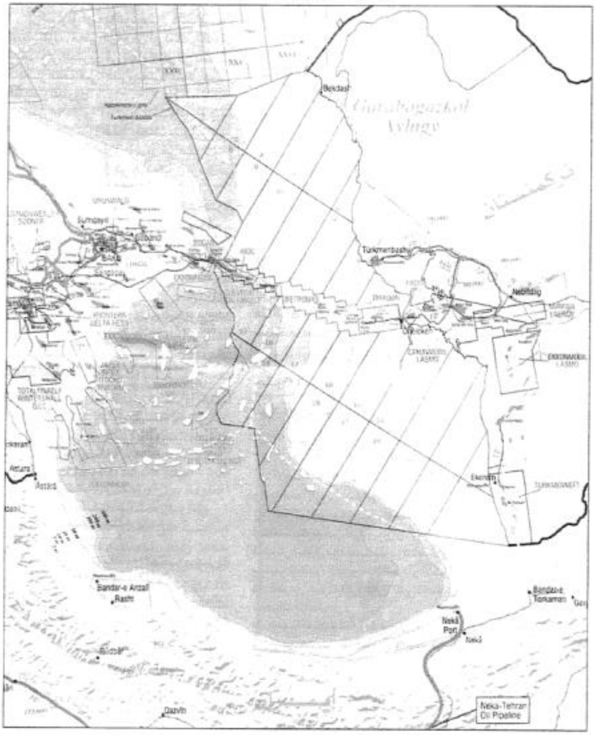
أون أوكال UNOCAL تعتقد أن العامل الرئيسى الذى يجب أن يحكم التخطيط لهذه الخطوط هو موقع أسواق الطاقة المستقبلية التى من المرجح أن تحتاج هذه الموارد والإمدادات. فإذا كانت آسيا الوسطى كانت نقطة التقاء آسيا وأوروبا فى القرون الماضية، فإنها مرة أخرى فى موقع فريد إلى أسواق الخدمة المحتملة فى كلتا المنطقتين - إذا تمكنا من بناء طرق التصدير إلى هذه الأسواق. دعنا نلقى نظرة إلى بعض هذه الأسواق المحتملة..

أوروبا الغربية

أوروبا الغربية هى سوق صعبة وعنيدة Tough Market، تتميز بالأسعار العالية لمنتجات البترول، والسكان المعمرين، وزيادة المنافسة من الغاز الطبيعى.

بين ١٩٩٥ و ٢٠١٠ نحن نقدر أن الطلب على البترول سيزيد من ١٤,١ مليون برميل فى اليوم (٧٠٥ أطنان فى السنة) إلى ١٥ مليون برميل فى اليوم (٧٥٠ طنا فى السنة)، بمعدل نمو متوسط ٠,٥٪ سنوياً. علاوة على ذلك، فإن المعروض فى المنطقة الآن كبير وهو البترول القادم من مناطق فى الشرق الأوسط وبحر الشمال، واسكندنافيا وروسيا. على الرغم من أنه ربما يكون هناك مجال لبعض من نفط آسيا الوسطى فإن أسواق أوروبا الغربية من غير المحتمل أن تكون قادرة على امتصاص كل المنتج من بترول بحر قزوين.

بحر قزوين (جنوب)



منشآت البنية التحتية للبترول والغاز فى منطقة بحر قزوين
مارس ٢٠٠١

حقل بترول
حقل غاز طبيعى
خط سكة حديد
خط أنابيب رئيسى لتصدير البترول الخام
خطوط أنابيب بترول أخرى
خط أنابيب رئيسى لتصدير الغاز الطبيعى
خطوط أنابيب غاز طبيعى أخرى
خط أنابيب بترول تحت الإنشاء
خط أنابيب غاز تحت الإنشاء
ميناء لناقلات البترول

طريق الحرير الجديد

منطقة وسط آسيا وبحر قزوين هى مباركة ومسعدة بسبب وفرة البترول والغاز الذى من الممكن أن يعزز معيشة سكان المنطقة ويوفر الطاقة لنمو أوروبا وآسيا

وسط وشرق أوروبا

إن أسواق أوروبا الوسطى والشرقية لا تنتظر المزيد. فعلى الرغم من أن هناك زيادة فى الطلب على البترول فى قطاع النقل فى المنطقة، فالغاز الطبيعى أكثر ربحية بشكل كبير كمنافس للبترول.

بين ١٩٩٥ و٢٠١٠ من المتوقع أن يزيد الطلب على البترول فقط بنصف مليون برميل يومياً، من ١.٣ مليون برميل فى اليوم (٦٧ مليون طن فى السنة) إلى ١.٨ مليون برميل فى اليوم (١٩,٥ مليون طن فى السنة).

كما أن أوروبا الشرقية هى أيضاً سوق تنافسية جداً. بالإضافة إلى أنها تسد احتياجاتها من البترول من بحر الشمال وافريقيا والشرق الأوسط، فإن روسيا تمد غالبية دول المنطقة بالبترول.

الأسواق الداخلية للدول المستقلة حديثا

إن النمو فى الطلب على البترول أيضاً سيكون ضعيفاً فى الدول المستقلة حديثاً. نحن نتوقع أن الطلب فى السوق الروسية وأسواق الدول المستقلة حديثاً سيزيد بنسبة ١,٢٪ سنوياً بين ١٩٩٧ و٢٠١٠.

آسيا/ الباسيفيك

هنا يكون الاختلاف واضحاً مقارنة بالأسواق الثلاثة الأخرى.

ففى منطقة آسيا/ الباسيفيك يتزايد الطلب بسرعة كبيرة على البترول والزيادة المهمة المتوقعة فى السكان. قبل الأزمة الحالية فى عديد من اقتصاديات آسيا والباسيفيك، كنا قد توقعنا أن طلب هذه المنطقة على البترول سيتضاعف تقريباً فى سنة ٢٠١٠ بالرغم من أن الزيادة فى الطلب على المدى القصير من المحتمل ألا تستجيب لهذه التوقعات، إلا أن شركتنا تقف خلف تقديراتها طويلة المدى.

إن نمو الطلب على الطاقة سيبقى قويا لسبب واحد أساسى وهو أنه من المتوقع تزايد عدد سكان المنطقة بمقدار ٧٠٠ مليون فرد بحلول سنة ٢٠١٠.

إنه من مصلحة أى أحد أن تكون هناك موارد كافية لمقابلة زيادة الحاجة من الطاقة لآسيا. إذا لم يتم إشباع حاجات آسيا من الطاقة. فإنها ببساطة ستخلق ضغوطا على كل الأسواق العالمية، بما يؤدى إلى ارتفاع الأسعار فى كل مكان.

السؤال الأساسى هو كيف يمكن لموارد الطاقة فى آسيا الوسطى أن تكون متاحة لإشباع حاجات آسيا من الطاقة من أسواق آسيا القريبة. هناك حلان ـ مع عدة متغيرات.

طرق التصدير

شرقاً إلى الصين: الطول الممنوع؟

الخيار الأول هو السير شرقاً عبر الصين. لكن هذا يعنى بناء خط أنابيب طوله أكثر من ٣ آلاف كيلو متر إلى وسط الصين ـ أيضاً بناء وصلة طولها ألفا كيلو متر لتصل إلى مراكز السكان الرئيسية بالقرب من الشاطئ. حتى مع هذا التحدى الهائل، فإن شركة الصين الوطنية للبترول تفكر فى بناء خط أنابيب شرقى من كازاخستان إلى الأسواق الصينية.

Unocal كان لها فريق فى بكين الأسبوع الماضى للتشاور مع الصينيين. وقدم الصينيون فكرة على المدى الطويل وقدرتها على حشد مواردها لمقابلة احتياجاتها القومية من البترول. الصين واثقة من بناء هذا الخط. السؤال هو ما هى تكاليف نقل البترول خلال هذا الخط الأنبوبى والعوائد الصافية التى سيتلقاها المنتجون.

جنوبا إلى المحيط الهندى: المسافة الأقصر إلى الأسواق النامية

الاختيار الثانى هو بناء أنبوب جنوبى من وسط آسيا إلى المحيط الهندى.

الطريق الجنوبى الأول المحتمل من الواضح أنه سيكون عن طريق إيران. ومع ذلك، هذا الخيار مغلق بالنسبة للشركات الأمريكية بسبب قوانين العقوبات. الخيار الآخر الممكن هو الطريق عبر أفغانستان، التى تحتوى على تحديات فريدة.

فهذا البلد متورط فى حرب مريرة لما يقرب من عقدين. المنطقة التى سيمتد عبرها الأنبوب تقع تحت إدارة طالبان، الحركة الإسلامية التى لم تعترف بها كحكومة تقريبًا معظم الدول الأخرى. من البداية نحن أوضحنا أن بناء الخط المفتوح لا يمكننا البدء فيه حتى يتم الاعتراف بالحكومة بالشكل المناسب الذى يعطى الثقة للحكومات، والمقرضين وشركتنا.

بالرغم من هذا، فإن الطريق عبر أفغانستان يبدو أنه الخيار الأفضل مع بعض المشاكل الفنية القليلة، إنه أقصر الطرق للبحر وأفضل الطرق نسبيًا من حيث التضاريس بالنسبة لخط الأنابيب. الطريق خلال أفغانستان هو الوحيد الذى سوف يقدم بترول آسيا الوسطى الحبيس إلى الأسواق الآسيوية ومن ثم سيكون الأرخص بالنسبة لنقل البترول.

رؤية شركتنا العملية هى خلق كونسورتيوم «اتحاد» أنابيب بترول آسيا الوسطى. خط الأنابيب سيصبح جزءا مكملا فى نظام خطوط الأنابيب البترولية للمنطقة الذى سينتفع منه ويجمع البنية التحتية للأنابيب الموجودة فى تركمانستان وأوزبكستان وكازاخستان وروسيا.

الأنبوب الذى سيكون طوله ١٠٤٠ ميلا سيبدأ من قرب مدينة شاردزو فى شمالى تركمانستان، ويمتد إلى الجنوب الشرقى خلال أفغانستان إلى محطة التصدير التى ستكون مبنية على الساحل الباكستانى على البحر العربى. فقط حوالى ٤٤٠ ميلا من الأنبوب ستكون فى أفغانستان.

هذا الأنبوب سيكون قطره ٤٢ بوصة وستكون طاقته فى الشحن مليون برميل من البترول فى اليوم. والتكلفة المقدرة للمشروع حوالى ٢,٥ بليون دولار أمريكى.

وهناك مصالح سياسية دولية وإقليمية جديرة بالاعتبار فى هذا الأنبوب. مستوردو البترول الخام الآسيويون، خاصة فى اليابان، ينظرون إلى وسط آسيا وبحر قزوين كمصدر استراتيجى جديد للبترول لإشباع طلباتهم من مصادر مختلفة. إن الأنبوب يفيد بلدان آسيا الوسطى لأنه سيسمح لهم ببيع بترولهم فى أسواق واسعة وبالعملة الصعبة. الأنبوب سيفيد أفغانستان، التى ستتلقى عوائد من تعريفات النقل، وسيساعد على وجود الاستقرار ويشجع التجارة والتنمية الاقتصادية.

بالرغم من أن شركتنا لم تتفاوض مع أى مجموعة ولا تفضل أى مجموعة، إلا أننا لنا اتصالات معهم وأطلعنا كلا منهم. نحن نعرف أن الجماعات المختلفة فى أفغانستان تدرك أهمية مشروع الأنبوب لبلدهم، وأعربوا عن دعمهم له.

الدراسة الحالية للبنك الدولى تحدد أن الأنبوب المقترح من آسيا الوسطى عبر أفغانستان وباكستان إلى البحر العربى ستوفر عوائد أكثر من مرضية لمنتجي النفط من خلال الوصول إلى الأسواق عالية القيمة، بقدر أكثر مما تحققه حاليًا عبر الوصول خلال طرق التصدير التقليدية فى البالتيك والبحر الأسود. إن البرهان بقيمة العوائد التى سيتلقاها المنتجون قد تحددت بواسطة دراسة البنك الدولى. فبالنسبة لبترول غرب سيبيريا الخام، فإن العائد الصافى سيزيد تقريبًا بقيمة ٢دولار لكل برميل بتدفقه جنوبًا إلى آسيا. بالنسبة للمنتج فى كازاخستان الغربية، فإن قيمة العائد الصافى ستزيد بأكثر من دولار لكل برميل من خلال التدفق جنوبًا إلى آسيا بالمقارنة مع التدفق غربًا إلى البحر المتوسط عن طريق البحر الأسود.

تصدير الغاز الطبيعى

فيما يتعلق بموارد الغاز الطبيعى الوفيرة فى آسيا الوسطى، فإن هدفنا هو توصيل المورد الطبيعى المحدد إلى أقرب سوق ممكنة. هذا هو الشرط الأساسى لتحقيق النجاح التجارى لأى مشروع للغاز. كما بالنسبة لكل المشروعات التى تمت دراستها فى هذه المنطقة، فإن المشروعات التالية تواجه تحديات جيوبوليتيكية، أيضًا مشاكل مرتبطة بالسوق.

أناوكال والشركة التركية، كول هولدينجس أ.س، مهتمون بجلب وإحضار موارد الغاز التنافسية إلى السوق التركية. أنبوب الغاز الطبيعى لأوراسيا المقترح سوف ينقل الغاز من تركمانستان مباشرة عبر بحر قزوين خلال أذربيجان وجورجيا إلى تركيا ٦٠٪ من هذا الأنبوب المقترح للغاز سيتبع نفس الطريق الذى سيتبعه أنبوب البترول المقترح ليسير من باكو إلى سيحان. بالطبع، الحدود لقزوين تبقى هى المشكلة.

فى أكتوبر الماضى، اتحاد «كونسورتيوم» سينتجاز Centgas أنبوب آسيا الوسطى المحدودة، التى تملك يوناوكال حصة أسهم فيه، كان قد تشكل لتطوير أنبوب الغاز الذى سيعمل على توصيل احتياطيات الغاز الطبيعى الضخمة فى حقول دولت أباد فى تركمانستان إلى أسواق باكستان وربما الهند. التقييم المستقل يوضح أن موارد هذا الحقل تكفى لحاجات المشروع، بافتراض أن معدلات الإنتاج سترتفع مع الوقت إلى ٢ بليون قدم مكعب من الغاز يوميًا لمدة ٣٠ عامًا أو أكثر.

فى إنتاجه منذ ١٩٨٣، حقل دولت أباد للغاز الطبيعى نقل إنتاجه شمالاً عن طريق أوزبكستان، كازاخستان وروسيا إلى الأسواق فى مناطق بحر قزوين والبحر الأسود. إن الأنبوب المفترض والذى سيكون طوله ٧٩٠ ميلا سيفتح أسواقًا جديدة لهذا الغاز. ينقله من تركمانستان عبر أفغانستان إلى مولتان، باكستان. الامتداد المقترح سيصل مع نظام أنبوب سوى Sui الموجود، ينقل الغاز إلى قرب نيودلهى، حيث سيتصل بأنبوب HBJ الموجود.

بواسطة خدمة هذه الأحجام الإضافية، فإن وصلة الامتداد ستعزز اقتصاديات المشروع بالشكل الذى يؤدى إلى تخفيضات كبيرة فى تكاليف الغاز الطبيعى المنقول لكل المستخدمين وتحقيق أفضل هوامش للربح، كما هو مخطط حاليًا، فإن أنبوب سينتجاز سيتكلف تقريبًا ٢ بليون دولار. وصلة الامتداد داخل الهند والتى سيكون طولها ٤٠٠ ميل ستضيف ٦٠٠ مليون دولار إلى التكلفة الكلية للمشروع. كما أنه بالنسبة لأنبوب البترول المقترح لآسيا الوسطى، فإن سينتجاز لا تستطيع البدء فى الإنشاء حتى يتم الاعتراف دوليًا بحكومة أفغانستان بالشكل المناسب. ومن أجل أن يتقدم المشروع، فيجب أن يكون هناك تمويل دولى، اتفاقيات حكومية ـ حكومية، واتفاقيات حكومية ـ مع الكونسورتيوم.

الخاتمة

إن منطقة وسط آسيا وبحر قزوين هى مباركة ومسعدة بسبب وفرة البترول والغاز الذى من الممكن أن يعزز معيشة سكان المنطقة ويوفر الطاقة لنمو أوروبا وآسيا. إن أثر هذه الموارد على المصالح التجارية للولايات المتحدة والسياسة الخارجية لها أيضًا مهم. فبدون تسوية سلمية للصراعات فى المنطقة، فإنه من غير المحتمل أن يتم بناء أنابيب البترول والغاز عابرة الحدود. نحن نطالب الإدارة والكونجرس بإعطاء دعم قوى إلى الأمم المتحدة لقيادة عملية السلام فى أفغانستان.

إن مساعدة الولايات المتحدة فى تطوير هذه الاقتصاديات الجديدة ستكون ضرورية وحيوية لنجاح المشروعات. نحن نشجع برامج المساعدة الفنية القوية فى كل مكان فى المنطقة. نحن أيضًا نطالب بسحب أو إلغاء القسم ٩٠٧ من مرسوم دعم الحرية. هذا القسم يقيد بشكل ظالم مساعدة الحكومة الأمريكية إلى حكومة أذربيجان ويقيد نفوذ وتأثير الولايات المتحدة فى المنطقة.

إن تطوير طرق تصدير ذات كفاءة ومربحة، لموارد وسط آسيا الهائلة هى مهمة هائلة ولكنها ليست مستحيلة. وهذا قد تم إنجازه من قبل، الممر التجارى، طريق الحرير الجديد، الذى يمكنه ربط عرض آسيا الوسطى بالطلب.. بالشكل الذى يجعل آسيا الوسطى مرة ثانية مفترق الطرق بين أوروبا وآسيا.■

ترجمة: جمال عمر

عـــودة « اقتـــصـــاديـــات الكســـــاد »

محـمـود عـبـدالفـضـيل

اعتقد الكثيرون أن « عصور الكساد » قد ولت إلى غير رجعة، وأن السياسات الاقتصادية قـادرة على وقف الانـزلاق نحو أوضاع « الكساد » شديدة الوطـأة. وإذا بشـبح الكسـاد يطل برأسـه من جديد في اليابـان في التسعينيـات وبلدان آسـيا منذ عام ١٩٩٧ ومؤخراً في الولايـات المتحدة الأمريكيـة منـذ عـام ٢٠٠٠



[١]

عندما داهم «الكساد الكبير» العالم خلال عامي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠، لم تكن الأطر النظرية للتحليل الاقتصادى السائدة آنذاك ملائمة لتحليل ظاهرة الكساد وسبل الخروج منه. وفي ظل هذه الظروف، كانت عملية كتابة جون ماينارد كينز ـ الاقتصادى البريطاني الكبير ـ لمؤلفه الهام «النظرية العامة للتوظف وسعر الفائدة والنقود»(١٩٣٦)، الذى أحدث ثورة في أدوات التحليل الاقتصادى الكلي، عملية صراع شاقة ـ حسب وصف «كينز» نفسه ـ في مقدمة كتابه.

إذ اضطر «كينز» إلي التمرد على المقولات الرئيسية السائدة في التحليل الاقتصادى آنذاك حول «البطالة الاختيارية» للعاطلين عن العمل، أى أنهم «عاطلون» باختيارهم لأنهم يرفضون العمل عند المستوى السائد للأجور. وكذلك كان لابد له من الهجوم على القبول العام بقانون «ساى» للأسواق الذى كان يزعم أن «العرض يخلق الطلب الخاص به». لأنه وفقاً لهذه الرؤية، فإن «نظام الأسواق» يعتبر مزوداً بآلية «التصحيح الذاتى»، وهى خاصية أشبه بجهاز «الترمو ـ ستات» (Thermo-stat)، الذى يوجد في الأجهزة الكهربائية لضبط درجة الحرارة، فلا تزيد على ولا تقل عن «المستوى التوازنى» المطلوب، دون أى تدخل من الخارج.

ولذا فإن صدمة «الكساد الكبير» قد ساعدت على انطلاق «الثورة الكينزية» في تحليل وفهم «اقتصاديات الكساد»، وبالتالى فتح الطريق المسدود أمام سبل العلاج. وفي المقابل، فإن فترة «ما بعد الحرب العالمية الثانية» وبدء عمليات «إعادة الإعمار الواسعة» في البلدان الاوروبية، قد أبعدت إلى حد كبير شبح «الكساد» على النحو الدرامى الذى شهدناه في الثلاثينيات من القرن العشرين. وأصبحت «الاقتصادات الراسمالية» في البلدان الغربية المتقدمة تشهد مجرد هزات محدودة، وخلال فترات قصيرة نسبيًا زمنيًا، أطلق عليها تعبير «الانكماش الاقتصادى»، وهو التعبير المقابل لمصطلح (Recession) باللغة الإنجليزية.

ويجدر بنا هنا أن نفرق بهذا الصدد بين ثلاثة تعبيرات (أو مصطلحات) يجرى استخدامها بشكل «تبادلى»، وعلى نحو غير دقيق في الكتابات الاقتصادية المتداولة باللغة العربية حول «الأزمات الاقتصادية». إذ نجد أن مصطلحات «الكساد»، و«الركود»، و«الانكماش» تكاد تستخدم لتوصيف نفس الظاهرة تقريباً، بينما الدقة العلمية تستدعى عدم الخلط بين تلك المصطلحات.

فمصطلح «الكساد» (Depression) يعنى حالة التدهور الحاد في مستويات النشاط الاقتصادى وأوضاع التشغيل والتوظف، وهو أشد وطأة وأطول زمناً من حالة «الانكماش الاقتصادى» (Recession) التى تشير إلى حالة من الإبطاء في مستويات النشاط الاقتصادى أقل حدة وأقصر زمناً. بينما مصطلح «الركود» (Stagnation) يجب أن يقتصر استخدامه لتوصيف الأوضاع

The Return of Depression Economics

(عودة اقتصاديات الكساد)

Paul Krugman

W:W Norton & Co, 1999.

الاقتصادية التى تتسم بعدم الحركة، أى انعـدام «التوسع» أو «الانكماش» فى مستويات النشاط الاقتصادى على مدار الزمن. وبطبيعة الحال، تختلف درجات «الانكماش» و«الكساد» الاقتصادى، حسب درجة الحدة وطول استمرار الظاهرة.

وفى ظل هذه الخلفية، يجىء مؤلف «بول كروجمان»، أحد أبرز وألمع الاقتصاديين الأمريكيين المجددين والمبدعين، «عودة اقتصاديات الكساد» (The Return of Depression Economics)، الصادر عام ١٩٩٩، ليعيد إحياء النقاش حول «آليات الانزلاق نحو حالات الكساد» بعد موجات من الرواج والازدهار الاقتصادى التى سادت فى بلدان أوروبا وآسيا الناهضة والولايات المتحدة. فلقد اعتقد الكثيرون أن «عصور الكساد» قد ولت إلى غير رجعة، وأن السياسات الاقتصادية قادرة على وقف الانزلاق نحو أوضاع «الكساد» شديدة الوطأة. وإذا بشبح الكساد يطل برأسه من جديد فى اليابان فى التسعينيات وبلدان آسيا منذ عام ١٩٩٧ ومؤخراً فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ٢٠٠٠.

فلقد عاشت الولايات المتحدة الأمريكية، خلال التسعينيات حالة من الاسترخاء والشعور المبالغ فيه بأن «الرواج والازدهار الاقتصادى»، الذى صنعه ما سمى «بالاقتصاد الجديد»، القائم على نشاط شركات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وكذا الأرباح الهائلة التى حققتها الاستثمارات الفردية والمؤسسية فى أسواق المال من خلال الأدوات والمشتقات المالية الجديدة، قد أبعدت عنها «شبح الكساد» تماماً. بل لقد ظهرت موجة من الكتابات تبشر بانتهاء ما كان يسمى «الدورة الاقتصادية» (Business Cycle)، أى تناوب فترات «الرواج» «الكساد» فى الاقتصادات الرأسمالية المرتكزة إلى «آليات السوق».

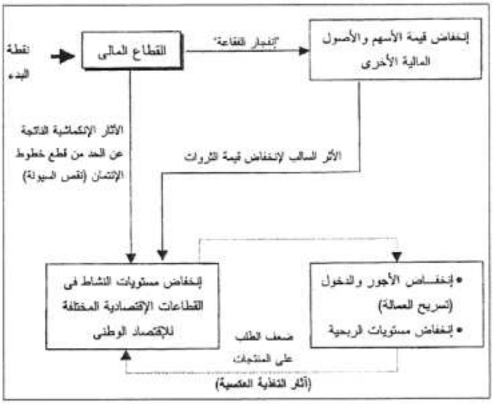
ولعل أهم ما كتب فى هذا المجال مقال منشور بمجلة (Foreign Affairs) التى تصدر فى واشنطن فى يوليو ١٩٩٧، عنوانه «نهاية الدورة الاقتصادية». وفى غضون الشهر نفسه، نشرت مجلة «(Wired) المعروفة باتجاهاتها الليبرالية فى أمريكا، مقالاً آخر بعنوان: «الرواج الطويل: تاريخ للمستقبل» (The Long Boom: A History of the Future) وفحوى كلا المقالين أن قضايا «الكساد» و«الركود»، قد غدت من قضايا الماضى، ويجب تدريسها والإشارة إليها كمجرد درس من دروس التاريخ الاقتصادى البعيد.

[٢]

لعل أهم مظاهر ومؤشرات الكساد تتجلى فى انخفاض ملحوظ فى «مستويات النشاط الاقتصادى» فى القطاعات المختلفة، ولا سيما قطاع المال، والبناء والتشييد، وقطاع الخدمات، وبعض فروع قطاع الصناعة التحويلية. وينعكس ذلك بدوره فى عدد من المؤشرات:

شكل «١»

دينامية العلاقة بين «القطاع المالى» و«القطاع العينى» فى ظل ظروف الانكماش والكساد



المصدر: من تصميم المؤلف.

- انخفاض مستوى المبيعات والأرباح.
- ارتفاع أعداد «العمال المسرّحين».
- انخفاض الدخول من الأعمال والأجور.
- ارتفاع عدد الإفلاسات و«الإغلاق» المؤقت للمنشآت.
- ارتفاع حجم «المخزون السلعى» الراكد.
- عدم القيام باستثمارات جديدة.

ولا شك أن تلك الأوضاع تؤدى إلى مزيد من الانكماش نتيجة انخفاض مستوى «التوقعات» وشيوع النظرة التشاؤمية للمستقبل. وتعود جذور «اقتصادات الكساد» إلى عدد من المسببات تؤدى إلى الدخول فى دائرة الكساد رويداً رويداً. إذ عادة ما تسبق مرحلة السقوط فى الكساد، وجود حالة من الرواج المصطنع تسمى «اقتصاد الفقاعة» (The Bubble Economy)، تغذيها موجة من المضاربات الكبيرة، ولا سيما فى مجال:

- المضاربات العقارية.
- المضاربات فى بورصة الأوراق المالية.

وعادة ما يرافق ذلك المغالاة فى عمليات الإقراض والاقتراض، وما يصاحبها من المجاملات لكبار المقترضين، دون ضمانات كافية أو تدقيق في أنشطة الاستثمار التى يقومون بها فى ظروف «الرواج». إذ إنه فى الوقت الذى تدقق فيه البنوك مع صغار المقترضين حول الضمانات، وطبيعة الأنشطة التى يرغبون فى تمويلها، يتم الاكتفاء بالنسبة لكبار المقترضين «بالسمعة فى السوق»، ومدى قوة النفوذ السياسى فى البلاد. ولذا هناك العديد من الأسئلة التى لا تطرح أصلاً عن منح القروض الكبيرة (راجع: كروجمان، ص ٨٨). وكان هذا النوع من الممارسات شائعاً فى بلدان كثيرة وأخذ أبعاداً خطيرة فى «تايلاند» و«إندونيسيا»، مع بداية النصف الثانى من التسعينيات.

وعندما وقعت الواقعة، وانفجرت «الفقاعة».. انهارت قيم الأصول المالية (الأسهم والسندات)، وقيمة العملة المحلية إزاء الدولار فى «أسواق الصرف الأجنبى»، الأمر الذى أدى إلى إفلاس العديد من الشركات التى كانت تستثمر أموالها المقترضة فى عمليات تشييد وبناء دور السكن الفاخرة والأبراج العالية. وكنتيجة لذلك، بدأت «خطوط الائتمان» الداخلى والخارجى تنقطع، وأخذت الأزمة تستفحل، والانكماش الاقتصادى تزداد حدته.

وعندما تحتدم الأزمة، وتمسك بخناق الاقتصاد الوطنى، تختلط «أزمة السيولة» «بأزمة الانكماش الاقتصادى»، يغذى كل منهما الآخر، وتبدأ الثقة تهتز بالمستقبل، وتنخفض توقعات الربحية .. مما يؤدى إلى مزيد من الانكماش فى حجم الاستثمارات الجديدة، وترتفع معدلات تسريح العمالة، على النحو المبين فى الشكل (١).

ويلاحظ أنه فى الفترة التى تسبق تعمق الأزمة، يبدأ رجال الأعمال وكبار المضاربين فى الاقتراض «بالعملة المحلية» وتحويلها على الفور إلى «دولارات ونقد أجنبى» للاستفادة من فروق الأسعار فى المستقبل، نظراً للتدهور المتوقع فى قيمة «وسعر صرف» العملة المحلية إزاء الدولار وغيرها من العملات الأجنبية. كما يبدأ تهريب «رؤوس الأموال» للخارج. ويشير التاريخ المالى الحديث إلى أنه كلما بدأت العملة المحلية تضعف فى «سوق الصرف الأجنبى»، تتعاظم هجمات المضاربين (Speculative Attacks) بلا هوادة، مما يؤدى إلى مزيد من التدهور وفقدان الثقة فى العملة المحلية «كمخزن للقيمة».

[٣]

يشير «كروجمان» فى الفصل الأخير من كتابه إلى أنه تعتبر المرة الأولى منذ جيلين أن يصبح القصور فى جانب الطلب والإنفاق (الطلب الداخلى والطلب الخارجى على الصادرات) المصدر الرئيسى للطاقات العاطلة فى المصانع وعدم التشغيل لقوة العمل فى الولايات المتحدة الأمريكية، عند نهاية التسعينيات. ويعترف «كروجمان» بأن الاقتصاديين المحترفين من أبناء مهنته (كما هو الحال بالنسبة «لراسمى السياسات») لم يكونوا مستعدين للتعامل مع تلك الأوضاع الجديدة، حيث كان التركيز فى التحليل الاقتصادى خلال العقود الماضية على جانب العرض فى الاقتصاد الوطنى (The Supply side) أى مدى قدرة الاقتصاد على الإنتاج، من ناحية، وعلى مرونة الأسعار والأجور لإجراء عمليات التصحيح اللازمة، من ناحية أخرى، دون أدنى تدخل من جانب راسمى السياسات لإدارة جانب الطلب فى الاقتصاد الوطنى.

ويعترف «كروجمان» أن سياسات إدارة الطلب «ذات الصبغة الكينزية»، التى اعتبرها البعض من مخلفات الماضى، هى التى يجب أن يعتد بها الآن عندما يقترب الاقتصاد الوطنى من «عتبة الكساد» (أو الانكماش الاقتصادى). ولذا فإن مجرد الارتكان إلى السياسات النقودية (Monetary Policies) التى ترتكز إلى تخفيض «أسعار الفائدة» لا يؤدى بالضرورة إلى الخروج من حالة الكساد. وانظروا إلى حالة اليابان خلال التسعينيات، فرغم التخفيضات المستمرة فى «سعر الفائدة» الذى كاد يقترب من الصفر، لم تفلح تلك السياسات حتى الآن فى إخراج اليابان من دائرة الانكماش الاقتصادى.

وبهذا الصدد، ينتقد «كروجمان» الدفاع الدوجماتى عن «حرية الأسواق» فى ظروف الكساد والأزمات. إذ إن المطلوب هو إيجاد حلول لمشاكل «قصور الطلب» و«سوء توزيع الدخول»، والاعتراف بحدود «آليات السوق» فى حل تلك المشاكل. و يشن «كروجمان» هجوماً حاداً على تلك الدوائر التى تعلق مسئولية «الأزمات الاقتصادية» على بعض العوامل العارضة دون النفاذ إلى جوهر المشكلة. ومثال ذلك الحديث عن سوء إدارة بنوك اليابان، أو فساد حاكم إندونيسيا السابق، أو ارتفاع «عجز الموازنة» فى البرازيل (ص ١٥٨). ويشبه الموقف بحالة طريق كثرت فيه حوادث السيارات، فإذا بالمحققين يهتمون بقضايا جانبية مثل: تعاطى بعض السائقين الخمر، أو أن إطارات السيارات لم تكن جيدة، وغير ذلك من العوامل الثانوية، دون الاهتمام بدراسة خصائص وتضاريس الطريق ذاته الذى تسير عليه تلك السيارات! وهكذا فإن العيب أحياناً يكمن فى «النظام الاقتصادى» ذاته.

وفقاً «لكروجمان»، ليس هناك روشتات جاهزة لعلاج الأزمات الاقتصادية فى كل

البلدان وكل الظروف. فـإذا لم يسـتجب «الاقتصاد المريض» للعلاج لابد من تغيير الدواء. ويرى «كروجمـان» أن توصيات صندوق النقد الدولي، التي يتبناها أيضاً عدد من الاقتصاديين في البلدان النامية، حول تخفيض عجز الموازنة العامة للدولة من خلال زيادة الضرائب وخفض النفقات العامة كإجراء من أجل استعادة الثقة، عادة ما يؤدى إلى تعميق الأزمة ويطيل أمد الكساد. ولعل حالة الأرجنتين تمثل برهاناً ساطعاً على مصداقية ما يقوله «كروجمان»، فعندما أصر «صندوق النقد الدولي» على ضرورة الوصول بعجز الموازنة إلى الصفر، وسايرهم في هذا المنهج وزير الاقتصاد المخلوع «دومينجو كافالو»، انتهى الأمر بتعميق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية وحدوث الانفجار على النحو الذى شهدناه في منتصف ديسمبر ٢٠٠١ ومازالت الأزمة مستمرة.

ويسخر «كروجمان» في نهاية مؤلفه من هؤلاء الاقتصاديين وراسمي السياسات الذين لا يريدون بذل الجهد الكافي لفهم الواقع بعيون جديدة فاحصة، بعيداً عن النظريات والمبادئ التي تقادمت مع مرور الزمن. ويقول إن تلك الحالة الذهنية «الجامدة» هى التى تعيق اكتشاف الحلول المبتكرة والعلاج الناجع لمشاكل «اقتصادات السوق».

[٤]

حالات «الانهيار» الاقتصادى و«الذوبان المالى» :(The "Meltdown Case")

يؤدى انهيار الثقة في الوضع الاقتصادى عامة إلى هروب الأموال الأجنبية والمحلية (ولا سيما «الأموال الساخنة» والودائع السائلة). وأحياناً يكون خروج الأموال «الوطنية» قبل «الأجنبية»، نتيجة حالة «الذعر المالى» التى تنتاب الجميع. بل يمتد «الذعر المالى» إلى أبناء الطبقة الوسطى التى تشعر بالخوف وعدم الاطمئنان إلى المستقبل، وهى تخشى أكثر ما تخشاه تآكل القيمة الحقيقية لمدخراتها، وانخفاض قيم الأصول التى في حوزتها (أراضى - مبانى - أصول مالية)، وكذلك تقلص فرص العمل وصعوبات الحفاظ على مستويات معيشتها في المستقبل. ولعل «الأزمة الأرجنتينية»، تمثل حالة نموذجية بهذا الصدد.

فلقد عانت «الأرجنتين» خلال الأعوام الأربعة الأخيرة من أزمة اقتصادية خانقة. ورغم أن الرئيس الأرجنتيني «دى لاروا» كان محل إعجاب دوائر المال في «وول ستريت»، إلا أنه فشل في إنقاذ ثالث أكبر اقتصاد في أمريكا اللاتينية. كما عصفت الأزمة الاقتصادية في الأرجنتين بثلاثة وزراء للاقتصاد خلال عام واحد، كان آخرهم وأهمهم «دومينجو كافالو».

وعندما اندلعت المظاهرات وموجة العنف في البلاد يومى ١٩ و٢٠ ديسمبر، كانت «الأرجنتين» على شفا الإفلاس الاقتصادى على الصعيدين الداخلي والخارجي. وقد تمثلت أهم عناصر الأزمة الاقتصادية والاجتماعية في الأرجنتين فيما يلي:

* عدم القدرة على دفع أقساط ومستحقات «الدين العام الخارجي» الذى بلغ ما يربو على ١٦٠ بليون دولار، ووصلت الأرجنتين إلى حافة «التوقف عن الدفع».

* التوقف عن دفع المرتبات والأجور والمعاشات لعدة شهور، مما أدى إلى ضائقة مالية كبيرة للجمهرة العظمى، من كاسبي الأجور وأرباب المعاشات.

* تزايد المخاطر التى تحيط بمدخرات «الطبقة الوسطى»، نتيجة احتمالات «فك الارتباط» بين «البيزو» (العملة الوطنية الأرجنتينية) والدولار الأمريكي، وبالتالى احتمالات تخفيض قيمة العملة المحلية إزاء الدولار. هذا بالإضافة إلى القيود المفروضة على السحب النقدى من الحسابات الجارية لدى البنوك (في حدود ألف دولار في الشهر)، وما يؤدى إليه مثل هذا الإجراء من آثار نفسية كبيرة وقلق حول المستقبل تغذيه الشائعات.

* تدهور الأحوال المعيشية للطبقات الشعبية، نتيجة ارتفاع «معدلات البطالة» (١٨٪)، وازدياد «معدلات الفقر» و«التهميش الاجتماعي».

وهكذا تفاعلت كل هذه العناصر لصناعة الأزمة الاقتصادية والاجتماعية الشاملة في الأرجنتين (راجع الشكل «٢»).

ونتيجة لذلك، فلقد اندلعت المظاهرات في الأحياء الفقيرة في العاصمة الأرجنتينية، ثم انضم إليها الآلاف من أبناء «الطبقة المتوسطة» في المدينة. ولعل من أكثر التعبيرات بلاغة عن حالة السخط التى كانت تسود صفوف المتظاهرين، وتناقلتها «وكالات الأنباء»، ما جاء على لسان طبيبة متظاهرة أمام مبنى الحكومة: «لقد سئمنا الفساد والجوع والفقر». ولكن أخطر العبارات - في تقديرنا - هو ما جاء على لسان شابة عاطلة عن العمل وأم لطفلين، إذ قالت «لقد فقدنا الأمل بمستقبلنا ومستقبل أولادنا». إذ إنه عندما تدفع الأوضاع قسماً كبيراً من السكان إلى فقدان الأمل والثقة بالمستقبل، تكون الأزمة ليست مجرد «أزمة اقتصادية»، بل «أزمة اجتماعية ومعنوية» في آن واحد. وهنا مكمن الخطورة.

وخلال الفترة السابقة للاضطرابات في الشارع الأرجنتيني، دار صراع عنيف في البرلمان والمجتمع حول «الموازنة الجديدة» للدولة، وعلاقة ذلك بالحصول على الشريحة الأخيرة من قرض تم الاتفاق عليه مع «صندوق النقد الدولي» ويبلغ حجم هذه الشريحة ١,٣ بليون دولار. فمع تعمق حالة الكساد الاقتصادى في البلاد، انكمشت الإيرادات الضريبية، وتصاعدت أعباء خدمة الدين العام الخارجي والداخلي، ودار الجدل حول كيفية سد «فجوة عجز الموازنة»، التى تصل إلى أربعة بلايين دولار (٤ بلايين دولار) فحيث ليس هناك مجال لرفع حجم الإيرادات الضريبية نتيجة حالة الانكماش والكساد التى تعم الأجزاء والقطاعات المختلفة للاقتصاد الوطني، ولم يبق هناك مجال للحركة سوى تخفيض حجم وبنود الإنفاق العام. الأمر الذى سوف يزيد الأمور سوءاً، من خلال تعميق أزمتى «السيولة» و«الركود».

شـــكل «٢»

مراحل انتقال الأزمة من قطاع لآخر داخل الاقتصاد والمجتمع



المصدر: من تصميم المؤلف.

هذا ناهيك عن تعميق «حجم البطالة» وزيادة معدلات الذين يسقطون يومياً خلف «خط الفقر».

وهكذا تعمق «المأزق الاقتصادى والمالي» للحكومة الأرجنتينية. فمن ناحية، إجراء مزيد من التخفيض لحجم الإنفاق العام ورفع معدلات الضرائب يضر بالتوازنات الاجتماعية في البلاد. ومن ناحية أخرى، فإن عدم تخفيض «عجز الموازنة» الذى يرتضيه «صندوق النقد الدولي» (كبير الدائنين الدوليين للأرجنتين) يؤدى إلى عدم دفع الشريحة الأخيرة من القرض الكبير الذى حصلت عليه الأرجنتين خلال عام ٢٠٠١، إذ إن الحكومة الأرجنتينية كانت تعتمد بصفة أساسية على تلك الشريحة لدعم احتياطياتها من النقد الأجنبي وتفادى التوقف التام عن سداد أقساط ديونها الخارجية المستحقة.

وهكذا وقعت «الحكومة الأرجنتينية» بين شقى الرحى، بين طبقات اجتماعية عريضة لا تحتمل المزيد من التقشف والانكماش الاقتصادى، وبين «صندوق نقد دولي» متشدد في شروطه، أوقف دعمه لوزير الاقتصاد الأرجنتيني «كافالو» الذى كان يسير معظم الوقت على روشتة توصيات الصندوق للخروج من الأزمة.

ولكن ذلك المشهد الأخير للأزمة لم يكن سوى نتاج تراكمات طويلة من السياسات والممارسات التى امتدت خلال حقبة التسعينيات، التى بدأت خلال فترة رئاسة الرئيس البيروني الأسبق «كارلوس منعم» واستمرت مع قدوم الرئيس المخلوع - تحت ضغط الشارع - «فرناندو دى لاروا». فلقد تمثلت تلك السياسات في سياسات الخصخصة العشوائية، والاعتماد المفرط على رؤوس الأموال الأجنبية (لا سيما الأموال «المضاربة» و«الجوالة»). هذا بالإضافة إلى استناد معظم الجهد الإنمائى للبلاد إلى الاقتراض الخارجي. كذلك أدى ربط قيمة «البيزو» بالدولار الأمريكي، ومساواة أحدهما بالآخر، إلى أن دفع الاقتصاد الأرجنتيني ثمناً غالياً نتيجة ارتفاع قيمة «العملة الأمريكية».

يضاف إلى كل هذا ممارسات وتراكمات اتسمت بالفساد المالى والإثراء غير المشروع، يقابلها إهمال في مجال معالجة الاختلالات الاجتماعية الناجمة عن ارتفاع معدلات البطالة في صفوف أبناء الطبقات الشعبية والوسطى، وارتفاع معدلات الفقر، وتوسع أنشطة «القطاع غير الرسمي» وازدياد درجات التهميش الاجتماعي. كل هذا حدث في دولة كانت تزهو إلى عهد قريب - بأن لديها أكبر «طبقة متوسطة» في أمريكا اللاتينية.

إذ إن العديد من تلك السياسات الاقتصادية تبدو ناجحة عند بداية تطبيقها في السنوات الأولى، ولكن تؤدى في نهاية المطاف إلى أن يرى الناس «النفق عند نهاية الضوء» بدلاً من «رؤية الضوء عند نهاية النفق»! ■

"الخاتون"
أو
"المس بيل"

المرأة التى أنشأت دولة ونصَّبت ملكًا!

عبد الرحمن منيف

■■ مع مطلع القرن العشرين، أصبح واضحًا أن الإمبراطورية العثمانية لم تعد قادرة على البقاء طويلاً، فقد أنهكها الضعف، وعم فيها الفساد، وتفجرت داخلها المشاكل التى طالما حاولت إبعادها أو تأجيلها، وازداد تربص الطامعين والخصوم بها، يطوقونها من كل جانب ويحكمون عليها الحصار، لكى يرثوها ويتقاسموا تركتها، خاصة بعد أن تم الاتفاق بين هؤلاء على المناطق والنسب.

الأقاليم العربية، والتى هى جزء من الإمبراطورية العثمانية، كانت أيضًا فى حالة مخاض أقرب إلى الغليان، فهى تحاول انتزاع استقلالها وحريتها من الإمبراطورية العجوز، وتحاول فى نفس الوقت أن تستقر، أو بالأحرى أن تكتسب تأييد الدول الأوروبية، لكن هذه الدول التى تتظاهر بالدعم والتأييد كانت لها نوايا مختلفة، إذ بالإضافة إلى كونها دولاً استعمارية لا تخفى، لذلك لم تهمل الأقطار العربية ولم تتركها. كانت لها بالمرصاد، وتنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض عليها، ومن أجل ذلك استعدت مبكرًا واتفقت فيما بينها على كيفية تقاسم تركة الامبراطورية، وقد أوفدت لهذه الغاية أعدادًا كبيرة من رجالها وعيونها تحت تسميات متعددة إلى أقاليم الإمبراطورية، خاصة الأقطار العربية، تجوس خلالها وتدرس أوضاعها تمهيدًا لاختيار أفضل الطرق والوسائل من أجل وضع اليد عليها، والسيطرة على خيراتها، وإخضاع شعوبها.

من جملة الذين أوفدوا لهذه الغاية ومنذ وقت مبكر: المبشرون والباحثون عن الآثار، والدارسون للغات الشرقية، والمهتمون بالقبائل والعشائر والعلاقات الاجتماعية والأقليات، وكان عدد غير قليل من هؤلاء الموفدين مرتبطين بدوائر المخابرات ويعملون بتوجيهها.

ضمن الذين أوفدوا للمنطقة العربية فى بداية القرن العشرين، وكلفوا بمهمات ونشاطات تركت بصمات واضحة استمرت آثارها لفترة طويلة: لورنس وفيلبى والمس بيل.



وإذا كان لورنس قد نال الشهرة الأوسع بين الثلاثة، ونسبت إليه الأهمية الأكبر، وكتب الكثير عن شخصه ودوره، بما فى ذلك نشاطه العسكرى فى اقتحام المواقع ونسف الجسور والسكك الحديد أثناء الحرب العالمية الأولى، مما عجل فى سرعة انحسار نفوذ الإمبراطورية العثمانية عن بلدان المشرق العربى، وخاصة أن الأعمال ترافقت مع وعود وعهود قدمها لورنس باسم الإمبراطورية البريطانية باستقلال البلدان العربية ووحدة أراضيها حالما تنتهى الحرب بانتصار الحلفاء، فإن ما عزز صورة لورنس أكثر: الحياة الرومانسية التى عاشها، وما تخللها من مغامرات واعتقال وهروب، ثم تلك العزلة التى لجأ إليها فى أعقاب الحرب، بما فى ذلك تغيير اسمه وشخصيته، وأخيرًا النهاية الفاجعة التى انتهى إليها. لقد صور كل ذلك فى مجموعة من الأفلام والكتب صدرت عنه، وجعلت منه الأكثر شهرة، بحيث تركزت عليه وحده الأضواء، وعزيت إليه المآثر والخوارق فى الوقت الذى غُيّبت أو اختصرت أدوار الآخرين.

صحيح أن فيلبى لا يعتبر مغبونًا من حيث المعرفة والشهرة قياسًا للورنس، إذ عاش فترة طويلة، وكتب فى حقول شتى، كما لعب أدوارًا بالغة الأهمية، وإن ظل أكثرها طى الخفاء، خاصة فى بلدان الجزيرة العربية، ومع ذلك بقى أقل بريقًا من لورنس، واقتصرت المعرفة به على أوساط دون غيرها.

الأقل شهرة بين الثلاثة، ولا تكاد تعرف خارج العراق، وفقط ضمن أوساط محدودة وضيقة، هى جيرترود بيل، أو مس بيل، حسب التسمية الأكثر تداولاً، أو الخاتون كما كان يطلق عليها عامة الناس.

تعتبر المس بيل شخصية فذة ودورها بالغ الأهمية، إن لم يكن حاسمًا، فى الصيغة التى أخذتها المنطقة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من حيث العلاقة مع بريطانيا، ومن حيث نوعية الحكم الذى قام فى العراق.

بدأت علاقة المس بيل بالمنطقة مع بداية القرن العشرين تقريبًا، وقد تزاملت ولورنس فى البحث عن الآثار، وكانت البداية فى كركميش، عند مدخل نهر الفرات إلى سورية، وظل الاثنان معًا فترة من الزمن، ثم افترقا كل إلى مكان وكل لمهمة، إذ أخذت المس بيل تجوب المنطقة من أقصاها إلى أقصاها بحجة البحث عن الآثار مرة، وبحجة دراسة لهجات البدو مرة، وبحجة الإلمام بأصول القبائل وبأنسابها ثالثة، إلى أن وصلت إلى أعماق الجزيرة العربية فى محاولة لاستمالة عدد من شيوخ البدو إلى جانب الحكومة البريطانية وتعبئة عواطف العرب ضد الأتراك، الأمر الذى أدى إلى احتجازها فى حائل من قبل ابن رشيد الذى كان مواليًا للأتراك، إلى أن تم الإفراج عنها وترحيلها من الجزيرة العربية. أما لورنس فقد اختص بالهاشميين ووثق العلاقة معهم حتى نهاية الحرب.

مغامرات خطرة ومتعددة اندفعت إليها مس بيل، وقد دفعت ثمنًا لقاء ذلك، فهى لم تهدأ ولم تتوقف عن التجوال والإقامة لفترات غير قصيرة فى بلدان المنطقة، مما ساعدها أكثر من قبل على إتقان العربية، وإلى التعرف على كثيرين ممن يعملون فى الحقل العام، إضافة إلى الإلمام أكثر بتفاصيل المنطقة ومشاكلها، إلى أن انتدبت للعمل فى العراق أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان من حسن حظها أن تعمل مع واحد من أبرز صانعى خرائط المنطقة: السير بيرسى كوكس.

من خلال وصولها إلى العراق، وبحكم ما تملك من معرفة وإمكانيات ومواهب، ونظرًا للموقع الذى احتلته، بدأت رحلتها الكبرى، وبدأت فى صناعة الممالك وتنصيب الملوك واختيار الوزراء وتقسيم النفوذ والأرزاق، بحيث لم تمر فترة إلا وأصبحت الخاتون التى تضفى على الأشخاص والأشياء شكلها وأهميتها، وأصبح التقرب إليها وكسب ثقتها ورضاها هدفًا لكثيرين من الساسة والمتطلعين إلى المناصب والنفوذ، أما من يعاديها أو يختلف معها، حتى لو كان من أبناء جلدتها والعاملين معها فى الإدارة، فإن

جيرتروود بيل من أوراقها الشخصية، ١٩١٤-١٩٢٦
تأليف: إليزابيث بيرجوين
ترجمة: نمير عباس مظفر
تقديم: الأستاذ الدكتور عبد الرحمن منيف
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر



من خلال وصولها إلى العراق، وبحكم ما تملك من معرفة وإمكانيات ومواهب، ونظرا للموقع الذى احتلته، بدأت رحلتها الكبرى، وبدأت فى صناعة الممالك وتنصيب الملوك واختيار الوزراء وتقسيم النفوذ والأرزاق

مصيره النفى أو النقل، إن لم يكن أكثر من ذلك!

من جملة الذين تعرضوا لانتقامها، بعد أن وقفوا فى وجهها: طالب النقيب ثم فيلبى. فالسيد طالب، زعيم البصرة غير المنازع، والذى كان طامحًا لاحتلال عرش العراق، باعتباره واحدًا من أبناء البلاد، وكان حظه فى الوصول إلى العرش لا يقل عن فيصل بن الحسين، لما يتمتع به من قوة وعلاقات تأييد، إضافة إلى دعم بعض رجال الإدارة الإنجليزية من العاملين فى إدارة الانتداب، لم يلبث هذا السياسى الطموح، بعد أن عبّر عن نواياه وهيأ نفسه بحكم الاتصالات التى كان يجريها بهدف تسلم العرش، أن تعرض لغضب المس بيل، خاصة أن الأخيرة أخذت تميل إلى تزكية فيصل، وتحاول إبعاد أو إضعاف المرشحين الآخرين. ورغم أن طالب النقيب كان يشغل مركزًا حكوميًا رفيعًا فى الحكومة الانتقالية التى كان يرأسها عبد الرحمن النقيب، إلا أن غضب الخاتون عليه أدى إلى تجريده من منصبه أولاً، ثم إلى نفيه بعد ذلك للهند، وظل فى المنفى بضع سنين، جرى خلالها تنصيب فيصل ملكًا على العراق، وإقامة صيغة جديدة للحكم، بحيث أصبحت الدنيا حين عاد طالب من المنفى، بعد أن سمح له بذلك، مختلفة تمامًا عما تركها، وهكذا طواه النسيان وانتهى دون أن يخلف أثرًا. لقد حصل كل ذلك لأن المس بيل أرادت له هذا المصير!

أما المستر فيلبى الذى كان أحد صانعى السياسة البريطانية فى المنطقة العربية، خاصة فى العراق، وقد شغل مناصب عديدة فى إدارة الانتداب، بما فيها وكيل وزارة الداخلية، وكان بمثابة الوزير الفعلى، وكانت له خطوط كبيرة فى الارتقاء وإشغال مناصب أكبر، إلا أن خلافه مع المس بيل، خاصة فيمن يجب أن يشغل عرش العراق، إذ كان فيلبى ميالاً إلى طالب النقيب وغير مقتنع بفيصل الأول، أدى هذا الاجتهاد ثم الخلاف بين الاثنين، إلى أن تتبنى الإدارة، المندوب السامى فى العراق أولاً، ثم مؤتمر القاهرة الذى انعقد لدراسة هذه القضية وقضايا المنطقة الأخرى، وأخيرًا موقف لندن، أدى ذلك لإقرار موقف المس بيل، فى أن يكون فيصل ملكًا، مما أغضب فيلبى ثم إلى اعتكافه، الأمر الذى حمل الإدارة على نقله إلى مكان آخر وتكليفه بمهمات أخرى.

إن فيلبى، الرجل القوى، والبالغ الذكاء والمكر، لم يستطع أن يقف فى وجه جيروود بيل، والإدارة البريطانية بعد أن فاضلت بين الاثنين، وأيهما أكثر ملاءمة للعراق، لم تتردد فى اختيار المس بيل، أو الخاتون، وفى تزكية مواقفها وخياراتها، ووجدت الإدارة لفيلبى مكاناً آخر فى الجزيرة العربية؛ ولقد أثبتت الأيام أن هذا الاختيار كان يتوخى مصلحة الإمبراطورية البريطانية بالدرجة الأولى، إذ أعطى كل من الاثنين، فيلبى والمس بيل أفضل ما لديه فى المكان الذى اختير له.

لقد تمت الإشارة إلى هذين المثلين للتدليل فقط على مدى قوة المس بيل، وما تتسم به من عناد وبعد نظر، إضافة إلى الإصرار وقوة المثابرة.

إن فترة الحرب العالمية الأولى ثم ما تلاها، من أصعب الفترات وأكثرها دقة وخطورة، إذ لم تكن مجرد انتصار لطرف وهزيمة لآخر، يمكن بعدها أن تسوى الأمور بين الطرفين تبعًا لموازين القوى، وأن يقدم المهزوم تنازلات ترضى الطرف المنتصر. كما لم تكن تلك الحرب مجرد سقوط إمبراطورية، مثلما حصل لإمبراطوريات أخرى، وإنما كانت بمثابة زلزال كبير غيّر وجه العالم، وأعاد رسم خرائطه، بحيث أصبح عالم ما بعد الحرب مختلفًا نوعيًا عما قبلها، وكانت حصة البلاد العربية من هذا التغيير، من حيث التجاذبات وإعادة النظر والمساومات، أكبر من الآخرين، نظرًا للطبيعة الخاصة لهذا القطر.

فالعراق من ناحية الموقع الجغرافى، الخاص والدقيق، ومن ناحية التنوع الاثنى والمذهبى الذى ميز ساكنيه، ونظرًا لوجود ثروة نفطية مؤكدة فى أراضيه، وتنافس القوى الكبرى على هذه الثروة، نظرًا للتنوع فى طبيعة تكوينه الاجتماعى، من حيث غلبة البداوة على القاطنين فيه أو المهاجرين إليه من ناحية العدد والعقلية، ولعدم وجود الحد الأدنى من القواسم المشتركة بين زعمائه وقياداته السياسية التقليدية، على الصيغة السياسية التى يجب أن تسود، كل ذلك جعل التعامل معه فى أعقاب الحرب شائكًا وعرضة لإعادة النظر مرة بعد أخرى.

وبريطانيا التى كانت تتطلع منذ وقت مبكر لأن تضع يدها على العراق، نظرًا لأهميته، ولأنه محطة رئيسية فى الطريق إلى الهند، ما كادت تنتصر فى الحرب، وتفرد سيطرتها على هذا البلد حتى واجهتها مجموعة من المشاكل والثورات، جعلت موقفها دقيقًا وصعبًا، إذ لم يهدأ الداخل، ولم يقر لها منافسوها بما كانت تطالب به أو تريده، وهكذا اندلعت الثورات الواحدة بعد الأخرى، فما كادت ثورة النجف تنتهى حتى انفجرت ثورة العشرين، وما كادت ثورات العشائر العربية تهدأ أو تتوقف فى وسط العراق وجنوبه حتى هبت حركات التمرد والعصيان فى الشمال، وما أن توصلت إلى صيغة أولية لنظام الانتداب، وتشرع فى إقامة الإدارة، حتى قوبلت برفض واسع، الأمر الذى اضطرها لإعادة النظر والتفكير بصيغة أكثر قبولاً وثباتًا، وكان أن توصلت إلى اعتبار النظام الملكى هو الصيغة الملائمة، لأنها تساعد على الاستقرار!

توصلت بريطانيا إلى هذه القناعة فى الوقت الذى عزلت فرنسا فيصل بن الشريف حسين عن عرش سورية واضطرته إلى المغادرة، مستغلة بقاء لواء الموصل موضوعًا للمساومة، لأن هذا اللواء بقى بين تركيا التى تطالب به، وبين بريطانيا التى تريد جعل تبعيته للعراق كى تتمكن من السيطرة على ثروته النفطية، وبين فرنسا التى تعتبره جزءًا من سورية اعتمادًا على اتفاقيات سايكس بيكو التى عقدت خلال الحرب.

فى ظل أجواء بهذا التعقيد والتداخل قدر لاثنين أن يلعبا دورًا حاسمًا فى تقرير مصير العراق، من حيث ضبط أوضاعه ورسم حدوده وتحديد نوعية وشكل الحكم الذى يجب أن يقوم فيه. كان هذان الاثنان هما السير بيرسى كوكس وجيرتروود بيل.

صحيح أن الحاكم الفعلى، هو المندوب السامى بيرسى كوكس، صاحب التجربة الطويلة فى المنطقة، والذى يتمتع بصفات مميزة إداريًا وسياسيًا، إلا أن وجود الخاتون، المس بيل إلى جانبه كان ضروريًا، وإليها يعود الفضل الكبير فى ترتيب الكثير من الأمور، إذ بالإضافة إلى معرفتها بالعربية وبأنساب القبائل وطبيعة العلاقات التى تربط أو تباعد بين الشيوخ والمناطق، فقد كانت تملك قدرة فائقة على العمل، وعلى إقامة العلاقات، وحل المشاكل والمنازعات، وترتيب الأمور التى يصعب على غيرها القيام بها.

ومن المفيد أن نتوقف هنا عند موضوع تنصيب فيصل بن الحسين ملكًا على العراق، نظرًا لأهمية الموضوع أولاً، ولأنه يمثل نموذجًا لقابليات هذه المرأة، ثانيًا.

حين بدا واضحًا أن الميل هو اختيار النظام الملكى العراقى، كان هناك عدد كبير من المرشحين لتسلم العرش، وكان لكل واحد من هؤلاء المرشحين منطقته ومؤيدوه والمتحمسون له، وكان له أيضًا من يؤيده، أو يتظاهر بذلك، من رجال الانتداب، وكأن المسألة مسابقة لإشغال منصب يعتقد كل من المرشحين أنه أهل لذلك!

من هؤلاء المرشحين: عبد الرحمن النقيب، أبرز رجال بغداد ونقيب أشرافها، وقد اعتمد عليه الانتداب فى تشكيل أول حكومة بعد الحرب، وكان موضع ثقة المندوب السامى والإدارة البريطانية. ولولا تقدمه فى العمر وثقل حركته ومرضه لكان حظه فى الوصول إلى العرش كبيرًا.

أما طالب النقيب فكان أبرز زعماء البصرة وأكثرهم نفوذًا وحركة، ولولا تسلطه وغروره، وميله إلى الرفض والعناد، لاستطاع أن يقيم علاقات ودية مع إدارة الانتداب، لكن هذه العلاقات كانت دومًا عرضة للتارجح والخطر، مما أدى إلى عدم الثقة به وإلى استمرار الخشية منه.

وكان ضمن المرشحين للعرش أيضًا: هادى باشا العمرى، أحد زعماء مدينة الموصل، ثم حاكم إمارة المحمرة، الشيخ خزعل، وحاكم نجد عبد العزيز بن سعود، ووالى بشت كومه الإيرانى، كما رشح أيضًا الأغاخان لعرش العراق، وأضيف إلى المرشحين فيصل بن الحسين الذى عزل عن عرش سورية وأخذ يبحث عن عرش بديل، وكان المستر تشيرشل يميل إلى فيصل أكثر من أى مرشح آخر لأن «تنصيب فيصل على عرش العراق سيزيد من سيطرة الحكومة البريطانية عليه وعلى أبيه شريف مكة[1]».

وهكذا، وما أن انعقد مؤتمر القاهرة، والذى تقرر فيه تبنى فيصل كى يكون ملكًا، حتى اندفعت المس

بيل إلى تنفيذ هذا القرار الذى لاقى هوى كبيرًا فى نفسها، باعتبارها أكثر المتحمسين لفيصل، وأول مرشح لهذه المهمة.

وكما أشرنا توًا، كان المتحمسون والمرشحون للعرش كثيرين، وكانت الفروق بين واحد وآخر قليلة، وهنا ظهرت قوة المس بيل ومكرها، فى إسقاط المرشحين المنافسين لفيصل الواحد بعد الآخر. لجأت إلى المداهنة والإقناع مما حمل أكثر المرشحين حظًا ـ عبد الرحمن النقيب ـ على الانسحاب. ولجأت إلى القوة والحزم فى إبعاد ثم نفى طالب النقيب، الذى يشكل خطورة حقيقية على فيصل سواء انتخب ملكًا أو بقى فى العراق، لما له من تأثير وعلاقات. كما لجأت المس بيل إلى شيوخ العشائر وإلى رجال الدين، واستعانت بزعماء المدن والأحياء من أجل تنظيم حملة تطالب بتنصيب فيصل ملكًا للعراق، وهكذا استطاعت بكثير من الحركة والجهد والتنظيم أن تجعل فيصلاً الأوفر حظًا فى تولى العرش، مستغلة البيت الذى ينتسب إليه، والصفة التى كانت له، والتأييد الذى حصل عليه نتيجة التحريض والتعبئة، بما فى ذلك الصحافة التى أنشئت من أجل الدعاية له وإقناع الرأى العام بجدارته.

إن الجهد الذى بذلته المس بيل، والذى تناول أدق التفاصيل، منذ لحظة وصول فيصل إلى البصرة، ثم مروره أو توقفه فى بعض المحطات، وزياراته للأماكن المقدسة، وفى أوقات معينة، وأيضًا ما يجب أن يقوله للناس وما يقدمه من وعود، وحتى الملابس التى يحسن ارتداؤها، واختيار الأشخاص الذين يفترض أن يرافقوه ويحيطوا به، والآخرين الذين يفترض أن يتعاون معهم فى إدارة البلاد، وكان فى مقدمتهم جعفر العسكرى ونورى السعيد.. إن هذه التفاصيل التى أشرفت عليها المس بيل بنفسها، والقوى التى حشدتها من أجل ذلك، جعلت اختيار فيصل ملكًا تحصيل حاصل، كما يقال، إذ أصبح فى نهاية المطاف المرشح الوحيد للعرش، بعد أن نُسّق الآخرون بأشكال شتى، وأصبح الاستفتاء الذى تمت الدعوة إليه إقرارًا بالأمر الواقع، وتثبيتًا لحقيقة أمست لا تحتاج سوى بعض الشكليات كى تكتمل.

هناك مقدار كبير من «الحقائق» الصغيرة التى تشير إليها المس بيل من أجل إنجاز هذه المهمة، مهمة اختيار النظام الملكى للعراق، ثم تسمية فيصل للعرش، وكل هذه التفاصيل تؤكد أن مهمة كهذه ليس من السهل القيام بها فى بلد مثل العراق، وفى فترة مليئة بالاضطرابات والصراع، وكان من الممكن أن تطيح بها أو تغيرها، لولا قوة هذه المرأة وإصرارها، وأيضًا قدرتها على تكييف الأمور لتحقيق هذه الغاية، والمرونة التى كانت تتمتع بها من أجل تطويع أقوى الرجال وأكثرهم عنادًا وصلابة.

إن اختيار رجل مثل فيصل لعرش العراق أمر بالغ الصعوبة، إن لم يكن مستحيلاً، لولا المس بيل. فهذا الرجل الذى لم تمض سوى شهور على هزيمته فى سورية من قبل الفرنسيين، والذى يتصف بروح رومانسية من حيث النظرة والعلاقات، والتصرفات أيضًا، وكان موضع منافسة من بعض أفراد أسرته وخصومه، وكان غريبًا عن هذا البلد، إذ لم يره من قبل، ولا يعرف إلا القليلين من رجاله، فقط أولئك الذين التحقوا بالثورة العربية حين أعلنها والده الشريف حسين عام ١٩١٦، ورافق بعضهم فيصلاً فى مسيرته نحو دمشق، وأصبحوا جزءًا من العناصر التى يعتمد عليها فى إدارة السياسة والحرب حين تولى حكم سورية، ثم حين واجه الفرنسيين، ولما هزم عاد أغلب هؤلاء إلى الأماكن التى انطلقوا منها، أو هاموا على وجوههم باحثين عن مكان أو صيغة حياة جديدة.

إن أوضاعًا مثل هذه، ورجالاً كهؤلاء كانوا بحاجة إلى قوة استثنائية لكى تعيد تنظيم أوضاعهم وأدوارهم، وما كان هذا الشىء ليحصل، ووفق هذا النسق لولا المس بيل.

لم يقتصر الأمر على ذلك، إذ ما كادت تبرز المصاعب والتحديات، من حيث إقامة المؤسسات واختيار الرجال لإدارتها، وما كاد ينشأ الجيش وما يقتضيه من رجال وأسلحة وأموال، وما أن ظهر عجز الموازنة وتزايد هذا العجز سنة بعد أخرى، وما أن بدأت التمردات، خاصة فى الشمال، وإعلان عدد من المتنفذين عصيانهم على الحكومة المركزية، حتى بدأ يظهر ضعف فيصل وتردده، بل وظهر ميله إلى اعتزال السلطة والتخلى عن هذه المهمة الصعبة، لولا المس بيل وعدد من الرجال الذين اندفعوا للمساعدة وتحمل الجزء الأكبر من الأعباء، مما أدى إلى تماسك فيصل من جديد ومتابعة المسيرة.

ومن أجل مساندته والوقوف بقوة إلى جانبه، أخذت المس بيل تتولى الكثير من الأمور اليومية والخاصة، بما فى ذلك العناية بالصحة والأسرة والإشراف على الزوجة والأولاد فى اختيار المربيات والملابس، وفى تعليم اللغات، وغير ذلك الكثير من الشئون، بحيث لم يعد من الممكن الاستغناء عنها أو الاعتماد على غيرها. وكان فيصل الأول يلجأ إليها فى الصغيرة والكبيرة، إلى أن وصل الأمر إلى حد الالتباس فى العلاقة، وتشير المس بيل ذاتها إلى عدد من الحالات حين كان فيصل الأول يستدعيها إلى مزرعته الخاصة فى خانقين ليناقش معها بعض الأمور، أو لكى يفضى إليها بمكنونات عقله وقلبه!

أما الرجال الأساسيون فى بناء الدولة وإدارتها، فكانت علاقة المس بيل بأغلبهم وثيقة، وكانوا يسترشدون برأيها ويتشاورون معها فى معظم القضايا، أما أولئك الذين اختلفوا معها أو لم يمتثلوا لتوجيهاتها فقد انتهى بهم الأمر إلى المقاطعة والإبعاد، وإن حاول فيصل الأول، بعد أن تمرس بالحكم، أن يبقيهم فى الظل فترة من الزمن ثم يستعيدهم مرة أخرى!

وما يقال عن إنشاء الدولة العراقية واختيار نظام الحكم، يمكن أن يقال أكثر منه عن إنشاء المؤسسات والإدارات، وقد ساهمت المس بيل، مع رجالها الأقربين، فى إقامة الكثير منها، وارتبط بعضها باسمها حتى بعد أن لم تعد موجودة، ولعل إنشاء المتحف العراقى وزيادة عمليات التنقيب عن الآثار، من جملة ما أولته عناية خاصة، وربما بدافع الحنين إلى العمل الأول الذى بدأت فيه علاقتها بالمنطقة!

حتى الطقس القاسى فى العراق خلال فصل الصيف، والذى يضيق به ساكنوه من أبنائه، ويهرب منه الأجانب استطاعت المس بيل احتماله والتكيف معه، وقد صدف أن مرت أصياف عديدة تغادر خلالها معظم الأجانب، خاصة من الإنجليز، البلاد فى الوقت الذى بقيت راضية وليست مرغمة، وتعودت ثم ألفت هذا الجو، بحيث اعتبرت العراق موطنًا ثانيًا لها.

حتى فيصل الذى كان يقضى أجازاته الصيفية فى شمال البلاد أو يسافر إلى أوروبا، هربًا من الحرارة الشديدة فى بغداد، اعتبرت

إن اختيار فيصل لعرش العراق أمر بالغ الصعوبة، إن لم يكن مستحيلاً، لولا المس بيل. فهو الرجل الذى لم تمض سوى شهور على هزيمته فى سورية من قبل الفرنسيين

١٩/ ٢/ ١٩٢٦ خطاب من غازى إلى مس بيل



المس بيل الحصول على مراوح كهربائية هبة لا تقدر لمواجهة هذا الجو، ولا تفضل مكانًا آخر على بغداد، وإذا حاولت أن تمنح نفسها بعض الامتيازات تتبرد في مياه دجلة أو تذهب بإجازة قصيرة إلى إيران، وخلال الأجازة تشتغل في جمع المعلومات واكتشاف بعض المناطق! وتمارس هواية صيد الطيور والحيوانات، وحين تتعب من كل ذلك تعود لممارسة هوايتها الأولى: البحث عن الآثار.

هكذا كانت المس بيل خلال إقامتها في العراق، أما في أوقات الفراغ فكانت تزور مناطق العراق المختلفة، وتدون المعلومات والملاحظات، وتقيم الصلات مع المتنفذين ووجوه المناطق، وتبعث إليهم بعد فترة بالأعطيات والهدايا لتأكيد روابط الصداقة وتمتينها، ولكي تطلب منهم المساعدة أو أداء بعض الخدمات في وقت لاحق.

ربما لم تتناول عشاءها بمفردها إلا مرات نادرة، فقد كانت دائمًا داعية أو مدعوة، ومع عدد مختار ومحدود من الأصدقاء، وفي مثل هذه الليالي كان يجري الكثير من البوح وكشف الأسرار واستعمال لغة خاصة في الخطاب، ومن جملة ما تشير إليه في إحدى رسائلها أن نوري السعيد، الذي كان يزورها كثيرًا، كان يحب شرب الخمر وأن تكون له علاقات نسائية واسعة!

هذا غيض من فيض، كما يقال، عن عالم المس بيل، فالذي أشير إليه هوجزء مما دونته في رسائلها إلى أبيها وإلى زوجة أبيها، ثم إلى بعض الأصدقاء، وهذا ما يستدعي التوقف طويلاً عند السفر الكبير والمهم، والذي يضم قسماً غير قليل من الرسائل التي بعثت بها إلى أبيها، وكانت بمثابة مرآة لحياتها ولأدق التفاصيل المتعلقة بقيام هذه الدولة، وما رافق قيامها من صراع وملابسات وأدوار.

قبل الإشارة إلى ما بذله الأستاذ نمير مظفر من جهد ممتاز ليس فقط في ترجمة هذا النص الذي يجب أن يكون موجوداً كمرجع في العربية، وإنما في الحواشي والمعلومات الإضافية التي استخرج الكثير منها من بطون الكتب أو استقاها من أقرباء وأصدقاء الذين مر ذكرهم في الرسائل ثم في الكتاب.

قبل الإشارة لابد من التوقف وتامل الطريقة التي اعتمدتها المس بيل في التعبير عما تريد قوله، إذ رغم مقدرتها التحليلية في الكتابة، وقد أثبتت ذلك في غير هذا السفر، حين كتبت عن القبائل وعن الآثار، وفي التقارير العديدة المنسوبة إليها، إلا أن اعتماد الرسائل هنا كوسيلة للتعبير يضفي عليها صفة حميمية، ويجعلها أقرب إلى النفس، كما أن لها صفة الخصوصية التي تجعلها بوحاً أو أقرب إلى البوح والأسرار، خاصة أنها موجهة إلى أقرب الناس إليها، وهم موضع أسرارها والذين يمكن أن يؤتمنوا على أدق القضايا وأكثرها خفاء، وربما خطورة، مما يحولها في النهاية إلى وثائق بالغة الأهمية.

لم تلجأ المس بيل في هذه الرسائل إلى الكتابة التاريخية، أي إلى التحليل وإيراد المستندات والوثائق، كما لم تلجأ إلى كتابة الذكريات في وقت متأخر، أي بعد انقضاء الأحداث وظهور النتائج، ولم تلجأ أيضاً إلى استعادة ما وقع لكي تظهر مقدار ما تتمتع به من الحكمة وبُعد النظر.

لقد لجأت إلى كتابة الرسائل إلى ذويها، وإلى أصدقاء تعرف مدى اطلاعهم وتدقيقهم، وتالياً إمكانية تساؤلهم ومحاسبتهم، مما يجعلها موضوعية وذاتية في آن واحد، فهي تورد المعلومات والوقائع أولاً ثم تعلق عليها، وكلا الأمرين يحتاج إلى دقة من ناحية، وإلى جراة من ناحية ثانية، أي أنها لا تخشى من إيراد الوقائع، ولا تخشى من إبداء الرأي فيها، كل ذلك في وقته وبكل ما يحيط به من ملابسات.

هذا النوع من الكتابة شديدة الخصوصية، ولا يخلو من مكر أيضاً، فالكاتب يتناول قضايا عامة بالغة الحساسية، ويعرف أن لهذه القضايا انعكاسات كثيرة مباشرة وتاريخية، لكن باعتبار أنها لن تنشر سريعاً، أغلب الأحيان، ولأنها وصلت إلى أيد يفترض تقديرها لمدى الدقة والأهمية فلابد أن يتاح لها رؤية النور ذات يوم، وأن تعيد رسم المشاهد والوقائع بحيث تبرز الحقيقة، وينال كل انسان ما يستحقه، من وجهة صاحب العلاقة.

إن هذا السفر يحوى قسماً غير قليل من الأوراق الشخصية لجيرتروود بيل، ويتناول الفترة من ١٩١٤، تاريخ وصولها إلى العراق، وإلى ١٩٢٦ تاريخ وفاتها في بغداد، وإذا كانت اليزابيث بورغوني قد تكلفت من الجهد في ترتيب هذه الأوراق ووضعها في إطار يساعد القارئ الأجنبي، الانجليزي بشكل خاص على التعامل معها واستعادة وجه من أبرز وجوه الاستعمار البريطاني، فإن من حق القارئ العربي أن يتعامل مع هذه الأوراق بطريقة مختلفة، وأن يعيد ترتيبها ضمن رؤية تاريخية مغايرة، لأن كثيرين من بقايا العاملين في الحقل العام عاصروا أو عاشوا بعد المس بيل، ثم الأجيال التي تلتهم، يتذكرون، ربما بشكل مشوش، الكثير من الوقائع والأسماء، بحيث إن القراءة المدققة تستطيع أن تعيد المشاهد والوقائع لا وفقاً لما تشتهي أو ترغب، وليس امتثالاً لإرادة المس بيل أو الزاوية التي رأت بها الأحداث، وإنما اعتماداً على المقارنة والوقائع والحقائق التي أتيحت من مصادر أخرى متعددة.

ولابد من كلمة أخيرة: إن كم المعلومات المتوفرة عن المس بيل، أو الخاتون، وفي هذا المصدر أو مصادر أخرى، تحرض العاملين في السينما والمسرح والتليفزيون على التعامل مع هذه الشخصية، ويمكن من خلال إعادة «قراءتها» أن نستعيد مرحلة تاريخية كاملة، وأن ندرك بوضوح أكبر كيف تنشأ الدول وكيف تقام الممالك، وكيف ينصب الملوك.. وأخيراً كيف يعزلون. ■

هامش

(١) عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال إلى الاستقلال، بغداد ١٩٩٧.

كتاب الزاوية

من أشعار ناظم حكمت

حول القرن العشرين

أنا من أبناء القرن العشرين،

وفخور بأنني كذلك.

يكفيني

أن أكون حيث أنا في القرن العشرين

أن أكون في جبهتنا نحن،

أقاتل من أجل عالم جديد...

- حبيبتي..

بعد قرن من الزمان...

- لا! بل أبكر من ذلك

رغم كل شيء.

إن هذا القرن العشرين،

المحتضر هنا، المولود هناك،

قرني العشرين هذا بأيامه

الأخيرة الجميلة،

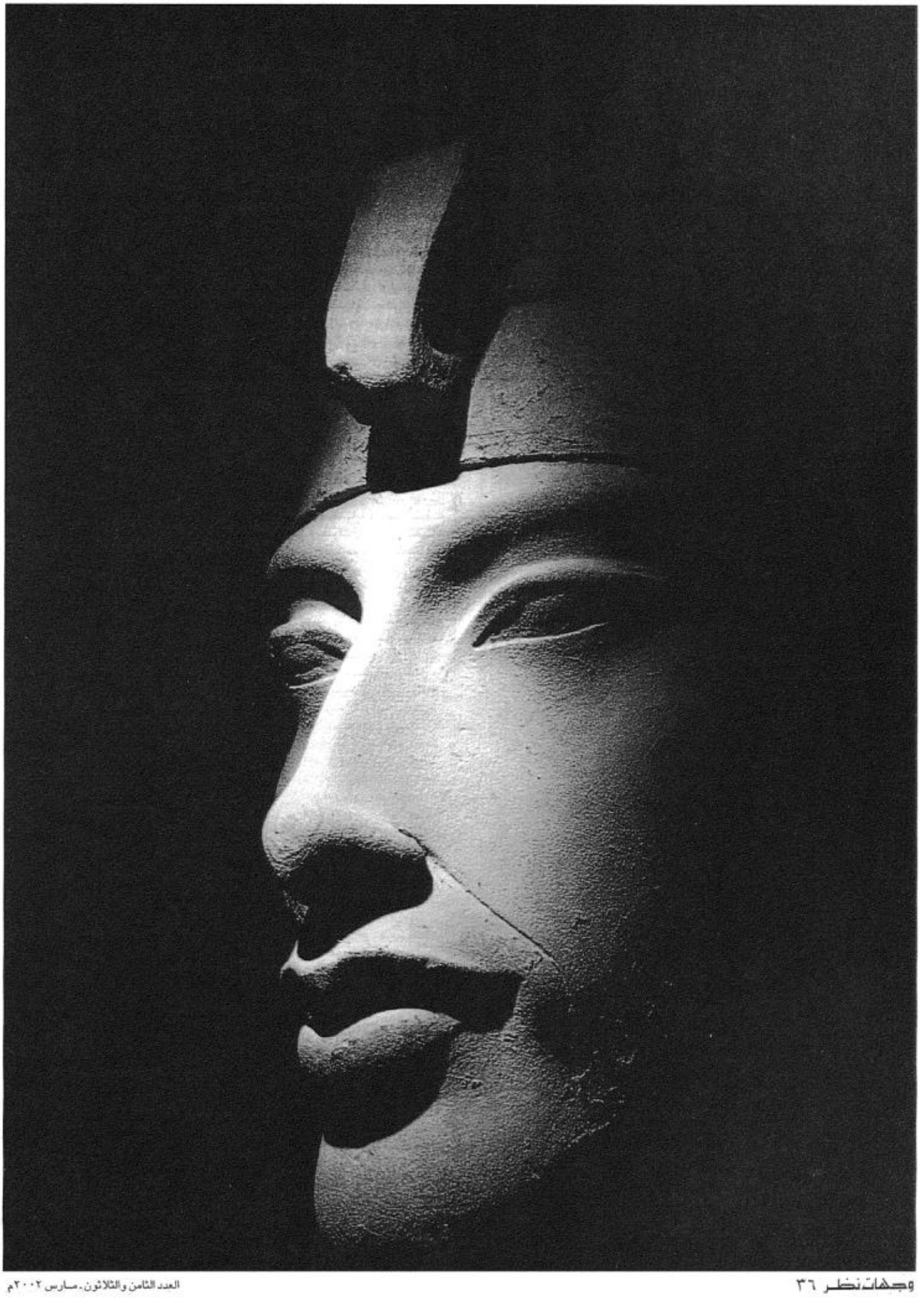
سيكون بالتأكيد باهراً ومغموراً بالشمس

مثل عينيك أنت يا خديجتي، يا حبيبتي،

(إنه ليلي الرهيب الذي سينتهي

بالكثير من الصخب والضجيج مع انبلاج الفجر).

١٩٤٨



إخناتون

نبى مصر المزيف

أحمـــــد عثمـــــان

■■ استردت مصر قاعدة لتابوت فرعوني يوم ٢٧ يناير الماضي، كانت مفقودة من متحف القاهرة منذ ٧١ سنة. وسافر الدكتور جاب الله على جاب الله أمين عام المجلس الاعلى للآثار إلى ألمانيا لإحضار القاعدة، مع غطاء التابوت الذى اقرضته مصر للعرض فى متحف ميونخ. إلا أن التابوت الذى خرج من القاهرة باسم سى منخ كارع، عاد إلينا باسم آخر، هو إخناتون. وبينما يثير التساؤلات حول اعتبار التابوت العائد لإخناتون، هو أن هذا الملك كان فى الثالثة والثلاثين من عمره عند نهاية حكمه، بينما اكد الاطباء أن التابوت لشاب لا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره. وبينما استقر رأى الخبراء على أن التابوت صنع لامرأة، قد تكون مريت آتون ابنة إخناتون الكبرى، فإن الغالبية العظمى من علماء المصريات استقرت على أن المومياء التى عثر عليها داخل التابوت، كانت لسى منخ كارع، أخو إخناتون وزوج ابنته.

ويبدو أن الآثار المصرية بإعلانها هذا قد قبلت النظرية التى تقول بأن إخناتون كان مريضًا بمرض خلقى، يعيق نموه الطبيعي ويجعله أصغر من سنه. فعندما قام جرافتون إليوت سميث وديرى أستاذى التشريح بكلية طب القصر العيني عند العثور على التابوت، بالكشف على الجمجمة، تبين لهما أنها لرجل لا يزيد عمره على ٢٣ أو ٢٤ سنة، نظرًا لأن ضروس العقل بدأت فى الظهور، ولم يكن نموها اكتمل بعد عند الوفاة. ثم جاء هاريسون أستاذ التشريح بجامعة لفربول البريطانية ففحص الجمجمة مرة أخرى فى سبعينيات القرن الماضي، وأكد ما سبق أن توصل إليه جرافتون وديرى من قبل. وهذا هو ما اكدته كذلك صور اشعة إكس التى أُخذت للجمجمة في ثمانينيات القرن الماضي. إذ مات سى منخ كارع فجأة أثناء وجوده فى طيبة، فلم يجد الكهنة سوى هذا التابوت ليضعوه فيه.

إلا أن هناك بعض علماء المصريات الذين يذهبون إلى أن إخناتون كان مصابًا بمرض خلقى منذ الولادة، يعيق نموه الطبيعي. وهؤلاء ينكرون أن تكون مومياء المقبرة ٥٥ لسى منخ كارع، ويصممون على أنها لإخناتون نفسه. فهم يقولون بأن هذا الملك كان مريضًا بمرض جنسى غريب جعله مثل الخنثة وصار جسده يشبه أجسام النساء. فمنذ ستينيات القرن الماضى تعرض إخناتون إلى كل أنواع التفسيرات الشاذة، فى كتابات علماء المصريات الذين يستندون إلى فرضيات وهمية يقيمونها. فرغم أن فحص جمجمة المقبرة ٥٥ بين بوضوح أن صاحبها لم يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر عند الوفاة بسبب عدم تكامل ضروس العقل، فقد صمم بعض رجال المصريات - وعلى رأسهم الأسكتلندى سيريل أولدريد - على أنها لإخناتون الذى بلغ ٣٣ عند نهاية حكمه. وحتى يبرر أولدريد هذا التناقض، زعم أن إخناتون كان مصابًا بعدة أمراض سلالية، تؤدى إلى بطء فى النمو وتجعل صاحبها من المعاقين. فقد تكهن «سيريل أولدريد» الذى عمل مديرًا لمتحف أدنبرة باسكتلندا، بأن إخناتون كان مصابًا بمرض اسمه «فروليتش»، يجعله غير قادر على ممارسة الحياة الجنسية أو الإنجاب. ولما كان من المستحيل فحص جسد الملك حيث لم يتم العثور عليه حتى الآن، اعتمد أولدريد فى استنتاجه على الشكل الفنى الغريب الذى ظهر فى أيام إخناتون، والذى يتميز بالمبالغة فى تقديم الملامح، واعتبروه يمثل حقيقة جسدية للملك نفسه.

وفى كل الأحوال، فإن علماء المصريات أبدوا اهتمامًا كبيرًا بإخناتون وحياته وأفكاره الدينية وصراعه مع الكهنة المصريين، والكتاب الذى نعرض له من أحدث المؤلفات في هذا المجال. ■

شـــروقك جميـــل فى أفـــق الســـماء
يا آتـــون الحـــى، بدايـــة الحيـــاة
عنـــدمـا تصعـــد فى أفـــق الســـماء الشـــرقى
تمـــلأ الأرض بجـــمـــالك
فأنت جميل، عظيم، تتألق عاليًا فوق الأرض

■■ بعـد نهـاية حكم إخناتون أخفى خصومة الرعامسة سيرته عن الناس، ومنعوا ذكر اسمه فى كل أرض مصر وحذفوه من قائمة الملوك، فجعلوا يشيرون إليه بلقب «ساقط أخيتاتون (العمارنة)». وظل الناس قرونًا طويلة لا يعرفون شيئًا عن إخناتون إلى أن عثر رجال الآثار على بقاياه فى تل العمارنة قبل ١٥٠ عامًا. ومنذ أن تم الكشف عن آثار العمارنة، أصبح إخناتون وابنه توت عنخ آمون أهم ملوك مصر القديمة، يثير اسمه الحب فى قلوب الملايين والبغض فى قلوب الآخرين.

Akhenaton: Egypt's False Prophet

(إخناتون: نبى مصر المزيف)

Nicholas Reeves

London, Thames & Hudson, 2001.

فى كتابه «إخناتون نبى مصر المزيف» الذى صدر بلندن فى أبريل الماضى، حاول نيكولاس ريفز تقديم تفسير جديد لحياة الملك إخناتون. وريفز واحد من علماء المصريات فى بريطانيا، مسئول عن مشروع البحث عن مقابر ملوك العمارنة الذى يجرى منذ أكثر من عامين فى وادى الملوك. ومع أن ريفز مشهور بدقته فى تجميع المعلومات من أحدث المصادر المتوفرة، إلا أن قدرته على تقديم تفسير مقنع لثورة العمارنة، كانت ضعيفة. فرغم اعترافه بأن إخناتون الذى عاش منذ حوالى ٣ آلاف و٥٠٠ سنة نادى بعبادة إله واحد لا صورة له ولا تمثال، ينكر ريفز القيمة الفكرية والدينية لهذه الثورة. وسبب هذا الإنكار - فى رأى الكاتب - أن الملك المصرى لم يقم دعوته على رؤية فلسفية أو روحية، بل كان هدفه استخدام الصراع الدينى من أجل تحقيق مصالحه السياسية. وعلى هذا فهو يرى أن محاربة إخناتون لكهنة آمون، كان بقصد القضاء على نفوذهم السياسي وليس بسبب رفضه لتعدد الآلهة. وهو يصر على أن إخناتون منع عبادة الآلهة المتعددة ونادى بإله واحد ليس هناك من يمثله، حتى يحصل على سلطة هذا الإله فى علاقته مع شعبه. ويؤكد ريفز تفسيره هذا فيقول: «كانت الآتونية نفسها فى الممارسة، لا تزيد عن كونها أداة نفعية (براجماتية) للسيطرة السياسية».

ويتحدث الكاتب البريطانى عن فترة حكم إخناتون، فيصفها بأنها: «رغم بدايتها الطيبة، تداعت بسرعة إلى كيان مشوه واضطهاد دينى واسع الانتشار، تهتك لخراب طائش وانهيار اقتصادى شبه كامل. ولا يمكن مسامحة إخناتون على (هذه) الأحداث: قسوة لم تحدث فى مصر قبل أو منذ (عصر) العمارنة. (وتم القضاء على العمارنة) كمدينة وكفكرة مجردة وهدمها (بعد نهاية حكمه) ومنعت آثار وجود (هذا) الفرعون بطريقة منظمة. (ولنا أن نتساءل) أى نوع من الرجال كان هذا (الملك)؟

ولفترة طويلة لقت إخناتون النظر (بعد الكشف عن تشابه دعوته) مع عالم اليوم الذى يسوده التوحيد، بسبب إصلاحاته الدينية، ولأن ثورة الفرعون قد فشلت فى النهاية بدا هذا ليؤكد دوره ككاشف قديم لرؤية دينية - وسلطة للخير. ومثل هذا الغزل (والمديح) الذى روّجه جيمس هنرى بريستد (عالم المصريات الأمريكى) و(البريطانى) آرثر ويجال منذ حوالى قرن مضى،



وأخذه الباحثون والجمهور بشغف، كان خطأ بالتأكيد أخذ يتغير الآن إلى رؤية أكثر سوادًا، وبالنسبة للأنبياء، يبدو أن إخناتون كان نبيًا مزيفًا عمل كثيرًا لمصلحته السياسية الشخصية».

مـــــولد إخنـاتون

حدث تغير جوهرى فى مسار التاريخ المصرى القديم، عندما وقع أمنحتب الثالث فى حب طاى - ابنة وزيره يويا - وتزوجها فى السنة الثانية لحكمه. إذ أصر أمنحتب الثالث تاسع ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذى حكم مصر حوالى ٣٨ عامًا من ١٤٠٥ قبل الميلاد، على جعل زوجته طاى ملكة على مصر، رغم أن التقاليد المصرية تقضى بأن تكون أخته هى الملكة. فالتقاليد لا تمنع من اتخاذ الملك لأى عدد من الزوجات، إلا أن الملكة - التى يخلف أبناؤها أباهم على العرش - لابد وأن تكون هى الوريثة الشرعية، أى الابنة الكبرى للملك السابق. وبحسب التقاليد المصرية فإن من يتزوج الابنة الكبرى للملك يصبح له الحق فى خلافته على العرش، لذلك كان الأمراء المصريون يتزوجون أخواتهم حتى لا يخرج الملك عنهم. ورغم أن أمنحتب تزوج أخته سيت آمون عند توليه العرش، التى كانت لاتزال طفلة فى مرحلة الحضانة عند موت أبيهما تحتمس الرابع، إلا أنه صمم أن تكون زوجته الثانية طاى هى الملكة. ورفض الكهنة قبول قرار الملك، كما رفضوا الاعتراف بالولد الذى تنجبه له طاى ابنًا شرعيًا لآمون. وبالفعل عندما أنجبت طاى ابنها الأول تحتمس - والذى عثر على اسمه منقوشًا فى مقبرة توت عنخ آمون - فإنه سرعان ما اختفى فى ظروف غامضة بعد أن عيَّنه أبوه وليًا للعهد، وقالت الشائعات إن الكهنة قتلوه. ولهذا فعندما حملت الملكة للمرة الثانية، كان من الطبيعى أن تصاب طاى بالقلق عند حلول موعد ولادتها.

كانـــت طيبة - الأقصر حاليًـا - هــى المركز السياسى والدينى لدولة الأرضين المصرية، بينما أقام الملـوك قصورهم فى مدينة منف بالقـرب من سقارة الحالية. ولم يتم بنـاء قصـور ملكيـة شـرق الدلتـا، إلا منـذ بدايـة حـكم الملـــوك الرعامســـة الذين كونـــوا الأســـرة التاسـعة عشـرة

كانت طيبة - الأقصر حاليًا - هى المركز السياسى والدينى لدولة الأرضين المصرية، بينما أقام الملوك قصورهم فى مدينة منف بالقرب من سقَّارة الحالية. ولم يتم بناء قصور ملكية شرق الدلتا، إلا منذ بداية حكم الملوك الرعامسة الذين كونوا الأسرة التاسعة عشرة. وكان أمنحتب الثالث قد بنى قصرًا صيفيًا لزوجته طاى فى مدينة زارو بالقنطرة شرق. وحفر لها بركة للنزهة أمام القصر. ووجد الأثريون عدة نسخ من جعران ملكى أصدره أمنحتب فى عامه الحادى عشر، أعلن فيه أنه منح زوجته طاى مدينة زارو هدية لها وحفر بركة بجانب القصر الذى كانت تعيش فيه هناك: «العام ١١، الشهر الثالث للفيضان اليوم الأول.. أمر صاحب الجلالة بعمل بركة لزوجة الملك العظيمة التى تعيش فى مدينتها زارو - خا».

ابـن آمـــــون

وهكذا ولد إخناتون فى سنة ١٢ من حكم والده، فى المقر الصيفى بمدينة زارو بشمال سيناء. وخافت الملكة طاى على ابنها الذى أخذ اسم أمنحتب مثل والده، أن يقتله الكهنة مثلما فعلوا بابنها الأول، فلم تسمح له طوال طفولته أن يذهب إلى مقر الأسرة فى منف، بل أرسلته ليتم تعليمه عند أخيها الأكبر الكاهن «آنن» فى معبد رع بمدينة عين شمس، على عكس التقاليد التى كانت تقضى بأن يتم تعليم الأمير فى منف مع أولاد النبلاء. وأول ما نسمع عن ابن طاى هو عند وصوله إلى العاصمة طيبة وهو فى السادسة عشرة، حيث خصص له أبوه فيلا داخل القصر الكبير الذى بناه فى ملقاتا على الضفة الغربية للأقصر. وفى نفس السنة التى وصل فيها إخناتون إلى طيبة - عام ٢٨ من حكم أمنحتب الثالث - أشرك الملك ابنه معه فى الحكم على أنه أمنحتب الرابع. إذ أدرك الملك أنه بعد موته، لن يسمح الكهنة لابنه باعتلاء العرش. ومع أن الملك فى مصر القديمة كان مطلق السلطة - حيث كان الاعتقاد السائد هو أنه ابنًا للمعبود آمون - إلا أنه كان مقيدًا فى تصرفاته بالتقاليد القديمة التى كانت تعتبر كدستور غير مكتوب. كان المصريون القدماء يعتقدون بالميلاد المقدس للفراعين. ذلك أنه قبل دخول الملك على زوجته، كان يذهب أولاً إلى المعبد حيث يتم تطهيره بالماء المقدس ثم دهان جسمه بالزيوت والعطور. وفى أثناء ذلك يقوم الكهنة بترتيل بعض الأناشيد الهدف منها دعوة روح آمون للحلول فى جسد الفرعون. وعندما يتم ذلك الحلول، يذهب الملك ليدخل على زوجته. وعلى ذلك اعتقدوا أن الابن الذى يولد من هذه العلاقة يصبح ابنًا لآمون. وبحسب الاعتقادات المصرية، فإن آمون يرفض الحلول فى جسد الملك لو أن زوجته لم تكن هى الوريثة، الابنة الكبرى للملك السابق. وعلى ذلك فإن ابن طاى لا يعتبر ابنًا لآمون ولا يحق له الجلوس على العرش. ولو أنه أصبح ملكًا لمعنى ذلك هو القضاء على سلالة الأسرة الحاكمة، حيث سيقوم هو بتكوين أسرة جديدة. لكن أمنحتب تجاهل كل هذه التحذيرات وأشرك معه ابن طاى فى الحكم، بعد أن زوَّجه «نفرتيتى» ابنته من زوجته الملكية سيت آمون.

رفض الكهنة اعتبار إخناتون ابنا شرعيًا لآمون، واعترضوا على إشراكه فى العرش مع أبيه. فرد إخناتون بإنكار سلطة آمون. معلنًا وجود قوة إلهية عليا لإله عالمى هو آتون، الذى اختاره ليجلس على عرش أبيه. وقام الملك الشاب ببناء معبد ملحق بالكرنك لآتون، الذى رمز له بأشعة النور التى تمسك بمفتاح الحياة. ولم يكن هذا فى حد ذاته ليثير غضب الكهنة، فقد كان المصريون معتادين على تعدد المعبودات. ولكنه اعتبر أن آتون - الذى ليس له صورة أو تمثال - هو إله واحد لكل البشر، كما حرم دخول معبده إلا لمن ترك المعبودات الأخرى. وثارت ثائرة الكهنة فلم يتمكنوا من إخفاء مشاعرهم، ووجه البعض منهم عبارات التحدى لأمنحتب نفسه. واضطر إخناتون تحت ضغط أبويه إلى ترك طيبة العاصمة، واختار موقعًا بمحافظة المنيا وبنى فيه مدينة أخيتاتون قبالة مدينة ملوى - يعرف الآن باسم تل العمارنة - ليعيش فيها هو ومن تبعوه، بعد أن غيَّر اسمه إلى إخناتون. وطالما ظل أمنحتب الثالث على قيد الحياة، كانت سلطة إخناتون محددة بحدود تل العمارنة لا يتعداها. ولكن عند موت أبيه - فى السنة الثانية عشرة من الحكم المشترك - وجد إخناتون نفسه الحاكم الأوحد لكل أرض مصر، وهنا بدأت المشكلة.

آتـــــون الحــــى

كان مفهوم الإله الذى لا يستطيع الناس رؤية تجسيدًا ماديًا له، جديدًا على عامة المصريين فى ذلك الوقت، كما أن الاختلاف بين الشعوب - بل بين المدن والقرى - فى ذلك الوقت، كان يفسر على أساس من اختلاف المعبودات لدى الأقوام المختلفة. فكيف بإله واحد - ليس لكل مصر فحسب - بل لأرض الشام وأفريقيا كذلك؟ لهذا فلم يتبع إخناتون إلا عدد قليل من مثقفى زمانه. ولكن إخناتون لم يوافق على أن تستمر الأمور كما كانت عليه، وقرر الاعتماد على الجيش لفرض العقيدة الجديدة على شعبه، فعيَّن خاله «آى» مشرفًا على الخيالة وقائدًا للحرس الملكى، فى المكان الذى كان يشغله والده يويا. كما كوَّن فرقة عسكرية من بين أبناء الجاليات الأجنبية فى مصر لحراسته، وهذا يتضح من رسومات مقابر النبلاء فى تل العمارنة. وأرسل جنوده إلى جميع المدن المصرية لإغلاق المعابد ومصادرة أوقافها وتسريح الكهنة. ثم أمر بشطب اسم آمون من جميع النقوش، حتى تلك التى تدخل فى تركيب اسم والده «آمون حتب» وكذلك كلمة «نترو» وهى جمع لكلمة «نتر»، بمعنى «معبود». إلا أن الفجوة ظلت كبيرة بين ما ينادى به إخناتون ونخبة من المثقفين الذين تبعوه، وبين ما يؤمن به عامة الشعب فى القرى والمدن بعد مضى خمس سنوات من موت أمنحتب الثالث.

وهكذا نرى أن أول من أدرك وحدة الوجود المادى تماثله للوجود الروحى فى المصادر التاريخية، هو إخناتون، ونجد وضوح رؤية هذا الملك الدينية، من خلال الأشعار التى كتبها بنفسه والتى وجدت مسجلة فوق جدران مقابر نبلائه بتل العمارنة. هنا إخناتون يتحدث عن آتون باعتباره الإله الواحدة الذى صنع كل الوجود، وهو النور (شو) «الإله الذى أنجب نفسه (بنفسه)»، ويخاطبه قائلاً:

شروقك جميل فى أفق السماء
يا آتون الحى، بداية الحياة
عندما تصعد فى أفق السماء الشرقى
تملأ الأرض بجمالك
فأنت جميل، عظيم، تتألق عاليًا فوق الأرض
تحيط أشعتك البلاد وكل ما صنعت
ورغم أنك بعيد فأشعتك على الأرض
ومن أنك عال فخطواتك هى النهار.

وألغى إخناتون الاعتقاد الدينى السابق سواء فيما يتعلق بتعدد الآلهة أو فيما يختص بتجسيد الإله فى شكل مرئى، لكنه لم يبلغ طقوس العبادة المصرية القديمة، بل استخدمها فى النظام الدينى الجديد الذى أقامه. وفى هذا الخصوص يقول سير آلان جاردنر فى كتابه عن «مصر الفراعنة»: «يظهر مدى اعتماد (العبادة الآتونية) فى شكلها الأول على عبادة عين شمس القديمة - ليس فقط من استخدامها لاسم رع هارختى - وإنما كذلك لذكرها لمسلته الكبيرة فى الكرنك (التى أصبحت بمثابة الحجر المقدس لدى إخناتون).. وكذلك بالنسبة

إلى رئيس كهنة آتون فى عام ١٦ ميرى رع، الذى لايزال يحمل لقب (كاهن) عين شمس القديم أعظم العرّافين. وتتبين بصورة مستمرة صعوبة الهرب تمامًا من التقاليد السابقة». (ص٢١٦) ويمضى جاردنر فى التعليق على اختفاء أوزوريس من العبادة الآتونية، ومع هذا فإن «طقوس الدفن لاتزال تحتفظ بالكثير من أشكالها القديمة، إلا أن هذه تم تجريدها الآن من معناها السابق». (٢٢٩)

وعلى هذا فإن إخناتون وإن استخدم بعض الطقوس ومظاهر العبادة القديمة، إلا أنه أعطاها دلالة جديدة فى معبد آتون، الذى شيده على غرار معبد عين شمس. بل إن غالبية هذه الطقوس قائمة حتى يومنا هذا داخل الكنيسة القبطية المصرية، كما هى لم تتغير. كما استمر إخناتون فى استخدام نفس طقوس الدفن الأوزوريسية من حيث بناء المقبرة وتحنيط الجسد ووضع تماثيل الشبه، وما إلى ذلك وإن كان قد قطع كل علاقة لهذه الطقوس بأوزوريس.

فــــرويد وإخـناتـون

بعد اكتشاف رجال الآثار لإخناتون والتعرف على تاريخه، انبهر علماء المصريات فى النصف الأول من القرن الماضى بحياة إخناتون وتعاليمه، التى وجدوها تعبر عن الفكر الدينى الليبرالى فى العصر الحديث. وذهب بعضهم إلى اعتباره أول مفكر متفرد فى رؤيته للعالم، فى التاريخ البشرى. ثم جاء سيجموند فرويد ـ عالم النفس اليهودى الشهير ـ ليعلن فى كتابه الأخير «موسى والتوحيد»، الذى تم نشره فى لندن عام ١٩٣٩، عن اعتقاده بأن موسى كان مصريًا وليس عبرانيًا، وأنه كان تلميذًا لإخناتون. لاحظ فرويد وجود تشابه بين قصة ميلاد موسى وميلاد عدد من العظماء فى العالم القديم، أمثال «أجاد» الملك الأكادى و«روميلوس» الذى بنى مدينة روما و«أوديب» الذى وردت قصته فى الأساطير اليونانية. ففى كل هذه الحالات كان الطفل ـ خوفًا على حياته عند مولده ـ يتم تهريبه من بيت عائلته، ويتولى قوم آخرون تربيته. ثم يعود بعد ذلك إلى عائلته الحقيقية. إلا أن قصة موسى التوراتية تختلف عن تلك القصص فى نقطة واحدة، فبينما الطفل فى جميع تلك الحالات يولد لعائلة ملكية ويهرب من القصر الملكى لتقوم عائلة فقيرة بتربيته، فإنه فى حالة موسى يتم تهريبه من بيت العبرانيين الفقراء الذى ولد فيه وتربى فى القصر الملكى. وفسر فرويد هذا الاختلاف بأنه دلالة على تعمد كتبة القصة التوراتية إخفاء الأصل المصرى للبطل الذى كانوا يعتقدون فيه، وجعله عبرانيًا. وأظهر أن كلمة «موسى» التى كانت تستخدم كاسم علم فى مصر بمعنى (الابن)، توت موسى، رع موسى إلخ، لم تكن كلمة عبرية بل مصرية. وتساءل العالم اليهودى كيف يمكن للأميرة المصرية أن تعرف اللغة العبرية، ثم إنه لكى يعرف معنى الاسم (الذى انتشل من الماء)، يجب أن يكون «موشوى» وليس «موشى».

وهذا هو الموضوع الذى أثاره سيجموند فرويد عندما حاول قبيل الحرب العالمية الثانية، التدليل على أن موسى كان مصريًا. فقط لاحظ وجود تشابه بين قصة ميلاد موسى وميلاد عدد من العظماء فى العالم القديم، إلا أن قصة موسى تضمنت خروجًا عن سياق الرواية فى نقطة هامة. فبينما الطفل فى جميع الحالات يهرب من القصر الملكى لتقوم عائلة فقيرة بتربيته، فإنه فى هذه الحالة يهرب من عائلة فقيرة لتربية العائلة المالكة داخل القصر الملكى. كما ذهب فرويد إلى أن موسى كان أحد المسئولين فى بلاط الفرعون إخناتون يسمى تحتمس، كان نصيرًا للديانة الآتونية. وتقول نظرية فرويد إنه بعد موت الملك اختار تحتمس القبيلة العبرانية التى كانت تعيش شرقى الدلتا لتصبح هى قومه المختار الذين أخذهم إلى خارج مصر فى وقت الخروج، ونقل إليهم عقائد ديانة إخناتون التوحيدية.

اعـتـراض فـيلوكـوفـسكى

إلا أن كتاب فرويد أدى إلى تغيير موقف علماء المصريات من الملك المصرى، وتحول غرامهم به بعد الحرب العالمية الثانية إلى عداء صريح ومباشر. وكان إيمانويل فيليكوفسكى أحد علماء النفس اليهود، الذى هاجر من روسيا إلى الولايات المتحدة هو الذى بدأ فى سبعينيات القرن العشرين، بمعارضة فرويد والهجوم على إخناتون. وكرّس فيلوكوفسكى حياته فى محاولة لإثبات خطأ ما ذهب إليه فرويد بخصوص الملك المصرى، عن طريق إثبات سبق موسى لعصر إخناتون. ثم جاءت المحاولة الأولى لتحطيم شخصية إخناتون، هى التى قام بها الاسكتلندى سيريل أولدريد فى كتابه عن إخناتون. فقد حاول تفسير الشكل الفنى الغريب الذى ظهر فى أيام حكم العمارنة والذى يتميز بالمبالغة فى تقديم الملامح، باعتباره يمثل حقيقة جسدية للملك نفسه. وذهب أولدريد إلى أن إخناتون كان مريضًا بمرض غريب يجعله غير قادر على ممارسة الحياة الجنسية أو الإنجاب. ولما كان من المعروف أن إخناتون أنجب ستة بنات من زوجته، فقد ذهب أولدريد إلى أن هؤلاء لسن من صلب الملك، وإنما من نتاج أباه أمنحتب الذى حل محل ابنه فى علاقته بنفرتيتى. وبالطبع فإن مثل هذه الافتراضات لا تستند إلى أى دليل أو قرينة. بل إن أولدريد ـ فى نفس هذا الكتاب ـ ذهب إلى أن إخناتون عاشر إحدى بناته جنسيًا وأنجب منها طفلاً مات أثناء ولادته. ولم يكتف أولدريد بهذا، فقال ـ فى ذات الكتاب نفسه ـ إن إخناتون كان لديه شذوذ جنسى وكان يعاشر أخاه «سى منخ كارع» جنسيًا. ومنذ ستينيات القرن الماضى تعرض إخناتون إلى كل أنواع التفسيرات الشاذة، فى كتابات علماء المصريات الذين يستندون إلى فرضيات وهمية يقيمونها. وتبع غالبية علماء المصريات بعد ذلك، نفس الطريق الذى سلكه الباحث الأسكتلندى ووصل الحد بالباحث الكندى دونالد ريدفورد أن يعلن فى كتابه عن إخناتون، أنه لا يكن للملك المصرى إلا الكراهية والاحتقار، مما يتعارض مع تقاليد البحث الموضوعى للتاريخ. هناك من أصر على أن عبادة آتون ليست سوى شكل من أشكال عبادة الشمس. كان «رع» إله الشمس (الذى يطلق عليه كذلك أسماء خبر وأتوم)، معبودًا قديمًا لدى المصريين، أما آتون (آدون أو آدونى فى الآرامية والعبرية بمعنى الرب أو السيد) فلم يعبد فى مصر لا قبل ولا بعد عصر العمارنة، رمز له إخناتون بالنور «شو» (شعاع) الذى يمنح الحياة للبشر.

من الناحية التاريخية، لم يكن من الممكن إدراك فكرة وحدانية الإله إلا فى مصر القديمة، وفى عصر الأسرة الثامنة عشرة بالتحديد؛ ذلك أن الجماعات البشرية الأولى كانت تجعل إلهًا لكل جماعة تعيش فى قبيلة أو قرية، وعندما تم توحيد مجموعة من

عودة تابوت إخناتون قبل وبعد رفع الغطاء الزجاجى







القبائل والمدن، صار معبود الجماعة المسيطرة على الحكم بمثابة إله للمجموعة كلها. ولما كانت مصر هي الأمة الوحيدة التي تم توحيدها في الأزمنة القديمة تحت سيطرة سياسية مركزية واحدة، أصبح هناك معبودًا مشتركًا يؤمن به جميع المصريين، إلى جانب معبوداتهم المحلية. وكان الاعتقاد المصرى القديم هو أن الأرض ملك للإله، يقوم الملك الذى هو ابنه بإدارتها نيابة عنه. وفي أيام الأسرة الثامنة عشرة أصبح آمون معبود طيبة (الأقصر)، أبًا للفرعون وإلهًا لكل المصريين يحكم البلاد باسمه. إلا أن حالة جديدة تمامًا ظهرت بعد ذلك، عندما خرجت الجيوش المصرية إلى بلاد الشام في الشمال وبلاد السودان في الجنوب وأخضعها لسلطة الملك المصرى. وإذا كان الملك يحكم مصر نيابة عن أبيه آمون، فبأى حق يحكم هذا الملك البلاد الأجنبية الخاضعة له؟ وهنا ظهرت محاولات لتفسير الوضع الجديد الذى لم يكن له وجود قبل عصر الإمبراطورية، وحاول البعض القول بملكية آمون للأراضى الأجنبية كذلك. إلا أن إخناتون جاء ليقول بوجود معبود واحد لكل البشر، في مصر كما في بلاد الشام والسودان. ولم يكن ممكنًا قبل عصره لمن يعيش في مجموعة صغيرة من البشر - مثل قبائل العبرانيين - التوصل إلى وحدانية الذات الإلهية. إذ كان إله الجماعة هو الذى ينصرها في صراعها مع الجماعات الأخرى، فماذا يكون الموقف لو أن الإله واحد لجميع الأطراف المتصارعة.

انقـــلاب عـــسكرى

أدى استخدام إخناتون للجيش في محاربة الديانات القديمة، في النهاية إلى الإطاحة بعرشه نتيجة لانقلاب قام به القادة العسكريين. فبالرغم من أن ولاء الجنود لملكهم كان - في مصر القديمة - يعتبر جزءًا من التعبير عن إيمانهم الديني، حيث كان الملك هو ممثل المعبود على الأرض. إلا أن إخناتون نفسه رفض أن يكون ممثلاً لكل المعبودات المصرية، بل أمر جنوده بمنع الناس من عبادتها، وبدأت المؤامرات تحاك داخل الجيش - لاشك بتشجيع من الكهنة - للإطاحة بإخناتون ونظامه. وعبثًا حاول خاله آى إقناعه بالوصول إلى حل وسط حيث يسمح بإعادة فتح المعابد القديمة، ويستمر هو وأتباعه في عبادة آتون، ولكن إخناتون رفض قبول أى محاولة لتغيير النظام الديني الجديد الذى أدخله. وعندما ازدادت المؤامرات ضده، نصحه آى بالتنازل عن العرش لتوت عنخ آمون، وخرج هو من مدينة العمارنة ليعيش في المنفى. وليس هناك دليل واحد يشير إلى موت إخناتون عند نهاية حكمه. بينما توجد العديد من الأدلة التي تشير إلى أنه كان لايزال حيًا بعد نهاية حكمه. فهو لم يدفن في المقبرة التي أعدها لنفسه وسط الصخور المحيطة بمدينة العمارنة، بل إن هناك بعضًا من أتباعه ظلوا يذكرون تاريخ كتاباتهم وينسبونها إلى عصره، كأنه لايزال على العرش. إلا أن اسمه منع تمامًا من المصادر الرسمية، وكان عند الضررة يشار إليه بتعبير «با خرو با أخيتاتون»، ومعناها «ساقط أخيتاتون (العمارنة)». ولاشك أن هذه هي أول حالة نعرفها في التاريخ عن ملك يسقط عن العرش. ومع سقوطه فهو قد فقد ألقابه وأسماءه الملكية. فلا يستطيع أحد أن يشير إليه باسمه الذى كان يعرف به أثناء وجوده على العرش، أى أنه صار لا اسم له. وتوجد دلالات على أن مكان المنفى الذى عاش فيه إخناتون كان عند معبد «سرابيط الخادم» في سيناء، وهى تقع على بعد بضعة كيلومترات إلى الشمال الغربى من دير سانت كاترين وجبل موسى. فقد عثر الأثرى البريطانى فليندرز بيترى هناك على تمثال للملكة طاى والدة إخناتون كما وجدت دلالات على استمرار عبادة آتون في هذه المنطقة بعد أن أصبحت ممنوعة في وادى النيل.

وفى ٧ أكتوبر ١٩٩٧ أعلن في القاهرة عن كشف هام قامت به البعثة الأثرية الفرنسية التى تعمل في منطقة سقارة، التي عثرت على مقبرة مرضعة الملك توت عنخ آمون. وقال آلان زيفى رئيس البعثة الفرنسية التي عثرت على المقبرة، إن هناك لوحة منقوشة عند مدخل المقبرة تصور المرضعة مايا، يجلس على حجرها الملك توت صغيرًا وهو يرتدى لباس الملك، بينما يجلس كلبه الأليف تحت المقعد. وذكر زيفى أن هذا المنظر يضم كذلك عددًا من كبار رجال الدولة المهمين. ووصف الأثرى الفرنسي اللوحة التي ظهرت بأنها تحتوى على ستة من كبار رجال الدولة، قائلاً إنهم بلاشك يمثلون الشخصيات الوزارية التي حكمت مصر أيام توت عنخ آمون. وبالرغم من عدم وجود كتابات تحتوى على أسماء الوزراء فقد تمكن زيفى من التعرف على شخصياتهم من ملامحهم ومن عصى المارشالية التي يحملونها في أيديهم، وهم: آى وحور محب وبا رمسيس وسيتى ونخت مين ورجل آخر اسمه مايا كذلك. وبخلاف مايا هذا الذى كان وزيرًا للمالية، فإن الوزراء الخمسة الباقين كانوا جميعًا من القادة العسكريين. ليس هذا فحسب، بل إن أربعة منهم خلفوا توت عنخ آمون على العرش بعد ذلك. هم آى وحور محب وبا رمسيس (الذى أصبح رمسيس الأول) وسيتى الأول. ومن الواضح أن وزارة توت عنخ آمون كانت بمثابة مجلس لقيادة الثورة تتكون من العسكريين، الذين حصلوا على مراكزهم بسبب ما قاموا به من انقلاب عسكرى ضد والده إخناتون. كما يتبين لنا أن ثلاثة من قادة الجيش قاموا بعملية تمرد ضد إخناتون. هم حور محب ورمسيس وسيتى، وعندما أدرك آى - القائد العام لجيش إخناتون - عدم استطاعته القضاء على هذا التمرد بمساعدة القائد نخت مين الذى كان قريبًا له. تم التوصل إلى اتفاق بين العسكريين الخمسة على أن يتنازل إخناتون عن العرش لابنه توت عنخ آمون، وأصبحوا جميعهم يشكلون الوزارة الجديدة. ■

ولد إخناتون في سنة ١٢ من حكم والده، في المقر الصيفى بمدينة زارو بشمال سيناء. وخافت الملكة طاى على ابنها الذى أخذ اسم أمنحتب مثل والده، أن يقتله الكهنة مثلما فعلوا بابنها الأول، فلم تسمح له طوال طفولته أن يذهب إلى مقر الأسرة في منف. بل أرسلته ليتم تعليمه عند أخيها الأكبر الكاهن «آنن» في معبد رع بمدينة عين شمس، على عكس التقاليد التى كانت تقضى بأن يتم تعليم الأمير في منف مع أولاد النبلاء

إخنـــاتون والمزاميــر

■■ تبين للباحثين في العصر الحديث وجود تشابه بين كتابات إخناتون وبين بعض النصوص التوراتية، خاصة المزمور رقم ١٠٤ الذى يكاد يكون منقولاً عنها. ويتبين هذا بوضوح عند المقارنة بين الفقرات ٢٠ - ٢٦ من المزمور ١٠٤، مع بعض أشعار الملك المصرى:

المـزمـــــــــور ١٠٤

تجعل ظلمة فيصير ليل، فيه يدب كل حيوان الوعر.

الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها.

تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض.

الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله في المساء

ما أعظم أعمالك يا رب، كلها بحكمة صنعت، ملآنة الأرض من غناك.

هذا البحر الكبير الواسع الأطراف، هناك دبابات بل عدد، صغار حيوان مع كبار.

هناك تجرى السفن لوياثان (الحوت) هذا خلقته ليلعب فيه.

أشـــعـــار إخنـاتون

عندما تغيب في أفق السماء الغربى، العالم في ظلمة مثل الأموات.

ينامون في غرفهم رؤوسهم ملفوفة، تتوقف أنفاسهم ولا يرى واحد الآخر.

تُسرق كل أشيائهم تحت رؤوسهم ولا يعرفون.

يأتى كل سبع من عرينه، كل الأفاعى تلدغ، تسود الظلمة.

العالم في سكوت، الذى صنعهم راح يستريح في أفقه.

عندما تصعد في الأفق الأرض مشرقة،
(فأنت) تضىء كآتون في النهار.
تبعد الظلمة عندما ترسل أشعتك.
الأرض في بهجة كل يوم مستيقظة تقف على أقدامها.
فأنت أقمتهم.
ما أعظم أعمالك مخفية من قدامنا.
أيها الإله الواحد لا يملك قدرته آخر.
صنعت الأرض على هواك، لما كنت وحدك
الرجال، كل المواشى صغار وكبار، كل ما يمشى على الأرض
(و) كل ما هو يرتفع يطير بأجنحته
تبحر المراكب جنوبًا وشمالاً،
كل الطرق مفتوحة لأنك أشرقت.
الحوت ينط أمامك في النهر،
وأشعتك وسط البحر الكبير. ■

ماكدونالدز م.م

دعوة

من ماكدونالدز م.م مصر

لبناء المستشفى الجديدة

لعلاج سرطان الأطفال

مستشفى ٥٧٣٥٧

دعوة الى كل مواطن أن يساهم فى عمل الخير

و قد بدأ ماكدونالدز م.م مصر بالتبرع بـ ١٠ قروش

من ثمن كل وجبة تباع فى جميع أنحاء الجمهورية

و ذلك لعلاج الأطفال

المصابين بهذا المرض الخطير

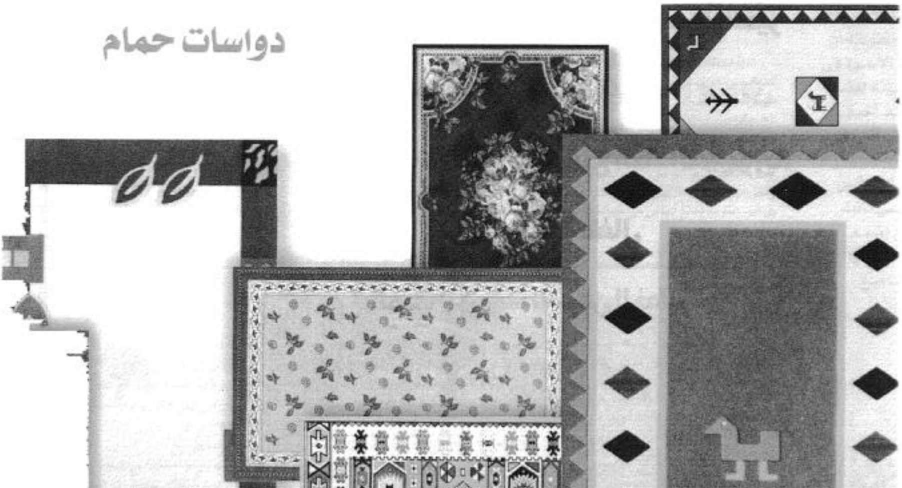


جمعية أصدقاء معهد الأورام القومى

تليفون وفاكس: ٣٦٥٥٢٣٣(٢٠٢)-٣٦٨٠١٠٦-٣٦٣٨٨٧٥
بريد الكترونى: E-mail AFNCI@intouch.com
بنك أمريكان إكسبريس فرع الجيزة حساب رقم / ٥٧٣٥٧
البنك الأهلى المصرى فرع القصر العينى حساب رقم / ٥٧٣٥٧
بنك القاهرة فرع الألفى حساب رقم / ٥٧٣٥٧

AFNCI
Association Of Friends Of The National Cancer Institute (NCI)

ماكدونالدز





صعود وسقوط

يتحدث الناس عن رائد الفضاء السوفيتي «سيرجي كريكاليف» الذي صعد إلى «مير» في مايو ١٩٩١ وعاد بعد ذلك في مارس ١٩٩٢ ليجد دولته وقد تغير اسمها إلى «روسيا الاتحادية»، واسم مدينته وقد تغير إلى سان بطرسبرج. لقد جاءت «مير» في زمن التحولات التاريخية للعالم والاتحاد السوفيتي.

■■ أحيانا ما تحجب الأحداث السياسية الجارية في العالم أحداثا أخرى مهمة، يكون بعضها بداية لتحولات تبدو من على البعد بطيئة وباهتة لكنها في الحقيقة تحفر مجرى جديدا للمستقبل. فعندما نلقي نظرة على عام ٢٠٠١ المنصرم، سوف يخطف أبصارنا بالتأكيد وقائع كثيرة، بعضها كان له ضجيج عال لكنه خفت مع الوقت، وبعضها الآخر كان مشحونا بطاقة عالية ومحملا برموز مشعة بالمعاني والأصداء، فبقي موصولا بالحاضر المتجدد والمستقبل القادم. لقد أنستنا في الحقيقة أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وسقوط أبراج نيويورك في لحظة اصطدام دامية أرجوانية الألوان أن أيام ٢٠٠١ قد حملت أيضا أحداثا أخرى مهمة، من بينها سقوط المحطة الفضائية الروسية الشهيرة «مير» آخر رموز روسيا السوفيتية وتحولها عند اصطدامها مع الهواء إلى شظايا محترقة تبرق بألوان حمراء وبرتقالية وهي في طريقها مندفعة لا يشيعها إلى مثواها الأخير إلا عدد قليل من الهواة والمصورين.

وبرغم سقوط «مير» واختفائها إلا أنها تستحق الحديث عنها، ليس فقط لأن موتها كان مشعا بالألوان والرموز، ولكن لأن حياتها كانت موصولة بمشروع استكشاف كامل كبير يتحرك مثل الزمن دائما إلى الأمام بصرف النظر عن صراع الدول وتصاريف السياسة. ففي لحظة سقوطها المهيب، وانسياب دموع الحزن من عيون الكثيرين في روسيا، كان رواد الفضاء الروس والأمريكان يخطون بأقدامهم معا لأول مرة داخل محطة فضائية «دولية» جديدة اشتركوا معا في بناء أجزائها، وما زالوا ومعهم دول أخرى يضيفون إليها كل يوم. ولم يمض أيضا على اختفاء «مير» إلا أسابيع قليلة، حتى كانت وكالة الفضاء الروسية تستعد لاستقبال مواطن «أمريكي» على متن المحطة الدولية في أول رحلة سياحية لإنسان «عادي» إلى الفضاء. لقد كانت «مير» البداية، وبعد أن مضت بوقت قصير وضع الإنسان العادي قدمه داخل سفينة أخرى للاستكشاف، ولن يمر وقت طويل حتى يجر خلفه طوفانا من البشر، يتوقون إلى النظر والمعرفة والإدراك العميق الدافئ للكون المحيط بالأرض، بعد أن ظلت تلك السفن بصرف النظر عن أسمائها ودولها لعقود طويلة حكرا على العلماء، بأحاسيسهم الباردة ومعادلاتهم الصماء.

ثمن الحرية

هناك علاقة عميقة بين الحرية وغزو الفضاء. ففي صميم فكرة الطيران والصعود بعيدا عن الأرض رغبة دفينة للخلاص من سجن الجاذبية والانعتاق من عبوديتها الدائمة. ولا يمكن في الحقيقة تجاهل تأثير الجاذبية الأرضية على صورة الإنسان وباقي الأنواع الحية بيولوجيا واجتماعيا. والمحطة الفضائية في حقيقتها هي المعادل المكاني للأرض «بدون جاذبية»، أو بمستوى منخفض للغاية منها. ويبدو المكان داخل المحطة الفضائية ثلاثي الأبعاد في مساواة كاملة بين الأبعاد الثلاثة، فقد أنهى غياب الجاذبية قهر كثير من المعاني الأرضية الحاكمة بكل مدلولاتها الطبيعية والنفسية والاجتماعية أيضا. فلا «فوق» ولا «تحت» ولا «سقف» ولا «أرضية» ولا «حوائط» داخل المحطة إلا بشكل مجازي.

ويرجع إلى العالم الإنجليزي إسحاق نيوتن ١٦٤٢ ـ ١٧٢٧ Isaac Newton الفضل في وضع قانون الجاذبية وقوانين الحركة الأخرى المعروفة في كتابه الشهير «المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية» Principia سنة ١٦٨٧. ومن خلال قانونه الثالث (لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه) وضع نيوتن الأساس النظري لفكرة «المحرك الصاروخي»، الوسيلة الوحيدة العملية حتى الآن لتوليد القوة المطلوبة للتغلب على الجاذبية والانطلاق نحو الكون. ومنذ عصر نيوتن حتى إطلاق الاتحاد السوفيتي لأول قمر صناعي في ٤ أكتوبر ١٩٥٧ مرت حركة التطور على محطات كثيرة لتحويل قانون (الفعل ورد الفعل) إلى «صاروخ» قادر على حمل الإنسان والأشياء إلى الفضاء. والصواريخ بأشكالها البدائية كانت معروفة قبل نيوتن بقرون كثيرة، لكن الجديد كان في استخدام تلك الأداة للدوران حول الأرض أو الفكاك تماما من جاذبيتها. وقدر العلماء السرعة المطلوبة للدوران في مدار قريب من الأرض بحوالي ٨٠٠٠ متر/ثانية، وسرعة الإفلات منها تماما بحوالي ٩٢٠٠ متر/ الثانية تقريبا. وعندما بدأ الاقتراب من الموضوع «تكنولوجيا» مع بداية القرن العشرين، اكتشف العلماء الثمن الباهظ لتحقيق تلك السرعة بسبب الحجم الهائل المطلوب من الطاقة.

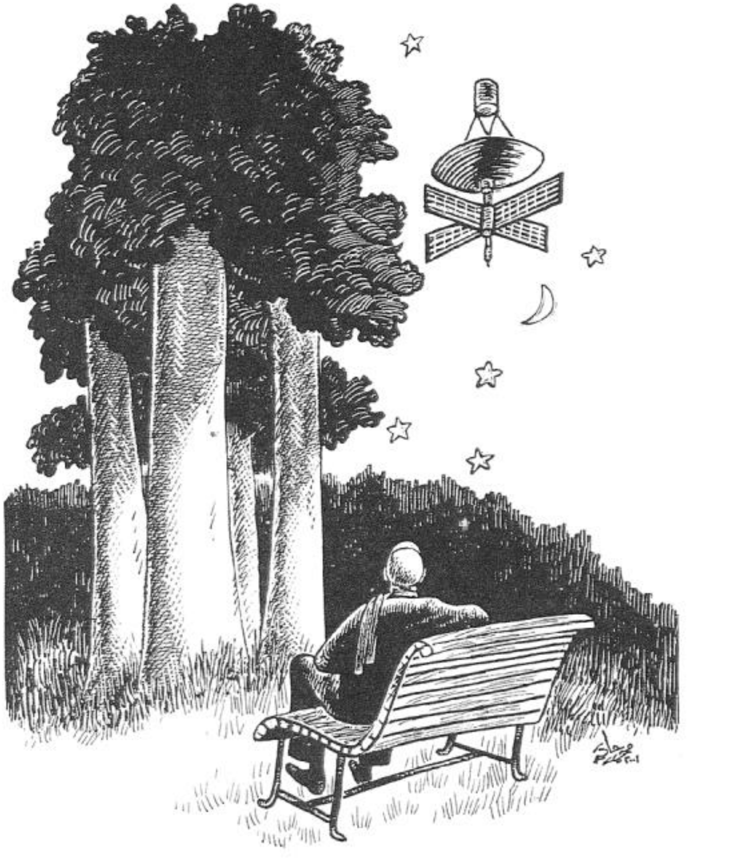
وبدون الدخول في تفاصيل فنية معقدة سوف نقدم للقارئ مثالين. الأول «مكوك الفضاء» وهو أحدث وسيلة يمكنها حمل الأشياء إلى الفضاء والدوران بها حول الأرض. فالمكوك يصل وزنه عند الإطلاق إلى ٢٠٤٠ طنا تقريبا نصفهم عبارة عن وقود صاروخي موجود داخل خزانات الوقود. وبعد التخلص من خزانات الوقود الفارغة أثناء الرحلة يعود المكوك إلى الأرض ووزنه يقترب من السبعين طنا فقط وبداخله حمولته من الرواد والأجهزة التي لا يتجاوز وزنها ثلاثين طنا. ومن هذا المثال نكتشف أن ثمن صعود ثلاثين طنا من الأشياء إلى مدار حول الأرض يحتاج إلى ٢٠٠٠ طنا تقريبا من الوقود والأشياء الأخرى يجب أن تنطلق معها منذ البداية. أما المثال الثاني -الصاروخ السوفيتي «فوستوك» - Vostok الذي حمل القمر الصناعي (سبوتنيك) Sputnik في سنة ١٩٥٧ كأول قمر يدور حول الأرض، فكان وزنه عند الإطلاق حوالي ٢٩٠ طنا في حين أن وزن مرحلته الأخيرة التي تحمل داخلها القمر لم تكن تزيد على طن واحد، أما وزن القمر نفسه فكان ٨٣ كيلو جراما فقط. والمشكلة لم تكن في كميات الوقود الهائلة المطلوبة، ولكن في كيفية السيطرة على إحراق تلك الكميات داخل المحرك الصاروخي وفي زمن لا يتعدى دقائق معدودة. فالمحرك الصاروخي هو أكثر المحركات شراهة في استهلاك الوقود، ولهذا السبب يمكن أن نفهم حوادث الانفجار التي تحدث من آن إلى آخر لصواريخ الإطلاق ومعها حمولتها الثمينة وهي في طريقها إلى الفضاء.

الصاروخ إذن (أو مركبة الإطلاق) Space Launch Vehicle كان حصان عصر الفضاء في القرن العشرين، وبدونه لم يكن ممكنا التفكير في إقامة محطة فضائية دائمة تدور حول الأرض أو في إرسال رواد إلى القمر أو إلى أي جرم سماوي آخر. وكان من الصعب أن ينجح الإنسان في بناء تلك النوعية من الصواريخ من المحاولة الأولى، ولكن الأمر أخذ مراحل متتالية:

* وضع قسطنطين تسيوكوفسكي (١٨٥٧-١٩٣٥) Konstantin Tsiolkovsky العالم الروسي الكبير والأب الروحي للسفر إلى الفضاء في ١٩٠٣ «تصورا» تفصيليا لصاروخ يمكنه حمل الإنسان خارج الغلاف الجوي للأرض مقترحا استخدام وقود من الأكسجين والهيدروجين السائل. وشرح ذلك في ورقته الشهيرة «بحث في السفر بين الكواكب باستخدام الوقود الصاروخي». وصدرت له أيضا بعد ذلك كتب كثيرة من بينها «ما بعد الأرض» في ١٩٢٠. وأدخل تسيوكوفسكي مفهوما أساسيا في علم الصواريخ وهو استخدام «المراحل». Staging وفكرة المراحل تعني أن يتكون الصاروخ من مراحل متعددة، كل مرحلة منها تعمل بمحرك صاروخي واحد أو أكثر، ويكون لكل مرحلة خزانات الوقود الخاصة بها. فإذا كان مطلوبا حمل تلك الكميات الهائلة من الوقود للتغلب على الجاذبية ففكرة المراحل تتيح التخلص من خزانات الوقود الفارغة أولا بأول بدون الاضطرار إلى حملها حتى النهاية. وهي الفكرة التي طبقت بعد ذلك في كل الصواريخ المستخدمة في مجال الفضاء (الصاروخ «ساتيرن ٥» الذي حمل أول إنسان إلى القمر كان مكونا من ثلاث مراحل و ١١ محركا صاروخيا، ووزنه لحظة الإطلاق ٢٩١٠ أطنان ويحمل كمية من الوقود وزنها ٢٦٣٨ طنا!!).
* قام بعد ذلك العالم الأمريكي الكبير روبرت جودارد (١٨٨٢ـ١٩٤٥) Robert Goddard في سنة ١٩١٤ ببناء أول محرك صاروخي يعمل بالوقود المكون من الأكسجين السائل والجازولين، ولم يجربه في صاروخ حقيقي إلا في ١٦ مارس ١٩٢٦، عمل فيها المحرك لمدة ٢,٥ ثانية فقط، ولم ينجح الصاروخ في الارتفاع للأكثر من ١٢,٥ متر. وظهرت نتائج أبحاث جودارد بعد ذلك في ورقة شهيرة بعنوان «طريقة للوصول إلى الارتفاعات العالية».
* المرحلة الثالثة من مراحل التطور بدأت بعد ذلك في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها بواسطة مجموعة من العلماء الألمان بقيادة الجنرال «والتر دورنبرج» Walter Dornberger وعالم الصواريخ الشهير «فيرنر فون براون» Werner von Braun (١٩١٢ـ١٩٧٧) بتطوير سلسلة من الصواريخ الباليستية كان آخرها الصاروخ V-2 الشهير الذي استخدم في الحرب العالمية الثانية بكثافة كبيرة (حوالي ٣٢٠٠ صاروخ) ضد بريطانيا. وبعد انتهاء الحرب ولجوء العلماء الألمان إلى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بدأ تطوير الصواريخ الباليستية العابرة للقارات وتحول بعضها بعد ذلك إلى صواريخ إطلاق للأقمار الصناعية.
* وخلال عقد الستينيات والسبعينيات، وفي ظروف الحرب الباردة وانقسام العالم إلى معسكرين، اشتعل سباق الفضاء بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة فكان يوري جاجارين السوفيتي Yury Gagarin أول إنسان يدور في الفضاء حول الأرض (١٢ أبريل ١٩٦١)، وكان نيل أرمسترونج الأمريكي Neil Armstrong أول إنسان يضع قدمه فوق أرض القمر (٢٠ يولية ١٩٦٩) في إطار مشروع أبوللو. وأطلقت بعد ذلك الولايات المتحدة في ١٩٧٣ أول محطة فضائية صغيرة تحت اسم المعمل الفضائي Skylab بقيت في الفضاء لمدة ٩ أشهر، وتعاقب عليها ثلاثة رواد لفترات مختلفة كان أطولها ٨٤ يوما.

محطة فضائية!

محمد قدرى سعيد



* تميز عقد الثمانينيات بإنجازين مهمين: الأول بناء الولايات المتحدة لمكوك الفضاء كمركبة صاروخية تُستعمل لمرات متعددة reusable launch vehicle بين الأرض والمدار القريب حولها. وتحمل طاقما كبيرا من سبعة رواد بدلا من صواريخ الإطلاق التى تستخدم لمرة واحدة وذات حمولة محدودة نسبيا (أطلق لأول مرة فى ١٢ أبريل ١٩٨١). والإنجاز الثانى إطلاق المحطة الفضائية السوفيتية «مير» كمكان دائم لإقامة الإنسان فى الفضاء. ومن ناحيتها بدأت الولايات المتحدة التفكير متأخرا فى بناء محطة فضائية أطلقت عليها فى بداية الأمر «الحرية». تحولت بعد ذلك إلى المحطة الفضائية الدولية.

ولقد أصبح مفهوما مع نهاية الثمانينيات أن الإنسان قد أقام فى الفضاء بنية مادية تخدمها بنية فكرية. أما البنية المادية فتكونت من صواريخ الإطلاق والأقمار الصناعية بأنواعها المختلفة والمحطات الفضائية والتلسكوبات الفضائية والمركبات المخصصة لمهام استكشاف كواكب المجموعة الشمسية. أما البنية الفكرية فقامت على عدد من القضايا والأسئلة الأساسية تناقش الهدف من استكشاف الفضاء، والأولويات، ومبررات التكلفة الباهظة المطلوبة.

ويمكن القول إن الأقمار الصناعية والمحطات الفضائية كانت من بين المكونات ذات الطابع «البرجماتى» الظاهر الفائدة بسبب قربها من الأرض، وبسبب ما تقوم به من وظائف وما تقدمه من خدمات. ولم يعد ممكنا فى الحقيقة تصور شكل الحياة على الأرض بدون منطقة المدار القريب منها Low Earth Orbit الذى انتقل إليها منذ بداية عصر الفضاء وحتى الآن كل وسائل التحكم لما يجرى على الأرض من عمليات حيوية. أما المحطات الفضائية فكما تصورها فون براون عالم الصواريخ الكبير ومهندس مشروع أبوللو بأنها «نقطة ملاحظة» outpost خارج الأرض، تراقبها من ناحية وتنظر إلى الكون المحيط بها من ناحية أخرى. وأضيف إلى هذا المفهوم بعد ذلك أنها مكان «بلا جاذبية»، ومعمل للتجارب بعيدا عن سلطانها، وعتبة انطلاق إلى الكون السحيق.

زمن التحولات

هيمن برنامج الفضاء الأمريكى خلال سنوات التسعينيات وبعد انتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتى على باقى دول العالم ودارت فى فلكه أنشطة الدول الأخرى فى أوروبا وآسيا. واحتلت المحطات الفضائية دورا محوريا فى مبادرة «التعاون الدولى فى الفضاء» التى أطلقتها الولايات المتحدة فى ١٩٩١ وكان هدفها التعامل بشكل جماعى مع التحديات الكبرى المتوقعة فى مجال الفضاء من خلال العمل المشترك على المحاور الآتية:

* مهمة إلى كوكب الأرض Mission to Planet Earth ويركز هذا المحور على مراقبة كوكب الأرض، وملاحظة التغيرات التى تطرأ على بيئته الحيوية.

وتسجيل كل ما يتعلق بها من قياسات. والهدف من ذلك فهم أثر النشاط البشرى على البيئة الحيوية الحاضنة للحياة، وتحديد السياسات اللازمة لإصلاح الأضرار الحالية، والمحافظة على البيئة فى المستقبل.

* بناء محطة دائمة فى الفضاء لعمل الأبحاث الخاصة بالعيش فى ظروف الفضاء وانعدام الوزن لفترات طويلة، وتدريب الرواد، وتطوير التكنولوجيات اللازمة للحياة على الكواكب الأخرى البعيدة.

* مهمة بعيدة عن كوكب الأرض: وتركز على مهام الاستكشاف البعيد وخاصة كوكب المريخ، عن طريق إرسال المركبات الأتوماتيكية فى البداية بدون الإنسان، وعمل الدراسات اللازمة عن سطحه وبيئته، واختيار أفضل المواقع لهبوط الرواد عليه فى المستقبل.

* العودة للقمر للبقاء والإقامة عليه.

* تطوير وسائل الإطلاق إلى الفضاء بجانب المتوفر منها حاليا مثل المكوك والصواريخ، والتركيز على التكنولوجيات المختلفة المرتبطة بها لتصبح أكثر أمانا وأقل تكلفة وأكثر قدرة على القيام برحلات فضائية بعيدة.

وفى إطار هذا البرنامج بدأت الولايات المتحدة مشروع المحطة الفضائية «الحرية» التى تغير اسمها بعد ذلك إلى «ألفا» أو «المحطة الفضائية الدولية» بعد انضمام روسيا الاتحادية إلى المشروع ومجموعة أخرى من الدول.

المحطة الفضائية «مير»

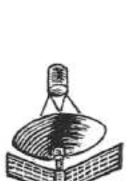
عندما يأتى ذكر المحطة الفضائية «مير»، يتحدث الناس عن رائد الفضاء السوفيتى «سيرجى كريكاليف» من أبناء لينينجراد، الذى صعد إلى «مير» فى مايو ١٩٩١ وعاد إلى الأرض بعد ذلك فى مارس ١٩٩٢ ليجد دولته وقد تغير اسمها إلى «روسيا الاتحادية»، واسم مدينته وقد تغير إلى سان بطرسبرج. لقد جاءت «مير» فى زمن التحولات التاريخية للعالم والاتحاد السوفيتى، ولم تكن مجرد جسم يدور حول الأرض ولكنها كانت فكرا سوفيتيا فضل أن يمنح الإنسان مكانا يجرب فيه العيش والعمل فى الفضاء، فى مقابل فكر آخر أمريكى فضل القفز مرة واحدة إلى القمر لكنه لم يستطع البقاء هناك ولم يعد إليه حتى الآن. لقد اعتبر الحزب الشيوعى بناء «مير» الهدف الرئيسى لبرنامج الفضاء السوفيتى خلال الثمانينيات، واستخدمها بجانب مهمتها العلمية كإحدى وسائل العلاقات الدولية مع حلفائه وأصدقائه فأتاح لرواد تلك البلاد الصعود إليها والبقاء داخلها لبعض الوقت.

جاءت «مير» ردا على تطوير الولايات المتحدة لمكوك الفضاء، وتزامن معها فى نفس الوقت تطوير الاتحاد السوفيتى لوسيلتين صاروخيتين للوصول إلى الفضاء: الأولى الصاروخ العملاق إنيرجيا Energia والثانية المكوك السوفيتى «بوران» Buran وهو يشبه المكوك الأمريكى لدرجة كبيرة، وجرب مرة واحدة فى سنة ١٩٨٩ بدون رواد، ثم أهمل بعد ذلك تماما وتحول إلى مطعم فى حديقة جوركى الشهيرة فى موسكو.

انطلقت «مير» إلى الفضاء فى ٢٠ فبراير ١٩٨٦ فى عصر ميخائيل جورباتشوف وسط شعارات «البريسترويكا» وإعادة البناء. وعندما انهار البناء ومعه جورباتشوف بقيت «مير» كوكبا فى السماء ورمزا باقيا من رموز الدولة السوفيتية التى اختفت رموزها على الأرض واحدا بعد الآخر وفى سنوات قليلة. كان ترتيب «مير» السابعة والأخيرة فى سلسلة من المحطات المدارية السوفيتية التى حملت اسم «ساليوت» Salyut وعندما تقرر إطلاقها كان الاتحاد السوفيتى قد انتهى من تطوير الصاروخ «بروتون» أقوى الصواريخ السوفيتية فى ذلك الوقت وكانت حمولته القصوى عشرين طنا، هى وزن الوحدة الرئيسية للمحطة. وفى ضوء الخبرات المتراكمة من المحطات «ساليوت» استقر فكر العلماء على بناء «مير» من وحدات منفصلة كل واحدة منها يمكن أن تُفضى إلى الأخرى.

تكون هيكل المحطة من ست وحدات مستقلة أسطوانية الشكل، تم تجميعها على مراحل بعد حملها من الأرض بواسطة الصواريخ الروسية. وفى بعض الوحدات كانت هناك فتحات للالتحام مع مركبات الإمداد بالمواد والرواد القادمين من الأرض. خصصت الوحدة «كفانت-١» (أطلقت فى ١٩٨٧) للأبحاث الفيزيائية والفلكية وزودت بتلسكوبات للأشعة السينية وأشعة جاما، والوحدة «كفانت-٢» (١٩٨٩) للبحوث البيولوجية ومراقبة الأرض، والوحدة «بريرودا» (١٩٩٦) للاستشعار عن بعد ومراقبة الغلاف الجوى، والوحدة «كريستال» (١٩٩٠) لبحوث المواد وبها فتحة لاستقبال مكوك الفضاء الأمريكى، والوحدة «سبيكتر» (١٩٩٥) خصصت أيضا للاستشعار عن بعد، ثم الوحدة الرئيسية وطولها يصل إلى ١٥ مترا وهى مجهزة لإقامة الطاقم وبها مكتبة صغيرة ومكان يمارس فيه الرواد بعض الأنشطة الرياضية. والمحطة مجهزة للالتحام مع مركبة الإمداد بروجرس إم-١٥ التى تزود المحطة بالمؤن والوقود وصواريخ الدفع الصغيرة اللازمة لتصحيح المدار.

بلغ وزن «مير» بعد أن اكتمل بناؤها وزودت بالمختبرات والأجهزة والمعامل ١٣٠ طنا، وأتاحت بعد أن بدأ العمل داخلها اختبار وتطوير نظريات لتشغيل المحطات الفضائية وصيانتها وتزويدها بالرواد والإمدادات، وأجريت على متنها كثير من التجارب بعضها تم التحكم فيه عن بعد ومن الأرض وفى غيبة أفراد متخصصين. ومن أكثر المجالات التى استفادت من المحطة مجال البحوث البيولوجية والدوائية، وتطلب ذلك وجود الرواد فوقها لفترات طويلة وحقق بعضهم فترات بقاء قياسية زادت عن العام الكامل، مثل «فاليرى بولياكوف» الذى نجح فى البقاء داخلها لمدة ٤٣٨ يوما متصلة.



الصاروخ إذن (أو مركبة الإطلاق) Space Launch Vehicle كان حصان عصر الفضاء فى القرن العشرين وبدونه لم يكن ممكنا التفكير فى إقامة محطة فضائية دائمة تدور حول الأرض أو فى إرسال رواد إلى القمر أو إلى أى جرم سماوى آخر. وكان من الصعب أن ينجح الإنسان فى بناء تلك النوعية من الصواريخ من المحاولة الأولى



وعندما تحول الاتحاد السوفيتى إلى روسيا الاتحادية، وفى ظروف الأزمة الاقتصادية الخانقة، بدأ التفكير فى «تسويق» المحطة والحصول على موارد يمكن أن تغطى مصاريف التشغيل. ولقد لاقت تلك الدعوة رغبة من الولايات المتحدة وأوروبا واليابان للاستفادة من خبرة «مير» فى أعمال تطوير وبناء المحطة الفضائية الدولية الجديدة. وتطورت الأمور بعد ذلك فى اتجاه مثير سياسيا وتكنولوجيا، فانضمت روسيا إلى مجموعة المحطة الفضائية الدولية بكل خبرة علمائها الطويلة فى تطوير وتشغيل «مير» وما سبقها من محطات «ساليوت»، وأصبحت «مير» نفسها بعد ذلك قاعدة اختبار رائعة لكل أنشطة التصميم والتصنيع لمكونات المحطة.

وفرت هذه المرحلة من مراحل التعاون الدولى لمير فرصة إضافية للبقاء من خلال استقبالها لأعداد متزايدة من الرواد الأمريكيين، يأتون إليها على متن مكوك الفضاء لقضاء أوقات طويلة داخلها حيث لا يوجد مكان آخر يمكن أن يقدم مثل هذه الخدمة. ولقد ساهم الأمريكيون بدورهم فى تطوير بعض معامل «مير»، وخاصة معامل البحوث البيولوجية والدوائية.

المحطة الفضائية الدولية

قبل أسابيع قليلة من نهاية القرن العشرين كان قد أطلق من أجزاء المحطة الفضائية الدولية وحدتان: الأولى روسية (٢٠ نوفمبر ١٩٩٨) والثانية أمريكية (٤ ديسمبر ١٩٩٩) بعد رحلة عناء طويلة تكنولوجية وسياسية. لقد نجح الفريق الدولى بقيادة الولايات المتحدة وروسيا ومشاركة أوروبا واليابان وكندا فى الوصول بالمشروع إلى مرحلته الأخيرة والبدء فى نقل أجزاء المحطة جزءا بعد آخر إلى مدار يبعد عن الأرض ٣٥٢ كيلومترا على أن ينتهى العمل خلال خمس سنوات من بدء تجميع المحطة فى الفضاء. كانت المعجزة الحقيقية، بجانب المعجزة الهندسية، عبور المشروع فوق مصاعب سياسية وفنية لا حصر لها. فلم يكن أحد يحلم بأن المبادرة الأمريكية «للتعاون الدولى فى مجال الفضاء» سوف تصمد لكل الاختبارات السياسية والاقتصادية التى واجهتها، فخلال فترة العمل فى المشروع والتى اقتربت من عقدين، تبدل عليه ثلاثة رؤساء أمريكيين، وأربعة رؤساء لوكالة الفضاء الأمريكية «ناسا»، وسقطت رؤوس أربعة مديرين للمشروع، وكان على وشك التوقف والإلغاء سنة ١٩٩٣ لكنه مر بأعجوبة من تحت مقصلة الكونجرس بفارق صوت واحد.

بدأت فكرة المحطة الفضائية الدولية لأول مرة فى عهد ريجان سنة ١٩٨٤ «كخطوة منطقية» لبرنامج الفضاء الأمريكى الذى كان قد انتهى لتوه من بناء المكوك كمركبة كبيرة الحجم يمكن استخدامها بمرونة «ذهابا وعودة» بين الأرض والفضاء. وكانت الرؤية الأمريكية فى ذلك الوقت، أن المحطة ستعمل «كمركز عمليات فضائى» قريب من الأرض، يعيش على متنه بصورة دائمة فريق دولى لإجراء البحوث فى المجالات العلمية والتكنولوجية والتجارية، ويقدم خدمات متنوعة «للبنية الفوقية» الفضائية التى تدور حول الأرض من أقمار وسفن فضاء، على أن يؤخذ فى الاعتبار إمكانية أن يستخدمها المواطن العادى بجانب الرواد المحترفين. لكن الهدف الأكبر من المحطة كان إتاحة الفرصة لإجراء البحوث فى علوم الحياة والبقاء الطويل فى ظروف الفضاء وانعدام الوزن استعدادا

لاستخدام المحطة فى المستقبل كنقطة انطلاق أساسية لرحلات الإنسان إلى القمر وإلى كواكب المجموعة الشمسية وخاصة المريخ.

وفى سنة ١٩٩٢ لم تكن المحطة فى مدارها كما كان مخططا، وكان الإنفاق قد وصل إلى ١٠ بلايين دولار على تصميمات ونماذج، وثار جدل واسع فى الولايات المتحدة حول جدوى المشروع وتكلفته وصعوبات إدارته مع الأطراف الدولية الأخرى. لكن إدارة كلينتون عندما جاءت إلى البيت الأبيض قامت بدفع الأمور إلى مراجعة نهائية لتصميم المحطة، واقترحت فى ١٩٩٤ ضم روسيا إلى الفريق الدولى المسئول عن المشروع. وقبلت روسيا ورحبت رغم مشاكلها السياسية والاقتصادية الصعبة.

كان الظن فى ذلك الوقت أن انضمام روسيا لفريق العمل سوف يتيح ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد. فاشتراكها مع أعداء الأمس فى مشروع بهذا الحجم سوف يمثل مصافحة ومصالحة بعد طول عداء. كذلك فإن الخبرة الروسية الطويلة فى مجال المحطات الفضائية والإقامة الطويلة فى الفضاء يمكنها أن تقدم الكثير للمشروع. أما العصفور الأخير فكان خفض التكلفة عن طريق إضافة شريك آخر إلى باقى الشركاء. العصفور الوحيد الذى أفلت من الرهان على روسيا كان العصفور الأخير. فبرغم أن الاشتراك فى المحطة لا يمثل لروسيا تحديا فنيا صعبا إلا أنها كانت تواجه ضغوطا مالية وسياسية شديدة، وكان أملها أن يمنع الاشتراك فى المشروع انفراط عقد جماعتها من العلماء والفنيين الذين بنوا على أكتافهم المجد الروسى فى الفضاء. لم يكن الطرف الروسى فى كل الأحوال بالجهة المناسبة التى يمكن الاعتماد عليها فى أمور التمويل. فكما قال السناتور الأمريكى تيموثى رويمر «كان الأمل أن يوفر لنا الروس ٢ بليون دولار بسبب أسلوبهم الاقتصادى فى العمل، والنتيجة أننا أعطيناهم نحن ٢ بليون دولار للوصول بالعمل إلى نهايته».

كان على الروس بناء وحدتين من وحدات المحطة. الأولى «زاريا أو الفجر» ووظيفتها تزويد المحطة بمصادر الطاقة والدفع الصاروخى، وتحمل الأمريكيون كامل تكلفتها، والثانية للخدمات وإعاشة الرواد. وبكرم بالغ من «الناسا» وللمساعدة فى حل المعضلة الروسية، وافقت على إعطاء الروس ٤٧٢ مليون دولار خلال سنة ١٩٩٨ مقابل ٩ زيارات قام بها مكوك الفضاء للمحطة «مير» وأيضا مقابل إقامة رواد أمريكيين لفترات مختلفة داخلها. وكذلك فعلت كل من الوكالة الفرنسية والألمانية مقابل خدمات مماثلة.

على الجانب الفنى، واجهت المحطة منذ البداية صعوبات ومشاكل تكنولوجية لا حصر لها. أولها كان له علاقة بمفاهيم استخدام التكنولوجيا المتقدمة فى مشروع يستغرق تنفيذه مدة طويلة مع خطر تقادم تلك التكنولوجيا خلال زمن تنفيذ المشروع. وكانت الصعوبة الهندسية الثانية فى أسلوب تجميع المحطة واختبار أجزائها فى الفضاء. لقد أطلقت أجزاء المحطة جزءا بعد جزء إلى مدارها المحدد ليتم تجميعها معا بواسطة أذرع آلية، وبواسطة رواد يمشون ويسبحون فى الفضاء بملابسهم الفضائية المجهزة، وهذه المرحلة هى أخطر مراحل المشروع. ومن المتوقع أن يصل مجموع ساعات السباحة الحرة فى الفضاء إلى ١٠٠٠ ساعة سوف تتكفل بها أطقم أمريكية وروسية مدربة. قابل العمل أيضا صعوبة التعامل مع أجزاء آتية من ١٨ بلدا مختلفا، ومحاولة وضع قواعد للتوفيق بين هذه الأجزاء الميكانيكية والكهربية ونظم الكومبيوتر ولغاته وبرامجه المسئولة عن التحكم فى كل أنشطة المحطة الحيوية.

اقتصر شحن الأجزاء إلى الفضاء فى البداية على المكونات الأمريكية والروسية بالإضافة إلى «الذراع الروبوت» الكندى الضرورى لتجميع الأجزاء. أما بالنسبة لمعمل الأبحاث الأوروبى والمعمل اليابانى فسيتم إطلاقهما قبل نهاية العام الحالى. ومن المتوقع أن تأخذ فترة الإطلاق والتركيب خمس سنوات يتم خلالها نقل ما يقرب من ٤٢٠ طنا من المكونات بواسطة ٤٠ رحلة للمكوك والصواريخ الروسية المختلفة. وفى سنة ٢٠٠٦ على وجه التقريب، وبعد الانتهاء من عمليات التجميع والاختبار، سوف تأخذ المحطة صورتها النهائية فى مساحة تقترب من مساحة ملعب كرة القدم (١٠٨ أمتار × ٧٤ مترا) وحجم يساوى مرتين ونصف حجم المحطة الروسية «مير» وتكون بذلك مستعدة لاستضافة سبعة رواد داخلها بصفة دائمة. ويقدر مكتب المحاسبات الأمريكى التكلفة الإجمالية للمحطة شاملة تكلفة نقل الأجزاء والتشغيل لمدة ٢٠ سنة بمبلغ ٩٦ بليون دولار.

ماذا نفعل بالمحطة؟!

لم تكن السنوات الماضية فى عمر المحطة الفضائية الدولية كما ذكرنا زمنا بلا متاعب. فبعد نشوة الفكرة، يأتى الواقع بأحكامه الاقتصادية والسياسية ومستحيلاته التكنولوجية والعلمية ليضع الحلم فوق طاولة الاختبار فإما أن ينجو ويحلق أو يموت. والآن وبعد أن أصبح الهدف قريبا وفى متناول اليد، تحولت الأسئلة لتركز على ما يمكن أن نفعله بالمحطة الفضائية، وما يمكن أن تقدمه ليس فقط للولايات المتحدة وشركائها ولكن أيضا للعالم أجمع. ومن المدهش أن معظم المتحمسين لتلك المشروعات الكبرى فى البداية لا يعرفون على وجه اليقين فائدتها النهائية. وعادة ما يتفجر الواقع بعد تحقيقه عن أشياء لم تكن فى الحسبان ويتحول مع الوقت إلى لبنات فى بنية الحضارة والتقدم التى تتسع جبهتها مع الزمن.

لقد جاءت المحطة الدولية فى زمن يُعلى كثيرا من قيمة الربح والاستفادة القصوى من كل الأنشطة البشرية بكل أشكالها العلمية والفنية والرياضية. فلا مكان لمبدأ «العلم للعلم» أو «الفن للفن» أو «الرياضة للرياضة». وبسبب ذلك لم يتأخر التفكير فى كيفية إدخال المحطة الدولية عالم «البزنس». فلقد ألح الكونجرس أن تصبح المحطة مكانا جاذبا للصناعة تُجرى فيها أبحاثها وتجاربها فى المجالات المختلفة. وطلب الكونجرس من وكالة الفضاء الأمريكية أن تقدم له ثلاثة تقارير عن مستقبل المحطة:

* التقرير الأول عن الاستخدامات المتوقعة للمحطة والعمليات المختلفة ذات الطابع التجارى التى يمكن تنفيذها داخلها، والتطور المتوقع لتلك العمليات.
* التقرير الثانى يتضمن توصيفا للأنشطة التجارية التى اقترحتها «الناسا» فى تقرير سابق قدمته للكونجرس فى مايو ١٩٩٩.
* التقرير الثالث يتضمن نتائج دراسات الجدوى التى أجرتها «الناسا» عن الاستخدامات التجارية للمحطة، وفيها انتهت إلى أن الاستفادة من المحطة تجاريا يعتبر هدفا طويل المدى. وأشارت الدراسة إلى ثلاثة مجالات مرشحة للاستثمار التجارى فى المدى القريب: التعليم، والترفيه والإعلان. هذه هى المجالات المتاحة أمام الاستثمار التجارى الخاص، ويمكن أن نضيف إليها إنتاج بعض المواد ذات الطبيعة الخاصة باستغلال انعدام الجاذبية داخل المحطة.

والمشكلة ليست فقط فى العدد المحدود من الأنشطة المتاحة حتى الآن أمام الاستثمار الخاص، ولكن أيضا فى أسلوب تعامل المستثمرين التجاريين مع المحطة التى تدور بعيدا عنهم فى الفضاء، ويتطلب الوصول إليها والعيش فوقها إعدادا خاصا. وتتمثل المشكلة الأولى فى وسيلة الوصول إلى المحطة التى تقتصر حاليا على مكوك الفضاء، بأعداده القليلة ورحلاته المتباعدة. وكذلك مشكلة التكلفة وكيفية تحديد عناصرها المختلفة من أفراد وطاقة وأماكن عمل واستهلاك مواد..إلخ. ولا تستبعد دراسات الجدوى أن يتم دعم تلك الخدمات بواسطة الحكومة الأمريكية لتشجيع الصناعة والقطاع الخاص للتعرف على إمكانيات المحطة وما يمكن أن تقدمه لهم، وستكون الأولية فى منح التخفيضات للمشروعات والأبحاث الجديدة خاصة فى مراحلها الأولى قبل أن تحقق عائدا ملموسا. وفى نفس الإطار تم اقتراح حزم من الخدمات تتناسب مع بعض التطبيقات التجارية وتفتح الطريق أمامها من خلال المحطة الفضائية لارتياد مجالات جديدة بتكلفة معقولة.

أثيرت أيضا مشكلة الملكية الفكرية للمواد التى تقوم الشركات الخاصة بتطويرها على متن المحطة الفضائية وباستخدام معاملها، وهل يترتب على ذلك انفراد تلك الشركات بكامل الملكية الفكرية إذا دفعت كل المصاريف المطلوبة منها؟ وما هو الوضع إذا قامت الدولة بتخفيض تلك التكلفة لتشجيع البحث العلمى وتشجيع الصناعة على استخدام المحطة كمنصة للبحوث والتجارب؟

لقد بدأت الدعوة الفعلية لاستخدام المحطة الدولية تجاريا فى سنة ١٩٩٩ عندما طلبت الناسا من الشركات المختلفة إرسال مطالبها ومقترحاتها، وكانت الاستجابة عالية. ومنذ تلك اللحظة بدأت العلاقة تتحول من مجرد مقترحات إلى اتفاقيات مبدئية تتناول الجوانب المختلفة المالية والفنية. الحالة الوحيدة التى تحولت إلى اتفاق كانت مع شركة «زمن الأحلام» Dreamtime وهى شركة تعمل فى مجال الوسائط المتعددة Multi-media. وصاحب ذلك الاتفاق ضجة دعائية ضخمة هدفها جذب الآخرين إلى المحطة ومحاولة إثبات أن المحطة ليست فقط عتبة فضائية ولكن جذورها تمتد أيضا ناحية الأرض. والطريف أن مشروع «زمن



خلال عقدى الستينيات والسبعينيات، وفى ظروف الحرب الباردة وانقسام العالم إلى معسكرين، اشتعل سباق الفضاء بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فكان جاجارين السوفيتى أول إنسان يدور فى الفضاء حول الأرض (١٢ أبريل ١٩٦١) وكان نيل أرمسترونج الأمريكى أول إنسان يضع قدمه فوق أرض القمر فى إطار مشروع أبوللو (٢٠ يولية ١٩٦٩)



عندما تحول الاتحاد السوفيتى إلى روسيا الاتحادية، وفى ظروف الأزمة الاقتصادية الخانقة، بدأ التفكير فى «تسويق» المحطة والحصول على موارد يمكن أن تغطى مصاريف التشغيل. ولقد لاقت تلك الدعوة رغبة من الولايات المتحدة وأوروبا واليابان للاستفادة من «مير» فى أعمال تطوير وبناء المحطة الفضائية الدولية

الأحلام» كان محاولة ذكية لتحقيق ربح من عمليات الدعاية للمحطة. فالهدف كان عمل أرشيف كامل لها بالصور والوثائق والأفلام بأحدث الطرق الرقمية تغطى كل الأنشطة الفضائية المتصلة بها وطريقة بناء المحطة وتجميع أجزائها وكيفية وضعها فى مدارها حول الأرض.

بجانب ذلك، احتلت صناعة الدواء والبحوث البيولوجية والنانوتكنولوجى (هندسة المواد الجديدة من مكوناتها الذرية الأساسية) مكانة خاصة بين الأنشطة الأخرى المقترحة للاستثمار التجارى. ومن خلال سلسلة من الندوات وورش العمل نجحت الناسا فى رسم إطار لما يمكن عمله داخل المحطة فى هذه المجالات. ولم تقتصر تلك النوعية من البحوث والإنتاج الخاص على الصناعة فقط، بل امتدت إلى البحوث الأكاديمية التى تُجريها مراكز البحوث والمنظمات والهيئات المهتمة بالصحة والإنسان. ولقد تحقق بالفعل أكثر من ٢٣ اتفاقا و ١٨ مذكرة تفاهم بين وكالة الفضاء الأمريكية وكثير من المعاهد والهيئات الهامة مثل: المعهد القومى للصحة والمعهد القومى للسرطان والمعهد القومى للشيخوخة. وسوف تنفذ تلك الأنشطة عندما تبدأ داخل المعمل الأمريكى وفى المعمل الأوروبى والمعمل اليابانى وكلها أجزاء من المحطة الدولية. وهناك اهتمام رئيسى بالبحوث الخاصة بمشاكل رواد الفضاء الصحية والبيولوجية.

وفى تقرير «للأكاديمية الأمريكية للعلوم» بعنوان «مستقبل بحوث التكنولوجيا الحيوية على متن المحطة الفضائية الدولية»، ظهر الاهتمام بعلوم الأنسجة وبناء سلاسل جديدة من البروتينات. إن انعدام الجاذبية داخل المحطة يسمح بتطوير مواد وتركيبات أكثر نقاء مما هو متاح على سطح الأرض، كما أن علم الأنسجة يتطلع إلى معرفة تأثير انعدام الجاذبية على عمل الخلايا وانقسامها. ويصب كل ذلك فى مجال واسع من التطبيقات العملية التى تحظى باهتمام المجتمع البشرى مثل صناعة الأعضاء وعلاج السرطان ومرض الإيدز وأمراض القلب والدم والمناعة والعظام. وتميل الأكاديمية إلى تأكيد أنه برغم إغراء الاستخدام التجارى للمحطة إلا أن الهدف الأساسى من إنشائها هو البحوث العلمية، ومساندة برنامج الاستكشاف الفضائى فى المستقبل. ومن هذه النقطة تركز الأكاديمية على وضع برامج جديدة للبحوث والتفكير فى كيفية إدارة المحطة من هذا المنطلق، على أن يشارك المجتمع البحثى والعلمى فى تصميم تلك البرامج ووضع الخطط المختلفة المنفذة لها.

زمن الإنسان العادى

واكثر ما أثار جدلا فى موضوع استخدام المحطة هو فتح أبوابها «للإنسان العادى» أو بتعبير آخر للسياحة الفضائية. وحتى الآن اقتصر دور المواطن على دفع تكلفة غزو الفضاء من خلال الضرائب والتبرعات، لكن أحدا لم يسمح له بان يضع قدمه داخل مركبة فضائية ليشارك الرواد سفرهم المحفوف بالمخاطر. وتحتفظ الذاكرة التاريخية بجحافل البشر المهاجرين إلى «الأرض الجديدة» فى عصر الكشوف الجغرافية على الأرض، والأعداد الكبيرة منهم التى ماتت من الجوع والمرض وغدر الطريق، قبل أن تطأ أقدامهم الأرض الموعودة. وبشكل عام ينظر العلماء إلى مشاركة الإنسان العادى من زوايا مختلفة ومتعارضة أحيانا. المؤيدون يرون أن زمن الإنسان العادى فى الفضاء قد آن أوانه فى ضوء المشاريع المختلفة التى يفكر فيها علماء الفضاء، مثل بناء مستعمرة فوق القمر أو المريخ، حيث لا يمكن الاعتماد إلى ما لا نهاية على الرواد المدربين والمختارين لتلك المهمة. ومن وجهة نظرهم أن المجال قد أصبح متاحا بعد بناء المحطة الدولية التى يمكنها استضافة سبعة أشخاص بعد أن كان العدد من قبل فى المحطات السابقة لا يزيد على واحد أو اثنين. إن برنامج الفضاء بكل تعقيداته الفلسفية والعلمية والتكنولوجية يحتاج بجانب المهندسين والعلماء إلى خيال الكتاب والأدباء والشعراء والفنانين.

ويرى المعارضون أن الأوان لم يحن بعد، فالمخاطر مازالت كثيرة، وإذا تعرض لها فرد



عادى بدون تدريب وتجهيز سابق فربما يهدد الرحلة كلها بصورة من الصعب التنبؤ بها. ولقد سافرت بالفعل من قبل «مدرسة أطفال» في إحدى رحلات مكوك الفضاء بعد أن مرت بمرحلة تدريب قاسية، ورغم ذلك كان قدرها أن تموت مع باقى الرواد بسبب انفجار المكوك بعد انطلاقه مباشرة في رحلة مشئومة.

سياحة فى الفضاء

بدأ الحديث عن «سياحة الفضاء» منذ فترة طويلة، لكن المبادرة الحقيقية ظهرت بالفعل في يونية ٢٠٠٠ عندما أعلن «دينيس تيتو» أحد المستثمرين الكبار في «وول ستريت» والبالغ من العمر ٥٩ عاما استعداده لدفع عشرين مليون دولار لقضاء بعض الوقت داخل المحطة الفضائية «مير» وأجريت له بالفعل بعض الفحوص الطبية بواسطة الشركة المسئولة عن إدارة أعمال المحطة السوفيتية. ولم يكن تيتو غريبا تماما عن هذا المجال، فقد عمل لفترة كمخطط لرحلات الفضاء في «معمل الدفع النفاث» Jet Propulsion Laboratory (JPL) وهو المركز رقم واحد في الولايات المتحدة المسئول عن التخطيط والإشراف على رحلات الفضاء المتجهة إلى كواكب المجموعة الشمسية. لكن ما حدث من تغيير في خطط الحكومة الروسية واتخاذها قرارا بوقف الرحلات إلى «مير» وقف عقبة أمام حلم «تيتو» في السفر إلى الفضاء.

لكن إغراء الفكرة والمبلغ الكبير كانا وراء تحول التفكير الروسي من استخدام «مير» كمكان لزيارة الرجل إلى المحطة الدولية، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أعلنت الشركة المسئولة عن تنظيم الرحلة أن رحلة سياحية ثانية سوف يتم تنظيمها قبل نهاية العام.

هذا التطور السريع في الأحداث أربك الأمريكيين وأصبحت ردود أفعالهم متناقضة. عبر مدير الناسا عن عدم حماسه لتلك المخاطرة والسماح بوجود فرد عادى داخل المحطة في ظروف انشغال باقى الرواد المقيمين داخلها بتجميع أجزائها. واستنكر السيناتور الأمريكي الجمهوري «رالف هال» الفكرة وأرسل إلى مدير الناسا خطابا حادا قال فيه إن رحلة «تيتو» يمكن أن تعرض المحطة الجديدة للخطر من أجل إرضاء رغبات رجل غني بعد أن أنفق عليها دافعو الضرائب بلايين الدولارات. ومن ناحية أخرى وجدت الناسا انه مع توفر الشروط اللازمة لسفر «تيتو» فإن في الأمر جانبا تعليميا ودعائيا لا يجب أن تسقطه من الحساب، والأهم من ذلك الاستجابة لرغبة تبدو قوية عند قطاع عريض من الناس للسفر إلى الفضاء.. رغبة لا يمكن إغفالها ويجب تفهم دوافعها.



من الأرض إلى الأرض، نهاية مير

في يونية ٢٠٠٠ زحف ثلاثة من طاقم محطة الفضاء «مير» عبر القناة التي تربطها بكبسولة العودة «سيوز» وقاموا بإغلاق فتحة الممر للمرة الأخيرة، وتركوا المحطة بلا عودة في طريقهم إلى الأرض. لقد عانت «مير» كثيرا في سنواتها الأخيرة، فلم تنقطع المشاكل والأعطال في شكل حرائق وتسرب للسوائل وانخفاض في الضغط وانهيار لمصادر الطاقة ووسائل تأمين الحياة. وبرغم كل شيء كان هناك إجماع شبه كامل على أن «مير» تمثل قطعة غالية من التكنولوجيا الروسية البديعة. كانت أكبر بيت صنعه البشر وجمعت أجزاؤه ووضع في مدار حول الأرض، ولن يتفوق عليه بناء مماثل إلا في سنة ٢٠٠٢ عندما تقترب المحطة الدولية من مراحل تجميعها الأخيرة.

تحملت «مير» طيلة خمسة عشر عاما أشعة شمس لا ترحم، وبردا قارسا، وشلالا لا يتوقف من الشهب الصغيرة. وخلال حياتها دارت ٨٧٦٠٠ مرة حول الأرض، وأجرى داخلها ١٦٥٠٠ تجربة، وساعدت في تطوير ٦٠٠ من التكنولوجيات الصناعية، وتدرب داخلها ١٠٤ من الرواد حقق بعضهم أرقاما قياسية لم تتحطم حتى الآن. لقد كانت «مير» مصدر إلهام لكل ضيوفها الكثيرين الذين جاءوها من معظم قارات العالم ولم تبخل عليهم بالخبرة والعلم عندما عنّ لهم بناء بيت جديد.

كان قرار التخلص من «مير» صعبا على المشاعر الوطنية الروسية، وعندما حان الوقت المحدد في فجر الثالث والعشرين من مارس ٢٠٠١ وبدأ العد التنازلي لإسقاطها، أشعلت المحطة الأرضية محركا صاروخيا صغيرا متصلا بها فدفعها بعيدا عن مدارها، وتركها تهوى صوب الأرض وتتمزق وتحترق وتتحول إلى شظايا ورماد أخذته الرياح ونثرته فوق مياه المحيط الواسع.■

المراجع:

1. Fred Guterl, "Mir: A Falling Star" Newsweek, March 19, 2001, p. 44-47.
2. Erick Check, "Space Station: Craters Ahead", Newsweek, March 19, p.48-49.
3. Frank Sietzer Jr., "Mir: Resting in peace", Aerospace America, May 2001, p.36-43.
4. Roald Z. Sageev, "Farewell to a cold warriop: Mir Station Obituary", The Planetary Report, March/April 2001, p.4-7.
5. Steven J. Isakowitz, "International Reference Guide to Space Launch Systems", AIAA, 1992.

كتاب الزاوية

من أشعار ناظم حكمت

نصائح إلى مرشحى السجون

انظر إلى وجهك بعد كل حلاقة.
انس عمرك،
احترس من القمل،
ومن نسمات أمسيات الربيع الباردة،
احرص أيضاً
على تناول حصتك من الخبز حتى اللقمة الأخيرة،
واحذر من نسيان الضحك ملء الفم...
من يدرى؟
قد تقلع المرأة التى تحبها عن حبك،
لا تستهن بالأمر!
فتلك مسألة جادة تحدث لدى السجين
شعوراً كما لو أن غصناً أخضر قد قصف.
سيئ أن تحلم بالورد والبساتين وأنت فى الداخل،
جيّد أن تحلم بالغابات والبحار الصاخبة.
أوصيك بالقراءة والكتابة على الدوام
إضافة إلى تعلم الحياكة،
وصب المرايا.
ليس مستحيلاً أن تقضى فى السجن
عشراً من السنين، خمس عشرة.. وأكثر
ذلك ممكن شريطة:
ألا تسودّ تلك الجوهرة النائمة تحت ثديك الأيسر!

آيار ١٩٤٩

مصر

كيف تغادر بوابة العالم الثالث؟

أحمد زويل

مع كل الميزات والمواهب والموارد الموجودة فى مصر فإننى أتساءل: ما الذى نفتقده. إن بلاداً أخرى مثل الهند وكوريا الجنوبية والصين أظهرت تقدماً عظيماً فى بعض المجالات فلماذا لا يحدث الأمر ذاته مع مصر؟!



عندما غادرت مصر فى الثالثة والعشرين من عمرى، كنت مدركًا تمامًا مدى تأثيرها على قيمى الأسرية والتعليمية، لكنى لم أكن مدركًا تمامًا لمدى مساهماتها فى حضارة العالم، ثم عرفت أنه فى كل مجال من مجالات المعرفة تقريبًا، يتعلم الأطفال فى الغرب حضارة مصر القديمة مزودة برسوم عن أفضل الأعمال المعمارية وتحديدًا الأهرامات ومنارة الإسكندرية القديمة وهما اثنتان من عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم.. وخلال تاريخها المكتوب الذى يزيد على ستة آلاف عام عاشت مصر استمرارية ممزوجة بثقافات وديانات مختلفة، فمن الأسر الفرعونية إلى عصر البطالمة ثم العصرين الرومانى والمسيحى إلى الثقافتين الإسلامية العربية والقبطية حاليًا إضافة إلى الثقافات التى خبرتها مصر نتيجة حملات الغزو والاستعمار على أيدى قوى أجنبية.

وقبل فترة قصيرة، كنت أقرأ فى سلسلة من الكتب العلمية مع أطفالى واكتشفت أنه فى كل موضوع قرأناه، سواء كان الضوء أو الزمن أو المادة أو الكيمياء أو الورق أو اللغة أو الفنون أو الدين، كان يرد اسم مصر أولاً بين الدول التى ساهمت فى تعريف العالم بهذه الموضوعات.

الموقف الآن مختلف. مصر لديها من السكان حوالى ٧٠ مليون نسمة ومواردها محدودة، وهى تعتبر من الدول النامية التى يسميها البعض «العالم الثالث»، وهو مصطلح لا أجده مناسبًا ولذلك سألت نفسى: ماذا حدث للمصريين؟ لماذا لا تكون مصر دولة متقدمة؟ وبالنظر إلى أن مكانة الأمم فى صعود وهبوط عبر الزمن فإننى أتساءل: هل تستعيد مصر مجد أيامها الخوالى؟ ثم ما هو مستقبل مصر؟

ولأسباب مختلفة، فإننى أسأل نفس الأسئلة عن الثقافة الأمريكية: وبعد أن أمضيت أكثر من ٣٠ عامًا فى الولايات المتحدة فإننى أقدّر تمامًا نواحى القوة فى الأمة الأمريكية كالشخصية الشابة والانفتاح والمؤسسات الديمقراطية التى تضمن الحرية والاحترام للشعب الأمريكى، كما أقدر الإنجازات الأمريكية فى العلم والتكنولوجيا وفى خلق فرص جديدة للشباب. أمريكا هى بلد الفرص. لكنى أتساءل: هل تستطيع الولايات المتحدة الحفاظ على دورها القيادى فى عالم معقد ومتفاعل؟ وهل تستطيع الحفاظ على هيكل اجتماعى متوازن مع استمرار مؤسسات النخبة فى الوقت نفسه؟ وهل يمكن أن يستمر تفوقها مع نظام التعليم الحالى؟ كما أتساءل: لماذا هذا العنف داخل أمريكا والكراهية لها من الخارج؟

وبالنسبة لكلتا الثقافتين المصرية والأمريكية.. هناك أسئلة معقدة وصعبة، وأعتقد أننى فى وضع يسمح لى بأن أتعامل مع هذه المسألة على الأقل لكونى شخصًا يأمل الخير فى هاتين الثقافتين وأن خبراتى فى كلتا الثقافتين مهمة فى تحليل وتشريح المشاكل التى تواجههما.

ترجمة بتصرف من:
Voyage Through Time.. Walks of Life to The Noble Prize
(رحلة عبر الزمن)
Ahmed Zuwail
The AUC Press, Cairo, New York, 2002

إن مصر لديها الموارد البشرية والتاريخ واحترام العالم ولكن هناك شيئًا أهم وهو حب المصريين لمصر، الأمر الذى يجعل إيمانى بقدرات وإمكانيات مصر أقوى. إن المصريين يتجادلون ويتبادلون النكات حول بلدهم وزعمائهم، لكنهم حساسون بل وعاطفيون عندما يتعلق الأمر بالهجوم عليها. وهم يقدرون قيمة التعليم والإنجازات العلمية والثقافية. وقد خبرت ذلك عندما رأيت مصر كلها تحتفل بمنحى جائزة نوبل وقلادة النيل، وحتى قبل ذلك كان المصريون على علم ببعض اكتشافاتى العلمية.

ومع كل الميزات والمواهب والموارد الموجودة فى مصر فإننى أتساءل: ما الذى نفتقده؟ إن بلادًا أخرى مثل الهند وكوريا الجنوبية والصين أظهرت تقدمًا عظيمًا فى بعض المجالات فلماذا لم يحدث الأمر ذاته مع مصر؟ ثم إن مصر واليابان بدأتا نهضتهما الحديثة معًا حوالى عام ١٨٧٩ والآن فإن اليابان جزء من العالم المتقدم بعكس مصر. إن من الواضح أنه ليست هناك أسباب جينية تمنع مصر من تحقيق تلك المكانة، لكن هناك كلمة واحدة ربما تقول كل الكلام، وهى النظام، فقد كان لدى الألمان الشرقيين نفس التركيبة الجينية والثقافية التى لدى الألمان الغربيين لكن الألمان الشرقيين لم يتوسعوا فى السوق العالمية بالقدر الذى فعله الألمان الغربيون بسبب النظام الذى كان يحكم حياة الناس وعملهم. والحقيقة نفسها تنطبق على الكوريتين الشمالية والجنوبية.

إن لمصر موقعًا فريدًا يمكّنها من التقدم للأمام فهى زعيمة للعالم الإسلامى وهى بلد الأزهر الشريف، كما أنها تفتخر بتراثها المسيحى الغنى والكنيسة القبطية اليوم جزء من الثقافة المصرية. كما أن مصر هى أكبر دولة عربية من حيث السكان لكن قوتها تتجاوز مسألة السكان والعرب يعتبرونها مركز الثقافة العربية والمسرح والفنون والسينما وبرامج التليفزيون، هذه المكانة الفريدة مع الانفتاح على العالم إضافة إلى كونها مهد إحدى أقدم الحضارات تجعل مصر حالة خاصة مميزة.

لقد اعتمدت مصر فى دخلها خلال السنوات الأخيرة على السياحة وقناة السويس وعائدات البترول وأيضًا عائدات المصريين العاملين بالخارج خاصة فى العالم العربى، ولكن مع إمكاناتها الهائلة كان على مصر أن تتخطى هذه الموارد الطبيعية وتدخل عالم التكنولوجيا والعلم وتستعيد بعضًا من مجدها الغابر.

وأرى أن الوصفة التالية تمثل مخرجًا من الموقف الحالى للتوجه إلى مستقبل جديد، وأنا أقدم «قائمة الأمنيات» تلك ليس من باب النقد ولكن رغبة منى فى أن يستعيد بلدى الأم موقعه الصحيح بين أمم العالم المتقدمة، وآمل أنه بدلاً من اتخاذ موقف دفاعى تجاه تلك الأفكار أن نبدأ بشكل علمى فى دراسة مدى فائدتها أو عدم قدرتها على التطبيق، ولكن بغض النظر عما سنفعله فإن التغيير مطلوب. وقد بذل الرئيس مبارك كل ما فى وسعه لبناء

البنية الأساسية لمصر وحان الوقت للانتقال إلى العالم المتقدم. وأنا متفائل بطبيعي وأعتقد أن ذلك يمكن أن يتم.

إنني أرى ثلاث ركائز تشكل مثلث التغيير في مصر وهي التعليم والبيروقراطية والقانون. وإذا ما تم تحديد هذا المثلث بوضوح، فإن الناس ستدعم تمامًا محاولات بناء مستقبل زاهر لمصر. إن الأولويات يجب أن تكون واضحة: أولاً: الاستثمار في المستقبل يجب أن يركز على خلق نظام تعليمي عملي على مستوى عالمي والاهتمام بالتراث الوطني مثل الآثار التاريخية وبالتغيرات البيئية والمناخية. ثانيًا: إقامة اقتصاد قوى وزيادة الناتج المحلي الإجمالي ممكن فقط إذا ما تم إحداث تغييرات سوف أذكرها لاحقاً. ثالثًا: الأمن القوى يجب أن يشمل، إضافة إلى الدفاع عن البلاد، أمرين على نفس القدر من المساواة وهما الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط، وحماية النيل وموارد المياه. وهذه الأولويات لا يجب أن تكون مثار اتفاق القليلين ولكن لابد أن يتقاسمها المواطنون إجمالاً.

كل من أقابله في مصر يتحدث عن الحاجة إلى نظام تعليمي جديد لكن الصورة تبدو مشوشة ويكون التساؤل لماذا وكيف؟ وربما تبدو الإجابة على لماذا أكثر وضوحًا من كيف إن خلق نظام تعليمي على مستوى عالمي يتطلب دراسة النظام الحالي بالتفصيل لكني أرى أن التغيير مطلوب بإلحاح بالنظر إلى مستوى خريجي الجامعات ومهارات العمل وأخلاقيات الطلاب.

إن إدخال مفاهيم مثل فريق العمل والثقة في قدرة الشخص، وغياب الفهلوة. كما أن قيم العمل تتطلب أسلوبًا جديدًا للتعليم ومناهج جديدة تستهدف تقديم توليفة حقيقية من هذه القيم. وبالطبع لا يمكن تحقيق هذه الأهداف من أجل التنافس مع الدول المتقدمة بينما نسبة الأمية لاتزال تقترب من ٥٠٪.

ومن الضروري أن تغير مصر نظامها التعليمي الحالي إلى نظام أساسه الكفاءة واستخراج أفضل ما في الطلاب وتوفير مكان في الجامعة لمن يستحق أن يدخلها. ومصاريف التعليم لابد أن تتحملها الأسر القادرة على أن تدفع وأن يتم إعفاء الطلاب غير القادرين الذين يحرزون درجات عالية. كما أنه من الضروري زيادة عدد المدارس الفنية وكذلك قدرة هذه المدارس من أجل بناء قاعدة فنية في كل القطاعات بمصر.

وعلى مستوى الدراسات العليا بالجامعات، أعتقد أنه لا مخرج سوى إقامة بعض مراكز الامتياز. وهذا ليس رفاهية ومن الضروري تحقيق ذلك لكي تنافس مصر عالمياً وتنمي مكانتها الوطنية تمامًا مثلما فعل الألمان مع معاهد ماكس بلانك والفرنسيون مع الكوليج دوفرانس والولايات المتحدة مع معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا «إم.آي.تي» وإسرائيل مع معهد وايزمان وتكنون والهند مع المعاهد الهندية للتكنولوجيا وقد كنت ومازلت مستعداً للمساعدة في هذا المسعى.

البيروقراطية هي الركيزة الثانية في المثلث، وبعض البيروقراطية ضرورة في أي نظام ولكن عندما يتدخل الروتين في شئون الناس ويمنع استقلالية التفكير فإنه من المحتم تنفيذ أفكار تقدمية ذات رؤية في هذا الصدد. إن الديمقراطيات على النمط الغربي ليست الطريق الوحيد للحكم لكن من الواضح بالنسبة لي أن الانتفاع بالموارد البشرية في عمل جماعي يتطلب عملية ديمقراطية هي بالأساس مناهضة للبيروقراطية. وأعتقد أن الحد من البيروقراطية أمر حاسم لتحقيق أي تقدم اقتصادي أو ثقافي كبير.

لقد كانت لي تجربة مباشرة مع جامعة العلوم والتكنولوجيا ومشروعات أخرى في مصر وظهر لي كيف تستطيع البيروقراطية و«قوة الكرسي» - أو بمعنى أكثر دقة قوة المنصب - إعاقة أي تقدم حقيقي. فقد وافق الرئيس مبارك بحماس على فكرة جامعة العلوم والتكنولوجيا لأنه يرى أن مصر لن تكون قادرة على المشاركة في العولمة مالم تتكافأ تكنولوجياً وعلمياً مع بقية العالم. وهذا يعني ضرورة أن يجد العلماء الشباب عملاً بحثياً منتجًا وفعالاً في مصر وإلا يضطرون لمغادرة مصر لكي يحلموا بالمشاركة بشكل أكبر في الإنجازات العلمية والتكنولوجية.

ورغم أن أوامر واضحة صدرت فيما يتعلق بجامعة العلوم والتكنولوجيا، إلا أن التنفيذ البطيء للخطة كان كافيًا بشعور أي شخص جاد لديه التزامات ومطالب محددة فيما يتعلق بالوقت، بالإحباط. لقد بدأ المشروع في أول يناير عام ٢٠٠٠ في مدينة السادس من أكتوبر على مشارف القاهرة من أجل بناء حرم جامعي على مساحة حوالي ٣٠٠ فدان وقد استكملت إقامة الهياكل الأكاديمية والإدارية ولدىَّ إيمان قوى بأن الجامعة لكي تنجح لابد أن تكون منظمة غير حكومية غير هادفة للربح. ويجب أن يكون لها قانونها الداخلي الخاص بها وتمويل. ومجلس للأمناء مؤلف من شخصيات بارزة من مصر والعالم، لكن حملة جمع التبرعات لهذا التمويل أو «الوقف» لا يمكن أن تبدأ بدون دعم عملي وقانون يصدر في توقيت مناسب لتحقيق ذلك. والبيروقراطية ليس لديها أي اهتمام بالوقت، إن هناك خطة في ميثاق جامعة العلوم والتكنولوجيا لإقامة وادي تكنولوجيا يساعد مصر في التكنولوجيا المتقدمة وفي جلب صناعات التكنولوجية الفائقة.

الركيزة الأخيرة لمثلث التغيير في مصر هي القانون. إن مصر تمتلك نظامًا قضائياً قوياً وقوانين واضحة لكن المشكلة في تنفيذ تلك القوانين. وهناك حالات يتحايل فيها الأفراد على القانون ابتداء من المخالفات المرورية وحتى التورط في عمليات فساد بمليارات الدولارات. وهذا أمر خطير ليس فقط بسبب تأثيره على المواطنين ولكن أيضًا لدوره السلبي في جذب المستثمرين الأجانب. ومصر بحاجة لتعديل النظام القانوني وتطبيق القانون على كل مواطن دون واسطة أو بقشيش.

هذه المشاكل التي أوضحتها ليست مقصورة على مصر فقط بل هي موجودة في العالم العربي. وفي بعض دول العالم النامي وحتى في الدول العربية الغنية بالبترول، هناك حاجة لتغيير نظم العمل فالأموال وحدها لا يمكن أن تبني أمة متقدمة. ورغم تحقيق تقدم في هذه الدول العربية الغنية إلا أنها لم تصبح في مصاف الدول المتقدمة. وعلاوة على ذلك، ليست هناك روابط اقتصادية قوية بين دول العالم العربي بالمقارنة بالدول الأوروبية.

وما لم تتحقق وحدة عربية في شكل سوق مشتركة فإنني لا أرى أي تأثير للموارد العربية في الأسواق العالمية. إن هناك بعض الوحدة في التبادل الثقافي والترفيه، لكن من الضروري تقوية الاستثمار الاقتصادي والعلمي بين الدول العربية بشكل جزئي من خلال الجامعة العربية.

من ناحيتها، تواجه أمريكا مشكلات من نوع آخر وأيضًا تحديات جديدة والأسئلة هنا مختلفة عما سبق. إن الولايات المتحدة تطبق القانون على الجميع من مخالفات المرور حتى فرض الضرائب والناس سواسية أمام القانون، ومع ذلك فإنني عندما أزور عديدًا من الدول يبادرني البعض بالقول: في أمريكا إذا كان لديك مال يمكنك أن تشترى القانون ويشير كثيرون إلى قضية أو.جي.سيمبسون نجم كرة القدم الأمريكية السابق كمثال شهير لذلك، فالكثيرون يعتقدون أنه قتل زوجته السابقة لكنه استأجر فريقًا من المحامين البارعين الذين نجحوا في إقناع المحلفين بأنه برىء. وأعتقد أنه في النظام الرأسمالي تلعب الثروة دورًا مهماً حيث يمكنك استئجار أفضل المحامين ويمكنك أن تشترى «راحتك» في المجتمع لكنى أعتقد أيضًا أن ذلك يحدث في كل مكان ومن السذاجة الاعتقاد بأن الديمقراطية نظام مثالي بشكل مطلق.

أمريكا أيضًا لديها مؤسسات تعليمية تجتذب الكثيرين من أنحاء العالم ورغم أن الأمريكي العادي لا يتعلم الكثير بشأن بقية العالم إلا أن وجود معاهد وكليات صفوة ونظام مدرسي ذي قاعدة واسعة يجعل المجتمع قادرًا على التقدم وتحقيق أعلى معدلات الناتج المحلي الإجمالي في العالم. كما أن البيروقراطية الأمريكية في حدودها الدنيا والنظام الأمريكي يؤمن باستقامة الفرد إلى أن يثبت العكس، وهذا لا يعني أن كل شيء في أمريكا على ما يرام ولكن ما أريد قوله هو أنه لابد من الحذر فيما يتعلق بالتعميم بدون معرفة أسس المجتمع الأمريكي.

وإذا كان الأمر كما سبق فلماذا أبدو قلقًا على مستقبل أمريكا.. إن هناك ثلاث مشاكل تدور في ذهني في هذا الصدد وهي التعليم والبحث ثم العنف وأخيرًا النظرة الضيقة للعالم.

وبالنسبة للتعليم والبحث، فإنك في الولايات المتحدة يمكنك أن تجد أفضل تعليم ممكن لكنه ليس متاحًا لغالبية المواطنين، كما أن الولايات المتحدة بدأت تتخفف من جهودها لجعل العلم جزءًا من تعليم كل شخص غنيًا كان أم فقيرًا، وهي حاليًا في المركز السابع عشر فيما يتعلق باختبارات الرياضيات بالنسبة للمدارس الثانوية على مستوى العالم. وجزء من المشكلة يتعلق بالنظام التعليمي، فالمدارس الخاصة تقدم لتلاميذها تعليمًا راقيًا يمكنهم من تعلم المهارات الأساسية والتفوق في عالم التكنولوجيا الحديثة بعكس بعض المدارس العامة التي تفتقر للموارد والمدرسين الأكفاء ويخرج التلاميذ من هذه المدارس وهم غير قادرين على مواجهة العالم الحديث.

هناك مشكلة أيضًا تتعلق بموقف بعض الأمريكيين من العلم، فهم على أساس ديني يرفضون بعض النظريات العلمية وهذا ليس مقصورًا على أمريكا فقط. ومازال بعض الآباء حتى الآن يرفضون أن يتعلم أبناؤهم نظرية النشوء والتطور لداروين. إن الناس مسموح لهم بالإيمان بما يرغبون لأن الدستور الأمريكي يفصل بين الكنيسة والدولة ولكن المدرسين أيضًا يجب أن يقوموا بتدريس العلم دون خجل أو تأنيب ضمير.

البحث العلمي مسألة أخرى مهمة حيث إن الدعم المالي لهذا البحث لا يتناسب مع دولة عظمى وهذا مصدر قلقي. فقد تناقص تمويل الأبحاث بشكل كبير.

المشكلة الثانية التي آمل أن تعالجها أمريكا فورًا ودون إبطاء ذات علاقة أيضًا بالتعليم وهي العنف الذي أصبح - سواء كان ذلك في المدارس أو الشوارع، ظاهرة مقلقة لملايين الأسر. إنني أعيش في واحدة من أفضل المناطق في لوس أنجلوس لكني أخشى أن أسير فيها ليلاً.

والبعض يعتقد أن أصول العنف تكمن في التعدد العرقي في المجتمع الأمريكي أو في امتعاض الفقراء من الأغنياء، ولا أعتقد أن هذين فقط هما السببان الحقيقيان خاصة أن أغلبية المجتمع تنتمي للطبقة المتوسطة. ثم إن هناك تعددًا عرقيًا في كندا وعديد من المدن الأوروبية، كما أنه في القاهرة مثلاً فإن الفقراء مدركون للفجوة بينهم وبين الأغنياء لكني أستطيع أن أسير في تلك الأماكن دون الخوف من العنف. وأعتقد أن المسألة متعلقة بالفوضى الاجتماعية وعدم السيطرة على امتلاك الأسلحة ولابد من تعديل قانوني يجعل العقوبة تناسب الجريمة.

المشكلة الثالثة: في أمريكا من وجهة نظري.. النظرة الأمريكية الضيقة للعالم وهو ما يظهر في الانطباع عن أن التعامل الأمريكي مع العالم سطحي ومتغطرس. وبينما أكتب هذا الكتاب فإن الخوف من الإرهاب محلياً وعالمياً يجتاح العالم ولابد أن تلعب أمريكا دورًا في مكافحة الإرهاب الدولي وفي نفس الوقت في العمل على احترام حقوق الإنسان وتضييق الفجوة بين الأغنياء والفقراء.. والمطلوب رؤية جديدة لا تنبع من بناء الدرع الصاروخي أو السياسات الانعزالية ولكن من بناء الجسور بين البشر والثقافات والأمم والأساس في تلك الرؤية عدم تجاهل هؤلاء الذين لا يملكون أو هؤلاء الذين يشعرون بالإحباط في بعض أجزاء من العالم. إن الفقر واليأس مصدران للإرهاب وزعزعة النظام العالمي.

إن العالم أصبح أكثر اعتمادًا على بعضه البعض. وقد ذاقت الثقافتان المصرية والأمريكية ثمار إنجازات عظيمة في تاريخهما، وآمل أن يكون الحصاد للقرن الجديد والألفية الجديدة سخياً لكل منهما وأن تنهض مصر من جديد وتنتهج الولايات المتحدة منظورًا جديداً في قيادتها للعالم. لقد قلت مرات عديدة أنني متفائل. ■

إنني أرى ثلاث ركائز تشكل مثلث التغيير في مصر وهي التعليم والبيروقراطية والقانون. وإذا ما تم تحديد هذا المثلث بوضوح، فإن الناس ستدعم تمامًا محاولات بناء مستقبل زاهر لمصر

مـــــاذا حـــــدث للثقـــــافـة

جـــــلال أمـــــين

[١]

■ ■ في سنة ١٩٥٥، أى منذ أقل قليلاً من نصف قرن، صدر في مصر كتاب مهم يحمل نفس عنوان هذا المقال «فى الثقافة المصرية» للأستاذين عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم. وقد أحدث ظهور هذا الكتاب دوياً واسع النطاق واهتم به المثقفون فى مصر والعالم العربى اهتماماً شديداً، إما بالتأييد أو بالمعارضة، وظل لفترة طويلة محل تعليق ونقد، إيجاباً وسلباً، وقد كان يستحق بالفعل هذا الاهتمام كما أنه بلاشك علاقة مهمة فى مسار الثقافة المصرية.

ذلك أنه مهما كان ما يمكن أن يوجه إلى هذا الكتاب من نقد أو تحفظ على هذه الملاحظة أو تلك، وما قد يعتبر فى أسلوب بعض فصوله من حدة أو قسوة زائدة على بعض الكتّاب المصريين الكبار، فقد كان الموقف الذى عبّر عنه الكتاب موقفاً جريئاً وضرورياً، ويعكس شعوراً قوياً كان قد بدأ يتراكم لدى قطاع واسع ومتزايد الحجم من المثقفين المصريين بالسخط على سمة معينة من سمات المناخ الثقافى السائد وقت ظهور الكتاب هى التى ركز عليها الكتاب وسلط عليها الضوء كله وأشبعها نقداً وتفنيداً. هذه السمة هى الانحياز الطبقى الغالب على الثقافة المصرية فى ذلك الوقت، بما تضمنه من تجاهل وإغفال شبه تام لحاجات ومشاعر ومطامح الغالبية العظمى من الشعب المصرى، وهى الغالبية الفقيرة والمظلومة اجتماعياً واقتصادياً.

كانت الملاحظة صحيحة، وإثارتها فى ذلك الوقت مطلوبة وواجبة، ولكن المناخ العام كان أيضاً ملائماً لاستقبال هذه الصيحة وهذا التنبيه. كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ قد قامت قبل ثلاث سنوات من ظهور الكتاب، وكان أحد دواعى هذه الثورة، كما كان أحد أهدافها المعلنة، يتعلقان بهذه القضية بالضبط: الالتفات إلى حاجات الغالبية العظمى من المصريين والنهوض بأحوالهم الاقتصادية، ووضع حد لما كانوا يتعرضون له من ظلم اجتماعى، أى إنهاء الانحياز الطبقى للنظام السياسى والاجتماعى المصرى، وها هما كاتبان شابان من ذوى الحمية والوطنية والحماسة، ينشران كتاباً يناديان فيه بنفس الشيء فى ميدان الثقافة.

ثم مرت الأعوام، وما أكثر ما شهدته مصر من أحداث وتقلبات فى السياسة والاقتصاد والثقافة فى الخمسين سنة التالية، فإذا بنا، وقد شهدنا نهاية القرن وبدأنا الألفية الجديدة، نجد المنظر العام للثقافة المصرية لا يكاد يشبه فى شيء ما كان عليه قبل خمسين عاماً، وكان من عاش بمصر فى ١٩٥٥ وعلم ما كان عليه حال الثقافة فى تلك الأيام، يكاد يستحيل عليه أن يتعرف على ما يراه من حالها اليوم. المشاكل القديمة جرى حلها، أو على الأقل اتخذت صورة مختلفة تماماً بما كانت عليه فى ١٩٥٥، ولكن مشاكل جديدة أخطر وأفدح ظهرت على السطح، مما قد يحتاج إلى أسلوب أشد حدة بكثير من الأسلوب الذى اتخذه عبدالعظيم أنيس ومحمود العالم منذ نصف قرن.

ووصف ما يحدث الآن فى الساحة الثقافية فى مصر ليس أبداً بالأمر السهل، فالظواهر معقدة ومتشابكة، وجذورها متداخلة لا يعرف أولها من آخرها، والأمراض كثيرة مضى على نشوئها وقت طويل حتى لا يكاد أن يكون من الممكن تحديد تاريخ الإصابة الأولى، ومضاعفاتها كثيرة يصعب رد كل منها إلى أصله وسببه، والمسئولية عن هذه الأمراض موزعة على كثيرين ينتمون إلى عصور مختلفة، بعضهم رأسمالى، وبعضهم اشتراكى، ومنهم المصرى ومنهم الأجنبى، كما أن منهم صانعى الثقافة أنفسهم ومنهم مستهلكوها الذين فرضوا أذواقهم ورغباتهم على صانعى الثقافة.

أياً كان الأمر، فإن من المؤكد أن المشكلة الأساسية لم تعد هى «طبقية الثقافة» بل هى شيء مختلف تماماً. صحيح أن المشاكل الثقافية كلها لها بُعد اجتماعى واقتصادى واضح، ووثيقة الصلة بالتطورات الطبقية التى شهدها المجتمع المصرى خلال الخمسين عاماً الماضية، ولكن من المؤكد مع ذلك أن المشكلة الثقافية الأولى لم تعد الآن، كما كانت أيام ظهور كتاب أنيس والعالم، مشكلة كتّاب وأدباء يعبرون عن انحيازات طبقية تتجاهل أو تتعارض مع مصالح غالبية الشعب المصرى من الفقراء، بل إن تصوير المناخ الثقافى المصرى الحالى على أنه فى الأساس نتيجة لمجرد انحيازات ومصالح طبقية يبعد بنا عن الحقيقة أكثر مما يقرّبنا منها. فما هى السمات الأساسية إذن للمناخ الثقافى السائد الآن فى مصر؟ وما هى أوجه الفساد الحقيقية فيه؟

أظن أن القصة جديرة بأن تُروى من أولها، بل حتى من قبل ١٩٥٥ بكثير، إذ إن من الممكن أن نلاحظ نمطاً معيناً، يكاد أن يكون قانوناً، خضع له تطور الثقافة المصرية خلال المائة عام الأخيرة كلها، بل ومنذ ظهور الروّاد الأوائل للنهضة الثقافية المصرية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. هذا النمط الذى اتخذه مسار الثقافة المصرية وتقلباته، وثيق الصلة - فيما يبدو لى - بمسار الطبقة الوسطى المصرية وما طرأ على حجمها وخصائصها من تطورات.

[٢]

دعنا نتفق من البداية على أن من أهم ما يحدد سمات المناخ الثقافى لمجتمع ما فى وقت معين هو سمات الطبقة الوسطى منه، وأن هذه المقولة ممكن القول بانطباقها بشكل عام على المجتمع المصرى مثلما تنطبق على غيره. إذ إنها مقولة تبدو منطقية تماماً حتى لتكاد أن تكون بديهية.

ذلك أن الطبقة الوسطى هى فى الأساس الطبقة المنتجة للثقافة (بالمعنى الضيق للثقافة الذى أتبناه فى هذا المقال، أى بمعنى الإنتاج الفكرى والفنى وليس بالمعنى الواسع الذى يشمل أيضاً أنماط السلوك والقيم والعادات)، كما أنها فى الأساس الطبقة المستهلكة للثقافة. فالطبقة الدنيا فى أى مجتمع، يحول مستوى تعليمها ومستوى دخلها على السواء دون أن تلعب دوراً مهماً فى إنتاج الثقافة أو استهلاكها. أما الطبقات العليا فمشكلتها كمنتجة أو كمستهلكة للثقافة ليست فى مستوى التعليم أو الدخل بل تتمثل فى أمرين: الأول هو انخفاض حجمها كنسبة من إجمالى السكان، مما يقلل من دورها كمنتج ومستهلك للثقافة، والثانى هو افتقادها لدافع نفسى قوى لإثبات الذات، فأفرادها من حيث كونهم محظوظين اقتصادياً واجتماعياً لا يجدون فى أنفسهم الحافز القوى لإثبات تفوقهم لا فى ميدان تحصيل الثقافة (الاستهلاك) ولا فى ميدان القدرة على المساهمة فيها (الإنتاج). فإن قاموا بإنتاج الثقافة أو استهلاكها فالأغلب أن يكون ذلك على نحو عابر، ومن باب التسلية أو الترفيه، بينما تتوفر حوافز أخرى أكثر قوة لدى أفراد الطبقة الوسطى الحريصين دوماً على الترقى والصعود، إما للحاق بمن فوقهم أو لتمييز أنفسهم عمن هم دونهم، أو لحرصهم أكثر من غيرهم على تغيير المجتمع إلى الأفضل.

هناك بالطبع استثناءات، إذ قد نجد فى تاريخ العالم، وكذلك فى التاريخ المصرى، بعض المنتجين الكبار للثقافة ممن ينتمون إلى الأرستقراطية أو إلى الطبقات الدنيا، ولكن يظل هذا دائماً استثناء محدوداً للغاية. نعم، ما أكثر الأمثلة لكتّاب ومفكرين وفنانين أوروبيين (خاصة قبل القرن التاسع عشر) احتاجوا بشدة إلى رعاية الأرستقراطية ودعمها وحمايتها، ولكن الأرستقراطية الأوروبية نفسها نادراً ما أنتجت مفكرين أو فنانين أو كتّاباً مهمين. والملاحظة تنطبق أيضاً على مصر خلال القرنين الماضيين، إذ نادراً ما أنتجت الطبقة العليا فى مصر منتجين كباراً للثقافة.

هذه الحقيقة هى أقرب إلى البديهيات، مما لا يكاد يحتاج إلى تدليل، ولكن من الصحيح أيضاً، وإن كان أقل وضوحاً، أن الطبقة الوسطى لا تحمل دائماً نفس الخصائص والسمات، بل قد تتغير خصائصها وسماتها من مجتمع لآخر ومن عصر إلى آخر. إننا كثيراً ما نسمع أو نقرأ كلاماً يكيل الثناء للطبقة الوسطى، بوجه عام، باعتبارها حاملة لواء التقدم، أو المنوطة بتحقيق التنمية الاقتصادية، أو الحارسة للديمقراطية.. إلخ ولكن الأرجح أن هذا الإفراط فى الإعجاب وتعليق الآمال على الطبقة الوسطى منبعهما ميل خاطئ إلى تعميم التجربة الأوروبية على المجتمعات الأخرى والظن بأن السمات التى طبعت الطبقة الوسطى فى أوروبا، فى نشوئها وتطورها ابتداء من القرن أو القرنين السابقين على الثورة الصناعية، وحتى اكتمال هذه الثورة، هى نفسها بالضرورة سمات الطبقة الوسطى التى نمت بسرعة فى بلادنا (وأكثر بلاد العالم الثالث الأخرى) خلال نصف القرن الماضى، ولكن الحقيقة - فيما يبدو لى - هى أن الطبقة الوسطى يمكن أن تلعب دوراً إيجابياً فى ازدهار ثقافة أمة من الأمم، وفى نهضتها بوجه عام، ويكون لها من السمات والخصائص ما يستحق التقدير والإعجاب، بينما قد تلعب الطبقة الوسطى فى أمة أخرى، أو فى ظروف مغايرة، دوراً غير حميد فى تطور الثقافة ومعطّل للنهضة.

يمكن تفسير ذلك بأن سمات وخصائص الطبقة الوسطى تتأثر إلى حد بعيد بعاملين أساسيين، الأول هو طبيعة المصدر الأساسى لدخل هذه الطبقة وثروتها، والثانى هو درجة السرعة التى تجرى بها زيادة هذا الدخل وهذه الثروة. أما مصدر الدخل والثروة فقد يكون عملاً

وصف ما يحدث الآن فى الساحة الثقافية فى مصر ليس أبداً بالأمر السهل، فالظواهر معقدة ومتشابكة، وجذورها متداخلة لا يعرف أولها من آخرها، والأمراض كثيرة، مضى على نشوئها وقت طويل حتى لا يكاد أن يكون من الممكن تحديد تاريخ الإصابة الأولى

فى الثقافة المصرية
عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم
بيروت - دار الفكر الجديد - ١٩٥٥

المصـــــرية فـى نصـــــف قـــــرن

١٩٥٢ - ٢٠٠٢



منتجًا. كالاشتغال بالزراعة أو الصناعة أو بعض أنواع التجارة أو ممارسة مهنة كالمحاماة أو الطب أو التدريس أو حرفة كالنجارة أو السباكة، ولكن مصدر الدخل والثروة يمكن أيضًا أن يكون عملاً غير منتج كأعمال السمسرة أو المضاربة وبعض أصناف التجارة كما قد يكون عملاً غير أخلاقي وغير مشروع كالرشوة وتلقي العمولات أو الإتجار في المخدرات أو تهريب السلع.. إلخ.

وأما السرعة التي تجرى بها زيادة الدخل وتكوين الثروة فهي ليست إلا تعبيرًا آخر عن معدل الحراك الاجتماعي. فانتقال الشخص من الطبقة الدنيا إلى الطبقة الوسطى مثلاً قد يتم عبر فترة طويلة تستغرق معظم حياة هذا الشخص، وهو ما يحدث عادة إذا كان سبب هذا الانتقال هو التعليم أو الاشتغال في الصناعة أو التجارة في ظروف مستقرة نسبياً. ولكن زيادة الدخل وتراكم الثروة قد يحدثان أيضاً بين يوم وليلة، وعلى الأخص في فترات التضخم الجامح الذي قد يسمح بتحول الحرفي البسيط إلى مليونير إذا مارس في نفس الوقت عملاً ناجحًا في مجال المضاربة، أو استطاع أن يقتنص إحدى الفرص التي يتيحها التضخم فقام بالشراء والبيع في الوقت المناسب. قد يحدث مثل هذا أيضاً في ظروف تتيح الهجرة إلى بلاد أعلى دخلاً وأكثر فرصًا، كبلاد النفط مثلاً، أو في ظروف الحرب، أو حين يعم الفساد وتشيع الرشوة.. إلخ.

إن أفراد الطبقة الوسطى الذين يحصلون على دخلهم من الزراعة أو الصناعة أو التجارة، أو من ممارسة مهنة أو حرفة، يتسمون على الأرجح بسمات نفسية وتطلعات وقيم تختلف عن تلك التي يتسم بها أولئك الذين يحصلون على دخلهم من مصادر غير منتجة أو غير أخلاقية. كما أن هؤلاء الذين استغرق صعودهم إلى الطبقة الوسطى بضع عشرات من السنين يتسمون على الأرجح بسمات نفسية وتطلعات وقيم تختلف عن سمات وتطلعات وقيم أولئك الذين حققوا هذا الصعود في غمضة عين، وكانوا بالأمس فقط في أسفل السلم الاجتماعي.

وسوف أزعم في هذا المقال أن المناخ الثقافي في أمة من الأمم يميل إلى الازدهار في ظروف تعتمد فيها الطبقة الوسطى، أو العناصر الغالبة فيها، في الحصول على دخلها وتكوين ثرواتها على مصادر «منتجة» في الأساس، وهي مصادر لا يمكن بطبيعتها أن تسبب زيادة كبيرة مفاجئة في الدخل أو الثروة، بل تتم فيها هذه الزيادة عادة عبر فترة طويلة من الزمن. بينما يميل المناخ الثقافي إلى التدهور والانحطاط عندما تعتمد فيها الطبقة الوسطى، أو عناصر غالبة فيها، على مصادر غير منتجة أو غير مشروعة أو غير أخلاقية، لتكوين الثروات وزيادة الدخل، وهي مصادر يمكن أن تجلب هذه الزيادة في الدخل والثروة بشكل مفاجئ أو عبر فترة قصيرة جدًا من الزمن.

إن هذا الفارق بين الحالتين قد يكون هو مصدر الخطأ في قياس حالة دول العالم الثالث على حالة العالم الصناعي، من حيث سمات الطبقة الوسطى ودورها في إحداث النهضة. فنمو الطبقة الوسطى في الدول الصناعية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان نموًا أبطأ بكثير من نمو هذه الطبقة في كثير من دول العالم الثالث خلال نصف القرن الماضي. كما أن هذا النمو في الدول الصناعية كان مصدره في الأساس أعمالاً منتجة كنمو في الدخل الصناعي والزراعي وأرباح التجارة، بينما اعتمد نمو الطبقة الوسطى في دول العالم الثالث إلى درجة أكبر بكثير على «دخول ريعية»، أي دخول لا يقابلها جهد، وهي في كثير من الأحيان دخول مقابل «خدمات» قليلة الإنتاجية وكثيرًا ما تكون غير مشروعة.

لم يكن الأمر كذلك دائمًا في مصر، بل تراوح المناخ الثقافي في مصر خلال المائة عام الماضية ازدهاراً وانحطاطًا، ولكن يلفت النظر أن تعاقب الازدهار والانحطاط هذا يدعم هذه المقولة التي ذكرناها حالاً، وهي اقتران فترات الازدهار بهاتين السمتين الحميدتين في الطبقة الوسطى: الاعتماد على أعمال منتجة في الحصول على الدخل وتكوين الثروات، واستقرار اقتصادي واجتماعي نسبي يعود إلى قلة الفرص المتاحة لتكوين الثروات عبر فترة قصيرة من الزمن، بينما اقترنت فترات الانحطاط الثقافي بعكس هاتين السمتين. والذي سوف أحاوله الآن هو أن أتتبع تطور مصر الثقافي في خلال فترة تمتد إلى نحو مائة وعشرين عامًا، تبدأ ببداية الاحتلال الإنجليزي في ١٨٨٢، وتمتد إلى الآن، ومع التوسع بوجه خاص في فترة الخمسين عامًا الماضية والتي تلت ثورة يوليو ١٩٥٢، لكي أبيّن إلى أي حد يعكس التقلب في المناخ الثقافي المصري، بين الازدهار والانحطاط، ذلك التقلب في سمات الطبقة الوسطى.

[٣]

طوال العقود الثلاثة الواقعة بين بداية الاحتلال الإنجليزي لمصر وقيام الحرب العالمية الأولى (١٨٨٢ - ١٩١٤) ظلت الطبقة الوسطى في مصر صغيرة للغاية، سواء في حجمها المطلق أو حجمها النسبي في مجموع السكان، بالمقارنة بها الآن. وكان المصدران الأساسيان لدخل هذه الطبقة هما الملكية الزراعية والتعليم، فكانت هذه الطبقة إذن مدينة بوجودها إلى الاعتراف بحق الملكية الفردية للأراضي الزراعية منذ أيام الخديوي سعيد، وإلى التقدم في التعليم في عهدي محمد علي وإسماعيل. وقد كان نمو الدخل من هذين المصدرين، بحكم طبيعتهما، بطيئًا نسبيًا. ففي الظروف الاجتماعية العادية لا تقترن بحدوث تضخم جامح في الأسعار، أو بقيام حرب أو ثورة، أو بانفتاح مفاجئ على الاقتصاد العالمي، لا يزيد الدخل المتولد من الزراعة أو التعليم إلا بمعدل بطيء.

شهدت هذه الفترة شيوع مناخ رفيع المستوى في الثقافة المصرية، إذا قورن بكثير من الفترات اللاحقة أو السابقة، وسواء في ذلك المثقفون المحافظون المتمسكون بالتراث أو المجددون الداعون إلى التغريب، فكانت هذه الفترة هي التي أنتجت محمد عبده في الفقه والفكر الديني، وقاسم أمين وفرح أنطون في الفكر الاجتماعي، ومحمد المويلحي والمنفلوطي في الأدب، ومحمود سامي البارودي في الشعر، ومحمد عثمان في الموسيقى، كما شهدت محاولات ناجحة للغاية لتطوير الصحافة والمسرح. إن المرء لابد أن تعتريه دهشة شديدة إذ يقرأ عن هذه الفترة فيجد أن الشيخ محمد عبده، ذلك الفلاح المصري الذي لا يدين في صعوده الاجتماعي إلا لتعليمه وذكائه الفطري، كان يتبادل الرسائل، مع بعض من أكبر مفكري عصره، كتولوستوي مثلاً، فيعبر عن أفكار أصيلة وجريئة في نفس الوقت، بثقة عالية بالنفس وبلغة عربية رفيعة نفتقد كلاً منها بشدة في أيامنا هذه.

قد يمكن تفسير ذلك بالعاملين اللذين أشرنا إليهما من قبل، طبيعة مصادر الدخل الأساسية للطبقة الوسطى، والاستقرار النسبي في أحوال هذه الطبقة، ولكن من الممكن أيضاً أن تكون من العوامل المفسّرة لهذا المناخ الثقافي رفيع المستوى، طبيعة العلاقة بين مصر والثقافة الغربية في تلك الفترة. كان مثقفو تلك الأيام قد انفتحوا حقاً على الغرب، وشاهدوه بأعينهم، ومنهم من أقام في الغرب فترة وتأثروا به، ولكن تكوينهم الأساسي كان مصدره دائمًا التراث العربي والإسلامي، ومن ثم لم يكن من المتصور أن يفقدوا ثقتهم بهذا التراث بسهولة، بل حاولوا إصلاحه دون التضحية به، بل حتى الداعون إلى الاقتباس من الغرب إلى أبعد الحدود، مثل قاسم أمين وفرح أنطون، كانوا أكبر ثقة بأنفسهم وأكثر اعتزازًا بتراثهم من الداعين إلى التغريب في فترات لاحقة. ولكن هذا العامل المتعلق بطبيعة النظرة إلى الغرب وإلى تراث الأمة، يمكن بقليل من التأمل، أن نرى أنه ليس بعيد الصلة بالعاملين الاقتصاديين اللذين ذكرناهما حالاً: طبيعة مصادر الدخل والاستقرار النسبي في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للطبقة الوسطى.

إن شيئاً مماثلاً يمكن أن نقوله عن الفترة التالية (١٩١٤ - ١٩٣٩) أي فترة ما بين الحربين، وإن كانت هناك بالطبع بعض الفوارق المهمة. فمن حيث مصادر دخل الطبقة الوسطى فقدت الزراعة جزءًا من أهميتها بسبب ما أصاب الدخل الزراعي من تدهور بسبب الأزمة العالمية، ولكن التعليم زادت أهميته بدرجة ملحوظة كمصدر من مصادر دخل الطبقة المتوسطة. ومن ناحية أخرى أضيف مصدر جديد للدخل في مصر، لم تكن له أهمية تذكر قبل الحرب العالمية الأولى، وهو التصنيع. صحيح أن أثر الصناعة كمصدر للدخل ومولّد لفرص العمالة بقي محدودًا، ولكن لم يعد من الممكن إهمال الصناعة كمصدر لدخول وثروات الطبقة الوسطى في تلك الفترة مثلما كان هذا ممكنًا من قبل.

وباستثناء سنوات الحرب الأولى وما صاحبها من تضخم، بقي معدل النمو في الدخل، وكذلك معدل الحراك الاجتماعي (أي معدل التغير في المركز النسبي للشرائح الاجتماعية المختلفة) بطيئين، مما يسمح بالقول أن الطبقة الوسطى المصرية استمر نموها ومعدل نضجها «على نار هادئة»، طوال هذه الفترة أيضًا.



إن المرء لابد أن تعتريه دهشة شديدة إذ يقـــرأ عن هـذه الفـترة فيجـد أن الشـــيخ محمد عبده، ذلك الفلاح المصـــرى الذى لا يديـن فى صعـوده الاجتماعى إلا لتعليمـــه وذكائه الفطرى، كان يتبـادل الرسائل، مع بعض من أكـبر مفكـرى عصـــره، كتـولـوســـتوى مثـــلاً

ليس غريبًا إذن، إذا صحّ التفسير الذي نقدمه لازدهار المناخ الثقافي أو تدهوره، أن نجد أن المناخ الثقافي في مصر قد استمر رفيع المستوى خلال العشرينيات والثلاثينيات. كانت هذه الفترة هي التي شهدت الأعمال الرئيسية لطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وأحمد أمين وسلامة موسى وإبراهيم المازني.. إلخ، وازدهار الشعر المصري على يدي أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وتطوير الموسيقى المصرية على أيدي سيد درويش وزكريا أحمد والقصبجي، والمسرح المصري بجهود أمثال جورج أبيض ويوسف وهبي والريحاني، وظهور أول الأفلام المصرية التي كان بعضها بدوره رفيع المستوى ومن إنتاج سيدات مصريات مثل عزيزة أمير وفاطمة رشدي، وظهور ثورة في فن النحت على يد الفنان مختار.. إلخ.

إلى جانب الخصائص الإيجابية التي اتسم بها نمو الطبقة الوسطى في مصر في تلك الفترة يمكن أن نضيف عاملاً آخر لتفسير ازدهار الثقافة المصرية خلالها، وهو دور الحسّ الوطني القوي الذي فجّرته ثورة ١٩١٩، وكذلك استمرار علاقة صحية نسبيًا بين مثقفي هذه الفترة والثقافة الغربية. كانت الثقافة الغربية التي تأثر بها مثقفو هذه الفترة لاتزال هي الثقافة الأوروبية، في عصر كانت هذه الثقافة الأوروبية لم يفت الضعف في عضدها بعد، كما أن هؤلاء المثقفين، وإن كانوا، بصفة عامة، يبدون أقل ثقة بتراثهم الفكري والثقافي من الجيل الذي سبقهم، فإنهم ظلوا يحتفظون بدرجة عالية من الاعتزاز والاحترام إزاء هذا التراث.

في سنة ١٩١٤ أنشأ بعض النابهين من المثقفين المصريين جمعية أسموها «لجنة التأليف والترجمة والنشر» قُدّر لها أن تلعب دوراً جليلاً وباهرًا في نشر الثقافة في مختلف فروع المعرفة، في مصر والعالم العربي، خلال الفترة التي نتكلم عنها الآن، وهي فترة ما بين الحربين، ولكنها بدأت تتردى وتضعف في أعقاب الحرب الثانية، حتى أغلقت تمامًا في أواخر الخمسينيات ولم يبق منها إلا مطبعة.. كان أفراد هذه المجموعة من المثقفين ينتمون إلى مختلف التخصصات والميول والاتجاهات، ولكن كانت فيهم جميعاً هذه الصفة الواحدة المشتركة، وهي الجمع بين مستوى رفيع من المعرفة بالتراث والثقافة العربية، ومستوى عالٍ من الاطلاع على آخر تطورات العلم الغربي، كل في فرعه، هذا في الفلك وذاك في الجغرافيا أو في الكيمياء أو الفلسفة أو التاريخ أو النقد الأدبي.. إلخ. وقد أكسبتهم معرفتهم الحميمة بالتراث العربي القدرة على التعبير عن معارفهم المكتسبة من إطلاعهم على العلم الغربي، بلغة عربية جميلة، فإذا ترجموا بعض النتاج الغربي في مجال تخصصهم، أنتجوا ترجمات رفيعة وواضحة، ترقى أحيانًا إلى مستوى الأعمال الأدبية. كان عدد كبير من هؤلاء المثقفين المصريين الذين توافر فيهم هذا الجمع بين الثقافتين العربية والغربية من خريجي تلك المدرسة العتيدة، مدرسة المعلمين العليا، التي كانت تُعدّ

خريجيها للتعرف على الثقافتين. (وهى تجربة ما أجدرنا الآن بدراستها دراسة فاحصة لنعرف سر قدرتها على تخريج هذا النموذج الفريد من المثقفين).

ثم شهدت مصر انحطاطًا ثقافيًا ملحوظًا خلال الفترة الممتدة بين الحرب العالمية الثانية وقيام ثورة يوليو (١٩٣٩ ـ ١٩٥٢)، وهو ما يسهل تفسيره أيضًا بما طرأ من تحول على سمات الطبقة الوسطى خلال هذه الفترة. لقد اتسعت الطبقة الوسطى المصرية خلال الأربعينيات بدرجة كبيرة ومفاجئة، لعدة أسباب من أهمها الإنفاق الأجنبى على مستلزمات الحرب، وما ترتب على هذا الإنفاق، وعلى ندرة السلع بوجه عام من تضخم. أدى هذا إلى أن انضمت إلى شرائح الطبقة الوسطى القديمة شرائح جديدة حققت صعودًا اجتماعيًا سريعًا عن طريق مصادر للدخل هى فى الأساس غير منتجة، كالمضاربة وأعمال الوساطة من مختلف الأنواع. ويبدو أن المهم فى تحديد أثر هذه الشرائح الجديدة على المناخ الاجتماعى والثقافى السائد ليس وزنها العددى بل وزنها المالى. فربما كان عدد أفراد هذه الشرائح الجديدة لا يشكل إلا نسبة ضئيلة من إجماع الطبقة المتوسطة المصرية، ولكن تضخم قدرتها الشرائية أحدث تغيرًا ملموسًا فى هذا المناخ.

قرب نهاية هذه الفترة نشر توفيق الحكيم مقالاً صغيرًا فى صحيفة أخبار اليوم (التى كان ظهورها هو نفسه انعكاسًا لهذا التغير فى المناخ الثقافى) بعنوان «العصر الشكوكى»، يقصد العصر الذى تحقق فيه النجاح الساحق والشعبية الواسعة للمنولوجست «محمود شكوكو» وكان قد بدأ نوعًا جديدًا من المونولوجات، أى الأغانى القصيرة والخفيفة سريعة الإيقاع ذات المعانى السهلة وخفيفة الظل، وتستخدم تعبيرات شائعة بين الطبقات الدنيا، أو «سوقية»، وكثيرًا ما تسخر من بعض القيم المستقرة لدى الطبقة الوسطى القديمة، وتكسر بعض قواعد الغناء القديم كما تحدث تواصلاً أكثر حميمية وترفع الكلفة بين المغنى وجمهور المستمعين. اشتهرت مع أغانى محمود شكوكو مونولوجات حسين المليجى وثريا حلمى اللذين كانا أيضًا يستجيبان لأذواق طبقة جديدة من المستمعين حديثى الثراء، والأشد إقبالاً على الحياة والأكثر استعدادًا للسخرية من طبقة لم يلتحقوا بها إلا حديثًا، وللترويج لقيم النشاط والخفة والشطارة بدلاً من التزمت فى احترام المبادئ والتقاليد الراسخة.

كانت هذه هى أيضًا الفترة التى شهدت تحولاً ملحوظًا فى موسيقى محمد عبدالوهاب أكبر وأشهر المطربين المصريين طوال القرن العشرين، فأصبحت أكثر سرعة، وأقل عمقًا، وأقصر عمرًا. أصبحت موسيقى عبدالوهاب منذ هذه الفترة أكثر استخفافًا بقواعد وأصول الموسيقى العربية، وتصاحبها كلمات أقرب إلى فهم العامة وتحمل معانى أقل جمالاً مما كان يغنيه عبدالوهاب فى العشرينيات والثلاثينيات. وبينما ازدهر هذا النوع من الأغانى، انحسرت شعبية مغنين أقرب إلى التراث العربى والمصرى فى الموسيقى والغناء من أمثال صالح عبدالحى وعزيز عثمان، الذين أصبحت الإشارة إليهم فى الصحف والمجلات والأفلام كثيرًا ما تقترن ببعض السخرية والاستهزاء، الصريح أو الخفى.

ظهرت فى هذه الفترة أيضًا نغمة حديثة فى الصحافة المصرية بدأتها دار أخبار اليوم التى أسست فى أعقاب الحرب مباشرة، ودشنت مدرسة جديدة فى الصحافة المصرية، وتقوم على الإثارة وأخبار الفضائح والجرائم، وتستخدم المانشيتات العريضة والصور الجذابة فى كسب الجمهور، وازدهر فى هذا النوع الجديد من الصحف رسوم الكاريكاتير التى تستجيب لذوق جمهور جديد أكثر إقبالاً على السخرية من القيم الاجتماعية السائدة. من بين ما انتشر من شخصيات الكاريكاتير فى هذه الفترة شخصية «غنى الحرب» وهو رجل سمين سمنة مفرطة، وشديد الجهل فى نفس الوقت، ولكنه بالغ الثراء، كما يبدو من سلسلة الساعة المتدلية من جيبه والخواتم التى تحلى أصابعه، وهو يأمر وينهى الناس من حوله بحكم ثرائه، وإن لم تكن له مزايا أخرى غير هذا الثراء.

فى السينما والمسرح زاد التأكيد فى أعمال يوسف وهبى ونجيب الريحانى على ظاهرة التناقض الطبقى الصارخ، والمفارقة المتفاقمة بين الغنى الفاسد والفقير الشريف. كما شهدت هذه الفترة أيضًا تزايد أعمال العنف السياسى وكثرة الاغتيالات السياسية وتفجير القنابل فى الأماكن العامة، خاصة من جانب المتطرفين فى الدين، مع تزايد العنف المقابل من جانب السلطة.

لم يتوقف الأدباء الكبار عن الكتابة فى الأربعينيات ولكنهم قدموا الكثير من حيويتهم وحماستهم للتجديد مع تقدمهم فى السن، دون أن يحل محلهم جيل جديد يقاربهم فى العمق، أو فى الرصانة أو فى محاولة تطويع التراث لمواجهة حاجات العصر دون إعلان التمرد على هذا التراث.

لا يجوز عند الكلام عن ثقافة هذه الفترة أن نغفل التحول الذى طرأ على مصدر الثقافة الغربية التى كانت تستقبلها مصر فى هذه الفترة، من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. إن تيار التغريب الذى بدأت مصر فى التعرض له منذ بدايات القرن التاسع عشر ظل تغريبًا أوروبيًا حتى هذه الفترة التى نتكلم عنها الآن (١٩٣٩ ـ ١٩٥٢)، حينما بدأ يتحول لأول مرة إلى تغريب على النمط الأمريكى. والظاهر أن زيادة التأثر بنمط الحياة الأمريكى، بما فى ذلك نمط الحياة الثقافية، كان يلائمها جدًا ما حدث فى مصر خلال هذه الفترة من حراك اجتماعى سريع. ففى نمط الحياة الأمريكى، كما فى مناخ الحراك الاجتماعى السريع، تعلو قيم العجلة واحترام الثراء بصرف النظر عن مصدره، وتزيد اللهفة على التمتع بالحياة، ويقل التزمت فى التمسك بالمبادئ إذا تعارض مع زيادة المتعة أو الثراء، كما يضعف التمسك بالقديم وتثور شكوك أكبر فى صلاحيته، ويقل الاهتمام بالجذور التاريخية، وبالطقوس والرسميات المستمدة من هذه الجذور.



لم يتوقف الأدباء الكبار عن الكتابة فى الأربعينيات ولكنهم قدموا الكثير من حيويتهم وحماستهم للتجديد مع تقدمهم فى السن، دون أن يحل محلهم جيل جديد يقاربهم فى العمق، أو فى الرصانة أو فى محاولة تطويع التراث لمواجهة حاجات العصر

[٤]

ثم قامت ثورة ١٩٥٢، فلم تنقض بعدها سنوات قليلة حتى دخلت مصر، بسببها فى مرحلة من مراحل تطورها الثقافى أكثر ازدهارًا، أنتجت ثمارًا أرقى نوعًا وأقدر على البقاء مما أنتجته سنوات الحرب والسنوات التالية لها مباشرة. فى السبعة عشر عامًا التالية للثورة (١٩٥٢ ـ ١٩٧٠) نمت الطبقة الوسطى بمعدل أعلى حتى مما شهدته الفترة السابقة عليها، ولكن كان الأهم من ذلك التغير الذى لحق مصادر هذا النمو.

فمن ناحية، شهدت هذه السنوات التالية للثورة توسعًا غير مسبوق فى التعليم، بالإضافة إلى ما قامت به الثورة من إزالة الحواجز التى كانت تقف فى وجه من حصل على فرصة التعليم فى الثلاثينيات والأربعينيات، فأتاحت لهم فرص الترقى والصعود الاجتماعى فى الخمسينيات والستينيات. كما شهدت الخمسينيات والستينيات أيضًا ارتفاعًا كبيرًا فى معدل التصنيع واستصلاح الأراضى ونمو الجيش وما يتصل بهذا كله من مرافق وخدمات أدت أيضًا زيادة تدخل الدولة فى الحياة الاجتماعية إلى خلق فرص جديدة للترقى أمام الطبقة الوسطى سواء بالعمل فى خدمة الدولة مباشرة، أو فى بعض مشروعات القطاع الخاص التى نمت مع نمو نشاط الدولة.

كان هذا النمو فى حجم الطبقة المتوسطة فى الخمسينيات والستينيات يختلف اختلافًا كبيرًا عن نموها فى سنوات الحرب والسنوات التالية لها مباشرة. فمصادر نمو الدخل خلال العقدين التاليين لثورة يوليو كانت فى الأساس مصادر منتجة، بمعنى مساهمتها فى إنتاج سلع جديدة أو تقديم خدمات تساهم مساهمة حقيقية فى ارتفاع مستوى الرفاهية، كالتعليم والصحة وإدارة المرافق العامة. نعم، كانت هناك بلاشك أمثلة «للإثراء بلا سبب» ولكنها كانت بلاشك أقل انتشارًا، على الأقل بالنسبة إلى من حققوا الزيادة فى دخولهم بأعمال منتجة، مما كانت فى الفترة السابقة عليها أو خلال السبعينيات والثمانينيات.

هذه الصفة التى اتسمت بها مصادر الدخول الجديدة فى الخمسينيات والستينيات، بالإضافة إلى ما شاع خلال الجزء الأكبر من هذه الفترة من تفاؤل بمستقبل مصر السياسى والاجتماعى، ومن تعاطف حقيقى من جانب معظم المثقفين إزاء أهداف ثورة يوليو السياسية والاجتماعية، يفسر إلى حد كبير ما شهده المناخ الثقافى فى مصر خلالها من ازدهار بالمقارنة بالفترة السابقة والفترة اللاحقة عليها. يكفى أن نذكر القارئ بأن أهم أعمال نجيب محفوظ ويوسف إدريس فى الرواية والقصة القصيرة ظهرت فى هذه الفترة، وأن هذه الفترة هى التى شهدت أهم مسرحيات نعمان عاشور والفريد فرج ويوسف إدريس، وظهور مدرسة الشعر

الحديث بقيادة صلاح عبدالصبور وعبدالمعطى حجازى، وبروز مواهب صلاح جاهين فى الشعر العامى والكاريكاتير، ومدرسة أحمد بهاء الدين فى الصحافة، وكمال الطويل وبليغ حمدى ومحمد الموجى فى الموسيقى، وأغانى تحمل معانى جديدة وجميلة ومتفائلة بالحياة كتب كلماتها صلاح جاهين ومرسى جميل عزيز وغناها عبدالحليم حافظ، وأفضل أعمال يوسف شاهين وصلاح أبوسيف فى السينما.. إلخ.

[٥]

فى الثلاثين عامًا التالية (١٩٧٠ ـ ٢٠٠٠) تضافرت عدة عوامل لإفساد المناخ الثقافى المصرى على نحوٍ ما كان ـ على الأرجح ـ ليخطر على بال عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم عندما كتبا كتاب «فى الثقافة المصرية» فى ١٩٥٥. كانت المشكلة الاجتماعية التى تؤرق صاحبى هذا الكتاب فى مطلع الخمسينيات قد بدأ حلها على نحو جدّى فى الواقع، كما بدا وكأن ما كان يشكو منه الكاتبان فى الإنتاج الثقافى قد اختفى تمامًا. صحيح أن من الكتّاب الكبار من استمر يكتب على نفس المنوال الذى كان يكتب به قبل الثورة، فقصص إحسان عبدالقدوس ومسرحيات توفيق الحكيم مثلاً، ظلت بعيدة جداً عن التعرض للمشكلات الحقيقية التى تعانى منها الطبقات الدنيا، كما أن نجيب محفوظ لم يغيّر مسلكه قط عما كان قبل الثورة، فأبطال رواياته وقصصه ظلت مستقاة من الطبقة الوسطى، العليا أو الصغيرة، كما أنه اتجه منذ الستينيات اتجاهًا متزايدًا إلى الأدب الرمزى الذى ربما كانت تختفى وراءه قلة تعاطفه مع حكومات الثورة. بالرغم من هذا كانت الصورة العامة فى الأدب والمسرح والسينما والأغانى صورة ثقافة منحازة للشرائح الاجتماعية الدنيا، تصف مشكلاتها الحقيقية وتعبر عبر آمالها وطموحاتها. وعلى أى حال، فمهما كان توصيفنا لحالة الثقافة المصرية فى أواخر الستينيات فلا يمكن أن نتصور أن عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم كانا سيجلسان فى ذلك الوقت للتعبير عن نفس الرسالة التى عبّرا عنها فى كتاب «فى الثقافة المصرية» بل الأرجح أنهما، ما كانا سيجلسان لكتابة أى كتاب فى الثقافة المصرية، إذ لعل الصورة العامة كانت ستحظى برضاهما بوجه عام.

السؤال المهم والمثير الآن، هو عما يمكن أن يشعر به رجلان فى عنفوان الشباب، ولهما مثل حساسية وحماسة أنيس والعالم، إزاء حال الثقافة المصرية الآن، وعما يمكن أن يشعرا بضرورة كتابته أو قوله الآن عنها.

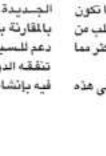
الذى لا أشك فيه أن مصادر الشكوى كثيرة، وهى باعثة على قلق شديد، ولكن مهمة التشخيص ليست بهذه السهولة، بل هى فيما يظهر أصعب بكثير من مهمة التشخيص التى قام بها أنيس والعالم منذ نحو نصف قرن.

يجب أن نلاحظ أولاً ما طرأ من تغيرات كبيرة ومذهلة منذ أوائل السبعينيات على مصادر دخل الطبقة الوسطى ومعدل نموها. إن معدل نمو الطبقة الوسطى فى مصر خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين هو على الأرجح معدل لم تعرف مصر مثيلاً له فى تاريخها الحديث. ولكن هذا النمو كان يرجع فى الأساس، وللأسف الشديد، إلى أعمال غير منتجة، فقد عرفت مصر معدلاً مرتفعًا للغاية للتضخم فى السبعينيات والثمانينيات، أعلى بكثير مما عرفته فى أى وقت خلال القرن العشرين بأكمله، وأدى هذا إلى نمو الدخول والثروات المفاجئة من المضاربة وأعمال الوساطة ومقاولات وتجارة فى العملات وتأجير الشقق. اقترنت السبعينيات والثمانينيات أيضًا بظاهرة جديدة على المجتمع المصرى، وهى الهجرة إلى الخارج، خاصة إلى دول الخليج، التى أدت بدورها فضلاً عن مساهمتها فى ارتفاع معدل التضخم، إلى نشوء ثروات مفاجئة وارتفاع معدل الحراك الاجتماعى بشدة. كانت الدخول والثروات الناتجة عن التضخم والهجرة ضعيفة الصلة جداً بحجم الجهد المبذول، وكذلك ضعيفة الصلة بمستوى التعليم، وهو ما انعكس فى انضمام شرائح واسعة إلى الطبقة الوسطى ذات قدرة شرائية عالية مع مستوى منخفض من الثقافة وضعف القدرة على التمييز بين العمل الفنى الراقى والهابط. زادت خلال هذه العقود الثلاثة أيضًا (١٩٧٠ ـ ٢٠٠٠) الدخول المتولدة من السياحة، وهى أيضًا كثيرًا ما تكون ضعيفة الصلة بالجهد المبذول، وقد تتطلب من الشطارة والقدرة على اقتناص الفرص أكثر مما تتطلب من جهد مستمر أو تعليم.

بالإضافة إلى الزيادة الكبيرة فى هذه المصادر الثلاثة لدخول وثروات الطبقة الوسطى (التضخم والهجرة والسياحة) طرأت أيضًا تغيرات مهمة للغاية على مصدرين آخرين من مصادر الدخل والثروة للمثقفين بوجه خاص، وهما الدولة المصرية من ناحية والهيئات الأجنبية من ناحية أخرى.

أما الدولة، فقد كانت منذ وقت طويل، أحد مصادر الدخل للمثقفين بما تمنحه لمؤسساتهم أو مجلاتهم من معونات، أو ما قد تهيئه لكثيرين منهم من وظائف.

ولكن طرأ تغير مهم ابتداء من السبعينيات على حجم ونوع هذه المعونات التى تقدمها الدولة، فضلاً عما طرأ من تغير على طبيعة الدولة نفسها. فمن المدهش من ناحية أن دور الدولة بينما أصابه تقلص ملحوظ فى مختلف ميادين النشاط الاقتصادى والاجتماعى، زاد وترعرع فى ميدان الثقافة، أو على الأقل فى كثير من فروع النشاط الثقافى.. إن ضغط الجماهير الغفيرة على الدولة مطالبة إياها بفتح المزيد من المدارس والجامعات أمر مفهوم تمامًا، ولكن الأصعب فى تفسيره هو استمرار دور الدولة بنفس الدرجة التى عرفناها فى الخمسينيات والستينيات، بل أحيانًا بدرجة أكبر، فى نشر الكتب وإنشاء الصحف والمجلات الجديدة. نعم انخفض بشدة، على الأقل بالمقارنة بمعدل التضخم، ما تقدمه الدولة من دعم للسينما والمسرح، ولكن زاد بشدة ما تنفقه الدولة على التليفزيون وعلى التوسع فيه بإنشاء قنوات جديدة.



أصبحت وسائل نشر الثقافة فى نهاية القرن (من إصدار الكتب والصحف والمجلات إلى قنوات الإذاعة والتليفزيون) التى تسيطر عليها الدولة سيطرة تامة، أوسع مدى وأكثر انتشارًا من أى وقت عرفته هذه الوسائل فى مصر خلال القرن بأكمله

كانت الدولة طوال الخمسينيات والستينيات تدرك بالطبع أهمية حصولها على تأييد المثقفين وقيامهم بالترويج لسياساتها، وكان هذا مفهومًا تمامًا من دولة تدشن مبادئ جديدة فى السياسة الخارجية والداخلية، وفى السياسة الاقتصادية والاجتماعية، وكان المتوقع أن تضعف قبضة الدولة على الثقافة عندما ضعفت قبضتها فى سائر نواحى الحياة. وقد يكون هذا هو ما حدث بالفعل فيما يتعلق بما يتعرض له المثقف المعارض من خطر التنكيل به وعقابه. ولكن مالم يحدث هو ترك المثقفين وشأنهم، أو قبض يد الدولة عن الإغداق على المؤيدين لسياستها والمستعدين للترويج لما ظهر منها من نكوص عن سياسات الخمسينيات والستينيات.

الذى حدث هو العكس بالضبط، فقد فتحت الدولة خزائنها، منذ أوائل السبعينيات، لكل من كان على استعداد للترويج لسياسات الانفتاح، أو للوقوف فى صفها فى سياساتها الجديدة إزاء إسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. بل لقد أظهر الرئيس السادات طوال السبعينيات ميلاً لتقريب المثقفين الموالين له على نحو لم يظهره الرئيس عبدالناصر، فى أى وقت خلال الخمسينيات والستينيات. كان عبدالناصر وفيما يظهر مستغنيًا عن ترويج المثقفين لسياساته أكثر من استغناء السادات عنهم، إذا اعتمد عبدالناصر بدرجة أكبر بكثير على الآثار المباشرة لهذه السياسات على الطبقات الدنيا المستفيدة منها، بينما شعر السادات بحاجة أكبر لتزيين سياسات لم تكن تتمتع بوجه عام بشعبية واضحة لا بين الجماهير ولا بين المثقفين.

ولكن بغض النظر عن طبيعة السياسات المراد الترويج لها، كانت التغيرات الاجتماعية التى تحققت فى مصر، خلال السبعينيات والثمانينيات تستدعى مثل هذا التوسع الكبير فى دور الدولة فى الثقافة. ذلك أنه بعد مرور ربع قرن على قيام ثورة يوليو، كان قد تكوّن لمصر جمهور واسع من المتعلمين وأنصاف المتعلمين، الذين تخرجوا من جامعات ومدارس تتساهل أكثر من أى وقت فى منح الشهادات، ومعاهد متوسطة تخرّج من الملمين بقواعد القراءة والكتابة والحساب أكبر مما تخرّج من المتدربين على حرفة أو مهنة بعينها، أدى هذا التوسع فى التعليم إلى خلق طلب جديد وواسع على أنواع من الثقافة غير المتعمقة، وعلى وسائل للترفيه تستجيب لنوازع وميول بسيطة وبدائية، مما كان يناسبه بشدة أنواع معينة من الصحف (كالصحف المهتمة بشئون الرياضة والحوادث والجرائم)، وكذلك، وعلى الأخص، أنواع معينة من البرامج التليفزيونية (من أمثال المسلسلات الخفيفة أو المثيرة ومسابقات الفوازير.. إلخ)، بل وأنواع من الكتب الخفيفة وقليلة العمق، كان من الممكن بالطبع أن يفسح المجال فى كل هذا للقطاع الخاص للقيام به، ولكن الدولة رأت لسبب أو لآخر، أن تقوم هى بتلبية جزء كبير من هذا

الطلب، عن طريق إصدار صحف ومجلات جديدة من نفس الدور الصحفية ودور النشر التي كانت قد أممتها الدولة في الستينيات لأهداف مختلفة تمامًا، أو عن طريق التوسع في القنوات وساعات الإرسال التليفزيونية، وكذلك عن طريق التوسع في نشر الكتب التي تطبع منها أعداد كبيرة من النسخ وتقدم بأسعار زهيدة للجمهور.

هل كان السبب هو مجرد استخدام هذه الصحف والمجلات والقنوات الجديدة كمنابر لمزيد من الترويج لسياسات الحكومة؟ أو كوسائل لإلهاء الناس وصرف نظرهم عما يجرى من تحولات خطيرة في هذه السياسات؟ أم كان السبب مجرد تحقيق مغانم شخصية في الثروة والسلطة، للقائمين بأمر هذه المؤسسات الصحفية والتليفزيونية؟ أيًا كان السبب فقد أصبحت وسائل نشر الثقافة في نهاية القرن (من إصدار الكتب والصحف والمجلات إلى قنوات الإذاعة والتليفزيون) التي تسيطر عليها الدولة سيطرة تامة، أوسع مدى وأكثر انتشارًا من أي وقت عرفته هذه الوسائل في مصر خلال القرن بأكمله.

بالإضافة إلى ازدياد أثر الدولة في تشكيل المناخ الثقافي السائد، كان هناك أيضًا ازدياد في دور المؤثرات الخارجية، وأعني بها على الأخص تأثير دول النفط في الخليج، وتأثير الشركات الأجنبية والمؤسسات الدولية، وتأثير العلاقة الجديدة بين مصر وإسرائيل. كان النظام الناصري طوال الخمسينيات والستينيات يضع حاجزًا قويًا أمام هذه المؤثرات بما فرضه من قطيعة تامة مع إسرائيل من ناحية، وأسوار جمركية وسياسية عالية أمام الشركات الأجنبية، وخصام شبه تام مع المؤسسات المالية الدولية، وقيود صارمة على هجرة المصريين إلى الخليج. ولكن ربما لم يكن أقل من هذا أهمية أن هذه المصادر الخارجية الثلاثة كانت في ذاتها أضعف بكثير من أن تحدث تأثيرًا مهمًا في المناخ الثقافي المصري. كانت دول الخليج غير قادرة أصلاً، قبل السبعينيات على استقبال عدد كبير من المهاجرين المصريين، وكانت ثرواتها ودخولها قبل ارتفاع أسعار النفط في ١٩٧٣ ليست بذات جاذبية كبيرة إلا لعدد محدود جداً من المصريين، معظمهم من ذوي المؤهلات العالية. كذلك لم تكن إسرائيل قبل ١٩٦٧ في وضع يسمح لها بإغراء أي مثقف مصري على التعامل معها، حتى بفرض أن النظام المصري كان يسمح بهذا التعامل. كانت السبعينيات أيضًا هي بداية الهجمة الشديدة من جانب الشركات متعددة الجنسيات على العالم الثالث، ومعها بداية الاتساع الكبير في نشاط المؤسسات المالية الدولية لفتح أبواب دولة بعد أخرى من دول العالم الثالث أمام هذه الشركات. إن مصر لم تعد إلى علاقتها الحميمة بالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي إلا ابتداء من منتصف السبعينيات، ولكن هذا الوقت كان هو أيضًا وقت تدشين هاتين المؤسستين لما عُرف «بالإصلاح الاقتصادي» أو «بالتثبيت الاقتصادي والتكيف الهيكلي»، ليس في مصر وحدها بل في العالم بأسره. إن الآثار السياسية والاقتصادية لهذا الانفتاح على دول الخليج وعلى إسرائيل وعلى الشركات الأجنبية والمؤسسات الدولية، كانت بالطبع أكثر وضوحًا من آثاره الثقافية، ولكن ليس من الصعب تبين أهمية هذه الآثار الثقافية أيضًا.

هكذا شهدت مصر فترة يزيد عمرها الآن على ربع قرن، تبدأ من السنوات الأولى للسبعينيات ولازلنا نعيش في ظلها حتى اليوم، تفاعلت خلالها مجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، البالغة القوة، على تشكيل المناخ الثقافي. لم تخل ثمار هذا التفاعل من بعض الثمار الطيبة، ولكن الصورة العامة الناتجة عنه كانت بلاشك سيئة للغاية.

تفاعل النمو السريع في الطبقة الوسطى، بسبب الازدياد الكبير والمفاجئ في أنواع معينة من الدخول والثروات أغلبها من مصادر غير منتجة وكثير منها غير مشروع أو غير أخلاقي، مع اتساع كبير أيضًا في عدد المتعلمين تعليمًا متسرعًا بل وعشوائيًا، مع زيادة الدور الذي تلعبه الدولة في الحياة الثقافية، ولكنها الآن، بعكس دولة الخمسينيات والستينيات، «دولة رخوة» تسمح باستغلال عدد محدود من الأفراد لأموالها ونفوذها. وفي نفس الوقت تحدث هجرة واسعة النطاق إلى دول الخليج من جانب المتعلمين وغير المتعلمين، بما في ذلك عدد لا يستهان به من المثقفين، ومن لم يهاجر منهم فتحت أمامه فرص الكسب الكبير بالكتابة لصحف الخليج ومجلاتها وإذاعاتها وتليفزيوناتها، أو بالاشتغال مراسلين لها في مصر، أو بإنتاج الأفلام والمسلسلات والبرامج الإذاعية والتليفزيونية. ومن ثم أصبحت سوق دول الخليج عاملاً مؤثرًا في تحديد طبيعة ما ينتج من أعمال ثقافية أو ترفيهية حتى في داخل مصر، سواء في تحديد موضوع الفيلم أو مغزى المسلسل التليفزيوني أو نوع النكات التي يلقيها الممثلون على خشبة المسرح المصري أمام السائح الخليجي.

كذلك ترك الانفتاح على إسرائيل أثرًا في المناخ الثقافي المصري، وإن لم يبلغ بعد ما بلغه أثر العلاقة مع دول الخليج. أهم جوانب هذا الأثر هو اتجاه بعض المثقفين المصريين، الذين لايزالون لحسن الحظ قلة نادرة، لقراءة اتجاه الريح في علاقة مصر بإسرائيل، فإذا وجدوا الاتجاه مناسبًا كتبوا بجرأة، أو أخرجوا من الأفلام أو أنتجوا مسرحيات تؤيد وتحبذ المزيد من الانفتاح على إسرائيل، وإذا رأوا إسرائيل ترتكب من الأعمال ما يفرض على السلطة المصرية التباطؤ في الانفتاح عليها، التزموا الاعتدال في الكلام عن هذا الموضوع أو انصرفوا إلى موضوعات مختلفة تمامًا.

ولكن أثر الانفتاح على إسرائيل على الثقافة المصرية لم ينحصر في هذا الأثر المباشر، بل كان الأهم والأعمق من هذا الأثر المباشر أثره على صورة العرب بوجه عام في المناخ الثقافي المصري، وعلى موقف عدد كبير نسبيًا من المثقفين المصريين (أي عدد أكبر من هؤلاء المعبرين عن فائدة التقارب مع إسرائيل)



الانفتاح على إسرائيل على الثقافة المصرية لم ينحصر في هذا الأثر المباشر، بل كان الأهم والأعمق أثره على صورة العرب بوجه عام في المناخ الثقافي المصري، وعلى موقف عدد كبير نسبيًا من المثقفين المصريين من أهداف الوحدة العربية

من أهداف الوحدة العربية وتقارب مصر مع بقية الشعوب العربية. فقد بدأ يشيع في الثقافة المصرية اتجاه متزايد القوة، منذ أوائل السبعينيات، ينادي بدرجات مختلفة من الصراحة بالتركيز على مشاكل مصر، خاصة مشاكلها الاقتصادية، واعتبار ما حدث من تقارب بين مصر وبقية العرب في الخمسينيات والستينيات، غلطة كبيرة لابد من تصحيحها.

هكذا أنتج من المسرحيات ما حاز شعبية واسعة ولا يفعل أكثر من السخرية ببقية البلاد العربية، والسخرية بشعارات الوحدة والقومية العربية التي رفعت في الخمسينيات والستينيات.

أما الشركات الأجنبية والمؤسسات الدولية فكان أثرها في المناخ الثقافي لا يقل نفاذاً أو أهمية، وإن كان هذا الأثر قد ظهر بأكبر قدر من الوضوح في مجالات بعينها أهمها البحوث التي يقوم بها المثقفون المصريون في العلوم الاجتماعية والإنسانيات، إذ أصبحت هذه الشركات والمؤسسات هي التي تضع «جدول الأعمال» أو «أجندات» أو أولويات ما يقوم به المثقفون المصريون من بحوث، حتى ولو تعارضت تعارضًا صارخًا مع الأولويات التي تفرضها المصالح الوطنية.

مع الارتفاع الكبير في معدل الحراك الاجتماعي والانتشار الواسع في التعليم بين مختلف طبقات الشعب، لم يكن من المتصور ألا تزيد فرص ظهور مواهب شتى في مختلف فروع الإنتاج الثقافي عما كانت عليه قبل منتصف القرن، بل حتى عما كانت عليه خلال الخمسينيات والستينيات. وقد ظهرت بالفعل خلال الفترة التي نتكلم عنها الآن (١٩٧٠-٢٠٠٠) مواهب باهرة في مختلف هذه الفروع، من الرواية والقصة القصيرة والشعر، إلى الإخراج والتمثيل السينمائي والمسرحي، إلى الموسيقى والغناء، إلى مختلف أنواع الفن التشكيلي، إلى البحوث الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. في كل هذه الأفرع من فروع الثقافة لم يعد الأمر مقصورًا كما كان طوال المائة عام السابقة، على عدد قليل من القمم المنعزلة وسط صحراء واسعة قاحلة، والتي فرضت نفسها بحكم موهبتها أو لفرصة نادرة أتيحت لها في مجتمع يتسم بقلة ما يتيحه من فرص للغالبية الساحقة من أبنائه، وتنحصر مجالات اهتماماتها في دائرة طبقة اجتماعية معينة يتركز في يدها المال والنفوذ، وهو بالضبط ما شكّل موضوع الشكوى الأساسية في كتاب «في الثقافة المصرية» في منتصف القرن، بل اتسع الميدان اتساعًا كبيرًا، فظهرت المواهب في كل طبقة وفي كل مجال، وصارت الطبقات كلها من أعلاها إلى أدناها، موضوعًا ممكنًا من موضوعات الكتابة وسائر وسائل التعبير، ولم يعد من الممكن الآن أن يشكو المرء من حرمان طبقات بأسرها من فرص التعبير عن مشكلاتها وطموحاتها.

لم تعد هذه هي المشكلة، وإنما أصبحت المشكلة تزايد حدة المنافسة، شيئًا فشيئًا، مع انتهاء الستينيات، بين أنواع من الإنتاج الثقافي يدعمها المال الوفير أو الطلب الواسع أو كلاهما، ودولة

تقف وراء هذا المال الوفير والطلب الواسع، وبين أنواع أخرى أرقى مستوى وأشد التزامًا، ولكنها لا تتمتع بمثل هذه الوفرة فى المال والطلب أو بمثل هذا الدعم الكبير من جانب الدولة. فى كل ميدان من ميادين الثقافة إذن، لم تعد المشكلة هى مشكلة ندرة المواهب والكفاءات المعبِّرة عن مشاكل الطبقات الدنيا وآمالها، أو الملتزمة بمختلف جوانب النهضة الوطنية، الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية. وإنما أصبحت المشكلة هى ضيق المساحة المتاحة لهذه المواهب والكفاءات فى مختلف ميادين الثقافة بسبب طرد الثقافة الرديئة لها. لقد زاد عدد أصحاب المواهب الحقيقية والكفاءات فى الثلاثين عامًا الأخيرة زيادة كبيرة عما كان فى الخمسينيات والستينيات، ولكن المنافسة التى كان يتعرض لها هؤلاء، فى الخمسينيات والستينيات من جانب المتكسبين من الأعمال الثقافية الخالية من أى موهبة أو كفاءة حقيقية، كانت أقل حدة بكثير، لأن الحراك الاجتماعى وانتشار فرص التعليم (وإن كانا خلال هذين العقدين أعلى بكثير مما كانا من قبل) لم يحققا تلك المعدلات المذهلة التى تحققت لها فى الثلاثين سنة الأخيرة، فضلاً عن أن الدولة فى الخمسينيات والستينيات وفرت درجة عالية من الحماية لأصحاب المواهب والكفاءات الحقيقية لم يظفروا بمثلها منذ بداية السبعينيات. اشترك الجميع فى المنافسة، وكانت الغلبة للأسف، باستثناءات نادرة للغاية، لصالح منتجى الثقافة الرديئة.

فى هذه الحالة، أعمالاً خالية تمامًا من أية جاذبية للجمهور. بل كانت العملة الرديئة فى حالة السينما والمسرح ذات جاذبية بالفعل لجمهور واسع، وإن كانت جاذبيته تقوم إما على استغلال موضوعات الجنس أو مواقف هزلية بالغة السطحية، مما يمكن أن يكسب جمهورًا واسعًا من المراهقين أو من أشباه المتعلمين.

كان انتشار استخدام الجنس لترويج بعض المجلات فى مصر ظاهرة لافتة للنظر فى السنوات العشر الأخيرة مما لم يكن معهودًا بالمرة بهذه الدرجة فى أى مرحلة من مراحل تطور الصحافة المصرية. وقد انتشرت الظاهرة إلى درجة اضطرت حتى بعض المجلات المعروفة بتاريخ طويل محترم، أو بالتزام سياسى قديم، إلى الالتجاء إلى نفس الحيلة لجذب المزيد من القراء. خاصة وقد قلّت قدرتها على جذبهم بالكتابة فى القضايا السياسية والقومية لأسباب خارجة عن إرادتها. وقد شجع هذا الاتجاه على اتخاذ الجنس وسيلة لترويج الأفلام أو المسرحيات أو المجلات والصحف، ازدياد فرص تحقيق الكسب من ورائه بسبب ازدياد حجم الطلب الذى تولده جماهير غفيرة من متوسطى التعليم ومحدودى الثقافة ولكنها تملك القدرة الشرائية اللازمة. لم يكن هذا متاحًا قطعًا فى النصف الأول من القرن، اللهم باستثناء فترات الحروب وما خلقته من «أغنياء الحرب»، بل ولم يكن متاحًا بهذه الدرجة على الإطلاق، حتى بفرض سماح الدولة بحدوثه، خلال الخمسينيات والستينيات. فلما وجدت هذه الجماهير الغفيرة ممن يملكون القدرة الشرائية، مع حلول عصر التضخم والهجرة فى السبعينيات، وسحب الدولة يدها عن التدخل فى هذه الأمور دون أن تقدم للناس قضايا تكفى لشغلهم وجذب اهتمامهم، من القضايا الوطنية القومية، انفجر تيار الجنس فى السينما والمسرح والصحافة المصرية على نحو يشبه ما حدث فى الدول الغربية ولكنه لا يجد له شبيهًا فى تاريخ الثقافة المصرية.

حدث شىء مشابه فى الموسيقى والغناء، وإن كان استغلال الجنس أقل وضوحًا فيهما بطبيعة الحال، ومع هذا فهو موجود هنا أيضًا فى نوع الألحان والإيقاع وكلمات الأغانى وأصوات المغنين ودرجة وسامتهم فى نظر جمهور يتكون أساسًا من الشباب. هكذا ظهر نوع من الأغانى أطلق عليه اسم «الأغانى الشبابية»، لا يحظى بشعبية تذكر بين المستمعين الذين تزيد أعمارهم على الأربعين، وهم من وجدوا بعض الفرار فى الاستماع إلى ما سمى «بأغانى التراث»، التى أصبحت تشمل، ليس فقط أغانى مطلع القرن العشرين، بل أيضًا كثيرًا من أغانى الخمسينيات والستينيات. وهكذا اتسع معنى «التراث» فى الموسيقى والغناء، بحيث أصبح يشمل أغانى وموسيقى حديثة للغاية، مثل ألحان كمال الطويل والموجى وبليغ حمدى، أو أغانى عبدالحليم حافظ، وكأنها تنتمى لعصر سحيق موغل فى قدمه.

حدث أيضًا طرد للعملة الجيدة لحساب العملة الرديئة فى ميدان الكتابات الدينية، إذ حدث تدهور مذهل فى مضمون ومستوى هذه الكتابات فيما بين عقدى الخمسينيات والستينيات من ناحية، والعقود الثلاثة التالية لها من ناحية أخرى. بل ويزيد التدهور وضوحًا إذا قارنّا بين مستوى هذه الكتابات فى هذه العقود الثلاثة الأخيرة وبين مستوى الفكر الدينى والكتابة الدينية طوال النصف الأول من القرن. وأقصد بهذا التدهور على الأخص ما شاع فى الفترة الأخيرة من تفسيرات لا عقلانية للدين حققت شعبية واسعة عن طريق التليفزيون والإذاعة والصحف، وغلبة التأكيد على ظواهر الدين وقشوره على حساب محاولة اكتشاف روح الدين وأهدافه العليا. ويدخل فى ذلك تعليق أهمية غير مبررة على تشابه بعض الألفاظ المستخدمة فى النصوص الدينية وبعض النظريات العلمية الحديثة للإيحاء بأن المقصود من هذه النصوص هو نفس ما كان يقصده عُلماء الطبيعة، وإقحام الدين فى مسائل سياسية واجتماعية بقصد الانتصار لمواقف دنيوية أو تحقيقاً لمصالح مادية فى معارك جارية كان من الواجب أن يترفع الناس عن استخدام الدين سلاحًا فيها.

للتدليل على ذلك فلننظر إلى نسبة الأعمال الثقافية الرفيعة التى نشرتها مثلاً الهيئة العامة للكتاب أو مختلف دور النشر الحكومية الأخرى، خلال العقود الثلاثة الأخيرة بالمقارنة بالأعمال الأخرى ـ نعم، كان لابد أن يكون من بين الكم الهائل الذى قامت المطابع ودور النشر الحكومية بنشره بعض الأعمال الرفيعة التى تنشر لأول مرة أو يعاد نشرها، ولكن الأكثر لفتًا للنظر هو النسبة العالية لما أخرجته هذه المطابع ودور النشر من أعمال لا تستحق النشر، بسبب حظوة يتمتع بها الكاتب لدى المسئولين عن هذه المؤسسات.

شاعت أيضًا فى الصحف والمجلات الحكومية ظاهرة غريبة تكاد تكون غير معروفة تمامًا فى الخمسينيات والستينيات، وهى احتلال أسماء خالية من أى موهبة، بل وكثيراً ما تكون عاجزة عن نقل أى معنى مفهوم للقارئ، لمساحات ثابتة فى هذه الصحف، فيفرضون أنفسهم فرضًا على القراء، أسبوعًا بعد أسبوع، لمجرد تمكنهم لسبب أو آخر من الاقتراب والحصول على رضا المسئولين عن الصحيفة أو المجلة.

لم يكن هذا «النجاح» بسبب مجرد الحظوة ممكنًا فى فنون كالسينما والمسرح، تخضع بطبيعتها، أكثر مما تخضع الصحف، لاعتبارات الإقبال الجماهيرى وحسابات الربح والخسارة، ومن ثم لم يكن من الممكن أن تكون «العملة الرديئة» التى تطرد «العملة الجيدة»



أصبحت المشكلة تزايد حدة المنافسة، شيئًا فشيئًا، مع انتهاء الستينيات، بين أنواع من الإنتاج الثقافى يدعمها المال الوفير أو الطلب الواسع أو كلاهما، ودولة تقف وراء هذا المال الوفير والطلب الواسع، وبين أنواع أخرى أرقى مستوى وأشد التزامًا

من مظاهر شيوع «العملة الرديئة» أيضًا فى الأدب والنقد الأدبى، ظاهرتان قد تبدوان لأول وهلة منفصلتين تمام الانفصال ولا يمكن أن تكون بينهما أية صلة، ومع ذلك فقد تكونان فى الحقيقة انعكاسًا لنفس سمات المناخ الثقافى الذى نشأتا فيه. الظاهرة الأولى تتمثل فى ظهور، وتكرر ظهور، ميل لدى جيل جديد من كتّاب الرواية والقصة إلى التجرؤ على بعض المقدسات الدينية، على نحو لم يكن متصوراً طوال العقود السابقة. وتتمثل الظاهرة الثانية فى ظهور أعمال أدبية على أعلى درجة من الغموض والإبهام، يحار قارئها، مهما حاول وعاود المحاولة أن يفهم معناها أو قصد الكاتب منها. فإذا تجرأ بعض هؤلاء القراء على نقدها، وُوجهوا، سواء من أصحاب هذه الأعمال الأدبية أنفسهم، أو من بعض المتخصصين فى النقد الأدبى، بالقول بأن هذه الأعمال الرائعة فى الحقيقة، وإن لم تكن مفهومة بالمرة، تنتمى إلى مدرسة «ما بعد الحداثة»، هى مدرسة لا يستطيع فك رموزها إلا الراسخون فى العلم أو ذوو الحسّ المرهف القادرون على الغوص فى أعماق النفس البشرية. هاتان الظاهرتان الغريبتان اللتان قد تبدوان على طرفى نقيض، قد يكون مما ساعد على ظهورهما وتكرارهما اشتداد الميل إلى تقليد ما يفعله الكتّاب والنقاد فى الغرب، بعد أن فتحنا كل الأبواب الموصدة دونه، مع اشتداد دور «العلاقات العامة» فى الترويج لبعض الأعمال والموضوعات الأدبية دون غيرها. لقد سبق أن أشرت إلى دور الحظوة الشخصية التى قد يتمتع بها كاتب أو ناقد لدى هذا المسئول أو ذاك من أصحاب النفوذ فى وسائل الإعلام، فى الحصول على درجة لا

يستهان بها من الرواج والشهرة. فإذا قُدّر للكاتب أو الناقد أن يحصل على هذه الحظوة فإنه قد يضمن لروايته أو مقالاته مكانة أو على الأقل ذيوع صيت، ما كان يمكن أن يحصل عليهما في عصر أكثر التزامًا ببعض المبادئ العامة والمستقرة.

لم تظهر المؤسسات الأجنبية في الحياة الثقافية المصرية في العقود الثلاثة الأخيرة، تلك الصورة الساذجة التي عرفناها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، كقيام بعض المؤسسات الثقافية الأمريكية المشبوهة بتمويل مجلات أو كتب تروّج لنظام الحياة الأمريكية وتنتصر للديمقراطية الغربية و«العالم الحر»، وتدحض الشيوعية وتؤكد على تعارضها مع الأديان، بل أصبح هذا الدور الآن أكثر التواء ولكنه أشد نفاذًا وأبعد أثرًا.

إن هذا الدور لازال يتخذ أحيانًا بعض الصور المباشرة والواضحة الهدف، كدعوة بعض المثقفين لمؤتمر أو ندوة لهما مظهر ثقافي وفكري ولكن الهدف السياسي منهما لا يمكن أن يخفى على أحد، أو كاستضافة بعض المثقفين المصريين لمدد متفاوتة الطول للإقامة في بلد غربي أو للتدريس في إحدى الجامعات الغربية خاصة إذا كان موضوع المحاضرات يؤكد على تخلف العرب أو الإسلام عن ركب الحضارة الغربية أو عن التقدم الإسرائيلي، أو تقديم الدعم لمخرج سينمائي مصري بشرط أن تدور الأفلام المدعمة حول نفس هذه الموضوعات وتحمل للمشاهد نفس هذه الرسالة. كما قد تلجأ بعض هذه المؤسسات إلى إسباغ حمايتها على بعض الأعمال الأدبية أو الفكرية التي تتجرأ جرأة زائدة على الدين فتعرض على صاحبها الانتقال إلى دولة أجنبية للإقامة بها تمكيناً له من ممارسة موهبته بمطلق الحرية.

ولكن هناك وسائل أخرى أقل وضوحًا وأطول عمرًا تمارسها هذه المؤسسات الثقافية والمالية الأجنبية والدولية، وتتعلق بالبحوث والدراسات الاجتماعية والإنسانية أكثر مما تتعلق بالأعمال الأدبية. فقد تكاثر منذ منتصف السبعينيات عدد المنح ومختلف صور الدعم التي تقدمها المؤسسات الأجنبية والدولية للمصريين المشتغلين بالبحوث الاجتماعية والاقتصادية، خاصة إذا كانوا من أعضاء أو مديري مؤسسات أو مراكز بحوث مصرية، بشرط أن تكون الموضوعات التي يزمع هؤلاء بحثها مما يتفق مع اتجاهات وميول المؤسسة الأجنبية المقدمة للدعم. وسرعان ما فهم الباحثون المصريون نوع هذه الموضوعات القادرة أكثر من غيرها على استجلاب الدعم المالي، فإذا بها تتعلق إما بتحرير المرأة أو بحقوق الإنسان أو الديمقراطية، أو بحقوق الأقليات العنصرية أو الدينية، أو بالتكامل الاقتصادي مع دول أخرى في الشرق الأوسط بشرط أن تكون إسرائيل من بين هذه الدول، أو بإثبات مزايا بيع القطاع العام والخصخصة، أو مزايا وضرورة برامج التكييف الهيكلي والتثبيت الاقتصادي، بما في ذلك تحرير التجارة الدولية وتشجيع الاستثمارات الأجنبية وتقليص دور الدولة في النشاط الاقتصادي.

كان هناك شبه بلا شك بين ميل الكثيرين من الباحثين في العلوم الاجتماعية والإنسانيات، خلال عقد الستينيات، إلى الكتابة عن ضرورة تدخل الدولة بشدة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وعن حتمية الحل الاشتراكي، وعن مزايا حماية الناتج المحلي ضد الواردات ومخاطر الاستثمار الأجنبي، إذ كان من يكتب في عكس ذلك الاتجاه لا يحظى بعطف الدولة ويُحرم من فرص الصعود السياسي والاقتراب من السلطة، وبين هذا الاتجاه الذي نتكلم عنه الآن، والذي تزايد قوة منذ السبعينيات، طمعًا في الحصول على دعم وعطف المؤسسات الأجنبية. ومن الممكن القول بأن كلا النوعين من التدخل من شأنه إفساد جانب مهم من جوانب الحياة الثقافية، إذ يُعرِّض المثقف أو الباحث الإجتماعي لقول ما يتعارض مع ضميره أو على الأقل لتنحية مسألة الضمير جانبًا لحساب الكسب المادي أو السياسي. ولكن بالإضافة إلى ذلك يجب أن نلاحظ الاختلاف البيّن بين أهداف السلطة في مصر، خلال الستينيات، وأهداف المؤسسات الأجنبية في العقود التالية. فإذا تعاطف المرء مع أهداف السلطة في الستينيات فلابد أن يعتبر أن إفساد المناخ الثقافي بعد انتهاء تلك الحقبة هو أخطر وأشد ضرراً من أي تدخل للسلطة قبل ذلك.

لم يكن غريباً بالمرة، وإن كان مؤسفًا للغاية، أن يتحول دور الدولة شيئًا فشيئًا، تحت تأثير هذه العوامل كلها، من تقديم الدعم للثقافة الرفيعة وحماية الجمهور من طغيان الأنواع الرديئة من الثقافة، إلى عكس ذلك بالضبط، إذ ألقت الدولة بثقلها ونفوذها وأموالها إلى جانب الثقافة الرديئة، وتركت منتجي الثقافة الرفيعة والباحثين عنها يحاولون أن يواجهوا وحدهم، ودون سند أو دعم، تيار الثقافة الفاسد الزاحف نحوهم. نحن نعرف ما يحدث في دول أخرى كثيرة، حيث تشجع قنوات التليفزيون التجارية الإنتاج الثقافي الرديء، إذا كان يجلب الربح الوفير، وتعرض على الناس من البرامج والأفلام ما يتمشى مع الإعلانات التجارية ولا يضعف من تأثيرها، مهما كان مستوى هذه البرامج والأفلام متدنياً. فتأتي الدولة لتفعل ما في قدرتها لدعم الثقافة الرفيعة التي لا تستجيب لأذواق الجماهير الغفيرة، بل تستجيب لأذواق وقيم أكثر ندرة ومن ثم أقل ربحًا. نحن نعرف مثلاً الجهد والمال اللذين تبذلهما قنوات الإذاعة البريطانية والتليفزيون البريطاني الخاضعة للدولة، وما تمنحه الحكومة البريطانية من دعم للمسرح القومي للمؤسسة القومية للسينما، حماية للثقافة الرفيعة من تيار الثقافة التجارية المحكوم بدافع الربح وحده. لهذا لابد أن تصيبنا الدهشة إذ نرى التليفزيون المصري، الخاضع لسلطان الدولة، تحركه أكثر فأكثر دوافع الربح، ويخضع أكثر فأكثر، مع مرور الأيام، لمطالب أصحاب الإعلانات التجارية. وإذ نرى دور النشر الحكومية تخضع أكثر فأكثر لاعتبارات المجاملات الشخصية التي تحكمها في نهاية الأمر مصالح خاصة تتعلق إما بالربح أو بالشهرة. بل ونرى أعلى الجوائز الحكومية التي نشأت أصلاً لتشجيع الكتّاب والعلماء والمفكرين المتميزين، يعطى الكثير منها بناء على اعتبارات مماثلة، ومنبتة الصلة بالأهداف التي أنشئت من أجلها هذه الجوائز.



لابد أن يكون من بين الكم الهائل الذى قامت المطابع ودور النشر الحكومية بنشره بعض الأعمال الرفيعة التى تنشر لأول مرة أو يعاد نشرها، ولكن الأكثر لفتًا للنظر هو النسبة العالية لما أخرجته هذه المطابع ودور النشر من أعمال لا تستحق النشر، بسبب حظوة يتمتع بها الكاتب لدى المسئولين عن هذه المؤسسات

هكذا تضافرت هذه العوامل جميعًا لإنتاج المناخ الثقافي السائد الآن في مصر: انفتاح اقتصادي بلا ضابط على الاقتصاد الغربي والمؤثرات الثقافية الغربية، هجرة بمعدلات عالية إلى دول النفط العربية، ارتفاع كبير في معدل التضخم، انتشار واسع للتعليم مع هبوط واضح في مستواه، نمو سريع في الطبقة الوسطى مع درجة عالية من الانفصام بين نمو الدخل والجهد المبذول، مع تدفق دخول وثروات جديدة في أيدي شرائح اجتماعية جديدة ذات ميول وأذواق ثقافية متدنية، وازدياد تغلغل الشركات التجارية الأجنبية في الحياة الاقتصادية في مصر مع نمو نشاط المؤسسات الثقافية والمالية، الأجنبية والدولية، في الحياة الثقافية المصرية، وزيادة تأثيرها في إنتاج المثقفين المصريين خاصة في مجالات البحوث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتضافر مع هذا كله تحول مهم طرأ على طبيعة الدولة المصرية، إذ بينما تنازلت الدولة عن كثير من التزاماتها القديمة، في مجالات السياسة الاجتماعية والعربية والاستقلال الوطني، استمرت سيطرتها على المؤسسات الثقافية ووسائل الإعلام الجماهيري.

كانت نتيجة هذا كله مناخًا ثقافيًا مختلفًا تمامًا عما كان سائدًا من نصف قرن، وأصبح مصدر الشكوى مختلفاً تماماً عما كان يشكو منه عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم عندما كتبا كتابهما «في الثقافة المصرية» في سنة ١٩٥٥. كان من الممكن تلخيص القضية الأساسية حينئذ في تنكر كبار الكتّاب والأدباء في مصر لقضية الصراع الطبقي الانقسام الحاد بين الشرائح الاجتماعية والاقتصادية، فلم يعد هذا صالحًا لتلخيص القضية الثقافية الأساسية الآن. بل أصبح الأقرب إلى التشخيص الصحيح لهذه القضية الآن وصفها بأنها قضية صراع محتدم بين ثقافة تخدم في الأساس مصالح تجارية، تمثلها شركات أجنبية ومؤسسات دولية بالإضافة إلى شركات ومؤسسات مصرية، حكومية وخاصة، وبين ثقافة تخدم مصالح بقية المصريين المنتمين إلى طبقات وشرائح اجتماعية مختلفة، والذين يبحثون بغباء شديد وشق الأنفس عن بضع ثمرات من الإنتاج الثقافي الرفيع، تحاول الصمود أمام هذا التيار الكاسح من الثقافة الرديئة. ■



قصيدة النثر بين القبول والرفض

محمــــد عبــد المطلــب

[١]

سيطر على الواقع الإبداعي والنقدى نوع من الهدوء النسبي بالرغم من استمرارية الإبداع واستمرارية المتابعة النقدية، لكنها استمرارية أشبه (بالوقوف المتحرك)، ثم فجأة انشغل هذا الواقع بمجموعة من الحوارات النقدية التي ارتفعت حدتها إلى درجة الصراخ، وقد ازداد الإحساس بهذه الحدة نظراً لحالة الهدوء التي أشرنا إليها، ومجمل هذه الحوارات تطول (قصيدة النثر)، وبدا الأمر كأننا نواجه ظاهرة نوعية طارئة، لم يكن لها حضور سابق، أي أن الحوارات كانت تجاهلاً لحقيقة إبداعية حاضرة بالفعل في الخطاب الإبداعي العربي، مع تغير العمق الزمني لها من بلد إلى آخر، فبينما كانت تجليات الحضور في لبنان في منتصف القرن العشرين، كانت تجلياتها في مصر والعالم العربي في السبعينيات.

معنى هذا أن الحدة قد تأسست على ركائز غير صحيحة، وإن كانت البداية الحوارية نفسها مقبولة حول قصيدة النثر، وعدم الصحة هو الذي طرح هذه القضية على أساس مغلوط، حيث تم طرح سؤال يتجاهل الواقع، وهو: هل قصيدة النثر نوع إبداعي حاضر بالفعل، أم هي مجرد وهم يخايل المبدعين؟ لذا فإن تعديل السؤال أمر تفرضه الحقيقة الإبداعية، حيث يكون المطلوب فحص الخواص النوعية الفارقة التي تعطي قصيدة النثر خصوصيتها المغايرة لسواها من أجناس القول.

والعجب أن مجمل الحوار قد تغاضى عن مرحلة النشأة في العالم العربي عموماً، ومصر على وجه الخصوص، واتكأ اتكاء كاملاً على لحظة الحاضر، وهذا التغاضي هو الذي جعل الحوار مغلوطاً - كما قلنا - إذ أن قصيدة النثر أصبحت حقيقة فرضت نفسها على الخطاب الأدبي، ولا نجاوز الحقيقة إذا قلنا أنها أصبحت صاحبة السيادة فيما ينشر مفرداً، أو ما يطبع على شكل دواوين، برغم أنهـا تكاد تكون محاصرة من جمهرة التفعيليين أولاً، ومن جمهرة النقاد ثانيًا، وبرغم أن هذا الحصار يمكن أن يكون نابعاً من طبيعتها الإبداعية، بوصفها نوعاً نافراً عن الشفاهة، وغير قابل للتلقي العجل السريع، واحتياجها إلى قدر وافر من القراءة المتأنية المتأملة إلى تتابع السطوح والأعماق، والخارج والداخل، فلا فرق فيها بين سطح وعمق، ولا فرق فيهـا بين داخلها وخارجها، فالعلاقة الجدلية بينهما لا تعطي لطرف أهمية على الطرف الآخر.

لقد تفجر الحوار بفاعلية إشارة صريحة لواحد من كبار الشعراء، هو أحمد عبدالمعطي حجازي، والإشارة - في مجملها - تكاد تكون إشارة هجائية، وقد أخذت أهميتها البالغة لأن مصدرها له هذه الأهمية، ومن ثم سارع مبدعو قصيدة النثر لمواجهة هذه الإشارة مواجهة ممتلئة بكثير من الخشونة، بل ربما تجاوزت الخشونة إلى القسوة الجارحة، وهو الأمر الذي نرفضه تماماً، لأن الخلاف في الرأي يجب أن يظل في إطار احترام الرأي الآخر، ومواجهته مواجهة منهجية بالرأي الذي يؤسس لفكر يواجه فكراً، وأن يستحضر الجميع مقولة الإمام الشافعي: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب.

والحق أن جمهرة المشاركين في الحوار لم يكونوا جميعاً معارضين لحجازي، بل إن هناك قلة شاركت من منطق تبني وجهة نظره، والشد على يديه لإقدامه على فتح الحوار حول هذا الجنس المنفلت الذي لم يتقبلوه شكلاً أو مضموناً، وقد عززوا موقفهم بحاشية تفسيرية تسلب قصيدة النثر كل مقومات انتمائها للشعرية، بل تسلبها الانتماء للأدبية عموماً.

اللافت في هذه المعركة الحوارية أن الذين أقدموا على المشاركة كان معظمهم من المبدعين، بينما أحجم النقاد إلا نفراً، بالرغم من أن منطق الأمور كان يحتاج إلى تعديل المواقع، على معنى غلبة المشاركة للنقاد، وأن يحجم المبدعون، لأنهم متهمون بالدفاع عن النفس حقاً أو باطلاً، لكن الذي حدث أن معظم الجلبة كانت من المبدعين، وارتفعت أصواتهم ارتفاعاً هائلاً دفاعاً عن النفس.

فلماذا أحجم النقاد إلا نفرا من الاشتباك في هذا الحوار الصاخب؟

إن النظرة المنصفة للخطاب النقدي فيما يتصل بقصيدة النثر، تؤكد أن هذا الخطاب لم يتجاهل هذا النوع الإبداعي، بل إنه تابعه متابعة تكاد تكون مفصلة، ولا يعنينا هنا أن تكون المتابعة بالقبول أو الرفض، فالأمران مطروحان على نحو لازم لكل إبداع، لكن المهم أن هذه المتابعة كانت اعترافاً صريحاً بدخول الشعرية العربية في مرحلة جديدة من مراحلها المتتابعة، وبرغم ازدحام هذه المتابعة بالآراء الرافضة، فإن الذي نراه أن الرفض لم يكن عائقا أمام المسيرة، بل ربما كان عامل مؤازرة، لأنه لو لم يكن هناك إحساس بأن قصيدة النثر قد فرضت حضورها التنفيذي، لما كانت هذه المقارنة، ولما كان هذا الرفض الحاد.

إن الخطاب النقدي الذي طرح موقفه - في مرحلة سابقة وقريبة من قصيدة النثر - قد اعتمد آراء مجموعة من النقاد لهم رسوخهم النقدي، وشموخهم المنهجي، وهذه الآراء جاءت شمولية وموسعة حيناً، ومحدودة جزئية حيناً آخر، ويطول بنا الأمر لو رحنا نعدد الأسماء ونطرح مجمل الآراء.

معنى هذا أن النقد لم يكن غائباً ولا مغيباً كما يدعي البعض، بل كان حاضرا وفاعلا، صحيح أنه حضور محدود، لكن هذه المحدودية رهن بالبدايات دائماً، ورهن بالإبداعات الطارئة التي تحتاج إلى وقفة تأمل قد تطول لاستيعابها قبل الدخول إلى دهاليزها، والسير في معارجها، وتحسس ملامحها الجوهرية والشكلية وما يمكن أن تنبيء به من إرهاصات قادمة.

بالرغم من أن المتابعة النقدية لم تكن سرية بل علنية فيما نشر أو أذيع، بالرغم من ذلك فقد أسرع البعض بإصدار حكم غريب بأن النقد المتابع للشعرية قد غاب غياباً مطلقاً بعد غياب نجومه السابقين أمثال مندور ولويس عوض وشكري عياد ولطفي عبد البديع وتوقف نجومه الذين مازالوا على قيد الحياة، ولا أدري كيف يجترئ بعضنا على مثل هذا القول الظالم، وأظن أن من يجترئ عليه واحد من اثنين: إما أنه لا يقرأ أصلاً، ويعيش في قوقعة إبداعه فحسب، وتلك مصيبة، وإما أنه ينكر ما يقرأ، وتلك مصيبة أعظم.

وعندما نذكُر بجهد النقد في متابعة قصيدة النثر يجب أن نذكُر - أيضاً - بجهد (المبدعين النقاد) وهم كثر، ولكل منه مشاركته الإيجابية الفاعلة، سواء في ذلك المبدعون لقصيدة النثر ذاتها، أو المبدعون الذين لم يقاربوها باعتبارها من المنكر الذي يجب تجنبه.

والذي نخلص إليه في هذا السياق، أن المتابعة النقدية - برغم محدوديتها - قد استطاعت أن تقدم إنجازاً لافتاً طال قصيدة النثر في النشأة والصعود، وطال كثيراً من خواصها التكوينية في الجوهر والشكل، لكن ذلك كله مازال في حاجة إلى المتابعة والتواصل الهادئ.

[٢]

ويبدو أن الحوار حول قصيدة النثر لم يكتف بحضورها الآني، بل إنه اتسع في كل الاتجاهات، وبخاصة اتجاه الزمن الماضي، الذي أصبح مستندًا شرعيًا يساند غيره من المستندات التي قدمتها هذه القصيدة لتأكيد انتمائها إلى دوحة الشعرية.

لكن يبدو - أيضًا - أن جمهرة مبدعي قصيدة النثر يرفضون اعتماد مستند الموروث ضمن مستندات الشرعية، وحجتهم - في ذلك - أن القديم ليس شرطًا دائمًا للجديد.

أي أنهم - دون وعي - يدعون إلى نوع من القطيعة والانفصال، وكأنهم أبناء بلا آباء أو



لنقل: إنهم مغرمون بقتل الأب، ومن ثم يمكن إبداعهم إبداعًا لقيطًا. من أين جاء؟ لا ندرى. وإلى أين يمضى؟ لا ندرى أيضًا.

والشيء اللافت، أنهم لا يعتمدون مستند التراث ثم يصرون على أن إبداعهم ينتمى إلى دوحة الشعرية العربية. وهذا الإصرار يجعل التراث حاضرًا وفاعلاً في هذا الإبداع الطارئ، ومن ثم يصبح حلقة في سلسلة حلقات الشعرية العربية بكل عمقها التاريخى والفنى.

وهكذا يصل الموقف النقدى والإبداعى إلى ازدواجية متناقضة، من حيث رفض اعتماد التراث مستندًا شرعيًا، ثم الإصرار على أن قصيدة النثر تنتمي للشعرية، وأن من يدخل في إطار هذه الثنائية كمن يريد السكنى فى الطابق العاشر من المبنى شريطة ألا يكون أسفله طوابق أخرى مسكونة أو غير مسكونة، أى أن يسكن فى الهواء، يمكن لأقل عاصفة أن تذهب به ومعه سكناه.

إن الرافضين لمستند التراث مثلهم كمثل الذى يريد أن يقدم نفسه لمن لا يعرفه، أو لمن لم يقابله من قبل، فيقول: أنا فلان، ثم يمتنع عن تقديم هوامش توضيحية لشخصيته. صحيح أن مثل هذا التصرف قد يكون نوعًا من الاعتزاز بالنفس بعيدًا عن الألقاب والأوصاف والأصول العائلية والرتب الوظيفية، لكن ماذا يجدى كل ذلك فى تعامل الآخر مع مثل هذا الشخص المخلوع من جذوره، والمبتور عن أصوله؟

ولا شك أن استحضار التراث بوصفه أحد المستندات الشرعية، يتوافق مع العقيدة الإبداعية برسوخ جوهر الشعرية، وهى عقيدة قديمة أشار إليها أبو عبيدة معمر بن المثنى بقوله: «ألم تعلم أن الشعر جوهر لا ينفد معدنه[1]»، وثبات الجوهر يوازيه تغير البناء الشكلى، وهوامشه المصاحبة له، وإضافاته اللاحقة، وعلى هذا الأساس يصح انتماء «قصيدة النثر» للشعرية العربية، ويصبح التراث مستندًا شرعيًا معترفًا به، والقول بغير ذلك يعنى أنها لا تنتمى إلا إلى ذاتها، فإذا كان ذلك هو عقيدة أصحابها، إذن فليعلنوها صريحة، وليقولوا إننا لا ننتمى إلى دوحة الشعر، حتى يتوافق التنظير مع إجراءاتهم الإبداعية.

إن رسوخ الشعرية جعلها محلاً صالحًا لمجمل التطورات الطارئة التى تتناوبها تبعًا للتغيرات المصاحبة فى الزمان والمكان والبيئة، وتغير الواقع الحضارى، فلولا هذا الرسوخ الجوهرى للشعرية، ما كان هذا التجلى المبهر لتحولاتها الشكلية، إذ أن ثبات الجوهر قد أكسبه بعض القداسة الإبداعية، وفى الوقت نفسه، فإن هذه القداسة قد تباعدت تمامًا عن الإطار الشكلى وتوابعه.

ومن الواضح أن ثبات الجوهر قد حول الشعرية إلى «ديوان للعرب»، كما سنوضحه بعد ذلك، ولم يتحقق لها ذلك إلا لأن المخاض والميلاد والنشأة كانت ممتزجة بالتكوين الأول للواقع العربى، ومن ثم امتلك الجوهر قداسته لأنه فوق الذوات المبدعة، بينما لم يمتلك الشكل هذه القداسة لأنه من صناعة المبدعين، ومن ثم فهم أصحاب حق شرعى بالتعديل والتغيير فيه، وحق شرعى فى الحذف والإضافة إليه.

ولا يمكن الادعاء بأن مثل هذا التغيير والتعديل كان يتجه دائمًا إلى الأفضل أو الأحسن، بل إنه معرض للذبذبة والتأرجح بين الصعود والهبوط، تبعًا للتحولات الحضارية، وهوامشها المصاحبة لها، دون أن يتدخل التدرج الزمنى فى الصعود والهبوط. فقد وصلت الشعرية العربية إلى ذروتها الصاعدة فى العصر العباسى، ثم هبطت إلى القاع فيما تلاها، ثم عادت للصعود مع العصر الحديث.

لكن تحولات الشعرية فى الصعود والهبوط ظلت على ولائها الأول للموروث بوصفها تنويعًا طارئًا، وقد يستمر، وقد يتوقف، وقد يتلاشى.

إن المتابع المنصف لمسيرة الشعرية العربية يدرك أن كل مرحلة من مراحل التطور قد استندت على بعض الركائز التراثية التى تحفظ لها انتماءها الأصيل للشعرية العربية، وتنفى عنها الانقطاع، ومن ثم تجد ناقدًا من نقاد القرن الخامس الهجرى هو ابن رشيق فى عمدته يذكر «امرؤ القيس» الذى جسد بكورة الشعرية، ويقول عن الشعراء الذين جاءوا بعده «لا يكادون يفلتون من حبائله».

وقد تجلى التواصل مع التراث فى مرحلة «الإحياء» تجليا كليا وجزئيا، بل إن المصطلح نفسه «الإحياء» يمثل إشارة واضحة على أن المرحلة كانت عملية استحضار للشعرية العربية فى أخصب مناطقها.

وقد حافظ هذا التواصل على مجمل تجلياته فى المرحلة الرومانسية برغم مغامراتها مع «المعنى» تارة، ومع البناء الشكلى تارة أخرى، بل إن الوعى النقدى الصحيح يمكن أن يدرك مدى التداخل التطورى بين حركة الإحياء والمرحلة الرومانسية، كما يمكن أن يلاحظ أن شعر الإحيائيين كان مشحونًا بمؤشرات رومانسية، وأن الشعر الرومانسى كان مشحونًا بإجراءات إحيائية.

وظل التواصل مع التراث حاضرًا فى مرحلة «التفعيلة» والتسمية ذاتها «التفعيلة» تؤكد اعتماد التراث مدخلاً لها.

وأعتقد اعتقادًا جازمًا أن حضور التراث قد صاحب ظهور «قصيدة النثر»، فلولا الوعى التراثى بوجود منطقة مشتركة يمكن أن يجتمع فيها الطرفان: الشعر والنثر، ما كان لها أن تكون، وما كان لها أن تحتل، هذه المساحة المحترمة فى عالم الإبداع. صحيح أن الروافد الأجنبية قد تدخلت ـ بالضرورة ـ لكن تدخل الوافد الأجنبى لم يقتصر على مرحلة «قصيدة النثر»، بل يكاد يكون موازيًا لتاريخ الشعرية العربية فى القديم والحديث على السواء، لكن هذا التدخل متذبذب فى الصعود والهبوط، يزيد فى مرحلة، ويقل فى أخرى، لكنه لا يغيب تمامًا.

إن رصد مراحل التطور التى مرت بها الشعرية، يقتضى رصد عناصر التراث المصاحبة لها، ورصد العناصر الوافدة الدخيلة عليها، لأن هذا الرصد هو الذى سوف يحدد أفق التجريبية الملازمة لها، من حيث هى مغامرة واعية بماضيها وحاضرها، وواعية بأفقها الآتى واحتمالاته التكوينية، وهذا الوعى هو الذى يحمى المغامرة التجريبية من أن تستحيل إلى عملية هدم وتخريب، لا تبقى على حاضر ولا تعطى أملاً فى مستقبل.

ولا شك أن التطور الملازم للشعرية يمثل خطًا موازيًا لتحولات الواقع العام والخاص. والتحولان ـ معا ـ يمثلان جدلية صاعدة هابطة، لأنه من المسلم به أن كل مغامرة تجريبية يمكن أن تصعد إلى الأفضل، لكنها ـ أيضًا ـ يمكن أن تهبط إلى الردئ، لكن فى هذا أو ذاك، لا يمكن القول ـ أبدًا ـ أن هناك إبداعًا قد وصل إلى الكمال، أو اقترب منه. ومن يتابع الخطاب النقدى فى القديم والحديث يدرك أن معظم منجزاته قد تعلقت بالجوانب السلبية فى كل مرحلة أكثر من تعلقه بالجوانب الإيجابية، لكن الحكم النهائى على أى مرحلة من مراحل الشعر يجب أن يكون فى إطار نظرة كلية لها، وأعتقد أن هذا ما تحقق عندما اعتمد الدارسون مراحل الشعرية فى أطرها الكلية يرصدون خواصها ويحددون جمالياتها، وفى الوقت نفسه يكشفون ما بها من عوار، فهناك المرحلة الجاهلية، وصدر الإسلام والأموية.. إلخ. والحكم النقدى على كل مرحلة، لا ينظر فى سلبياتها فحسب، ولا فى إيجابياتها فحسب، وإنما يطول الحكم المرحلة فى كليتها.

[٢]

مهما أوغلت الحداثة في عزل النص عن هوامشه الخارجية، فإنها لا يمكن أن تعزل تحولات الإبداع ـ جملة ـ عن تحولات الواقع المحيط به، إذ أن التحولات تكون استجابة حتمية للوارد الخارجى بكل تفاعلاته الصاعدة أو الهابطة، الناعمة أو الخشنة.

معنى هذا أن «قصيدة النثر»، استجابة لزمنها، لكن هذه الاستجابة كانت مسبوقة بمؤشرات صريحة أحيانًا، وضمنية أحيانًا أخرى، والمؤشرات ـ فى مجملها ـ كانت بمثابة «بشارة» الميلاد، التى صدرت من مناطق نثرية خالصة، مثل الإشارات الصادرة من نصوص المنفلوطى والرافعى وجبران وطه حسين وسواهم من الكتاب الناثرين، والتى صدرت من مناطق شعرية كثيرة، كتلك الصادرة من إبداعات بشر فارس وإبراهيم شكر الله، وباكثير وعبد الرحمن الشرقاوى وسواهم، ثم كانت هناك الإشارات الصادرة من مناطق تمزج بين الشعر والنثر، وبخاصة منطقة «الترجمة» التى قدمت الشعرية غير العربية فى صيغة نثرية خالصة.

واللافت فى هذا السياق أن زمن «قصيدة التفعيلة» فى مصر، كان موازيا لزمن «قصيدة النثر» فى لبنان، فكانت أصوات الماغوط وأنسى الحاج وسركون وسعيد عقل موازية لأصوات صلاح عبد الصبور وحجازى فى مصر، ونازك الملائكة والسياب والبياتى فى العراق. وقد يرى البعض أن ذلك راجع إلى الطبيعة اللبنانية وميلها الصريح إلى المغامرة والهجرة المادية والمعنوية، واستجابتها غير المحدودة لواردات الغرب، فقصيدة النثر كانت نوعًا من التجاوب مع هذه الطبيعة المغامرة.

والشيء المؤكد أن للمصريين مغامراتهم التجريبية، وقصيدة التفعيلة ذاتها كانت نوعًا من هذه المغامرات، لكن مغامرة المصريين تتم فى إطار من التواصل مع السابق، أى أن المغامرة لا تؤمن بالطفرة التى قد تؤدى إلى التعثر وإنما تؤمن بالصعود الآمن والتحرك المنتظم، فقد ظلت قصيدة النثر محصورة ومحاصرة فى منطقة المنشأ، بينما أخذت قصيدة التفعيلة فى الانتشار حتى أصبحت صاحبة السيادة فى مسيرة الشعرية العربية.

وهذا الحصار كان ناتجًا للإحساس العام الذى سيطر على الواقع الأدبى آنذاك، إذ لم يتقبل هذا الإبداع الطارئ لأنه كان نوعًا من التناسخ مع النموذج الغربى، بينما شعر التفعيلة كان نوعًا من التشكيل على القصيدة العربية بكل عمقها التراثى.

ولا يعنينا هنا أن ندخل فى الجدل حول منطقة النشأة فى مصر أو غيرها من البلدان العربية، كما لا يعنينا الدخول فى جدل حول صاحب البدايات الأولى للتفعيلة، إنما الذى يعنينا أنها مثلت مرحلة مهمة وخطيرة فى تاريخ الشعرية



أعتقد اعتقاداً جازماً
أن حضور التراث قد صاحب ظهور
«قصيدة النثر»، فلولا الوعى التراثى
بوجود منطقة مشتركة يمكن أن يجتمع فيها الطرفان:
الشعر والنثر، ما كان لها أن تكون،
وما كان لها أن تحتل، هذه المساحة
المحترمة فى عالم الإبداع

العربية، بينما مثلت قصيدة النثر اللبنانية مرحلة استثنائية، ومن ثم لم تتقبلها الذائقة الشعرية، ولم تقبل عليها إلا في منتصف السبعينيات من القرن الماضي تقريبًا، ولم يتحقق القبول ثم الإقبال إلا بعد توثيق هذه النوعية بجذور تراثية من ناحية، وفروع وافدة من الغرب من ناحية أخرى، وهذا التوثيق يعني خصوبة الثقافة الحاضرة، وأنها ثقافة حضارية من الطراز الأول، لأنها لا تعرف الانغلاق والجمود، بل تؤمن بالتلاقح، ولا تعرف الانعزال والانقطاع، لأن الانعزال موت بطيء، لكنها - في الوقت نفسه - لا تعرف الذوبان في مواجهة الوافد المهيمن.

لقد ظلت «قصيدة النثر» تخايل المبدعين منذ منتصف القرن حتى السبعينيات، ثم - فجاة - حدث ما يمكن أن نسميه «هجرة جماعية» أو شبه جماعية من السبعينيين إليها، ثم جاء بعدهم التابعون، وتابعو التابعين من الثمانينيات والتسعينيات، وإن ظل الستينيون على ولائهم للتفعيلة، صحيح أن بعضًا منهم قد أغوته قصيدة النثر فمارسها في إبداعات مفردة، لكنهم ظلوا متمسكين بمنطقتهم الإبداعية بوصفها منطقة الشعرية الحقة.

وهنا يحتاج الأمر إلى وقفة قصيرة لتأمل الحاضر الإبداعي لقصيدة النثر، وحال المهاجرين الأول، وحال التابعين وتابعي التابعين.

لقد كانت غالبية المهاجرين الأول من شعراء التفعيلة، ولهم فيها إنجازات لافتة، مما يؤكد امتلاكهم للموهبة والأدوات على صعيد واحد، أي أن الهجرة لم تكن عن جهل بقوانين الإيقاع، ولا حتى للتخفف من قيودها كما يدعي البعض.

وأعتقد أن امتلاك السبعينيين لهذا الرصيد حفظهم من الانقطاع والعزلة ووضعهم في دائرة التراكم التواصلي، وهي الدائرة الشرعية لكل إبداع شعري أو غير شعري.

أما من هاجر بعدهم، فكان أحد اثنين، الأول: امتلك ما امتلكه سابقوه من رصيد وقدرات إبداعية، ومن ثم جاء إنتاجهم - في قصيدة النثر - ملتحمًا بقصيدة السبعينيين، مع إضافات تختص بهم وترتبط بشعريتهم.

الآخر: ذلك المهاجر دون دوافع حقيقية للهجرة، ودون امتلاك الأدوات التي تجعل هجرته عملاً مأمونًا ومشروعًا، وغياب الدافع والأداة، جعل الهجرة نوعًا من التمرد العشوائي، فهم يقولون إننا لم نهاجر رغبة في الجديد، وإنما كانت الهجرة لرفض الإبداع المحيط بهم، وقد تشكل هذا الرفض في أطر من التجريح الخشن الذي طال الشعرية العربية في جملتها، فهم يقولون: كيف يمكن لنا أن نتحرك راكبين الحمر والبغال وسط السيارات الفارهة؟ وكيف نرحل بين القارات فوق الجمال وسط الطائرات والصواريخ؟

وتضخم الرفض، وتجاوز الإبداع إلى المبدعين، حيث رأى الجيل الأخير من المهاجرين أن من سبقهم وزامنهم من التفعيليين والعموديين هم مجموعة من الرجعيين أشبه بالجماعات الإرهابية والأصولية التي لا هم لها إلا السباحة في المياه الراكدة، ولا هم لها إلا أن تصادر حق المبدعين في المغامرة الحداثية، فهم يعيشون في غير زمنهم، ومن ثم لم يألفوا العالم الجديد، ولم يستوعبوا مستجداته، أو ربما استوعبوها على نحو شائه، ولذا فإن تعبيرهم عنها تعبير شائه، هو تعبير الذي يعيش زمانًا ومكانًا حاضرين، لكنه يرحل بإبداعه إلى زمان ومكان لم يعد لهما وجود تنفيذي على نحو من الأنحاء.

ويبدو أن الجيل الأخير من المهاجرين لم يدرك بعد أن قصيدة النثر ليست نهاية المطاف في تحولات الشعرية، وأنها لا تمثل إلا مرحلة من مراحلها، أو تمثل تنويعًا على مراحلها، ذلك أن الشعرية لم تعرف التوقف ولن تعرفه.

فكل مرحلة هي مولود لمرحلة سابقة، - وقد تتعدد المواليد - ثم هي بشارة لمرحلة آتية. أما كيف تكون المرحلة الآتية، فهذا ضرب من التخمين لا تحتمله طبيعة الدراسات الإنسانية عمومًا، والشعرية على وجه الخصوص، لأن الإبداع ليس ظاهرة طبيعية لها شروطها المحددة التي تقدم إمكانية التنبؤ بها، وإنما هو ظاهرة إنسانية غير قابلة للوقوع في إطار التنبؤ بحال من الأحوال. وأظن لو أن المتنبي قد بعث اليوم وقرأ قصيدة من قصائد التفعيلة أو من قصائد النثر لاستلقى على قفاه من الضحك والسخرية.

إن الذي نخلص إليه من هذا المحور من متابعة الحوار حول قصيدة النثر، أن من يتقبلونها ويقبلون عليها، يعترفون بأن جانبًا مهمًا من مشروعيتها يعتمد التراث العربي القديم. حيث تجلى الوعي الجاهلي بإمكانية إنتاج الشعرية في صيغة نثرية، ومن ثم ادعوا أن «القرآن شعر» برغم أنه لا تنطبق عليه قوانين الشعرية. وقد امتد هذا الوعي إلى الموروث العرفاني بإنجازاته اللافتة في النثرية الصاعدة إلى أفق الشعرية.

إذا كان هذا هو موقف المتقبلين في اعتماد التراث، فإن الرافضين - أيضًا - قد اعتمدوا التراث في رفضهم لقصيدة النثر، لأنها خروج جارح على كل موروث الشعرية العربية بكل تقاليدها الفنية والجمالية والإيقاعية، وقد تحول هذا الاعتماد التراثي إلى نوع من الإرهاب الذي يقترب من عملية التكفير.

[٤]

سافر الشعر في الزمن العربي محاطًا بهالة من القداسة بوصفه «ديوان العرب»، وعلل لذلك ابن رشيق في عمدته بأن العرب «احتاجت إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه، سموه شعرًا»[٢].

لا شك أن هذه العقيدة الإبداعية الملازمة للشعرية كانت نتاجًا للواقع الحضاري المسيطر آنذاك، وهو واقع يغاير واقعنا الحضاري اليوم مغايرة تكاد تكون شاملة وكاملة، ومن ثم فإن مقولة «ديوان العرب» لم يعد لها هذا اللزوم القديم، إذ أن الواقع الحضاري اليوم له تقنياته وأشكاله التي تتقبل المقولة القديمة في شيء من التحفظ، لأن أدوات الحضارة قد استحدثت وسائل يمكن أن تؤدي المهمة السابقة للمقولة على نحو أكثر دقة وكفاءة.

لا شك أننا نعيش زمن «الصورة» بكل تقنياتها المعرفية والجمالية، وبكل طاقتها التسجيلية والتخزينية. وهو ما أحدث تعديلاً في ذائقة التلقي، وبخاصة تلقي الفنون القولية، والتعديل في الذائقة أتاح لأنواع جديدة أن تتدخل وتفرض وجودها الإبداعي بوصفها إضافة، وليس بوصفها بديلاً، ومن هذه الأنواع «قصيدة النثر» التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، حيث يجاهد الدارسون لتحديد مداخلها ومخارجها، وتجميع خواصها الفارقة تمهيدًا للوصول إلى تحديد معرفي كاشف لحقيقتها التكوينية، وإن كان هذا الوصول مازال في مرحلة المخاض، ذلك أن نوعيتها مراوغة بطبعها، وعصية على التحديد.

وبرغم المراوغة والعصيان، فإن هناك مؤشرات صاحبتها منذ بداياتها الأولى، ومازالت تصاحبها حتى الآن، ويمكن تجميع أطراف هذه المؤشرات وطرحها بوصفها مقدمة أولية لمن يريد استقبال هذه النوعية في إطارها الطاري:

وأعتقد أن الإشارة الأولى التي تأخذ بيدنا إلى آفاق النوعية لقصيدة النثر، تتمثل في عقيدتها الإبداعية، إذ أن المألوف في تاريخ الشعرية - عمومًا - أن تتوجه إلى العالم لتنقله من طبيعته الوجودية إلى طبيعتها الجمالية، أو على معنى آخر، إن الشعرية كانت تعمل على «تشعير العالم»، وقدمت في هذا السياق إنجازات لافتة في كل مرحلة من مراحلها القديمة والحديثة. لكن قصيدة النثر لم تسر في هذا الطريق المطروق، وإنما آثرت - بداية - أن تبحث عن المناطق الشعرية في العالم، لكي تستصفيها لنفسها، وتمارس فيها إبداعيتها، أي أنها انتقلت من العموم إلى الخصوص، فلم يعد من هم الشعرية نقل الواقع إلى الشعر، بل همها «فحص» المناطق الشعرية والوصول إليها، ثم الوقوف عندها، وفرق واضح بين الاتجاهين، ففي الاتجاه الأول تبدأ الحركة من الإبداع لتتصل إلى العالم فتنقله إليها، وفي الاتجاه الآخر تبدأ الحركة - أيضًا - من الإبداع، لكي تصل للعالم، لكنها تستبقيه في موضعه لتمارس فاعليتها الاختيارية في بعض مناطقه فحسب.

وهذان التوجهان يتوافقان مع الطبيعة الإدراكية، حيث اعتمدت الشعرية - عمومًا - الرؤية أداة للإدراك، والرؤية - في حقيقتها - نوع من الإدراك الكلي، بينما تخلت قصيدة النثر عن «الرؤية» لتعتمد «المشاهدة» بكل عمقها العرفاني، والمشاهدة تتنافى مع الإدراك الكلي، لأنها لا تتعامل إلا مع «المادة الأولية» للموجودات، بوصفها أكثر المناطق إيغالاً في الشعرية.

معنى هذا أن الشعرية لم تعد تكتفي بمقاربة العالم، بل إنها تسعى للالتحام به التحامًا حميمًا، حيث يكون تعبيرها عنه، هو تعبير عن ذاتيتها الخالصة، وتعبيرها عن ذاتها هو تعبير عن العالم الذي شاهدته والتحمت به.

وهذا التوجه يقودنا إلى الإشارة الثانية الصادرة من قصيدة النثر، واللافت أنها إشارة تكاد تكون خارج دائرة الحداثة، ذلك أن هذه الدائرة أوغلت في اعتماد التلقي والمتلقي اعتمادًا كليًا، بينما قصيدة النثر قد استبعدت المتلقي من حساباتها استبعادًا مؤقتًا، فحرصت على أن تكون صادقة مع نفسها أكثر من صدقها مع الأخر، بل إنها قد تكون صادمة للأخر في كل مخزونه الثقافي والمعرفي والعرفي، بل فيما فوق ذلك وتحته.

إذن لم يعد للمتلقي حقوق قبل قصيدة النثر، ولم يعد مسموحًا له بممارسة سطوته عليها، وتوجيهها حسب احتياجاته الخاصة أو



معنى هذا أن «قصيدة النثر» استجابة لزمنها، لكن هذه الاستجابة كانت مسبوقة بمؤشرات صريحة أحيانا، وضمنية أحيانا أخرى، والمؤشرات - في مجملها - كانت بمثابة «بشارة» الميلاد، التي صدرت من مناطق نثرية خالصة، مثل الإشارات الصادرة من نصوص المنفلوطي والرافعي وجبران وطه حسين وسواهم من الكتاب الناثرين



العامة، لكن ليس معنى ذلك أنها استعادت الزمن الرومانسى بكل عمقه الذاتى، فذلك ما ينافى طبيعتها الجمالية، وإنما المعنى الذى تستهدفه أن تجعل السيادة للنصّية ذاتها، فهى خارج نفوذ كل الأطراف المتعاملين معها، ومن ثم فإنها تحاول تعديل الميزان لتميل بكفته إلى النصّية بعد أن ظلت فترة طويلة تميل إلى جانب المبدع، ثم جاءت مرحلة الحداثة لتميل بالكفة تمامًا إلى جانب المتلقى.

الإشارة الثالثة تأتى فى إطار جماعى، تتكاثر فيه الخواص الطارئة، وفى مقدمة هذه الخواص، نفور قصيدة النثر من الأبنية الزخرفية، سواء أكانت أبنية خارجية أم كانت أبنية داخلية، لأن معظم هذه الأبنية قد فقدت قدرًا كبيرًا من جمالياتها، لأنها دخلت فى طور التكرارية التى استهلكت قدرًا وافرًا من هذه الجمالية، ولا نقصد بهذه الأبنية ما كان يسمى «المحسنات»، لأن هذه المحسنات قد وجدت لها سكنًا مريحًا فى قصيدة النثر، لا بوصفها محسنات، وإنما بوصفها لبنات تركيبية مشحونة بطاقة جمالية مسموعة ومرئية وملموسة على صعيد واحد.

لكن المقصود: تلك الأبنية الشكلية الضابطة لهندسة الصياغة والدلالة معًا، إذ إن الشكل لم يعد من احتياجات قصيدة النثر، لأن احتياجها منصب على الحقيقة الجوهرية للشعرية التى لازمتها منذ أطلت على الواقع العربى القديم، وهى حقيقة النصّية ولا شىء سواها.

إن ابتعاد قصيدة النثر عن الأبنية الزخرفية، قد دفعها إلى مفارقة «النقاء العرقى» و«الصفاء اللغوى»، إذ هما ينتميان إلى مثالية لم يعد هذا أوانها، حيث الزمن اليوم زمن «الهجنة» واختلاط الأنساب الإبداعية، وتداخل المعايير الجمالية، والأعراق الاجتماعية، وأصبح من العسير الفصل بين النقى والمشوب، والصافى والعكر، لتغير المعايير التى يقاس بها هذا وذاك، حتى أصبح النقاء والصفاء نوعين من القوالب الجامدة أو المحفوظة التى فقدت حيويتها، ومن ثم فقدت شرط الصلاحية، ومن ثم سعت قصيدة النثر للخروج من مثل هذه القوالب برفضها للثنائيات الجاهزة: «دينى - دنيوى»، «تقدمى - رجعى»، «ظاهر - باطن»، «حقيقى - متخيل»، «اتساق - فوضى»، «ذاتى - موضوعى»، «فردى - جماعى»، «جميل - قبيح» ثم تمردت على الثنائية المقدسة: «شعر - نثر».

إن تمرد قصيدة النثر على مثل هذه الثنائيات كان توافقًا مع مصدر إنتاجها الطارئ «المشاهدة»، هذا المصدر الذى ربط الشعرية «بالجوهر الخام»، أو: المادة الأولية - كما سبق أن ذكرنا -، عندما كانت الشعرية هى العالم، والعالم هو الشعرية، ومن ثم استحقت أن تكون «ديوان العرب»، لكن هذه الديوانية أخذت فى الغياب التدريجى لتستحيل الشعرية إلى «طاقة تأثيرية» وتحريضية فى الوقت نفسه، أى أنها تحولت من مهمة رصد حركة العالم، إلى مهمة إفساح الطريق أمام المتحركين، ثم تابعت الشعرية تحولاتها الوظيفية لتمارس فاعلية مزدوجة بين «التدمير والتكوين»، تدمير ما هو قائم بالفعل، ثم إعادة تكوينه، أو البدء فى تكوينات جديدة وفق شروط خاصة بعيدًا عن المحفوظ والراكد والمبتذل، سواء أكان ذلك وافدًا أم متسربًا من الواقع القديم.

لقد حققت قصيدة النثر بهذه الإشارات ما كانت تستهدفه من التوحد بالعالم، فى مناطقه الشعرية، أو لنقل إنها أصبحت العالم فى شعريته، أو هى الشعر فى عالميته، حيث انكسرت الحواجز النوعية، وتداخلت الأجناس القولية وغير القولية، وأصبح مألوفًا أن تحل الشعرية فى نصوص غير شعرية، وحضور النثرية فى نصوص شعرية، وأصبح من المأنوس أن نواجه فى النص كمًّا هائلاً من السرد والحوار ملاصقًا لكم وافر من الغنائية والذاتية المفرطة، وأصبح من المأنوس حضور التفاصيل اليومية والمفردات الحياتية والهموم الوقتية خلال المجاز والرمز والإشارة، أى أن مساحة المشترك صارت أوسع وأكبر من مساحة الخاص والتفرد.

إن اتساع مساحة المشترك كان نوعًا من التجاوب مع «سيولة العالم» وذوبان حدوده الفارقة، وظهور ما يمكن أن نسميه «أدبيات العولمة» بكل طاقتها العقلانية وعمقها الفردى، على معنى أن الحضارة التكنولوجية لابد أن توازيها حضارة أدبية من طراز خاص، تتحسس طريقها بين الخصوصية والعالمية، بين جاذبية التراث، وعصرية المشاهدة، أى أن قصيدة النثر - على هذا الأساس - تمثل استراتيجية أدبية لها آلياتها الجمالية التى يمكن أن تضيف قيمًا للشعرية لم تكن لها من قبل، وأن تتيح لها مسالك لم تسلكها من قبل، على أن يكون فى الاعتبار إمكاناتها الخاصة فى تعديل مسارها كلها تحركت من مرحلة إلى مرحلة أخرى، وإمكاناتها الذاتية فى توسيع دائرة المشترك التى أشرنا إليها.

إن ملامح «العالم القرية» بكل خواصه الكونية يكاد يلغى الفارق الحاسم بين «الخاص والعام» وليست قصيدة النثر إلا تجاوبًا مع هذا الإلغاء، إذ أنها تستحضر عمومية النثر، لتمزجها بخصوصية الشعر، ليكون الناتج هذه النوعية الطارئة «قصيدة النثر».

ومن المؤكد أن هذه القصيدة مازالت على «الأعراف» بوصفها منطقة الانتظار، لكنه ليس انتظارًا سالبًا، وإنما هو انتظار إيجابى يتيح لها أن تستكمل تكوينها الإبداعى الذى يغاير ما سبقها من شعريات، ونؤكد هنا على كلمة «المغايرة» حتى لا يفهم البعض أننا ندعو إلى انقطاع قصيدة النثر عما سبقها من شعريات عربية، ويمكن تلخيص هذه المغايرة فى عدة إجراءات جاء بعضها هادئًا وناعمًا أحيانًا، وجاء بعضها حادًا وخشنًا أحيانًا أخرى.

وفى هذا الإطار تتبدى ملامح التحدى بين قصيدة النثر و«المعنى» إذ هى تقاومه، وهو يراوغها، وانتهى الأمر إلى أن تعاملت معه فى حدود اقتصادية، لا تعترف «بالفائض» الدلالى من ناحية، ولا تقيم اعتبارًا «للمخزون» التراكمى من ناحية أخرى، وإنما يقتصر تعاملها على «البضاعة الحاضرة» دون حذف أو إضافة، وتبع ذلك أن أعلنت ثورتها على الخيال المجفف، والمجاز المعلب، هذا المجاز الذى سبق أن أطلق عليه ابن جنى «المجاز الميت»، ثم امتدت الثورة إلى التراكيب المترهلة، والأبنية الآيلة للسقوط بعد أن تناوب عليها آلاف السكان.

إن قصيدة النثر بهذه الثورة البيضاء تستحدث لنفسها بلاغة جديدة، فالمجاز الذى يغويها، «مجاز النص»، لا مجاز الصورة المحدودة، هو المجاز الذى نسى اعتماد طرفين أساسيين، ليحلق مع الطرف الواحد حينًا، وتعدد الأطراف وتكاثرها حينًا آخر، ثم غياب جميع الأطراف فى حين ثالث، إنه المجاز الذى يلتبس بالحقيقة ذاتها، ولا شك أن هذه البنية البلاغية الجديدة تحتاج إلى قدر من الضبط المعرفى، كما تحتاج إلى قدر من الإجراء التطبيقى، والأمران لا تتسع لهما هذه الدراسة التى تسرع بالمشاركة فى الحوار القائم على الساحة الأدبية، ومن ثم فإنها تتحرك تحركًا تنظيريًا يلامس أطراف المسائل، ويدفعها إلى مساحة الضوء حتى تكون صالحة للمتابعة الاستغراقية تنظيرًا وتطبيقًا.

[٥]

لقد رصدنا فى المحور السابق بعض الإشارات التوضيحية الصادرة من قصيدة النثر، ولم نتوقف أمام إشارتها الأولى التى تكاد تكون محور الجدل والنقاش حولها، ونعنى إشارتها «الإيقاعية»، ونعتقد أن هذه الإشارة كانت بداية الفاعلية الضدية، أو لنقل إنها كانت المدخل الأساسى لجموع الرافضين.

فما موقف قصيدة النثر من الإيقاع؟

لا شك أن قصيدة النثر تعتمد النصّية - بداية ونهاية - ومن طبيعة النص أن يتخير إيقاعاته، سواء أكانت إيقاعية أم دلالية، محفوظة أم طارئة، وهو فى هذا الاختيار يخضع لفرديته، ومتطلباتها، أو لنقل: إن النص هو الذى يقترح إيقاعه السطحى والعميق، والتدقيق فى هذين المستويين يمكن أن يقودنا إلى تحديد هذا الإيقاع، وتحديد عناصره، وكشف شروطه الإنتاجية.

الإيقاع - فى قصيدة النثر - نابع من الاحتياجات الداخلية، بحيث لا يشارك غيره فى هذه الاحتياجات، كما أن غيره لا يشارك فيها، سواء أكانت احتياجات روحية أم عقلية أم عاطفية أم بصرية أم سمعية أم حتى حسية.

ومن الخطأ الفادح تصور انفصال إيقاعية قصيدة النثر انفصالاً كاملاً ومطلقًا عن إيقاعية الشعر العربى، فمهما ارتفع الإيقاع فى الشعر، وانخفض فى قصيدة النثر، فإنه لن يخرج عن نطاق «الحركة والسكون» وتحولاتهما فى الاقتراب والابتعاد والتداخل، وهذه التحولات مسموعة بوضوح فى ا لشعر، لكنها خافتة فى قصيدة النثر، ومن ثم فهى فى حاجة إلى إنصات تام حتى يمكن الإحساس بها، ولأننا لم نحسن الإنصات، أصدرنا الحكم الفورى بغياب الإيقاع عنها، وأصبح هذا الحكم سند معظم الرافضين.

فى متابعتنا لموقف قصيدة النثر من الإيقاع، نلاحظ إهمالها لبنيات الإيقاع الجزئية، وعنايتها البالغة للبنية الكلية لهذا الإيقاع، وهى - فى ذلك - تتوافق مع الإيقاع الكلى للعالم الذى تغيب إيقاعيته إذا ركزنا المتابعة على مفرداته الجزئية، فنحن عندما نتأمل لوحة طبيعية أو تشكيلية على نحو جزئى، فسوف نفتقد فيها التناسق، بل ربما تجلت أمامنا نموذجًا للتنافر، حيث لن نجد تناسقًا بين (منزل) بجواره (كائن بشرى أو حيوانى)، ثم بينهما (شجرة) متشعبة الفروع والأغصان، لكن تجميع هذه التكوينات على نحو مخصوص من التقارب والتباعد والصغر والضخامة، هو الذى يحقق لها الاتساق والانتظام، وأظن أن إيقاع قصيدة النثر شىء قريب من هذا النمط التكوينى، لأنه يعطى إيقاعيته الصوتية والدلالية كليًا لا جزئيًا، لكن الوقوع على هذا



> **ظلت «قصيدة النثر» تخايل المبدعين منذ منتصف القرن العشرين حتى السبعينيات منه، ثم - فجأة - حدث ما يمكن أن نسميه «هجرة جماعية» أو شبه جماعية من السبعينيين إليها، ثم جاء بعدهم التابعون، وتابعو التابعين من الثمانينيات والتسعينيات، وإن ظل الستينيون على ولائهم للتفعيلة**

الإيقاع، والإمساك بخواصه مازال فى مجال الفحص والدراسة، أى أن ما قدمناه يمثل فرضاً، يحتاج مجاهدة ليصبح قانوناً.

وأعتقد أن الفحص يجب أن يبدأ من ثنائية (الحركة والسكون)، لأنها الثنائية التى تحكم اللغة العربية فى كل منطلقاتها الكلامية، وقصيدة النثر أحد هذه المنطلقات، لكنها عندما تخضع للحركة والسكون، فإنها تتعمد ربطهما بعلاقات محددة، سبق أن رصدها العروضيون القدامى، وبهذا الربط تظهر الأبنية الصوتية فى شكل: أسباب ثقيلة وأسباب خفيفة، أوتاد مفروقة وأوتاد مجموعة، فواصل صغرى وفواصل كبرى.

لكن هل تعاملت قصيدة النثر مع هذه الأبنية المحفوظة كما تعاملت معها الشعرية العربية فى بنائها العمودى أوالتفعيلى، أم أنها استحدثت لنفسها إجراءات أخرى تنبع من احتياجاتها الخاصة، أم أنها استحدثت لنفسها إجراءات أخرى تنبع من احتياجاتها الخاصة، أم أنها أهملتها إهمالاً كلياً أو جزئياً، وتركت للحركة والسكون أن يمارسا حضورها على نحو عشوائى؟

الإجابة عن هذا التساؤل الخطير تحتاج إلى متابعات فردية وجماعية مغلفة بنوع من السماحة والمودة، ثم ضم هذه المتابعات إلى متابعات أخرى كانت تتحسس الإيقاع فى أبنية أخرى مثل الإيقاع الحركى، ونعنى به التشكيلات الصوتية الناتجة من الحركات (الكسرة - الفتحة - الضمة)، والإيقاع الحرفى فى تشكيلاته المتعددة، والإيقاع البديعى، والإيقاع الصرفى، ثم الإيقاع النحوى، وكلها أنظمة لها حق المشاركة فى إنتاج إيقاعية قصيدة النثر.

ولكى تكون مجموع المتابعات منصفة ومتوازنة، لابد أن تضع فى اعتبارها أن قصيدة النثر لم تعد حريصة على (الأفضل) - كما هو السائد فى تاريخ الشعرية العربية، وإنما حريصة الحرص كله على (الأنسب). أى أنها تؤثر الابتعاد النسبى عن «المثال» الفنى، لتقترب كثيراً من الواقع الإبداعى، ومن ثم فإنها تؤثر «الصحة الجمالية» على «الصحة اللغوية»، وتؤثر «الصحة الإيقاعية» على «الصحة الموسيقية».

ونحترس هنا حتى لا يدخل عليها الظن بأن إيثار الصحة الجمالية على الصحة اللغوية معناه أنها تسمح بالخطأ اللغوى، لأن عقيدتها أنها لا تقارب هذا الخطأ، بل إنها تكاد تنفر من مصطلح «الضرورات» الذى أنتجته الشعرية حرصًا على سلامتها العروضية، وإيثارها هذه السلامة على السلامة اللغوية.

وإنما الذى نعنيه أن قصيدة النثر لم تعد حريصة كل الحرص على «اللغة الفصحى» وإنما هى ترضى «بالفضيحة» طالما دخلت دائرة «الأنسب»، بل إن حرصها على الأنسب، يدفعها بالنزول من «الفضيحة» إلى «التداولية» لتحقيق الالتحام الحميم بالواقع، وليس مجرد معايشته على البعد.

معنى هذا كله، أن قصيدة النثر ترى نفسها فوق «الشكل»، وخارج دائرة نفوذه، لأنها سلبته كل هوامش القداسة التى اكتسبها من عمقه التاريخى، لكن من المؤكد أن تعاليها على الشكل قد أضفى عليها قدرا من اللبس، حتى استعصت على التجديد المعرفى، وكل المحاولات النقدية التى سلكت هذا السبيل، كانت تحددها بالسلب، فهى ليست القصيدة العمودية، وليست الموشحة، وليست التفعيلية، وليست الشعر المنثور، وليست النثر الفنى، وليست النثر العادى.

إنها خارج إطار هذه النوعيات، لكنها ربما تكون كل هذه النوعيات، لكنها - وهذا هو الأمر المهم - ليست بديلاً عن أى منها، فحضورها لا ينفى سواها، لكن المؤسف أن أصحاب الأنواع الأخرى ينفونها من حديقة الإبداع، بوصفها نوعا لقيطًا لا ينتمى إلى دوحة الشعرية العربية، بل لا ينتمى إلى دوحتها النثرية.

[٦]

واضح أن المحور السابق قد تبنى وجهة نظر أصحاب قصيدة النثر، أو لنقل: إنه طرح وجهة نظرهم طرحًا مجردًا، والموضوعية تقتضى أن نطرح الدراسة وجهة النظر المقابلة التى تبناها الرافضون، لأن رفضهم لم يقف عند حدود «السلب» بل إنهم حولوا الرفض إلى طاقة هجومية عنيفة تسلطت على قصيدة النثر، وتسلطت على كل من له علاقة بها من مبدعيها أولاً، ثم من تقبلها من النقاد ثانيًا، بل إن هذا الهجوم قد لاحق من وقفوا منها موقفًا محايدًا.

لقد انطلقت الموجة الأولى من الهجوم إلى مبدعى قصيدة النثر، وبخاصة الجيل الأول من المهاجرين الذى رحلوا من منطقة التفعيلة بعد أن أنجزوا فيها شعرية لافتة، تنتمى إلى الشعرية العربية أولاً، ثم تنتمى لجيل السبعينيين ثانيًا.

وتزداد حدة الهجوم على هؤلاء المهاجرين، لأن هجرتهم كانت مسلحة بقدرات إبداعية، ومواهب شعرية، فما أنتجوه بعد الهجرة - له نوع من القبول فى إطار هذه النوعية الطارئة «قصيدة النثر».

لكن هؤلاء المهاجرين مسئولون عن الانتكاسة التى حلت بالشعرية العربية عمومًا، لأن هجرتهم قد أغوت آخرين من فاقدى الموهبة، وفقيرى الأدوات، أغوتهم على ارتكاب «جريمة الإبداع الشعرى» المزيف تحت مصطلح «قصيدة النثر»، بل شجعت أصحاب البدايات على التعامل الفورى مع هذه النوعية دون تهيئة ثقافية وجمالية وإبداعية مناسبة، لأنهم وجدوا فيها منطقة صالحة للكسل العقلى، والاسترخاء الذهنى، والركود النفسى والعاطفى، ثم هى منطقة صالحة للتسول الصياغى، والانتهاب التركيبى، والاحتذاء الإفرادى.

لقد تحولت ساحة الإبداع إلى «ساحة للعشوائية»، فأصبح الجميع شعراء، بمجرد «وضع اليد» على نص أو نصين من نصوص تلك المراهقات الفكرية والعاطفية، ومن نصوص الخواطر الساذجة والمسطحة، ومن نصوص أصحاب الملاحظات المستهلكة، وأصحاب المفارقات المحفوظة والمعلبة.

لقد اختلط الحابل بالنابل، وكثرت الجعجعة دون طحن، اجترأ فاقد الشىء على إعطائه، وتطاول الصغار على الكبار، وأسرع الجميع إلى «قتل الأب»، ورفع شعار بيانهم الأول «تحرير الشعر».

وترتفع حدة الهجوم على قصيدة النثر بوصفها نوعًا دخيلاً على الأدبية، لازدحامها بالركاكة والفجاجة التعبيرية، والابتذال والسذاجة الدلالية، ثم قبل ذلك كله سعيها الحثيث إلى جرح القيم الدينية والأخلاقية والعرفية والثقافية تحت شعارها «تحرير الشعر» وتوابعه من «حرية الإبداع» دون شروط سابقة، وقد انتهى كل ذلك إلى إزالة الحاجز الأخير بين «المحرم والمحلل»، أو لنقل إن قصيدة النثر قد استغنت عن الطرف الأول من الثنائية، فلم يعد هناك إلا المحلل فحسب.

وفى ركام هذه العشوائية الإبداعية، استحالت النصوص إلى نوع من «التناسخ» وأباح كل مجترئ على قصيدة النثر لنفسه السطو المسلح على نصوص الآخرين، سواء أكانوا قريبين منه أم بعيدين عنه، ثم يتبع السطو بالتحرش غير الشرعى بالنصوص المقدسة والنصوص غير المقدسة، ما كان منها تراثيًا، وما كان معاصراً، ثم بعد ذلك يقف كل دعى ليفتخر بنهيبته، ثم يزعم أنها الإبداع الصحيح، وما عداها فهو إبداع «الجاهلية الأولى».

ويرى الرافضون أن هذه العشوائية لم تسيطر على النصّية فحسب، بل إنها سيطرت على فكر أصحاب قصيدة النثر أيضًا، حيث كانت بداياتهم المبشرة بالميلاد فى مطالع القرن العشرين من مصطلح حاز رضاء الأغلبية، لأنه عبر عن حقيقة نوعية لكتابات نثرية أوغلت فى استحضار بعض عناصر الشعرية، كما هو الأمر فى نصوص المنفلوطى وجبران والرافعى وطه حسين وسواهم من الناثرين «الشعر المنثور».

لكن هذا المصطلح المرضى عنه أخذ فى الغياب ليترك المجال لمصطلح طارئ ظهر فى لبنان فى منتصف القرن تقريبًا، هو مصطلح «قصيدة النثر»، وبما أنه كان مصطلحًا وافدًا، ظل فى إطار حصار شديد فى منطقة الميلاد، لكن الإلحاح على المصطلح ومع متابعته بإجراءات تطبيقية، أخذ فى التجلى والانتشار، بخاصة مع مرحلة السبعينيات وما تلاها من مراحل، وتم التغاضى عن التناقض الذى يغلفه، حيث إن ثنائيته ينفى بعضها بعضًا، والضدان لا يجتمعان فى المحل الواحد.

ومنذ أن اعترف الواقع الأدبى والمصطلح الجديد، وأصحابه يمارسون عليه بعض التعديلات التى هزت ركائزه التأسيسية، حيث تم تغييب الشطر الثانى من ثنائيته «النثر»، والاكتفاء بالشطر الأول «قصيدة» أو «قصائد»، ثم فى تعديل آخر، تم تغييب الشطرين معًا، وآثر المبدعون العودة إلى المصطلح الأم «الشعر»، ومن ثم أصبح من المألوف أن يحمل غلاف دواوين قصائد النثر الإشارة العنوانية «شعر»، ولم نقرأ - أبدًا - على رأى من الأغلفة المصطلح الأصلى «قصيدة النثر».

معنى هذا أن أصحاب هذه النوعية غير مقتنعين بمصطلحهم أصلاً - وعدم اقتناعهم بالعنوان يعنى عدم اقتناعهم بما يشير إليه من إبداع، أو - على أحسن الفروض - إنهم مازالوا على الأعراف يتارجحون بين الإقدام والإحجام.

إن مجرد وقوف أصحاب قصيدة النثر على الأعراف، يعنى افتقادهم للبعد الاستراتيجى، وقد صاحبهم هذا الفقد فى مرحلة المخاض، ثم مرحلة الحضانة، ويبدو أنه ظل مصاحبًا لهم فى مرحلة النضج، أى أن حركتهم الإبداعية حركة تكتيكية محدودة بلحظتها الراهنة، لذا فهى واقعة تحت سطوة التهديد بالانحسار أولاً، ثم الغياب النهائى ثانيًا، فهى قد جاءت من المجهول، وسوف تذهب إليه مرة أخرى،



رأى الجيل الأخير من المهاجرين أن من سبقهم وزامنهم من التفعيليين والعموديين هم مجموعة من الرجعيين أشبه بالجماعات الإرهابية والأصولية التى لا هم لها إلا السباحة فى المياه الراكدة، ولا هم لها إلا أن تصادر حق المبدعين فى المغامرة الحداثية، فهم يعيشون فى غير زمنهم، ومن ثم لم يألفوا العالم الجديد

فبدايتها هي نهايتها، ونهايتها هي بدايتها. ولن تترك أثرًا لها على رمال الإبداع الشعرى. لأن كل أثر لها سوف تمحوه رياح الإبداع الصحيح.

ويدعم المتنبئون نبوءتهم عن غياب قصيدة النثر، بهذا الحصار الجماعى من رءوس الإبداع والنقد والثقافة حتى لا تتسرب جرثومتها إلى أجناس الإبداع القولية الأخرى، وبخاصة الشعر.

كما يدعمون نبوءتهم بأن قصيدة النثر لم تقدم - في تاريخها القصير نسبيًا - أى إنجازات لافتة على مستوى الدواوين، أو مستوى القصائد المفردة، سواء نظرنا إليها فى منطقة الميلاد اللبنانية، أم فى غيرها من المناطق التابعة فى أنحاء العالم العربى، فهى أشبه ما تكون بالنبات الشيطانى الضار الذى لا نفع فيه بحال من الأحوال.

وخطورة هذا النوع الإبداعى المرفوض، أنه قد يتحول إلى تحريض خفى للمتلقى لكى يهجر الشعر والشعرية عمومًا، وخاصة أن أصحابه يسيطرون على «مافيا» إعلامية تشرع لإنتاجهم، وتهدد كل من يقترب منهم بالنقد، فضلاً عمن يقترب منهم بالتجريح الرافض.

[٧]

لقد تفجر الحوار الأخير حول قصيدة النثر بفاعلية الرأى الذى طرحه واحد من كبار الشعراء فى سلسلة الثنائيات الإبداعية فى تاريخ الشعرية العربية: النابغة والأعشى، جرير والفرزدق، الكميت والطرماح، أبو تمام والبحترى، ثم أبو تمام والمتنبى، شوقى وحافظ، العقاد والمازنى، السياب والبياتى، ثم صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى.

وبما أن بداية الحوار كانت من دائرة المبدعين، فقد أسرع المبدعون إلى المشاركة فيه بين مؤيد ورافض للآراء الحجازية فى قصيدة النثر. وهذا التدخل الجماعى من المبدعين وإزاءه إحجام شبه جماعى من النقاد. وهى معادلة خطيرة، بل بالغة الخطورة، لأن آراء المبدعين وأحكامهم - غالبًا - غير بريئة، ثم هم - أصلاً - غير مطالبين بإصدار الأحكام النقدية، لأنهم على هذا النحو يكونون هم: الخصم والحكم فى الوقت نفسه.

وبرغم ذلك نقول: إن الخطورة ليست فى مشاركة المبدعين، وإنما فى إحجام النقاد، لأن هذا يعنى تخليهم - اختيارًا - عن مهمتهم الأصلية فى متابعة الإبداع متابعة جزئية وكلية للوصول إلى أحكام نقدية محايدة.

ويبدو أن إحجام النقاد له أسبابه المتعارضة، فالبعض لم يجاهر برفض قصيدة النثر، خوفًا من الاتهام بالتخلف والرجعية والجمود، والعجز عن ملاحقة التطور الإبداعى بأدواته البالية التى فقدت شرط الصلاحية.

والبعض لم يعلن رأيه بالتأييد والقبول خوفًا من الاتهام بالتغريب والمروق الإبداعى الذى يهدد الهوية الشعرية خصوصًا، والهوية العربية عمومًا. والبعض اكتفى بما سبق أن قدمه رفضًا أو قبولاً، لأنه مازال مقتنعًا بأن فيه ما يكفى لمواجهة هذا الحوار الذى جد على الساحة الأدبية.

أما الذى نراه فى تجدد الحوار حول قصيدة النثر - أن هذا التجدد قد استعاد مرة أخرى مسألة «الشكل»، ونعنى بالشكل هنا «البناء الإيقاعى»، إذ إن معارضى قصيدة النثر قد ربطوا بين الأمرين ربطًا محكمًا لا فكاك منه، فإذا غاب الشكل، غاب الإيقاع، وإذا غاب الإيقاع، غاب الشكل، وهو ما يعنى أن الإيقاع قد أصبح هدفًا فى ذاته، وهذه العقيدة الإبداعية تنافى العقيدة الإبداعية للشعرية العربية منذ أن كانت «ديوان العرب» حتى اليوم، إذ أن هذه العقيدة كانت تنظر للإيقاع بوصفه أداة يعزف عليها المبدعون، ومن حق كل شاعر أن يعزف على الأداة التى تناسب منتجاته الإبداعية.

ولو صحت العقيدة بأن الإيقاع هدف فى ذاته، لكانت «ألفية بن مالك» أعظم النصوص فى تاريخ الشعرية العربية، ولو صحت هذه العقيدة لما جرؤ ناقد متقدم مثل أبى هلال العسكرى على تقديم مفهوم للشعر يخلو من أى إشارة للإيقاع أو الموسيقى العروضية، حيث يقول: «والشعر كلام منسوج، ولفظ منظوم، وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف، وحسن لفظه ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفًا بغيضًا ولا السوقى من الألفاظ فيكون مهلهلاً دونًا[٣]».

وقد يكون لنا بعض تحفظات على هذا التحديد الذى طرحه أبو هلال، لكن أهمية الطرح كانت فى إغفاله الإيقاع فى التعريف، وليس معنى ذلك أنه ينفيه نهائيًا من دائرة الشعرية، وإنما معناه أنه ليس هدفًا فى ذاته يحتاج إلى إدخاله فى جوهر الشعرية تحديدًا وتعريفًا.

والشىء اللافت أن كل مرحلة شعرية، يتسابق مبدعوها فى مغامراتهم، ويتفاخرون بتجاوزاتهم، وعندما يبلغون ذروة المغامرة والتجاوز، يتوقفون، ثم يطالبون غيرهم بالتوقف عند الحدود التى وقفوا عندها، وكأن المغامرة والتجاوز وقف عليهم وحدهم.

ولا يمكن - فى هذا السياق - متابعة مجموع المغامرات التجريبية، والتجاوزات الإبداعية فى تاريخ الشعرية العربية، فهذا ما تضيق عنه هذه الإطلالة السريعة على دائرة الحوار حول قصيدة النثر. لكن المتاح هنا توجيه الإطلالة على مرحلة التفعيلة، بوصفها المرحلة السابقة على قصيدة النثر. ففى هذه المرحلة سمح الشعراء لأنفسهم بهجر «البحور الشعرية» كما رصدها الخليل بن أحمد، وآثروا العزف على التفعيلة، ثم انتهكوا التفعيلة نفسها بانتهاكات مسموح بها عروضيًا أحيانًا، وغير مسموح بها أحيانًا أخرى، ولا شك أن هذا حقهم الشرعى. لكن الذى ليس من حقهم أن يعتبروا «التفعيلة» نهاية المطاف، وأن كل تجاوز لها هو مروق غير مشروع، وتمرد غير مباح.

وفى مواجهة هذه «الأحكام العرفية» التى فرضتها دولة العروض فى كافة مستوياتها، قام أصحاب قصيدة النثر مطالبين بالخلاص من القوالب «سابقة التجهيز»، والخلاص من العزف على آلة واحدة قد بليت من طول العزف عليها، ومن ثم آثروا أن يقدموا أدوات العزف الجديد النابع من خصوصية نصوصهم، وهذه الخصوصية تكسبها طبيعة تعددية، حيث يكون لكل نص إيقاعه الخاص الذى يلتحم ببنية الصياغة، لأن الإيقاع - من وجهة نظرهم - لا يمكن فصله عن النصّية بحال من الأحوال.

إن أصحاب قصيدة النثر ومن شايعهم من النقاد والمتلقين يرون أن المعارضة الحاضرة فى الواقع الأدبى اليوم، هى استعادة لمواقف قديمة موغلة فى القدم حينًا، وقريبة من الحاضر حينًا آخر، هى استعادة لموقف ابن أبى إسحاق والأصمعى من الفرزدق، وموقف ابن الأعرابى من أبى تمام، وموقف الصاحب بن عباد من المتنبى، ثم هى استعادة لموقف العقاد والمازنى من شوقى، وموقف العقاد من

إن ابتعاد قصيدة النثر عن الأبنية الزخرفية، قد دفعها إلى مفارقة «النقاء العرقى» و«الصفاء اللغوى»، إذ هما ينتميان إلى مثالية لم يعد هذا أوانها، حيث الزمن اليوم زمن «الهجنة» واختلاط الأنساب الإبداعية، وتداخل المعايير الجمالية، والأعراف الاجتماعية

شعر التفعيلة. لكن أين المعترضون، وأين المعترض عليهم فى مسيرة الشعرية العربية؟

إن قمة التخليط فى تصور البعض أن حضور نماذج إبداعية رديئة قد يهدد الشعرية العربية جملة. فالرداءة تكاد تكون ملازمة للشعرية، بل تكاد تغلب عليها، لكن الزمن يقوم بعملية تصفية، فيحتفظ بالجيد، وينفى الردىء، وقديمًا قال القاضى الجرجانى: «ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية، فانظر، هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه.. ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة، لوجدت كثيرًا من أشعارهم معيبة مسترذلة، ومردودة منفية[٤]».

وبرغم ذلك لم يدع القاضى الجرجانى أن هذه الشعرية المعيبة المسترذلة قد هددت الشعر العربى فى قليل أو كثير، فلم يصلنا أن شاعرًا، أو شعراء، أو حلفًا شعريًا، قد هدد مسيرة الشعرية بإبداعه الهابط، فكل مرحلة مزدحمة بالغث والسمين، ولم يكن الغث - فى يوم ما - مدعاة لنفى السمين.

وقد روى المرزبانى أن أبا تمام قد عمل شعرًا حسنًا، وفى أبياته بيت واحد ليس كسائرها، فقيل له: لو أسقطت هذا البيت، فضحك وقال: إنما مثل هذا مثل رجل له بنون، كلهم أديب جميل متقدم، ومنهم واحد قبيح متخلف، فهو يعرف أمره، ويرى مكانه، لكنه لا يشتهى أن يموت[٥].

إن الذى نخلص إليه من الخوض فى غمار الحوار الحاضر حول قصيدة النثر على مستوى المقول النقدى والمقول الإبداعى، أن هناك ما يجب أن نتخلص منه، وهناك ما يجب أن نحرص عليه، وبهذا وذاك يمكن أن تعتدل كفتا الميزان.

أول ما يجب الخلاص منه، السؤال الذى لا يفتأ معظم الرافضين لقصيدة النثر يرددونه ترديدًا آليًا: هل هذا النص موزون أو غير موزون؟

أما الذى يجب أن نحرص عليه وهو السؤال الصحيح - من وجهة نظرنا -: هل هذا شعر أو غير شعر؟

إن النقد الذى يلاحق الإبداع عمومًا، ويلاحق قصيدة النثر خصوصًا، أمر مطلوب، والخلاف حول هذه القصيدة أمر مشروع، لكن المصادرة عليها شىء مرفوض بداية ونهاية. ■

الهوامش

(١) جمهرة أشعار العرب ـ أبو زيد القرشى ـ دار السيرة، بيروت: ١٦

(٢) العمدة ـ ابن رشيق ـ أمين هندية بمصر سنة ١٩٢٥: ١/٥

(٣) الصناعتين. أبو هلال العسكرى، تحقيق: د. مفيد قمحة ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٤: ٧٤

(٤) الوساطة ـ القاضى الجرجانى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى ـ عيسى الحلبى: ٤

(٥) انظر: الموشح ـ المرزبانى ـ الطبعة السلفية سنة ١٣٤٣هـ: ٢٨٨، ٢٨٩

حجاج الهند في القـــرون الوســطى

قاســم عبــده قاســم

كانت معـركة ديــو البحـرية في مطــلع القــرن الســادس عشـــر، والتي هُــزم فيهــا الأســطول المصــري وحلفاؤه من المسلمـين في شبـه القـارة الهندية، إيذانا بحقـبـة جـــديدة في تاريـــخ التجـــارة والســـفر والرحـــلة من شـــبه القـــارة الهنـــدية إلى مكـــة

■■ تتسم فترة القرون الثلاثة التي يغطيها هذا الكتاب (١٥٠٠ـ١٨٠٠) بقدر كبير من الأهمية في تاريخ العالم بشكل عام، والعالم الإسلامي على نحو خاص. إذ إن هذه الفترة التي تبدأ مع طلوع شمس القرن السادس عشر، وتنتهي بمغيب شمس القرن الثامن عشر، شهدت أحداثًا غيرت موازين القوى العالمية منذ ذلك الحين وحتى الآن.

ففي بداية تلك الفترة انتهت مركزية العالم العربي في الحضارة العربية الإسلامية وانتقل مركز الثقل الحضاري والقوة السياسية والعسكرية من ضفاف النيل إلى ضفاف البسفور. فقد نجح العثمانيون في فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ميلادية وحولوها من عاصمة للمسيحية الشرقية إلى عاصمة للإسلام (إسلامبول). وكان حتمًا أن تصطدم القوة العثمانية الصاعدة بالقوة المملوكية في مصر والشا.. إذ كانت سلطنة المماليك تقوم بدور القوة المركزية ـ سياسيًا وعسكريًا وثقافيًا ـ في العالم الإسلامي منذ قيامها في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري. وكان هذا يعني حماية الأراضي المقدسة في الحجاز وفلسطين من ناحية، وحماية حركة الحج من ناحية ثانية، وحماية طرق التجارة ومحطاتها في البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي من ناحية ثالثة. وطوال عصر سلاطين المماليك كان البحر الأحمر بحيرة إسلامية مغلقة لا يحق لسفن غير المسلمين دخولها. بيد أن العثمانيين هزموا المماليك في مرج دابق ثم الريدانية، وحولوا الأراضي المصرية والشامية إلى ولايات عثمانية. ومن ثم انتقلت إليهم مسئولية حماية الحجاز والبحر الأحمر وتجارة المحيط الهندي؛ ولكن حقائق الجغرافيا جعلت العثمانيين القابعين في مدينة استنبول على ضفاف البسفور عاجزين عن القيام بدور كان يقوم به سلاطين المماليك على ضفاف النيل.

ومن ناحية أخرى، شهد القرنان الخامس عشر والسادس عشر محاولات القوى الأوروبية لدخول البحر الأحمر والسيطرة على طرق السفر البحرية في مياه بحر العرب والمحيط الهندي؛ وكانت القوة العسكرية ومحاولات التحالف مع الحبشة المسيحية ضد مصر من بين وسائل عديدة لجأ إليها البرتغاليون. وبينما فشلت محاولات التحالف البرتغالي الحبشي لدخول البحر الأحمر، نجحت محاولات الالتفاف حول أفريقيا بمساعدة واحد من الملاحين المسلمين الذين كانوا يذرعون هذه الطرق جيئة وذهابًا... وزعم الأوروبيون أنهم اكتشفوا طريق «رأس الرجاء الصالح»!!

Pilgrimage to Mecca, The Indian Experience 1500-1800

(الحج إلى مكة.. التجربة الهندية ١٥٠٠ـ١٨٠٠)

Michael N. Pearson

Princeton 1996 - Markus Wiener Publishers

ولكن النتيجة العملية تجسدت في بداية حركة استعمار ناجحة استهدفت محطات التجارة العالمية في المحيط الهندي، ثم طرق السفر والتجارة بين البحر الأحمر والمحيط الهندي، ثم تصاعدت خلال هذه القرون الثلاثة لتصل إلى حركة استعمار جثمت على صدر هذه المناطق وغيرها إلى منتصف القرن العشرين في بعض الأحيان. وكانت معركة ديو البحرية في مطلع القرن السادس عشر، والتي هُزم فيها الأسطول المصري وحلفاؤه من المسلمين في شبه القارة الهندية، إيذانًا بحقبة جديدة في تاريخ التجارة والسفر والرحلة من شبه القارة الهندية إلى مكة.

... ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي يتناول تجربة مسلمي شبه القارة الهندية في الحج إلى مكة في الحجاز خلال فترة تمتد من بداية القرن السادس عشر إلى بداية القرن التاسع عشر.

تهتم الدراسة أساسًا بالحج من أراضي المسلمين في الهند (دولة مغول الهند). وقد حدثت حوادث عديدة أثرت على حركة الحج في القرن السادس عشر أهمها ما ذكرناه عن ضم الحجاز إلى أراضي الدولة العثمانية، ولأن حماية الحجاز وضمان أمان الحجاج من أهم وسائل إضفاء الشرعية على الحكام المسلمين، فقد بذل العثمانيون جهودًا ناجحة لتأمين طرق الحج، وقوافل الحجاج التي كانت تضم أحيانًا ما يصل إلى أربعين ألف حاج.

وقد حدثت في كل من الهند وفارس تغيرات سياسية مهمة أثرت على حركة الحج في مطلع القرن السادس عشر. إذ إن الصفويين استولوا على الحكم في فارس، وإلى جانب سيطرتهم السياسية فرضوا المذهب الشيعي على المناطق التي حكموها. ومن ناحية أخرى، نجح المغول في فتح شمال الهند في عشرينيات القرن السادس عشر، ومنذ بداية النصف الثاني من هذا القرن صارت دولتهم تحت حكم سلطانهم القوي «أكبر» القوى المهيمنة في شمال الهند. فقد تأسست الامبراطورية المغولية الإسلامية في الهند على يد «ظهير الدين محمد بابُر»، وهو من سلالة تيمورلنك، عندما قام بحملة على إقليم البنجاب في شمال الهند، ثم تواصلت حملاته حتى أقام دولته سنة ١٥٢٦م. وقد وطدت أركانها خلال حكم خليفتيه محمد همايون بادشاه وجلال الدين محمد أكبر لتصير أقوى سلطة سياسية وعسكرية شمال الهند، وتستمر في الوجود حتى منتصف القرن التاسع عشر حين فرض الاستعمار الإنجليزي هيمنته على هذه المناطق. وطوال فترة الحكم المغولي في هذه المنطقة الشاسعة كان هناك نوع من السلام الإسلامي Pax Islamica سائدًا في البلاد بفضل الاستقرار وحسن الإدارة والرخاء مما أسهم في زيادة عدد المسافرين للقيام بفريضة الحج من شبه القارة الهندية.

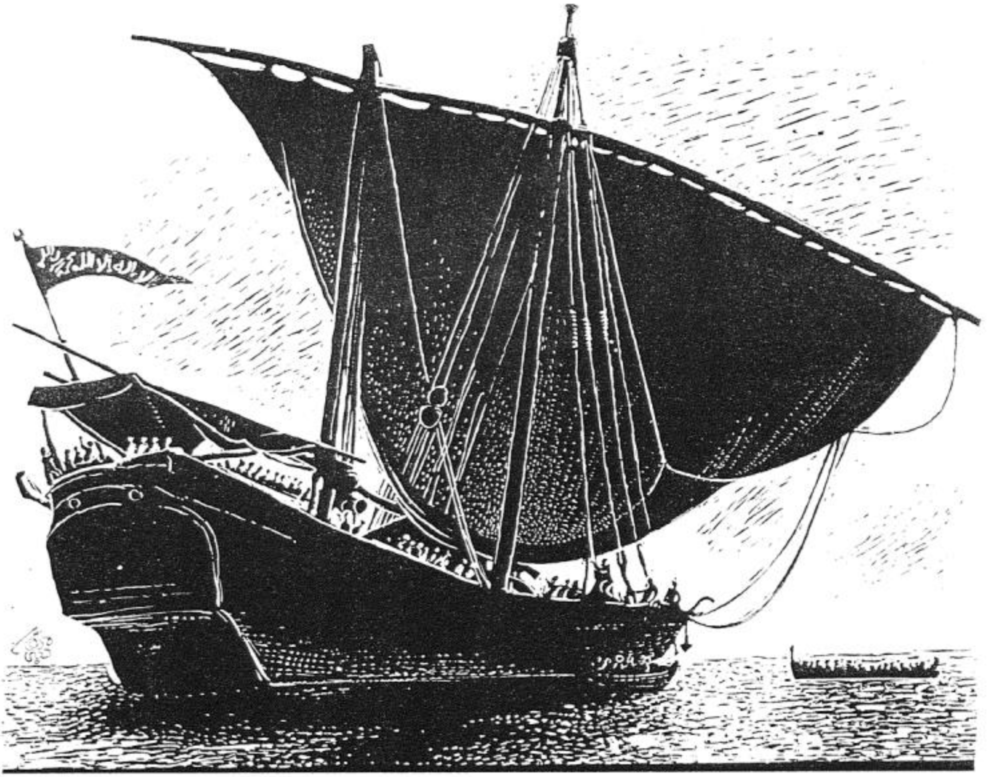
ويقول مؤلف الكتاب: «إن اختيار تاريخ نهاية الدراسة مباشر وواضح، إذ إن الموقف تغير جذريًا في أواخر القرن الثامن عشر». فقد تدهورت الامبراطوريات الرئيسية الإسلامية الثلاث في أخريات هذا القرن مما جعل السفر والحج أكثر صعوبة وأشد عرضة للخطر، وفي رأيه أن هذا التدهور يمكن أن يكون نتاجًا لزيادة الهيمنة الأوروبية في العالم الإسلامي.

وربما يكون من المناسب أن نشير إلى أن قوة العثمانيين التي كانت تفوق كل القوى الأوروبية مجتمعة طوال الفترة السابقة بدأت تواجه نوعًا من التحدي الأوروبي من ناحية، كما بدأت مشكلات الإدارة والبيروقراطية والمشكلات المحلية في ولاياتها العربية تحد كثيرًا من قدراتها من ناحية أخرى، كما أن القوى الأوروبية بدأت تطمع في ممتلكاتها العربية وتهاجمها. أما دولة المغول في الهند والدولة الصفوية الشيعية في فارس فكانتا داخل السياق العام للتسابق الاستعماري للقوى الرأسمالية في أوروبا؛ وهو سياق تحكم في التجارة والسفر والناس والأرض، صحيح أن الاستعمار لم يكن قد احتل سوى أجزاء صغيرة من الهند حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولكن محطات التجارة وطرقها كانت تحت سيطرة الأساطيل الأوروبية. وللمرة الأولى في تاريخ البشرية يميل ميزان التجارة بشكل فاضح دائم لحساب طرف على حساب الطرف الآخر: فقد كانت التجارة ـ ولا تزال ـ عبارة عن «أخذ» المواد الخام من آسيا وأفريقيا، ثم «بيع» المنتجات إلى هذه المناطق بالسعر الذي يراه البائع.

لقد أدت السيطرة الأوروبية على آسيا ـ والإنجليزية خاصة ـ إلى نتائج مهمة على كافة جوانب رحلة الحج. إذ إن السيطرة الأوروبية أدت إلى تغيير سياسات العالم الإسلامي وتدمير اقتصادياته في غالب الأحوال. وقد أثر ذلك بطبيعة الحال على رحلة الحج الإسلامية على نحو سلبي.

وقد شهدت الفترة الأخيرة من القرون الثلاثة التي تشملها الدراسة حدثًا محليًا مهمًا في شبه الجزيرة العربية أثر بدوره على حركة الحج وهو ظهور الحركة الوهابية التي احتضنتها الأسرة السعودية، وتحولت إلى حركة سياسية عسكرية نتجت عنها حوادث عسكرية واضطرابات أثرت على حركة الحج. ثم قضت قوات محمد علي بقيادة ابنه إبراهيم على الدولة السعودية الأولى ودمرت عاصمتها الدرعية لحساب السلطان العثماني، ولكن تأثير الوهابية الديني ظل قويًا.

في الفصل الثاني من كتاب «الحج إلى مكة»، يقدم المؤلف تعريفات للحج ويقول إن الحج إلى مكة «هو أهم حج»، ويقـــول إن



المسلمين يقومون برحلات حج أخرى إلى أماكن ذات أهمية دينية. والمؤلف هنا يخلط بين الحج باعتباره شعيرة إسلامية وركنًا من أركان الإسلام الخمسة «لمن استطاع إليه سبيلاً»، وبين زيارات الأضرحة وموالد الأولياء التى تعتبر نوعًا من «الديانة الشعبية» وليست من ضمن الفروض الإسلامية. ومع ذلك فإن موالد الأولياء تشهد زوارًا تصل أعدادهم إلى عدة ألوف مثلما يحدث فى مولد السيدة زينب بالقاهرة، والسيد أحمد البدوى فى طنطا، وأبو الحسن الشاذلى.

والحج عند المسلمين فرض على من استطاع إليه سبيلاً وفى زمن محدد من السنة الهجرية، ولكن الزيارة أمر مختلف تمامًا على الرغم من اهتمام الكتاب برصد أخبار الزيارات لأضرحة الأولياء، وخانقاوات الصوفية، ومشاهير الصوفية. وتقوم بها النساء أكثر من الرجال. ويقدم مثالاً هو «سيدى على رئيس» الذى قام برحلة حج من الهند إلى الحجاز فى خمسينيات القرن السادس عشر، بيد أنه لم يغفل زيارة ضريح واحد من أضرحة الأولياء فى طريقه. ويقدم الكتاب للقارئ غير المسلم تعريفًا يفرق بين الحج والعمرة؛ ولكنه يلاحظ أن الحج يجمع بين كل الأمور: فهو حدث اجتماعى، وآلية لتقوية وتطهير العالم الإسلامى، وهو رحلة مثيرة وممتعة، كما أنه تجمع بشرى كبير بكل مخاطره.

والحج قد يعنى أشياء مختلفة لمختلف الناس؛ ولكنه بالنسبة للغالبية الساحقة من الناس تجربة الحياة وتتويج لها، وأمل يتطلع إليه الناس فى حياتهم.

ولكن سؤالاً مهمًا يطرح نفسه: كيف كان الحجاج يصلون إلى مكة فى مطلع القرن السادس عشر؟ الإجابة باختصار: أنهم كانوا يصلون إلى هناك بصعوبة؛ ولكن سؤالاً آخر يطرح نفسه عن شكل هذه الصعوبة.

بصرف النظر عن الطريق الذى كان الحجاج يسلكونه كانت رحلة الحج شاقة مرهقة وخطيرة: إذ كان الحجاج القادمون من غرب أفريقيا - عبر المغرب العربى ومصر - يقضون حوالى سنتين فى رحلة الحج ذهابًا وإيابًا. ومن أشهرها رحلة قام بها «منسى موسى» من غرب أفريقيا عبر مصر فى عصر سلاطين المماليك وكانت معه كميات كبيرة من الذهب بحيث تسببت فى انخفاض سعر الذهب فى الأسواق المصرية. ولأن الرحلة كانت شاقة ومرهقة وخطيرة، كانت السلطات المصرية فى ذلك العصر تحرص على أن يخرج محمل الحج، وقافلة الحج، من القاهرة صحبة حامية عسكرية تحت قيادة أحد كبار الأمراء، وبصحبته عدد من الأطباء فى كل التخصصات ومعهم المؤن والإمدادات الكافية. وعندما انهارت قوة الدولة المملوكية وسلطتها بدأت قبائل العربان تنهب قوافل الحج وتقتل الحجاج لدرجة أن السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر شهدت توقف حركة الحج من الأراضى المصرية والشامية. وكانت الرحلة تستغرق من القاهرة حوالى ثلاثة أشهر للوصول إلى مكة حيث يقضى الحجاج حوالى عشرين يومًا فى مكة ثم يعودون.

وإذا كان الموقف السياسى مضطربًا فإن احتمال تعرض الحجيج للنهب كان يمثل مشكلة خطيرة. والحقيقة أنه بعد أن ضم العثمانيون الحجاز صار الأمن مستقرًا هناك حتى أواخرالقرن الثامن عشر. وهناك تقارير عن رحلات حج بحرية من الهند فيما كتبه أحد المعاصرين عن رحلته من سراة إلى جدة يتحدث فيها عن المخاطر والمصاعب التى واجهته فى رحلته التى استغرقت اثنى عشر شهرًا فى أواخر القرن السابع عشر.

والمعلومات التى جمعها المؤلف عن رحلة الحج الهندية ساعدته على وضع تصور شبه متكامل عن الحج من الهند؛ فهناك معلومات مشفوعة بالأرقام عن الحجاج الذين غادروا من غرب الهند، ولا سيما من ميناء «سراة». كما أن هناك دليلاً على أن حجاج ماليزيا كانوا يسافرون إلى الحجاز عبر الموانئ الهندية؛ إذ إن ميناء سراة صار منذ القرن السادس عشر فصاعدًا محطة الحجاج القادمين من شرق آسيا إلى الحجاز. ومن ناحية أخرى، كان هناك حجاج يقومون بالرحلة برًا من شمال غرب الهند لكن الوثائق التاريخية تخلو من أى ذكر لأعدادهم.

ومن اللافت للنظر أن كل حاكم من الحكام الهنود فى تلك الفترة كان يرسل سفينة أو أكثر كل سنة إلى البحر الأحمر لحمل الحجاج على الرغم من أن حمولات البضائع غالية الثمن كانت تحملها السفن أيضًا. ولدينا وصف من القرن السابع عشر لواحدة من هذه السفن التى كانت قد أبحرت من سراة وعلى متنها ألف وسبعمائة إنسان كانت أغلبيتهم فى رحلة حج إلى مكة. وفى سنة ١٦١٨م وصلت إلى سراة إحدى سفن الملك جهان جير وعلى متنها ما بين ستمائة إلى سبعمائة حاج وحمولة من البضائع الغالية. هذه الأمثلة - وغيرها كثير - توضح أن الحكام المسلمين فى الهند كانوا يخصصون سفنًا ضخمة لنقل الحجاج، وكانوا ينفقون عليها من أموالهم وجاراهم فى ذلك كبار رجال دولتهم.

ومن المهم أن نعرف أن أضخم أنواع هذه السفن كانت تلك المعروفة باسم «الرحيمى» و«السلارى» والتى تصل حمولتها إلى ألف وخمسمائة طن. بيد أن هناك دليلاً على وجود سفن أخرى لنقل الحجاج دونما حماية أو رعاية من الحكام، وربما كانت أعداد هذه السفن «الأهلية» كبيرة أيضًا. وهو ما يشير إلى أن أعداد الحجاج

الهنود المسلمين المسافرين إلى الحجاز آنذاك كانت تصل إلى عدة آلاف.

الفصل الثالث: يتناول موضوع «مركزية الحج»: وهو يقدم الحج للقارئ الغربي أساسًا باعتباره مركز العقيدة الإسلامية لأنه يجمع كل المؤمنين في مكان واحد وزمان واحد لهدف واحد. والحج يكرّس مفهوم الأمة عند المسلمين. ولكن ما يكشف الكتاب عنه هو أن الحج استرعى انتباه علماء الغرب الذين يصرون على دراسة الظاهرة من منطلق رؤيتهم التي ترى أن الثقافة الغربية ينبغي أن تكون الثقافة المرجعية وأن تكون المعايير الأوروبية /الأمريكية هي وحدها الصالحة للحكم على الظواهر. فقد اهتموا بالحج من الناحية الاجتماعية والأنثروبولوجية والسياسية والثقافية والاقتصادية ولكنهم لم يسالوا أنفسهم - أو غيرهم - عن قوة الدافع الديني الذي يجعل من الحج أمنية كل مسلم التي يريد تحقيقها قبل الوفاة والتي يرى الجميع أنها تتويج إلهي لحياة الإنسان في الدنيا.

في الحج تلعب مكة دورًا مركزيًا حدده القرآن الكريم، وكرسه التراث الديني والقصص الديني عن بناء الكعبة ودعوة إبراهيم عليه السلام إلى الله بأن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى إسماعيل وأمه اللذين تركهما بواد غير ذي زرع. ولكن المدينة المنورة تلعب دورًا مهمًا أيضًا. وكانت على مرّ التاريخ الإسلامي من مراكز العلم والثقافة الإسلامية. وهناك أمثلة كثيرة من الهند تؤكد على دور المدينة المنورة في تعليم الحجاج الذين يؤثرون البقاء والمجاورة في المدينة لدراسة العلوم الإسلامية ثم العودة إلى بلادهم للتعليم. ولكن أهم التأثيرات الناجمة عن المجاورة والدراسة في مكة أو المدينة تتمثل في أن العائدين منهما يتسمون بالتمسك الصارم بتعاليم الدين. ولكن هناك تجارب تثبت أن العلماء الذين يدرسون في الحجاز بعد رحلة الحج يصيرون من أصحاب التأثير الواضح على مواطنيهم.

وهناك مسألة غاية في الأهمية ترتبط بمسالة الحج ومركزية مكة تتمثل في انتشار الإسلام والصراع مع المبشرين الكاثوليك في آسيا. إذ كان الإسلام أثناء الفترة من ١٥٠٠ إلى ١٨٠٠ ينتشر بقوة وسرعة في جنوب شرق آسيا وفي الهند أيضًا. وكان لابد أن يصطدم في معارك عنيفة - في بعض المناطق - مع البعثات التبشيرية الكاثوليكية. وهنا كانت تتضح أهمية مكة، والحجاز، والحج لأن أفضل القضاة كانوا من الحجاز أو درسوا هناك. وتوضح التقارير البرتغالية، ومعظمها شكاوى، ماهية الأساليب التي كان الدعاة المسلمون يستخدمونها لتحويل الهندوس وغيرهم إلى اعتناق الإسلام. إذ كان ثمة ربط قوى بين التجارة والدين وربط بين منطقة الحجاز والبحر الأحمر، التي هي قلب العالم الإسلامي، وعملية اعتناق الإسلام. ويبدو من هذه التقارير البرتغالية، والشكاوى التي قدمها الرهبان الفرنسسكان، أن الدعاة كانوا في غالبيتهم من التجار العاملين في تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي. ومن المعلوم أيضًا أن انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا قد تم على أيدى المسلمين الجدد في الهند لا سيما من جوجارات وغيرها من المناطق الساحلية. وهو ما يعني الدور المهم الذي لعبته منطقة الحجاز ومكة في الجمع بين التجارة والدين. وتصف التقارير البرتغالية كيف أن الهنود الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا على أيدى الدعاة الحجازيين هم الذين نشروا الإسلام في ربوع جنوب شرق آسيا.

وللحج جوانبه السياسية. ففي القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، كانت مكة تحت واحد من الأشراف (وكذلك كانت المدينة) يخضع لدولة سلاطين المماليك. وفي كل سنة يخرج محمل الحج من القاهرة يحمل كسوة الكعبة وقدرًا كبيرًا من المعونات المادية والمالية لحكام المدينة وأهلها. وفي ميناء جدة كان هناك ممثل شبه دائم للسلطات المصرية من كبار أمراء المماليك للإشراف على جمع الضرائب من التجار الذين يفدون بتجارة المحيط الهندي. ثم حدثت تطورات أخرى بعد أن احتكر السلطان الأشرف برسباي تجارة التوابل وتدهور مركز ميناء جدة لحساب ميناء «الطور» المصري الذي صار المحطة الرئيسية لجباية مكوس تجارة المحيط الهندي الداخلة إلى البحر الأحمر.

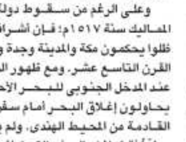
وعلى الرغم من سقوط دولة سلاطين المماليك سنة ١٥١٧م؛ فإن أشراف الحجاز ظلوا يحكمون مكة والمدينة وجدة وينبع حتى القرن التاسع عشر. ومع ظهور البرتغاليين عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر بدأوا يحاولون إغلاق البحر أمام سفن الحجاج القادمة من المحيط الهندي. ولم يكن الهدف دينيًا فقط؛ إذ إن السفن التي كانوا يستولون عليها كانت تحمل البضائع غالية الثمن كما تحمل الحجاج المسلمين. وهكذا، كانت عمليات القرصنة البرتغالية ذات عوائد عالية لا سيما بعد اختفاء القوة البحرية المملوكية التي كانت تحمي تلك المناطق وغياب البحرية العثمانية التي اكتفت بمياه البحر المتوسط في غالب الأحوال. ويذكر أحد التقارير عن معركة جرت بين البرتغاليين وأسطول هندي من كاليكوت سنة ١٥٠٤/١٥٠٥م أنه كانت هناك سفينة محملة بالذهب والفضة مرسلة من المسلمين الهنود إلى أشراف مكة (وفي رواية أخرى أنهما سفينتان) وبعدها تم تحويل مثل هذه المساعدات إلى الطرق البرية. وقد كانت عداوة البرتغاليين عنيفة ضد المسلمين (بعد النجاح النهائي لهم وللأسبان في القضاء على الوجود السياسي للمسلمين بسقوط آخر الحكام من بني الأحمر سنة ١٤٩٢م) فتطلعوا إلى منع الحج إلى مكة عن طريق إغلاق بحر العرب والبحر الأحمر بعمليات القرصنة من ناحية والاستيلاء على مكة وأخذ جسد النبي عليه الصلاة والسلام رهينة مقابل فدية كبيرة من ناحية أخرى. إذ كان الأوروبيون يعتقدون أن جسد النبي عليه الصلاة والسلام مُعلّق في الهواء بمكة!!

ومن ناحية أخرى، كان يحدوهم الأمل في تحويل نهر النيل عن الجريان إلى مصر؛ وبذلك تتحول مصر كلها إلى صحراء جرداء. والحقيقة أن ملوك الحبشة من النصارى كانوا يلوحون بتهديدات مثل هذه أثناء حروبهم ضد المسلمين في دول الطراز الإسلامي (القرن الأفريقي حاليًا) وعندما كانت علاقاتهم تتوتر مع سلاطين المماليك في مصر لسبب أو لآخر. وقد جرت محاولات لتحالف أوروبي حبشي عن طريق مبعوث أوروبي وتاجر مسلم على أساس هجوم صليبي من الشمال في البحر المتوسط وهجوم حبشي من الجنوب. ولكن الخطة فشلت وقبض على الجاسوس المسلم وتم تدمير الجيش الحبشي على حين هرب الأسطول الذي أغار على الإسكندرية.

ولكن البرتغاليين كانوا طليعة حركة استعمارية أوروبية جاءت للاستيلاء على ثروات العالم الإسلامي وخطف طرق التجارة العالمية ومحطاتها بين الشرق والغرب. وساء المسلمين ما فعله هؤلاء من خطف السفن وقتل الحجاج ونهب المتاجر التي تحملها السفن من توابل وغيرها من السلع الثمينة في ذلك الزمان. وكانت معركة ديو البحرية التي قام فيها الأسطول المصري بقيادة الأمير حسين والأسطول الهندي بقيادة مالك أياز محاولة لطرد البرتغاليين من الهند سنة ١٥٠٨/١٥٠٩م ولكن هزيمته كانت من أهم العوامل التي ضمنت بقاء البرتغاليين في تلك الأنحاء. بيد أن الحرص على استمرار حركة الحج كان من أهم مشاغل الأتراك العثمانيين بعد أن حلوا محل المماليك في حماية الحجاز؛ إذ إن الشريف بركات أرسل ابنه الشريف بركات إلى السلطان سليم العثماني الذي أقر عائلته في حكم مكة والمدينة والحجاز كله تحت سيادة العثمانيين.

وانتعشت حركة الحج تحت الحكم العثماني، وزادت أعداد الحجاج بشكل كبير، وأنفق العثمانيون أموالًا جمة لتعمير طرق الحج وترميم الكعبة وتأمين الحجاج. وكان من بين ألقاب السلطان العثماني لقب «خادم الحرمين الشريفين». وكان هذا يعني في التحليل الأخير أن العثمانيين مسئولون عن التصدى للبرتغاليين. وبدأ العثمانيون يسهمون بشكل فعال لطرد البرتغاليين من الهند. وفي سنة ١٥٣٨م وصل أسطول عثماني إلى مصر مع تعليمات بالإبحار إلى الهند وطرد البرتغاليين من ديو، ولكن صمود الحامية البرتغالية أمام الحصار العثماني جعل الأسطول يعود. ومع هذا استمر المسلمون في الهند وجنوب شرق آسيا يتطلعون إلى العثمانيين لحمايتهم. ولكن العثمانيين كانوا قوة قارية في الأساس، كما أن اهتماماتهم الأولية كانت موجهة إلى المناطق في أوروبا الشرقية والوسطى وبلاد الشام ومصر وباقي المنطقة العربية. ولكن بما أن التجارة البحرية كانت تدار بواسطة عناصر غير عثمانية فقد اعتبرها العثمانيون أداة سياسية واقتصادية يمكن استخدامها لصالحهم. ولكن الحج كان مسئوليتهم بالفعل.

ففي سنة ١٥٤١م أرسل البرتغاليون حملة كبرى إلى البحر الأحمر، وكان هدفهم المحدد إغلاق طريق الحج. وكان العثمانيون قد ضاقوا ذرعًا بالبرتغاليين وأعمالهم العدوانية، وعندما فتح العثمانيون البصرة سنة ١٥٤٦م اقتربوا من هرمز التي كانت المعقل الحصين للبرتغاليين. وجرت محاولات لإحلال التفاهم بين الطرفين ولكنها باءت بالفشل، وكانت التجارة تحتل مكان الصدارة في هذه المباحثات الفاشلة. وكتب السلطان سليمان القانوني إلى ملك البرتغال في أكتوبر ١٥٦٥م يحذره من مغبة استمرار الأعمال العدوانية البرتغالية في إقليم الهند، ومن استمرار هجمات القرصنة ضد



طوال فترة الحكم المغولى
في هذه المنطقة الشاسعة كان هناك نوع
من السلام الإسلامى Pax Islamica سائدًا
في البلاد بفضل الاستقرار وحسن الإدارة والرخاء
مما أسهم في زيادة عدد المسافرين
للقيام بفريضة الحج
من شبه القارة الهندية



الحجاج الهنود المسلمين. ولكن الفترة التالية شـهـدت نوعًـا من الهـدوء، ولـم يكن بوسـع العثمانيين أن يفعلوا الكثير لمساعدة الحجاج القـادمـين من شـبـه القـارة الـهندية. كـمـا أن البرتغاليين خففوا من غلوائهم تجاه هؤلاء.

كان الصفويون في فارس يمثلون عقبة في سـبيل المسـاعدة العثمـانية لحركة الحج من الهند بسـبب عـدائهم المذهبي والسـيـاسي للعثمانيين. وبالنسبة للحجاج كان واضحًا أن الطريق البرى - عبر فارس الشيعية - لم يكن اختيارهم الأول دائمًا. إذ كان الطريق البحرى أكـثر سـهـولة وكـان مـعظم الحـجـاج الهنود المسلمـين يسـتـخـدمـونه ولكن سـيطرة البرتغـاليـين عليه منذ القـرن السـادس عشر جـعلت أعدادًا متزايدة من الحـجاج تسافر عن طريق البـر. وقـد كـانت عداوة البـرتغـاليـين الشديدة للمسلمين وراء قصص المذابح المرعبة التي ارتكبها البرتغاليون، بلا تمييز، ضد سفن المسلمين التي تحمل الحـجاج والبضـائع في طريقها إلى البـحـر الأحمر والحـجاز أو خارجة منه. ومع مرور الوقت بدأ البرتغاليون يفرقون بين سفن العـرب والأتراك والسفن التي يملكها الهنود، وإلـى جـانب عدائهم للمسلمين كانت تجارة التوابل المربحة وراء تصرفاتهم العنيفة: إذ كـانوا راغـبـين في منع تجـارة التـوابل عبر البحر الأحمر واحتكروا لأنفسهم حق حملها إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح.

ولكن ضـعف البرتغـاليين في أواخر القرن السـادس عشر أفسح المجـال أمام دولـة مغول الهند لرعـاية حركة الحـجاج إلى الحـجاز. وقد كـان جـمـيع أباطرة المغـول في شـمـال الـهند يحـرصـون على الظهـور في صـورة حـمـاة الإسـلام. وكـان نسخ القـرآن بيد الإمـبـراطور وإرسـال النسـخـة إلى مكة من المـمـارسـات الشـائعـة في هذا المجـال، وكـان «بابُر» أول من فعل هذا بـعـد انتصـاره سنة ١٥٢٦م. وكـانت مركزية الحج ومكة المكرمة بالنسـبـة للحكام المسلمين في الهند واضـحة جليـة آنذاك. وكـان ميناء الحج الرئيسي في سراة يكشف عن هذه الحقيقة من خلال الأعداد الكبيرة للمسافرين لقضـاء مناسك الحج والسفن الضـخمة المجهزة لنقلهم. وكان السلطان أكبر حريصًا على تأمين طريق الحج من خلال الحـرص على العلاقات الودية مع البـرتغـاليـين، وكـذلك فـعل بقيـة الحكام المسلمين.

كانت غـالبيـة الحجاج المسلمين الهنود من الرجال بطبيـعـة الحـال، لكن رحلات الحج لم تخل من النسـاء لاسيـمـا من زوجـات الحكام وقريبـاتهم. وفي بعض الأحيـان كـان إرسال بعض كـبار رجال الدولة الذين يُخشى منهم نوعًا من النفى السـيـاسي المسـتـتر، ولم يكن بوسع أحد أن يرفض فرصة القيام برحلة الحج بطبيـعة الحال. هناك حـالات كثيرة تقف دليلاً على هذا النمط الغـريب من المـمـارسـات السياسية للحكام المسلمين في الهند.

ومن نـاحـيـة أخـرى، كـانت الأراضي الحجازية مكانًا يفضل الكثيرون اللجوء إليه عندمـا تأتي الرياح السـيـاسـيـة بعكس مـا تشـتـهـيـه سفن طموحاتهم. فالمهزومون والطامـعـون في العـرش والذين يعـانون من وطأة التقـاعد الإجباري: كلهم كـانوا يجدون في الحـجـاز المأوى والملاذ الآمن. ففي سنة ١٥٣٥م تعـرَّض «بهـادو شـاه» حـاكم جـوجارات إلى ضغوط عنيفة من السلطان همايون فأرسل أحد أعوانه يحمل أمواله وحريمه إلى الحـجاز. وبقوا هناك حـتى وفـاة «بهـادور». ولم يكن هذا هو المثال الوحيد بطبيعة الحال.

وكـانت رحلة الحج تُرى على أنها وسيلة لتخليص الإنسان من ذنوبه وشفاء روحه ولكن ممارسـات حكام مكة تجـاه الحـجـاج الـهنود أحـيـانًا كـانت تجـعلهم لا يرغـبـون في تكرار التجربة. ففي ثمـانينيات القرن السـادس عشر كـان أمـير الحج الهندي سلطان خـواجـا وأخذ معه عددًا كبيرًا من الناس وستمائة ألف روبية واثني عشـر ألف ثوب لكي يوزعـهمـا على أهل مكة، ولكن السلطات المكيـة عاملته بلا رحـمـة بحيث إنه عندما عاد إلى شمـال الهند اعـتنق الديانة التوفيقية التي ابتدعها السلطان أكبر، وقد حدث الشيء نفسه مع آخرين.

ومع هذا، فإن استمرار دولة المغول بشمال الهند في دعم حـركـة الحج إلى الحـجـاز طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر، يدل على أن الحج كـان أداة مركـزية في سـيـاسـة دولة المغول التي استمرت قـائمة حتى القرن التاسع عشر.

الفـصل السـادس في هـذا الكتـاب يعـالج موضـوع الأبعاد الاقتصادية للحج من خلال الحديث عن الطرق البرية. ويمتد الموضوع إلى الفصل السابع والفصل الثامن أيضًا.

ويخبرنا التـاريخ أن النشـاط الاقتصـادي في الحجاز كان قديمًا من خلال رحلتي الصيف والشتاء التي قام فيها أبناء قريش بنقل تجارة المحيط الهندي عبر الطرق البرية إلى تخـوم الإمبراطورية الرومانية عند الحدود الجنوبية لبلاد الشـام. وهناك إجماع بين الباحثين على أن مكة ويثـــرب (المدينة المنورة) ازدهرتا بوصفهما محطات على طريق التجارة البرى. ومن ناحـيـة أخرى كـانت جدة ميناءً مهمًا للتجارة مع مصر ودول البحر الأحمر. وبسبب الغزوات المغولية في القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى حدثت تحولات مهمة في طرق التجارة العـالمية أكسبت البحر الأحمر أهمية متزايدة في حركة التجارة العالمية. واكتـسب ميناء جـدة أو (بندر جدة) أهمـيـة كبيرة لهذا السبب أيضًا، وصار محطة رئيسية من محطات التجـارة العـالمية بحيث أولته السلطات المملوكية اهتمامًا كبيرًا من ناحية، وبحيث صارت جدة سوقًا دائمة تجرى فيها العمليات التجـارية طوال العام من ناحـيـة أخرى.

وكـان هناك من يزعم بأن مكة كـانت سوقًا للتجـارة أيضًا، وأن الناس يذهبون للتجارة والحج؛ ولكن الحقيقة أن السوق التجارية في مكة كانت موسمية في أيام معدودات تنتهي بنهـاية مراسم الحج. وكـانت أهميـة السوق المكية نابعـة من كون مكة المكرمة مركز الحج الإسلامي وليس بوصفها سوقًا تجارية.

ويناقش الكتـاب عـدة أمـور: هل تلـعب العوامل الاقتصادية دورًا في تشجيع الناس على القيام برحلة الحج؟ ويتصدى الكتاب لمزاعم أولئك المعادين الذين ينكرون الجـانب الديني للحج ويصـــرون على الجـــانب الاقتصادي وحـده. كما يركز الكتاب في هذه الفـصـول الثـلاثة على فـهم أمـاكن الأسواق وتنظيم وتوجـيـه طريق الحج الرئيـسي في مطلع العصور الحديثة، ولاسيمـا تلك الطرق المرتبطة بمنطقـة المحـيط الهندي، وبحـر العرب، أو التجارة بين شبه القارة الهندية والمنطقة العربية.

والزعم بأن التجارة والحج متلازمان زعم له تاريخ طويل عند الباحثين الغربيين الذين يذهب الغلاة منهم إلى القول بأن التـجـارة، وليس الحج، هو الدافع إلى هذه الرحلة. ولكن مكة لـم تكن سـوقًـا دائمـة؛ بل إن جـدة كـانت ولاتزال أفضل من حيث موقعها والتسهيلات المتوافرة للتجارة العـالمية بها، وكانت مكة - ولا تزال - مقصد الحجاج بسبب ما كرمها الله من وجـود الكعـبـة بهـا، وبسـبب دورها في التراث الديني الإسلامي. صحيح أن التجارة ارتبطت بـالحج بشكل مـا، لكن الحج كـان هو المنشط للتجارة ولم تكن التجارة أبدًا هي الحافز إلى القيام برحلة الحج.

ولم نجد في المصادر التاريخية ما يدل على أن قوافل الحـجـاج الآتية إلى مكة كانت تضم تجّارًا؛ ولم نسـمـع عن قوافل مشتركة تضم التـجّار والحـجاج. ولكن بعض الأفراد كانوا يمارسون نوعًا محدودًا من عمليات البيع والشراء. كما أن بعض أهالي مكة كانوا يقدمون خدمات تجارية للحـجـاج. فقد كان هناك تمييز في المصادر بين الحجاج والتجّار. أمـا الرحـلات القـادمـة من الهند في القـرن السادس عشر وما يليه فكان التجار يحجون ولكنهم كـان يقصدون جدة بتجارتهم أثناء رحلة الحج. ومن الواضح أن قوافل التـجّـار كـانت تسـيـر في أعـقـاب قـوافل الحج لكي تستمتع بالحماية العسكرية التي تصحب هذه القوافل من نـاحـيـة، ولكي تضمن رواجًا في ظل وجود الأعداد الكبيرة من الحجاج من ناحية أخرى. لقد كانت هناك حركة قوافل تجارية كبرى على أراضي المنطقة العربية؛ ومن الواضح أن توقيتها كـان يُعدُّ بحيث يناسب خروج قوافل الحـجـاج مما جـعل البـعض يظنون أن التجـارة والحج كـانا متلازمين.

أمـا عن الطرق البحرية إلى الحجـاز وأبعـادها الاقـتـصـادية، فـقـد ربط عـدد من المؤرخـين والكتـاب الأوروبيـين بين الحج والتجارة، بين الهند والبحر الأحمر عامة، وبين جوجارات والبحر الأحمر على وجه الخصوص.

ومن الواضح تمامًا أن التجارة البحرية في المحيط الهندي في ذلك الزمان كانت تعتمد على الرياح الموسمية التي كانت تحسب بالتقويم الشمسي، على حين كان موسم الحج يحسب على أساس التقويم القمرى. ومن ثم فإن الربط التعـسفي بين التـجارة والحج بأقلام أولئك المؤرخين يتجاهل الجاذبية الدينية الخالصة للحج. لقد كـان هناك تناقض حاد بين التجارة والحج في بعض الأحـيـان بسـبب الرياح الموسـمـيـة ودوران السنة الهـجـرية. إذ كـان الوصول إلى جدة محكومًا بالتقويم الشمسي أما الوصول إلى مكة لأداء مناسك الحج فكان محكومًا بالتقـويم القمرى. وهكذا تظهر عبثية ما قيل عن «سوق الحج» في مكة؛ لأنه في بعض الأحيـان كـان يعني أن التـجـار القادمين من الهند كان عليهم أن ينتظروا أحد عشر شهرًا في جدة حتى يحين موسم الحج. فالواقع أن معظم



في كل سنة يخرج محمـل الحـج
من القاهرة يحمل كسوة الكعبة وقدرًا كبيرًا
من المعونات المادية والمالية لحكام المدينة وأهلها.
وفي ميناء جدة كان هناك ممثل شبه دائم للسلطات
المصـرية من كبار أمراء المماليك للإشـراف
على جمـع الضـرائب مـن التجـار
الذين يفدون بتجارة المحيط الهندي

كتـــاب الـزاويــة

من أشعار ناظم حكمت

عينا أميرتى عسليتان

عينا أميرتى عسليتان

وفيهما أزقة خضراء

وفوق صفحات الذهب نقوش خضراء

إخوتى، ما هذه المهارة فى الفن!

سنوات تسع مضت ويدى لم تلمس يدها

شخت أنا ههنا

وهى شاخت هناك

فتاتى يا ذات الرقبة الممتلئة البيضاء المتجعدة،

يستحيل أن نصاب نحن بالشيخوخة

لابد من العثور على عبارة أخرى لوصف ارتخاء اللحم،

فأن يشيخ المرء:

يعنى أن يصبح عاجزاً عن حب غيره.

١٩٤٧

اللعنة

عصافير الدورى على أسلاك الهاتف

يا لها من مخلوقات مسكينة لا تعرف شيئًا عن الهاتف

ليتنى أرى أجسادكم ملفوفة بالأكفان

فقد جعلتم أبناء قومى

مكفوفين وعيونهم مفتوحة!

١٩٤٧

الطـريق إلـى مكــة

حجــاج الهنـــد فـى القـــرون الوســطى

تجارة البحر الأحمر كانت تركز على جدة وكانت محكومة بالرياح الموسمية. وكان هناك وكلاء محليون للتجّار يمكنهم بيع البضائع فى موسم الحج، وكان هذا هو السائد فى كل المراكز التجارية فى منطقة المحيط الهندى وبحر العرب والبحر الأحمر.

أما الحجاج القادمون بالبحر فلم يكن أمامهم خيار سوى الخضوع لحكم الرياح الموسمية، والراجح أن أعدادهم كانت تتزايد عندما يقترب التقويم الهجرى من وقت الرياح الموسمية. أما فيما عدا ذلك، فإنهم كانوا يمضون الوقت فى زيارة المدينة المنورة، أو الدراسة، أو القيام بعمرة.

كانت الملاحة فى البحر الأحمر هى المشكلة الأشد خطورة، ومع ذلك فإن مياهه ظلت تحمل الحجاج القادمين من الهند، كما استمرت فى حمل التجّار والبضائع من تلك الأنحاء أيضًا. وفى أوقات مختلفة كانت هناك موانئ مهمة تتناوب فى أهميتها على سواحل هذا البحر حسب تغير ظروف التجارة العالمية. فقد كان ميناء عيذاب المصرى قبالة جدة قد ازدهر بسبب الحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. وظل ميناء ينبع الصغير يؤدى دوره حتى تأثر بالاضطرابات السياسية أواخر القرن الخامس عشر. وعندما ظهر البرتغاليون صار ميناء عدن عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر محطة ترقب وانتظار للسفن الخارجة من هذا البحر. وفى القرن السابع عشر يبدو أن ميناء المخا (مُخا) قد نما بشكل كبير بحيث صار منافسًا لميناء جدة، وساعدت تجارة البن المزدهرة على انتعاش هذا الميناء وزيادة أهميته فى أواخر القرن السابع عشر. ومع ذلك، وعلى الرغم من صعود وتدهور ميناء عدن ثم ازدهار ميناء المُخا؛ فإن جدة ظلت هى الميناء التجارى المركزى فى البحر الأحمر على الدوام. وكانت تجارتها تزدهر بشكل كبير حين يتصادف موسم الحج وقدوم آلاف من الحجاج مع الرياح الموسمية التى تسمح بقدوم السفن التجارية من المحيط الهندى.

وكان نقل جماهير الحجاج التواقين إلى ممارسة شعائر الحج فى مكة عبر جدة، من حين لآخر (حسب التوافق بين التقويم الشمسى والتقويم القمرى) حادثًا اقتصاديًا مهمًا فى حياة ميناء جدة. وقد ظل هذا الميناء على أهميته على الرغم من وجود البرتغاليين عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر. وتشير التقارير التى كتبها البحارة والرحالة الأوروبيون فى أواخر القرن السادس عشر إلى الأهمية المركزية التى تميزت بها جدة؛ كما تشير التقارير الإنجليزية فى بواكير القرن السابع عشر إلى تلك الحقيقة. ولدينا روايات عديدة عن الأساطيل الكبيرة التى كانت تحمل الحجاج الهنود المسلمين إلى جدة. ويبدو أن تجارة جدة ظلت محتفظة بأهميتها على مدى عدة عقود فى القرن الثامن عشر. لقد كانت تجارة جدة طوال الوقت مسألة منفصلة عن الحج إلى مكة على الرغم من أن التجارة كانت تنتفع أحيانًا بنزول الحجاج فى جدة وهم فى طريقهم إلى مكة.

أما اقتصاد مكة المكرمة، فإنه كان يعتمد على موسم التجارة المؤقتة فى أيام الحج فى شهر ذى الحجة من كل عام هجرى. وكانت التجارة محصورة فى المؤن والبضائع المرتبطة بالحج وحاجيات الحجاج. ولكننا لا نجد نشاطًا تجاريًا يعتد به فى مكة بحيث يجعلها سوقًا دائمة للتجارة، أو منطقة للتجارة العابرة (ترانزيت). ولم يكن معظم الحجاج يتاجرون؛ إذ لم يكونوا يشترون سوى ما يلزمهم من مؤن وهدايا لذويهم عند العودة. ومع هذا كانت هناك رابطة من نوع ما مع جدة؛ خصوصًا عندما كان الحجاج القادمون عن طريق البحر يمرون بجدة.

كانت مشكلة مكة أنها تفتقر إلى الإمكانات التى تجعلها قادرة على توفير غذائها وحاجاتها، ولم يكن موقعها يسمح بأن تكون مركزًا تجاريًا طبيعيًا. وقد جاء فى القرآن الكريم ما يدل على أنها «بوادٍ غير ذى زرع»، ونتيجة لهذا اعتمدت مكة على الطعام المستورد من القاهرة عن طريق جدة، ومن الحبشة، ومن المناطق الأخرى داخل شبه الجزيرة العربية. ومن ناحية أخرى، اعتمد سكان مكة تمامًا على موسم الحج فى معيشتهم. وكان كثيرون من حكام الهند المسلمين يرون أن من واجبهم أن يقدموا العون لأهالى مكة عن طريق الأوقاف وبناء دور الضيافة وتقديم الدعم المالى المباشر. وهناك أدلة على أن مسلمى الهند كانوا يرسلون مساعداتهم عن طريق التجّار والأساطيل التجارية المسافرة فى البحر الأحمر؛ لاسيما فى الفترة التى سبقت قدوم البرتغاليين إلى هذه المنطقة.

وقد رصد كثيرون النشاط التجارى فى مكة أثناء موسم الحج وفى أعقابه، كما أن عددًا منهم وصف سوق مكة فى تلك الفترة؛ وربما بلغت أعداد حوانيت تلك السوق حوالى ستة آلاف حانوت معظمها كان عبارة عن مكان مؤقت، ولم يكن معظم من يبيعون فى هذه السوق تجّارًا محترفين. وكانت السوق عمومًا تشبه معرضًا للسلع من طراز غير تقليدى، وهناك تظهر الحقيقة الواضحة بأن مكة المكرمة لم تكن سوقًا بالمعنى العادى للكلمة، ولم تكن مركزًا طبيعيًا للتبادل التجارى؛ وإنما كانت سوقًا موجهة لخدمة حاجات الحجاج وتوفير الهدايا والتذكارات الدينية التى يريدونها. وكانت مياه زمزم واحدة من أهم تلك الهدايا.

على الرغم من أن عنوان الكتاب يوحى بالتركيز على الحج وتجربة مسلمى الهند فى القيام بهذه الرحلة خلال فترة قرون ثلاثة تمتد من مطلع القرن السادس عشر وتنتهى بنهاية القرن الثامن عشر، فإن المؤلف تناول عددًا من الموضوعات التاريخية التى تقترب من السياسة والاقتصاد بصورة غير مباشرة. وربما يكون الكتاب أقرب إلى موضوع التاريخ الاقتصادى منه إلى غيره. وقارئ الكتاب سيجد نفسه أمام أسئلة كثيرة بسبب تنوع الموضوعات التى تتصل بتجربة الحج، والعوامل العسكرية، التى امتزجت بالعلاقات السياسية والدوافع الاقتصادية، فى تأثيرها على حركة الحج من شبه جزيرة الهند إلى الحجاز. ■



Earn your first 1000 points...
احصل على ١٠٠٠ نقطة فى رصيدك...
EGYPTAIR Plus
MS 3 101 038 747
AHMED HUSSEIN HAGEEN
DATE OF ISSUE 5/01
Subscribe now with EgyptAir's frequent flyer programme to enjoy personalized service, extra baggage allowance, reward tickets, reward upgrades & many more privilages
إشترك الآن فى برنامج المسافر الدائم لمصر للطيران لتتمتع بالخدمة الخاصة والوزن الإضافى للأمتعة والرحلات المجانية وتعلية درجة السفر والعديد من المزايا الأخرى
For futher information, please contact the Customer Affairs Department at tel. 6964394 thru 99, fax 6349727 or e-mail customeraff@egyptair.com.eg
Visit our website www.egyptair.com.eg
للمزيد من التفاصيل، برجاء الإتصال بإدارة شئون العملاء
تليفون ٩٩-٦٩٦٤٣٩٤ أو فاكس ٦٣٤٩٧٢٧
أو بالبريد الالكترونى customeraff@egyptair.com.eg
قم بزيارة موقعنا www.egyptair.com.eg
مصر للطيران EGYPTAIR Plus

عـــــروض مـــوجـــزة

كتب عربية

أيام وردية
علاء الديب
القاهرة: دار الهلال ٢٠٠٢، ١٤٥ صفحة



يتابع علاء الديب فى هذه الرواية رصد تحولات الطبقة الوسطى المصرية منذ هزيمة ١٩٦٧ وحتى اليوم، وكان بدأها فى روايته «زهر الليمون» مع بطله عبدالخالق المسيرى ثم مع منير فكار فى «أطفال بلا دموع» وعبر استعراض الأوراق الخاصة لسناء فرج زوجة منير فكار فى «قمر على المستنقع»، وحتى فى كتابه «وقفة قبل المنحدر» والذى يمثل تجربته الشخصية للعمل فى بلاد النفط، لم تفلت منه تحولات هذه الطبقة التى بدت انقلابية فى محطات كثيرة، وهى بحسب قوله فى «تنبيل» يثبته فى نهاية الرواية: الطبقة اللغز فى تاريخنا، صاحبة أكبر إنجازات وأفظع جرائم، صاحبة الحل والربط، وقليلة الحيلة، صاحبة المُثُل العليا والقيم المزيفة، الخائنة النبيلة، صانعة العدسات الوحيدة التى أرى بها الواقع والمصير.

«أمين الألفى» بطل «أيام وردية» أخصائى اجتماعى، مفكر عربى قديم، كثير الأقنعة، زوجته شادن وابناه هم كل حياته وسنوات عمره الباقية، شيئاً فشيئاً تساقطت السدود والحواجز بينه وبينهم بعد أن تدخلت أبلة الحاجة زينب ورفيقاتها من المنقبات فى حياتهم ونجحن فى تطليقها منه.

هزيمة يونيو كانت قاصمة الظهر له وللبلد، بعدها حاصرته رطانات لا تنتهى من الكذب والنفاق واللاجدوى، تضاءلت الأحلام وفقدت الشعارات والمبادئ التى عاش لها معناها، زملاؤه من المدرسين صاروا يديرون أبعديات للدروس الخصوصية، فيما هو مستغرق يحشد الجماهير فى محاضرات عن فلسطين والمقاومة والنضال فى سبيل استعادة الحقوق، وهى التجربة التى انتهت بتوبيخ أمنى وتحذير من أن هذا النشاط غير مرغوب فيه.

ناجى فريد صديقه الوحيد الذى كانت له معه مراسلات، كان مهندساً وضابطاً احتياطياً، اشتغل بنشاط وتفوق فى إصلاح دبابات الوطن وبعد العبور اشتغل بنفس النجاح والتفوق فى التجارة، وفى الخليج مكث سنوات يراكم الثروة حتى مات هناك ووضعوه فى ثلاجة حتى تجمد شعر ذقنه الأبيض.

عبر هذا الصديق تسطع فلسطين، الجرح الذى لا يندمل والصرخة التى لا تصمت، تتبدى فى مقاطع كثيرة فى الرواية مع ناجى ومع الدكتور ألبير بشاى وآخرين بينهم نزيلة سكنت إحدى غرف المصحة النفسية التى استقر بها أياماً كانت هى كل أيامه الوردية.

هى من أريحا، من عائلة فلسطينية معروفة، كانت هى «وردته الصفراء التى ظل يبحث عنها، تمنى أن يجمع لها كل لحظات السعادة وأن ينثرها تحت قدميها قرباناً، وهدية خالصة علها تداوى بعضاً من التعاسة والشقاء الذى عاشته، كأنها فلسطين، وردة صفراء «أشجان ملتهبة وجراح لا تطيب».

أيام المصحة الوردية ساعدته على استرجاع أيام طفولته وصباه وشبابه المبكر، لكن الصور المسترجعة لم تكن أبداً سعيدة، مرة أخرى يرى أغلب تجارب حياته تنتهى إلى لا شىء، فى أيامه الوردية حلّق فى الخيال، لكنها أيام سرعان ما تبددت، بعدها عاد إلى «كُشك» إبراهيم أبوخليفة فى بلدته القديمة، تمضى أيامه الأخيرة بلا صخب وكأنه يجرب الموت.. «حوله دنيا واسعة خالية، ليس إلى جواره أحد، لم يكن حزيناً، يراقب الأشياء وهى تنتهى، ليس فى ضوضاء، لكن فى سكينة».

□ □ □

اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود
عبدالوهاب المسيرى
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٢، ٢٤٠ صفحة



اللغة الإنسانية نظام دلالى يتسم بالاتساق الداخلى وله قواعد خاصة، والمجاز اللغوى - أى الاستعارة والكناية والمجاز المرسل - ليس مجرد زخارف ومحسنات بديعية، لكنه أيضاً جزء أساسى من التفكير الإنسانى، أى جزءا من نسيج اللغة التى هى جزء أصيل فى عملية الإدراك، وهذا الكتاب ليس بحثاً لغوياً يعنى بالمجاز ودروبه، لكنه يتوسل به لفهم عديد من ظواهر عالمنا المعاصر فضلاً عن استبطان كنه الوجود.

يشير المؤلف مثلاً إلى ما اقترحه الكاتب الأمريكى توماس فريدمان لتلخيص عصر العولمة وإنسانها بالتركيز على «ماكدونالدز»، فإنسان ماكدونالدز بحسب «فريدمان» هو شخص ضمرت هويته ولم تعد تعنيه مسائل مثل الوطن والكرامة، إنه «إنسان طبيعى، اقتصادى، جسمانى كامل». وهكذا يتجاوز الرمز - المجاز - دلالته الحسيّة ليصبح تعبيراً عن شىء معنوى أكبر، إنه تعبير عن عصر بأكمله.

ويقترب المؤلف بالتحليل من الصورتين المجازيتين الأساسيتين فى الحضارة الغربية وهما الصورة الآلية والصورة العضوية، حيث تفترض الأولى علاقات آلية منضبطة بين الظواهر بعضها البعض. فيما ترى الثانية أن العلاقات بين الظواهر فيما بينها وبين الإنسان والمجتمع - حيث إن هذا النموذج يتمركز حول الإنسان - علاقات مركبة لا يمكن اكتشافها، ويلاحظ المؤلف أن النموذج السائد فى الغرب الآن، بعد عصور طويلة من الفكر الفلسفى والمادى من هوبز إلى روسو إلى نيتشه إلى ماركس وهيجل وكانط وعشرات غيرهم، هو مزيج من النموذجين.

الفكرة الأساسية التى يقوم عليها الكتاب تجنح إلى وجود علاقة بين رؤية الكون والصور المجازية، لذا فإن توليد الغرب صورتين مجازيتين عضويتين هما الجسد والجنس، يصلحان كتعبير عن رؤية الإنسان الغربى الحديث للكون، ويشير المؤلف إلى إسهامات عديد من المفكرين والفلاسفة الغربيين فى هذا الإطار بينهم داروين وشوبنهاور.

ويخلص إلى أن الفكر الفلسفى العلمانى الغربى يرى المرجعية النهائية فى المادة، ولذا فإنه يدور حول الإنسان بوصفه جسدا ماديا يعيش فى الطبيعة، ويتجاوز هذا الفكر بذلك ثنائية الذات والموضوع ويصبح الجسد قضية مركزية، وتصير المعرفة محدودة بنطاقها، فهى مثل الجسد الذى لا تتجاوز شرعيته حدوده، ويلغى الزمان بفعل الرغبة الجنينية فى الهروب من التركيب والتجاوز، وتتآكل أهم مؤسسة ظهرت فى تاريخ الإنسان وهى مؤسسة الأسرة التى يتحول فيها الفرد من شخص مادى طبيعى إلى كائن اجتماعى ذى جسد وروح.

ويطبق المؤلف منهجه فى تحليل الصور المجازية على الفكر الصهيونى الذى يدور فى إطار رؤية تعاقدية نفعية ضيقة، فالصورة المجازية الأساسية فى الوجدان الصهيونى هى أن العالم بأسره مجرد سوق كبيرة، وما يسمى بالوطن القومى ليس سوى سلعة تباع وتشترى، فالأرض ليست وطناً وإنما عقار، وعلاقة الإنسان بها ليست علاقة انتماء وإنما علاقة نفعية تعاقدية، وهكذا يُنظر إلى إسرائيل كحائط صد أو كلب حراسة، وهى نظرة زعمائها أنفسهم إلى طبيعة دولتهم والكيان الصهيونى قائم على عديد من الصور المجازية التى تجسد تطلعاته وأساطيره وتفاعلات أجنحته من حمائم وصقور ونعام ودجاج.

وفى فصل تالٍ يتابع المؤلف علاقات الدال بالمدلول وانفصالهما فى الحضارة الغربية الحديثة، حيث تم تفكيك الإنسان والكليات والمرجعيات والجوهر والذات والموضوع، وما بعد الحداثة «هى الرمال المتحركة التى تلعب فيها الدوال المنفصلة عن المدلولات».

ويقدم المؤلف عشرات الأمثلة على خطورة هذا المنحى والتحيز الواضح فى علاقات الدال بالمدلول وأثرها فى إشاعة مزيد من الخلط فى المصطلحات والمفاهيم بهدف تثبيت النسق الحضارى الغربى القائم على التفتيت وتغييب الكليات والمرجعيات الكبرى.

□ □ □

أمريكا والسعودية
حملة إعلامية أم مواجهة سياسية؟
غازى القصيبى
بيروت - عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢، ١٣٤ صفحة



موضوع الكتاب الذى يشير إليه عنوانه، لا تصل إليه إلا بعد أن تكون قطعت شوطًا يجاوز نصف صفحاته تقريبًا، لكن ذلك لا يعنى أن ما طويته من أوراق فى النصف الأول مقطوع الصلة بما بعده، فالقارئ مدعو عبر الفصول الأولى إلى تأمل الحال المأسوى - والهزلى أيضًا للإعلام العربى، والكتاب يبدأ برواية تخيلية عن لقاءات ثلاثة تجرى فى ثلاثة مطاعم فى كل من لندن وباريس وواشنطن، تجمع مسئولين وصانعى قرار فى العواصم الثلاث الكبرى بإعلاميين فيها، حيث يتم تسريب أخبار معينة لتحقيق أغراض خاصة يتفق عليها الطرفان، ونستخلص من الحكاية التخيلية تلك أن العلاقة بين السياسى والصحفى عندهم تحكمها اعتبارات مهنية وموضوعية فضلاً عن دوافع المصلحة المشتركة، بعكس الحال فى مجتمعاتنا العربية التى يجتهد صحفيوها - فى معظمهم - للحصول على لقب بوق النظام أو حامل مباخره، ويشير المؤلف إلى أن نظرة الإعلاميين الغربيين إجمالاً إلى المجتمعات التى لا تسود فيها الليبرالية الديمقراطية تتراوح بين العداء العابر والكراهية العميقة.

«كان الإعلام الغربى مستعدًا وراغبًا وقادرًا، وجاءت الحملة الإعلامية الغربية على البعبع المرعب: الأصولية الإسلامية وربيبتها المملكة العربية السعودية».

والموقف الأمريكى من السعودية لم يكن مجانيًا، بل مثّل ردة فعل على رسائل ذات مغزى بعث بها الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولى العهد السعودى يرفض

عروض موجزة

فيها تجاهل الرئيس الأمريكي بوش للقضية الفلسطينية ودعمه اللا محدود لإسرائيل، حتى أنه رفض لقاء بوش «إذ اللقاء لن يؤدي إلى نتيجة». وكان رد الأمير عبد الله على دعوات بوش المتكررة أنه مستعد للزيارة إذا قام بوش بمبادرة تدل على اهتمامه بمعاناة الفلسطينيين، وفي أواخر أغسطس ٢٠٠١ حمل الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز السفير السعودي في الولايات المتحدة إلى واشنطن رسالة مفصلة وقاسية استعرضت العلاقات الأمريكية السعودية وتاريخ التعاون الوثيق بين الدولتين، وكذلك المذابح الدموية التي يتعرض لها الفلسطينيون في الأراضي المحتلة، وانتهت الرسالة إلى أنه لا المملكة ولا العرب ولا المسلمون بإمكانهم الوقوف موقف المتفرج مما يجري فإن «قيادة المملكة ليست مثل شاه إيران الذي وضع مصالح الدول الأجنبية قبل مشاعر شعبه» وأن المملكة «من الآن وصاعدًا» ستتخذ القرارات التي تراها في مصلحتها دون أن تأخذ مصالح أمريكا في الاعتبار. وكان لرسالة الأمير عبد الله تأثيرها على الإدارة الأمريكية، إذ صدرت عن الرئيس بوش إشارات تؤكد تغييرًا واضحًا في المواقف. وقبل أن تترجم هذه الإشارات إلى إجراءات عملية وقعت أحداث سبتمبر، وبسرعة تحرك اللوبي الصهيوني لوأد المبادرة الأمريكية وضرب العلاقات السعودية الأمريكية واتهام السعودية برعاية الأصولية والتطرف بل وخلق حركة طالبان، وهكذا تحولت السعودية من دولة صديقة لأمريكا إلى دولة عدوة، وفقًا لميكانيزم وضعته أجهزة الاستخبارات الأمريكية وتنفذه أبواقها في وسائل الإعلام، واحتمالات توتر العلاقات أو عودتها إلى سابق عهدها برأي المؤلف متساوية، والأمر متروك للأيام المقبلة.

□ □ □

آفاق فلسفة عربية معاصرة

أبو يعرب المرزوقي، طيب تيزيني

دمشق: دار الفكر ٢٠٠١، ٣٢٤ صفحة



تواصل سلسلة حوارات القرن المميزة رسالتها بالغة الأهمية. الحوار هنا بين مفكرين يشتغلان بالفلسفة وعليها، ولأن الحيز يضيق عن استعراض الأفكار الثرية التي ضمنها كل منهما في مقاله، فربما كان الأنسب هو التوقف عند التعقيبات التي تشير - ولو في عجالة - إلى أهم النقاط التي يقوم عليها المبحثان.

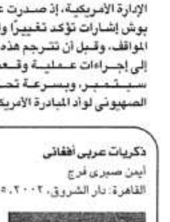
يرى المرزوقي أن علاج تيزيني لمسألة تكوين فلسفة عربية متميزة تم عبر قسمين، في الأول يؤرخ للفلسفة العربية الوسيطة، ويحلل الموقف الفلسفي الراهن ثم الموقف الشعبي من الفلسفة والمتفلسفين، وفي القسم الثاني يبحث في إمكانات تحقيق التفلسف العربي.

ويرد المرزوقي على أربع مسائل أثارها بحث تيزيني، فيرفض إحالة ما حل بالفلسفة العربية من نكوص إلى التفسير بالمؤامرة السياسية الدينية ويحيلها إلى عجز النخبة عن القيام بدورها الحقيقي في الإبداع النظري، كما يرفض حصر مفهوم الفلسفة في معناها التقليدي القائم على الجدل بين العقل والنقل، ويرى مفهومها أوسع بكثير يشمل ما كان يعد ضمن المباحث الدينية والأدبية عند القدامى، ويعترض على ما يظنه تيزيني حلاً لإشكاليات الفلسفة العربية وهو الفصل بين الفلسفة والدين، مؤكداً أن البحث في المسائل الدينية هو من مهام الفلسفة ولا يمكن تحييدها عنه، وأخيراً لا يوافق المرزوقي على اعتبار العامل القومي وحده أساساً لإطار حضاري يؤسس مشروعاً فلسفياً يوحد العرب. ويرى في هذا المقترح انكماشاً على العروبة دون مضمون يحدد رسالة معينة، ويتساءل عن وسائلنا للصمود أمام دعوة الشرق أوسطية وروابطنا السياسية والاقتصادية والثقافية، أقوى بمستعمر الأمس مما كان عليه حالها قبل عقود، بل إن هذه الروابط أقوى من الروابط التي تجمع الأقطار العربية ببعضها. ويتساءل كذلك عن المشروع الذي تقدمه للشباب مبشرا بنهضة عربية حقيقية؟ من جهته ينتقد «تيزيني» جنوح المرزوقي إلى تمثل نهج لا تاريخي يعيقه في عملية تقصي حيوية تاريخ الفكر العربي بتمييزه القاطع بين التاريخي والفلسفي. ويعيب عليه غياب الاتساق المنطقي في بحثه.. «فهو من طرف يكلف النظر في الوحي على ذلك النحو الاختزالي القاطع، ومن طرف آخر يعلن أن الهوية في التصور العربي الإسلامي هوية مفتوحة».. ويعيب عليه كذلك تشكيكه في الفكر العربي ومنتجيه عبر العصور وكأننا نبدأ من الصفر.. «فكل المشروعات المزعومة فلسفية، ضروب من العجلة الخالية من التؤدة العلمية» ويضع تيزيني يده - بحسب تعقيبه - على أحد أهم أسباب الأيديولوجية في فكر المرزوقي، والتي جعلته ينظر إلى الفكر الفلسفي العربي بوصفه فكراً ملتبساً زائفاً إنشائياً. ويشير إلى قوله: «الغريب أننا نرى أمام ناظرينا

ذكريات عربي أفغاني

أيمن صبري فرج

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٢٢٥ صفحة



تغطي هذه المذكرات مرحلة البراءة الأولى في الجهاد الأفغاني - كما يسميها الأستاذ فهمي هويدي في تقديمه للكتاب - فتتوقف عند العام ١٩٩٠ حين اضطر السوفييت بعد كل ما لاقوه وتكبدوه من خسائر إلى الانسحاب، ومن ثم فهي لا تتعرض لسنوات الصراع بين الأشقاء، رفقة الجهاد: سياف وحكمتيار ورباني ويونس خالص وشاه مسعود وزملائهم، ولا لظهور جماعة طالبان فيما بعد واستيلائهم على السلطة في العام ١٩٩٦.

صاحب المذكرات لا صلة له بأية تنظيمات أو جماعات إسلامية ولم يعمل بالسياسة يومًا، شاب مصري عادي تمضي أحلامه في طريقها المعتاد، متفوق في دراسته - حاصل على دراسات عليا في الزراعة - ولو جرت المياه في مجراها الطبيعي، كان عليه أن يحصل على الدكتوراة ويواصل أبحاثه في الاتجاه ذاته، لكن ما جرى لمسلمي أفغانستان وجهادهم الأسطوري دفاعًا عن بلدهم جعله يقرر في لحظة فاصلة أن يغادر هذا كله ويلبي النداء، لتبدأ مرحلة جديدة في حياته بدءًا من العام ١٩٨٨ في بلد يقول عنه: «لو خيِّرت ما اخترت لي وطنًا إلا بأفغانستان».

ومثل كثيرين ممن شدوا الرحال إلى هناك، مثلت أفغانستان لأيمن صبري فرج - أبو جعفر المصري القندهاري فيما بعد - حلم إقامة دولة الإسلام، التي بدت قريبة المنال. ومنها ينطلق الرفاق لإقامة دولة الإسلام الكبرى في أنحاء العالم.

صاحب المذكرات يبدأها من حيث يجب أن تبدأ، مواصلاً السرد إلى نهايته، حين يفقد ساقه التي تتطاير شظايا بفعل لغم أرضي، وعبر عامين - منذ وطأت قدماه أرض الأفغان إلى أن تناثرت واحدة فوقها - يحكي لنا عن رفاق المسيرة الذين اجتمعوا من أنحاء المعمورة: من مصر وفلسطين والسودان والعراق والسعودية والأردن والجزائر وتونس والهند وأمريكا، ليلبوا نداء الجهاد، والصعوبات التي واجهوها والبطولات والتضحيات التي قدموها واستعدادهم للشهادة بل السعي إليها، دون أن يغفل الأفغان من المجاهدين الذين يراهم ذوي بأس وشجاعة نادرة، يقدرون العلماء ويقدسون كتاب الله وإن عابهم تعصبهم الشديد لمذهبهم الحنفي. وهو تعصب مرده إلى قلة بضاعتهم من العلم وجهلهم بالفقه ومقاصد الشريعة، والحقيقة أن التعصب والعنف الذي بدا عليه الأفغان في المذكرات، لم يسلم منه المجاهدون العرب أنفسهم، ويروي لنا صاحب المذكرات كيف أن مواجهات دامية كادت أن تقع بين الطرفين - العرب والأفغان - لأمور بسيطة، مثل الصلاة على الشهيد أو عدم الصلاة عليه، أو تمييز قبره بعلامات مميزة من عدمه.. إلخ، وصاحب المذكرات نفسه لا يغيب عنه هذا الملمح العنيف، إذ يبدي إعجابًا مفرطًا بصديقه «أبو جبل» الذي قدم مثله من مصر والذي «سمع يومًا أن صاحب مكتبة القرية يلين الكلام لزبائنه من الفتيات، فدخل المكتبة وحطمها تحطيمًا وظل يضرب ذاك المنحل حتى كاد يقضي عليه».

«هو العنف المكبوت بداخلي والذي يتراكم ولا بد من تفريغه وإلا انفجرت معه (...) وعلى مدى سنوات الجهاد استمتعت بالعنف أولاً ثم أصبح روتينيًا لا متعة فيه».

سيتأكد لنا من خلال المذكرات، أن النزاع بين فرقاء الجهاد كان قادمًا لا محالة، وخصوصًا أن القندهاريين - الذين جاءت منهم جماعة طالبان - كانوا يرون الحرب بين الطرفين (المجاهدين والسوفييت) حربًا بين كفار وملاحدة، وحسب أولوياتهم فقد كان عليهم الانتظار حتى ينتصر المجاهدون، ثم يبدأ جهادهم ضد رفاق الأمس، بل إن مجاهدي الحزب الإسلامي التابع لحكمتيار واجهوا هجومًا عنيفًا من مقاتلي شاه مسعود في الشمال كي يبعدوهم عن مناطق نفوذهم، ولم يكن السوفييت قد رحلوا بعد.

أما أسامة بن لادن وتنظيمه «القاعدة» فقد بدأ في تجهيزه في السنوات الأخيرة من الثمانينيات على ما يروي صاحب المذكرات، الذي يتطرق إلى علاقة أطراف عديدة بالجهاد الأفغاني مثل السعودية ومصر وأمريكا، والأسلحة الفاسدة التي اعتادت الأخيرة تزويد الأفغان بها بعد أن تأكدت من نصرهم، والفتن المتعددة التي كانت تنشب بسبب النظر إلى العرب بوصفهم وهابيين كفارا.

المذكرات التي تلقي أضواءً باهرة على الجهاد الأفغاني في براءته الأولى، تلقي - من طرف خفي وربما دون أن يقصد صاحبها - أضواء أخرى على الدوافع الكامنة للصراع بين المجاهدين أنفسهم، عربًا و أفغانًا، لأسباب قبلية وسياسية ومصلحية وأخرى ذات صلة بمحدودية الأفق والتعصب المذهبي وقلة البضاعة لدى شباب غض يمتلئ حماسة وبراءة، ترك الدنيا وراءه وقطع آلاف الأميال بحثًا عن الشهادة أو دولة الإسلام، فظفر بعضهم بالأولى وباتت الثانية حلمًا بعيد المنال.

عماد الغزالي

عـــــــــروض
مـــــوجـــــزة

التكرار الناجح لتحقيق النهوض في جل بلاد آسيا غير الإسلامية فضلاً عن تجربة اليابان في القرن التاسع عشر يتحقق بما يماثل الشروط التي تحققت بها النهضة الغربية ولا نعي ذلك» بما يعني أن حديث المرزوقي بعد ذلك عن بعث فلسفة عربية هو حديث بلا معنى، ويعيب عليه إسرافه في الأخذ بثنائيات العقل والنقل والدين والفلسفة وغيرها. ويشدد تيزيني في الختام على أن إنتاج فلسفة عربية متميزة لن يتحقق خارج إطار الخصوصية التاريخية العربية.

□ □ □

رسائل الشيخ على يوسف وصفية السادات

حلمي النمنم

القاهرة: ميريت، ٢٠٠٢، ١٧٧ صفحة



في ١٥ يوليو من عام ١٩٠٤، نشرت جريدة المقطم خبرًا صغيرًا، يقول إنه بعد ظهر يوم الخميس ١٤ يوليو تم عقد قران الشيخ على يوسف على إحدى كريمات الشيخ عبدالخالق السادات. وفي يوم الجمعة نشرت جريدة المؤيد التي كان يصدرها الشيخ على يوسف الخبر. وكان هذا الخبر بداية لواحدة من أعنف وأهم المعارك السياسية و«الشرعية» التي شهدتها مصر في تلك الفترة. فعقد القران تم في منزل السيد توفيق البكري وهو من الأشراف وزوج ابنة الشيخ السادات الكبرى. وعلى الفور، أحال الشيخ السادات القضية إلى المحكمة التي بدأت تنظرها وأجرت تحقيقات مع المأذون والشهود ووكيل العروس. وكان الاتهام الأساسي الذي واجهه الشيخ على يوسف هو أنه ليس كفؤًا لابنة الشيخ السادات وهو ما يجعل العقد باطلاً. وهو ما انتهت إليه المحكمة وبدأ الاستغلال السياسي للقضية وبدأت جريدة اللواء - جريدة الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل - تجرح في خصمها اللدود الشيخ على يوسف الذي كان يسانده الخديوي.

تفاصيل كثيرة تضمها هذه القصة لكن المؤلف اختار أن يعرض لنا رسائل العاشقين التي تفيض حبًا وهيامًا؛ إذ تخاطبه «صفية» بحبيبي ومالك روحي وحامل عرشي، ويخاطبها الشيخ على يوسف بحبيبتي وملكة فؤادي.

□ □ □

اقتصاد إسرائيل على مشارف القرن الحادي والعشرين

فضل مصطفى النقيب

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١، ٢٥٦ص.



انطلاقاً من العلاقة الطردية بين «الاقتصاد» و«التوسع» كديناميكية مستمرة للمشروع الصهيوني، يهدف هذا الكتاب إلى مناقشة الاقتصاد الإسرائيلي من منظور التغيرات الكبيرة التي طرأت عليه في حقبة التسعينيات، وما تطرحه من مؤشرات مستقبلية. فحسب ما يشير المؤلف- وهو أستاذ الاقتصاد الرياضي بجامعة واترلو في كندا- تعد فترة التسعينيات من أهم الفترات في تاريخ الاقتصاد الإسرائيلي، يتناولها الكتاب في ثلاثة موضوعات. الأول يتعلق بالنمو الكبير الذي ميز الاقتصاد الإسرائيلي في التسعينيات، وهنا يطرح المؤلف سؤالاً عن سبب هذه الطفرة التي قد تكون راجعة للإصلاح والتوجه نحو الرأسمالية والانفتاح على الأسواق العالمية، أو راجعة لموجة الهجرة الكبيرة التي تمت في التسعينيات وتدفق الاستثمار الأجنبي بفضل مناخ العملية السلمية. الموضوع الثاني يتعلق بدور القطاع العام في الاقتصاد الإسرائيلي حيث شهدت التسعينيات تراجعاً في دور الدولة لصالح الخصخصة. فهل تضع الرأسمالية قيوداً على التوسع الصهيوني؟ أم أنها النظام الملائم لهذا التوسع في الأوضاع الراهنة؟

أما الموضوع الثالث، فيتعلق بمستقبل دور الاقتصاد الإسرائيلي في منطقة الشرق الأوسط في إطار العملية السلمية. وفي هذا الصدد يتناول المؤلف اتجاهين متقابلين في السياسة الإسرائيلية، اتجاها يرى مستقبل إسرائيل في الاندماج الكامل في منطقة الشرق الأوسط وقيادة المنطقة، واتجاها آخر يرى المستقبل في متابعة الاندماج في العالم الغربي من دون أي اهتمام بالشرق الأوسط.

وفي أجواء العملية السلمية، يضيف المؤلف أنه لم يحدث أي تغيير جذري في نوعية العلاقة بين اقتصاد إسرائيل والاقتصاد الفلسطيني، فعلاقة التبعية الاستعمارية مازالت كما كانت عليه، والمؤشرات كلها تدل على أن إسرائيل في طريقها لإقامة علاقات مشابهة مع الاقتصاد الأردني، لكن بأساليب مختلفة.

□ □ □

كتب أجنبية

The Real Odessa: How Peron Brought the Nazi War Criminals to Argentina

(كيف استطاع بيرون تهريب مجرمي الحرب النازيين إلى الأرجنتين)

Uki Goni

Granta, 382PP, £ 20, 2001.



في الوقت الذي تواجه فيه الأرجنتين حالياً أزمة اقتصادية خانقة لم تواجهها من عشرات السنين وأدت إلى استقالة خمسة رؤساء خلال مدة لا تزيد على أسبوعين، يأتي هذا الكتاب لينبش في الماضي ويعيد الدراسة والتنقيب عن تفاصيل قصة مثيرة وقعت في نهاية الحرب العالمية الثانية، ألا وهي لجوء بعض المسئولين في ألمانيا النازية إلى الأرجنتين في عهد رئيسها الراحل خوان بيرون. وقد ظهرت عديد من الكتب بل والقصص حول هذه الواقعة المثيرة التي لايزال بعض تفاصيلها خافياً.

وقد أمضى المؤلف ٥ سنوات يبحث في عديد من دور الوثائق والأرشيف في أوروبا لعله يستطيع تركيب قصة أقرب إلى الحقيقة بشأن ما حدث. ويشير إلى أنه في عامي ١٩٥٥ و١٩٩٦ وصلت درجة الحرارة في الأرجنتين إلى حوالي ٤١٥ درجة فهرنهايت، ولم يكن هذا الارتفاع إلا بسبب قيام مكتب المعلومات الأرجنتيني ودائرة الهجرة بإحراق كميات ضخمة من الملفات التي تشير - حسب قول المؤلف - إلى وجود علاقة بين الرئيس بيرون وأركان حكمه وبين تهريب مجرمي الحرب النازيين إلى الأرجنتين. ويشير المؤلف إلى أن إثارة تلك القضية في الأرجنتين تسبب توتراً شديداً لأن المؤسسة الحاكمة هناك تعتقد أن البلاد لا يمكن أن تتقدم للأمام إلا بنسيان تلك القضية. لكن مؤلف الكتاب يصر على أن الكشف الكامل عن تفاصيل تلك الواقعة هو الذي يمكن أن يحرر الأرجنتين من تركة الماضي الثقيلة ويجعل ضميرها مستريحاً ومستعداً للسير إلى الأمام. ولا ينسى المؤلف أن يشير إلى دور الفاتيكان المباشر في هذه القضية واعتبار كبار رجال الدين الكاثوليك أن النازيين أقل شراً من الشيوعيين.

ويعود المؤلف ليذكر من جديد أن الصمت على هذه المسألة أمر خاطئ تماماً ويشير إلى أنه خلال حكم العسكريين في نهاية السبعينيات والثمانينيات اختفى الآلاف من الأرجنتينيين وران الصمت على ظروف اختفائهم ومن وراء ذلك، مؤكداً أن الصمت في هذه الحالة هو الموت. ولذلك فإن الصمت لن يجعل أمة ما تتقدم للأمام.

□ □ □

Histoire du Gaullisme

(تاريخ الديجولية)

De Serge Berstein

France - Perrin., 2001,

570 PP,



ماذا يبقى من الديجولية بعد نصف قرن من تفجر حركة «العصيان المدني» التي ولدت يوم الثامن عشر من يونيو ١٩٤٠؟ يرى سرج برستين - أحد مؤلفي الكتاب - أنه لم يعد يبقى منها شيء يذكر بخلاف بعض اللحظات التاريخية التي لا تنسى - فإذا كانت الثقافة السياسية للديجولية قد تواءمت بلاشك مع الوضع القائم في فرنسا في الستينيات، فقد تبين «تنافرها» مع وقائع نهاية القرن العشرين.

كيف يمكن لنا تعريف الديجولية؟ إنها بمثابة «توالف» مبتكر وهش غالباً بين القومية والفكر الجمهوري. فالقومية هي الاعتقاد الراسخ للجنرال ديجول، قومية تأخذ شكل «الأولوية المطلقة للأمة الفرنسية على غيرها من الأمم» وهي تتناقض كل التناقض مع «العالمية السلمية لليسار الجمهوري».

ورغم ذلك، لن يُرد ديجول أن يحصر نفسه في سياسة القومية، رويداً رويداً ودون التخلي عن أفكاره تقارب مع الجمهورية. وهي تختلف بقدر كاف عن النموذج السائد ولكنها تتسق مع المبادئ الديمقراطية وسيادة الشعب. وتتمحور على «فكرتين بسيطتين» «العظمة كهدف والدولة القوية كوسيلة».

فالديجولية قبل كل شيء هي عمل رجل لا يرضى بالهزيمة. فالنغمة السائدة في فرنسا الحرة - كما يوضح سيرج برستين - هي «القومية المرتبطة بعض الارتباط بالنموذج الجمهوري المستسلم بمسئوليته عن الهزيمة». وهذا هو سبب تشكك الجمهوريين في هذا الجنرال الذي انخرط في السياسة» إلا أن ديجول ما لبث أن قدم الضمانات على ارتباطه بالديمقراطية متنقلاً بذلك في الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤ من «القومية اللاسياسية» إلى «مفهوم مبتكر للجمهورية».

وثاني المراحل أهمية هي قيام

عـــــروض
مـــوجـــزة

الجمهورية الخامسة بعد «فشل نماذج الديجولية والنموذج الجمهوري في أعقاب الحرب». في عام ١٩٥٨، ترسخ نظام سلطة يختلف جل الاختلاف عن منطق الأنظمة السابقة التي يريدها الجنرال ديجول أن ترى النور. يقول الكاتب «لأول مرة في تاريخ فرنسا، يتحقق نظام سياسي يجمع بين لفظين تم اعتبارهما متضادين حتى ذلك الحين وهما الجمهورية والدولة القوية. بالطبع هناك عدة أشكال للديجولية ولكنها تبدو أساساً بمثابة أفضل النظم «تواؤماً مع المشاكل المعقدة التي تواجهها الدولة والمجتمع في النصف الثاني من القرن العشرين.

وإذا كان تعريف الديجولية يتمثل في دور رئيس الجمهورية في أنه «حجر الزاوية» وفي أن عظمة فرنسا هي أولى الأولويات فإن «الشيراكية» تبعد عن ذلك. فلقد أراد الرئيس الحالي جاك شيراك أو قبل في مواجهة فاليري جيسكار ديستان في بادئ الأمر ثم في أثناء حقبة التعايش بعد ذلك أن يقلل من وضع الرئيس. أما العظمة الفرنسية فقد تراجعت أمام بناء أوروبا. ويخلص الكاتب إلى أن الديجولية كوصفة سياسية قد استنفدت قواها بشكل لا يمكنها من حل مشاكل فرنسا في نهاية القرن العشرين».

□ □ □

The Skull Beneath the Skin
Africa After the Cold War

(أفريقيا بعد الحرب الباردة)

Mark Huband

Westview Press, 2002, 376PP.,

£ 21.99



مؤلف هذا الكتاب لديه نظرية بسيطة يقوم عليها الكتاب الا وهي أنه لكي يحقق الاستقرار في القارة السمراء فإن من الضروري ترك دول القارة تحدد استراتيجياتها السياسية وحدها. ويقول إن على هذه الدول حكومات وشعوبا أن تحدد بنفسها ماهية مشاكلها وكيف تتعامل معها من أجل حلها.

ويقرر مارك هابند أن الصعوبات السياسية والاقتصادية التي تواجهها القارة حاليًا مثل الفساد الحكومي والبقاء في السلطة وسوء استخدامها وكذلك الحروب الداخلية وإهمال الموارد وعدم الإدارة السليمة، كلها من نتاج التدخلات الأجنبية من جانب القوى الكبرى. ويقدم الكتاب حججًا مقنعة عن هذه التدخلات الأجنبية وكيف ساهمت في إيصال أفريقيا إلى الوضع المزري حاليًا من خلال استغلال موارد القارة الطبيعية وهي كثيرة وترك مواطنيها يشتبكون في حروب وخلافات ومجاعات وأمراض.

وهناك فصول عديدة تتحدث عن المآسي التي تعرضت لها القارة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا لكن المؤلف يبدو متفائلاً بشأن أفريقيا ما بعد الحرب الباردة وهو يشير إلى أن دول القارة تبدو عازمة على إصلاح أحوالها والمشاركة في مسيرة العالم نحو التقدم.

□ □ □

Inventing the Victorians

(اكتشاف الفيكتوريين)

Matthew Sweet

London: Faber, 2002, 264PP,

£16.99



يمثل العصر الفيكتوري، الذي حكمت فيه الملكة فيكتوريا الإمبراطورية البريطانية الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر بالنسبة لكثير من المؤرخين والمثقفين عصر التزمت والتشدد وسيادة قيم المجتمع على حساب الفرد والتمسك بالقيم الدينية إلا أن مؤلف الكتاب ماثيو سويت يخالف هذا الرأي ويقدم موضوعًا بحثيًا طريفًا اعتمد فيه على ما يبدو على بعض ما كانت تنشره الصحف الإنجليزية خلال ذلك العصر. ويقول إن أمورًا كثيرة منها الموجودة حاليًا مثل الأكلات السريعة وأعمدة القلوب الوحيدة في الصحف وحتى المقالات التحريرية التي تتضمن في داخلها إعلانات كانت موجودة بل إنه يقول إن آلة الفاكس كانت موجودة أيضًا حيث تم اختراعها عام ١٨٤٣. ويشير إلى أن بعض الكتاب كانوا على سبيل المثال وهم يعرضون لمسرحية ما يقدمون إعلانًا في ثنايا موضوعاتهم وهو نفس الأمر الذي يحدث حاليًا.

ثم إن الأفيون «أو المخدرات» كان منتشرًا كثيرًا وحسب تعبيره، فقد كان متوافرًا أكثر من الطعام، بل إن الأطفال كان يتم إعطاؤهم مشروبًا يدخل في تركيبه الأفيون كهدايا، وكان يتم بيع كميات كبيرة للغاية منه.

ويشير الكتاب إلى أن هناك أمورًا كثيرة تتطلب المراجعة وإعادة النظر وخاصة الأحكام القيمية التي أصدرها المؤرخون والمثقفون على العصر الفيكتوري، مثل أنه كان عصرًا متشددًا دينيًا وعنصريًا. ويضيف بأن هناك دلائل كثيرة تثبت أن هذه الأمور مجرد أساطير تحولت إلى وقائع بفعل كثرة تكرارها، لقد تولت الملكة فيكتوريا عرش الإمبراطورية البريطانية في عام ١٨٣٧ وظلت في الحكم حتى بداية القرن العشرين، وخلال حكمها توسعت الإمبراطورية البريطانية بشكل غير مسبوق لدرجة أنه أصبح يطلق عليها الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس وكانت وفاة فيكتوريا بداية لغروب تدريجي لشمس تلك الإمبراطورية.

□ □ □

True Tales of American Life

(قصص حقيقية من الحياة الأمريكية)

Paul Auster

London: Faber, 2002, 394PP,

£16.99



في مايو ١٩٩٩ دعا الراديو الوطني للولايات المتحدة بول أوستر أن يقص على المستمعين قصة على الهواء مباشرة مرة كل شهر. إلا أنه رفض لكن زوجته أقنعته بإعادة النظر في رفضه، واقترحت عليه أن يسأل المستمعين للبرنامج أن يرسلوا قصصهم ليقرأها على الهواء. ووافق أوستر على هذا الاقتراح لكنه وضع شرطين، الأول: هو أن تكون القصص من واقع الحياة والثاني أن تكون قصيرة. وخلاف ذلك ليس هناك أي محظورات على موضوع القصة أو الأسلوب. وكان كتاب «قصص حقيقية من الحياة» نتاج هذا البرنامج. وللمفاجأة حقق الكتاب أعلى المبيعات واعتبره كثير من النقاد نوعا من التاريخ الاجتماعي أو الإنثروبولي للمجتمع الأمريكي، وكما يقول النقاد فإن هذه المجموعة القصصية لبول أوستر مثيرة ومدهشة لأمرين اثنين، الأول: له علاقة بالقصص نفسها، والثاني: له علاقة ببول أوستر الذي يقول في مقدمته إن أصحاب القصص لم يحاولوا أن يقتبسوا من الأدب أو أن يكونوا على شاكلته بل كتبوا ما عاشوه في الواقع بشكل خام أبعد ما يكون عن الزخرفة.

إن الأمر المدهش في هذه القصص هو أنها تضارع الأعمال الفنية الكبيرة، ولكن لا تشبهها، فالمستمعون تحدثوا بشكل واضح دون تجميل، وكانت اللغة بسيطة مباشرة، لكنها كانت ممتعة ومبتكرة بشكل غير عادي.

وبدايات القصص مباشرة. ففي إحداها يقول المؤلف «في أكتوبر من عام ١٩٧٧ كان عمري ١٢ عامًا». بينما يبدأ آخر قصته «قبل عدة أعوام قمت بزيارة صديق». ثم تتوالى وقائع القصة.

وقصص المستمعين تلك تتحدث عن أشياء قد تبدو بالنسبة لهم مجرد أمور عادية لكنها حسب رأي النقاد إعادة اكتشاف للأشياء ولأنها نبعت من الناس وهي حقيقية فإن المصداقية فيها أكبر، ولذلك تلقفها الأمريكيون بشغف بالغ. إنها نوع من الأدب الشعبي كتبه أناس ذكروا أسماءهم لكنهم غير معروفين بل مجهولين بشكل شبه تام. ولم يكن هدفهم جذب انتباه القارئ أو استعراض قدراتهم بل مجرد سرد قصصهم، وذلك هو سر نجاح هذه القصص وذلك الكتاب.

□ □ □

The Death of Comedy

(موت الكوميديا)

Erich Segal

Harvard UP, 2001, $ 25



يضع إريك سيجال مؤلف هذا الكتاب مهاراته كقاص وكاتب سيناريو وأستاذ للأدب الكلاسيكي لتناول هذا الموضوع. ويقدم من خلال الكتاب دراسة تفصيلية عن تطور فن الكوميديا في الغرب من الإغريق القدامى إلى المسارح والسينما إلى أن يصل لحكم مفاده أن الكوميديا في انحدار بل ويحاول أن يقدم تأبينًا للكوميديا. ويعلنها سيجال صراحة: لقد ماتت الكوميديا، ويشير إلى أنها بدأت في الضعف والذبول منذ قرون طويلة إلا أنها لقيت مصرعها - على حد قوله - على أيدي جورج برنارد شو ويوجين أونيسكو وصمويل بيكيت.

الكتاب مليء بالمعلومات التي تدعم وجهة نظره سواء المسرحيات أو المسارح وغيرها من المعلومات. وبالطبع فإن هناك من سيختلف مع وجهة نظر سيجال ويقول إنه على العكس فإن فن الكوميديا يشهد طفرات كبيرة في العصر الحديث، وكان ظهور السينما والتليفزيون فرصة كبيرة لإثراء هذا الفن وإتاحة المجال لملايين البشر للاستمتاع به بل وأيضًا إتاحة الفرصة لظهور مؤلفين وفنانين كوميديين أثروا هذا الفن العريق.

** اجتمـاع **

جمهورية طاجيكستان

عبيد العتيبي
الكويت: جامعة الكويت، ٢٠٠١

دراسة للمجتمع الطاجيكستاني والأسباب التي قادت إلى الصراع الطاجيكي وتأثير هذا الصراع على الدولة، وكيف يمكن تجنب الصراع مستقبلاً وإرساء دعائم دولة حديثة.

■■■

Three Faces of Beauty: Casablanca, Paris, Cairo

(ثلاثة وجوه للجمال: الدار البيضاء، باريس والقاهرة)

Susan Ossman
Duke University Press, 2002, 224P, $ 18.95

تتناول المؤلفة ثقافة التجميل في صالونات التجميل المنتشرة في كل من القاهرة والدار البيضاء وباريس باعتبارها ترمز لعملية التخفف من التقاليد في سبيل التحرر والتحديث. ففي صالونات التجميل تتم عملية «تفكيكية» للجسد لكي يُعاد بناؤه مرة أخرى. الكتاب يضم الكثير من المصطلحات النقدية الحديثة، ولا يناقش تفاصيل عملية التجميل نفسها والفروق بينها في تلك المدن الثلاث.

■■■

The Body and the Blood: The Holy Land's Christians at the Turn of a New Millennium

(مسيحيو الأراضي المقدسة على مشارف الألفية الجديدة)

Charles M.Sennott
Public Affairs, 2001, 479PP, $ 30.00

يتناول صحفي أمريكي في هذا الكتاب مجتمع العرب المسيحيين في الأراضي المقدسة الذين تضاءلوا إلى أن أصبحوا لا يشكلون أكثر من ٢٪ من إجمالي السكان في إسرائيل والضفة الغربية وقطاع غزة. يناقش الكتاب الأسباب التي تجعل أكثرهم يفضل الهجرة، حيث يعيش ضعف عدد المسيحيين الفلسطينيين في الخارج.

** اقتصـــاد **

Free Trade Today

(الاقتصاد الحر اليوم)

Jagdish Bhagwati
Princeton University Press, 2002, 144PP, $ 24.95

يعد البروفيسور جاجديش باجواتي أهم دعاة التجارة الحرة في العالم، وبالإضافة لعمله أستاذاً في جامعة كولومبيا يعمل باجواتي مستشاراً خاصاً لقضايا العولمة في الأمم المتحدة ومستشاراً خارجياً للمدير العام لمنظمة التجارة العالمية.

في هذا الكتاب الذي يعقب كتابه الشهير عن «الحمائية» يرد باجواتي على المناهضين للعولمة والتجارة الحرة فيبين كيف يمكن للتجارة الحرة أن تخدم البيئة والمجتمع عن طريق رفع مستويات المعيشة بدون اللجوء إلى فرض القيود التجارية، وذلك عن طريق استخدام النظريات الحديثة في السياسة التجارية.

كذلك يؤيد باجواتي التجارة الحرة المتعددة الأطراف ويحذر من الاتفاقات الثنائية أو الجغرافية مثل «النافتا» التي يرى أنها تحدث الفوضى في نظام التجارة العالمية.

■■■

African Economies and the Politics of Permanent Crisis, (1979 - 1999)

(النظم الاقتصادية الأفريقية وسياسات الأزمة المزمنة «١٩٧٩ ـ ١٩٩٩»)

Nicolas Van De Walle
Cambridge University Press, 2001, 303PP, $ 19.95

يقدم هذا العمل تفسيراً سياسياً لفشل الدول الأفريقية في تحقيق التنمية بالرغم من مرور عشرين عاماً على الإصلاح الاقتصادي المفروض من الخارج. فعن طريق تحليل برامج المعونة الدولية والتي تشمل حكومات غربية والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي والنظم السياسية التسلطية، ينتهي المؤلف إلى أن هذه الحكومات تدربت على القيام بقدر من الإصلاح يكفي لاستمرار تدفق المعونات ولكن ليس بالقدر الذي ينهي حالة الأزمة المزمنة. فالمعونة قد أضرت بإمكانيات المؤسسات المحلية لإدارة الإصلاح والنمو، أما التحول الاقتصادي الحقيقي فلن يأتي سوى عن طريق إصلاح سياسي داخلي.

** تـــاريخ **

الدولة العثمانية ـ تاريخ وحضارة

مجموعة من الأساتذة
إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي
ترجمة: صالح السعداوي
تركيا: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠٠١

عن نشأة الدولة العثمانية والعوامل التي شكلت تلك النشأة، والمبادئ التي حملتها وجعلتها ـ من وجهة نظر المؤلفين وفي حقبة تاريخية معينة ـ مركز إشعاع علمي وحضاري. كما يقدم الكتاب الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية في الدولة العثمانية.

■■■

Blood of Revolution: From the Reign of Terror to the Rise of Khomeini

(دماء الثورة: من عهد الإرهاب في فرنسا إلى صعود الخوميني)

Erik Durschrnied
Arcade, 2002, 366PP, $ 25.95

نظرة على سجل الثورات السياسية الكبرى التي قامت على مدى القرنين الماضيين. يتوصل المؤلف من خلال تناوله للثورة الفرنسية والثورة البلشفية والثورة الإسلامية الإيرانية وغيره، إلى أن الشجاعة والعبقرية والمبادئ سرعان ما تتطور في المراحل الأولى من الثورة إلى جنون وتعصب وانتهازية وسادية. كما يتوصل إلى أن الانهيار السياسي الكامل لا يحدث ببساطة بسبب غزو فكري أو عسكري، حيث لم يتم أبدًا إقصاء حاكم إلا إذا كان هذا الحاكم بالفعل شديد الضعف أو شديد الغباء.

■■■

1979: The Year That Shaped the Modern Middle East

(١٩٧٩: العام الذي شكّل الشرق الأوسط الحديث)

David W; Lesch
Westview, 2001, 188PP, $ 20.00

يرى المؤلف أن ثلاثة أحداث وقعت في عام ١٩٧٩ شكّلت ما لحق من تاريخ الشرق الأوسط. أولاً: اتفاقية السلام المصرية ـ الإسرائيلية التي حوّلت المواجهة العربية الإسرائيلية من قضية وجودية إلى قضية تفصيلية تتعلق بمفاوضات الوضع النهائي. ثانياً: الغزو السوفيتي لأفغانستان والذي عجّل بسقوط الاتحاد السوفيتي، وثالثاً: قيام الجمهورية الإسلامية في إيران وبداية المواجهة الأمريكية والغربية مع الإرهاب الإسلامي.

** تـــراث **

اللهجة الكويتية من خلال الشعر النبطي

يعقوب الغنيم
الكويت: مكتبة الأمل، ٢٠٠١

عديد من القصائد النبطية (العامية الخليجية) تروي تاريخ الكويت وتتوقف عند منعطفات تاريخية مهمة في مسارها، يحللها المؤلف ويوضح الدور الذي لعبته هذه اللهجة في حفظ تاريخ الكويت وتأثيرها في المجتمع الكويتي ويعدها بمثابة ديوان للتاريخ الكويتي.

** تعـليم **

القيم السلوكية

محمود عقل
السعودية: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ٢٠٠١

ثمة مجموعة من القيم السلوكية والاجتماعية التي تميز طلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية، وثمة مؤثرات تحدد هذه القيم السلوكية، المؤلف يرصد سلوك طلاب هذه المرحلة وقيمهم الأساسية وكيف يمكن للقائمين على العملية التربوية أن يرشدوها في الاتجاه الصحيح.

■■■

Methods and Resources for Elementary and Middle - School Social Studies

(مناهج ومصادر للدراسات الاجتماعية في مرحلتي المدرسة الابتدائية والإعدادية)

James Stockard
Waveland Press, 2001, 484PP., $ 42.95

الكتاب موجه لمدرسي الدراسات الاجتماعية في المدارس الابتدائية والإعدادية ويحتوي على نصائح عديدة خاصة بأفضل طرق تدريس الدراسات الاجتماعية للتلاميذ.

** دوريـــات **

البيت

الرباط: بيت الشعر، ٢٠٠٢

تتنوع موضوعات المجلة بين الشعر والنثر، إلى جانب الدراسة النقدية والتي من بينها دراسة عن أدب الفرانكفونية، تتضمن نصوصًا شعرية لشعراء كتبوا بالعربية مباشرة وقصائد أخرى ترجمت عن الفرنسية.

■■■

الفنون الشعبية

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب

يتضمن العدد موضوعات شتى منها دور الموسيقى الشعبية في التطور الموسيقي عمومًا وفن الفلكلور والمعتقدات السائدة حول القديسين، ويترجم الكاتب والمخرج المسرحي رأفت الدويري حكايتين من الأدب الهندي.

■■■

سطور

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢

يتناول هذا العدد قضايا عدة مطروحة على الساحة العالمية بينها مستقبل السلام مع إسرائيل، ونقد الهيمنة الأمريكية، يشارك في العدد أدباء ونقاد ومفكرون بينهم د. فيصل دراج ود. علي الغتيت وآخرون.

ويرأس تحرير سطور الدكتور محمد عناني والدكتورة فاطمة نصر.

** ديـــن **

الذهب والعاصفة

نوري الجراح
عمان: بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

دراسة تحفل أساسًا بالبُعد الثقافي والسوسيولوجي في نشأة القارة الأمريكية واكتشافها والأسباب التي أدت إلى أن يترك الآلاف من المهاجرين بلادهم وحياتهم التي اعتادوا وشدوا الرحال إلى المجهول باحثين عن الذهب وأحلام الثراء في القارة الجديدة. يطرح الشاعر السوري ذلك كله بلغة أدبية سلسة.

■■■

نفسية بني إسرائيل في القرآن الكريم

زاهية الدجاني
عمان: دار فارس، ٢٠٠١

قل بنو إســـرائيل طوال تاريخـــهم يحيكون المؤامرات ويتحـايلون على من عاشوا معهم بهدف السيطرة عليهم. وهو الأمر الذى فعلوه فى عصر النبوة ومراحل بناء دولة إسلامية. والكتاب يركز على سيـرة بنى إسـرائيل فى القرآن الكريم وخـروجـهم من مـصـر ومـؤامـراتـهم وتحـالفاتهم والصـفات النفـسيـة التى تميزهم وتفسر سلوكهم. وكيف أثرت فى صراعاتهم وحياتهم فى كل عصر، وكيف يسهم فهم هذه الصفات فى تحليل مواقفهم الحالية.

■■■

Roman Catholics and Shi'i Muslims: Prayer, Passion, and Politics

(الروم الكاثوليك والشيعة المسلمون: الصلاة والعاطفة والسياسة)

James A. Bill and John Aldeu Williams

University of North Carolina, 2002, 208PP, $ 27.50

أوحى لقاء الرئيس محمد خاتمى مع البابا يوحنا بولس الثانى فى مارس عام ١٩٩٩ للمـؤلفـين بأوجـه التـشـابه الموجودة بين العقيدتين اللتين يدين بهما هذان الزعيمان وهما الشيعة الإسلامية والكاثوليكية الرومانية. من ضمن التشابهات التى يرصدها المؤلفان المسرحيات العاطفية التى يقيمها الشيعة إحياءً لذكرى استشهاد الإمام الحسين فى كربلاء، وتلك التى يقيمها الكاثوليك إحياءً لذكرى صلب المسيح. كذلك تقترب صورة فاطمة الزهراء ابنة الرسول فى ذهن الشيعة من صورة مريم العذراء. يتناول الكتاب أيضًا تأثير الفلاسفة المسلمين على الفلاسفة الكاثوليك ومدى التبادل الثقافى الإيجابى الذى حدث بينهما فى الماضى.

** روايات وقصص **

الضغينة والهوى

فواز حداد

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠١

شبكة تاريخية معقدة من أحداث الخمسينيات من القرن الماضى تدمجها أحـداث الرواية لتكون شـاهدة على الخصومات السياسية فى بلاد الشام، وكذلك تضارب المصالح بينها ، والرواية تقدم بانوراما كاملة للعلاقات الغربية الشرقية والأطماع الاستعمارية التى شابتها.

■■■

الغرفة المغلقة

سعاد آل خليفة

عمان: دار الفارسى، ٢٠٠١

مجموعة قصصية ترسم ملامح لوجوه وشخوص مختلفين متنوعى المشارب والأهواء، تكسو بعضهم علامات حزن شفيف وتطفى السعادة على قسمات بعض آخر وتراود أحلام الرفاهة والهناء أكثرهم. هكذا ترصدهم المؤلفة، شخوص من واقع الحياة.

■■■

مشهد من وراء السور

عزالدين نجيب

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١

مجموعة قصصية جديدة لمؤلف عُرِف بوصفه فنانًا وناقدًا تشكيلياً أكثر منه أديبًا، لكن مجموعاته القصصية السابقة برهنت على تميزه فى هذا اللون الأدبى. وهو ما تبثه هذه المجموعة الجديدة التى تبحث عن المصير الإنسانى الذى لا يدفع إلى التفاؤل به واقع مؤلم دام عانى المؤلف بعضًا من تجلياته الحزينة كمعتقل سياسى.

■■■

The True Sources of the Nile

(منابع النيل الحقيقية)

Sorah Stone

Doubleday, 2002, 288PP, $ 23.95

الرواية الأولى لمؤلفتـها تدور فى بوروندى حيث تعمل البطلة ضمن إحدى بعثات نشطاء حقوق الإنسان. تقع البطلة الأمريكية فى حب شاب من أفراد الطبقة العسكرية الحاكمة، وتتمنى فى سذاجة أن يتغلب حبهما على الفروق الثقافية والعنصرية بينهما، تماماً كما تتمنى أن تتغلب بوروندى على صراعها الملحمى بين قبائل التوتسى والهوتو بالإرادة الحسنة والبنية التحتية المناسبة.

■■■

Arafat's Elephant

(فيل عرفات)

Jonathan Tel

Counterpoint, 2002, 208PP, $ 14.00

مجموعة قصصية مستوحاة من الحياة المعاصرة فى مدينة القدس، منها قصة بعنوان «الزر الأحمر» تدور حول فدائى ينوى تفجير نفسه، وقصة أخرى تدور حول لقاء كاهن يهودى بطبّاخ الرئيس عرفات. المؤلف درس علوما فلكية وفيزياء فى الولايات المتحدة وبريطانيا، وتلك هى مجموعته القصصية الأولى.

** رياضيات **

The Essential John Nash

(الأعمال الأساسية لجون ناش)

Harold W. Kuhn & Sylvia Nasar (editors)

Princeton University Press, 2002, 272PP, $ 29.95

عندما فاز جون ناش بجائزة نوبل للاقتصاد فى عام ١٩٩٤، اندهش الكثيرون من كونه مازال على قيد الحياة، ثم ظهرت قصة حياته التى كتبتها سلفيا نصار «عقل جميل» والتى كشفت فيها عن مرضه بالشيزوفرانيا، وقد تحول كتابها إلى فيلم سينمائى عام ٢٠٠١ يحمل نفس العنوان.

أما هذا الكتاب فيتناول أعمال جون ناش وأشهرها مساهمته فى نظرية المباراة التى نال من أجلها جائزة نوبل. وتعد مساهماته فى الرياضيات البحتة أبرز تأثيراً كما يتم تطبيقها فى مجالات شتى.

** سياسة **

أضواء على المعابر

فهد الباشا

بيروت: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

مر الشعب اللبنانى فى تاريخه المعاصر بنكبات وأزمات هائلة سياسية وعسكرية واجتماعية عصفت باستقراره عقودًا ومازال يجاهد كى يسترد عافيته ومواقعه الثقافية والسياسية. المؤلف يرصد ذلك ويركز بالأخص على الحرب الأهلية التى استمرت ما يزيد على عشرين عامًا.

■■■

انتهاكات حقوق الإنسان فى العراق

رياض العطار

دمشق: الجمعية العراقية لحقوق الإنسان، ٢٠٠١

يشغل موضوع حقوق الإنسان حيزًا مهمًا فى مجتمعاتنا المعاصرة، ويطرح فى كثير من البلدان وتحت ظروف مختلفة لأسباب حقيقية أحيانًا، ولأسباب مختلفة فى أحيان كثيرة. وانتهاكات حقوق الإنسان فى العراق يتم تسليط الأضواء عليها الآن لأسباب واضحة، لكن ذلك لا ينفى أنها واقعة وأن حقوق الإنسان منتهكة بالفعل فى العراق.

■■■

الإسلام والغرب الأمريكى بين حتمية المواجهة وإمكانية الحوار

محمد إبراهيم مبروك

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١

يقدم المؤلف بدائل للصدام الذى يقترحه البعض ويراه حتمياً بين الشرق والغرب، بدائل تفتح آفاقًا أوسع للحوار وتجنب المواجهة، ويدافع عن إمكانية المساهمة المتبادلة بين الحضارتين لتحقيق التوازن بديلاً عن الصراع.

■■■

الدبلوماسية الكويتية بين المحنة والمهنة

سليمان ماجد شاهين

الكويت: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

يجمع الكتاب عديدًا من الندوات والمحاضرات التى تناولت الآثار المدمرة للغزو العراقى للكويت عربياً وإقليمياً ودولياً.

■■■

الدولة والثورة

منير شفيق

الرباط: بيروت، المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١

رد نقدى على كتاب «لينين» الدولة والثورة، بعد سنوات من انهيار الاتحاد السوفيتى وتداعى المنظومة الفكرية التى بُنى عليها الفكر الشيوعى فى مواجهة الرأسمالية.

■■■

صنع القرار فى الاتحاد الأوروبى

محمد مصطفى كامل

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

تصاعدت الأزمة فى الشرق الأوسط بصورة غير مسبوقة وشهد الصراع العربى الإسرائيلى تدهورًا غير مسبوق تلاشت معه أحلام الأمن والسلام، وكان من المفترض أن تلعب أوروبا دورًا وهى القريبة جغرافياً وبحكم المصالح من أجواء المنطقة، ولكنها لم تفعل. المؤلف يلقى الضوء على كيفية صنع القرار الأوروبى فى ضوء الشراكة الأوروبية، وكيف يمكن أن تلعب هذه الشراكة دورًا فى حل عديد من النزاعات فى أوروبا وفى العالم كله.

■■■

نحو مستقبل مشرق

سامى الحصاونة

عمان: الجامعة الأردنية، ٢٠٠١

عن العلاقات العربية الأمريكية وتأثيرها على الواقع العربى الراهن وكذلك على القضايا العربية المستقبلية، وهى موضوعات دار بشأنها نقاش واسع شهدته الجامعة الأردنية فى محاضرات وندوات عديدة يجمعها هذا الكتاب.

■■■

هنا وهناك

سارى حنفى

فلسطين: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ٢٠٠١

دراسة شاملة تستقصى العادات والتقاليد الفلسطينية وكيفية الحفاظ عليها لمواجهة عمليات القرصنة الإسرائيلية، وتدعيم العلاقة بين الشتات الفلسطينى والمركز.

■■■

Succession in Saudi Arabia

(الخلافة فى السعودية)

Joseph A. Kechichian

Polgrave, 2001, 287PP, $ 55.00

دراسة لتاريخ الخلافة الملكية فى المملكة العربية السعودية منذ الملك ابن سعود وحتى اليوم. الكتاب يتناول كل حاكم على حدة حسب الترتيب الزمنى ويحاول استقراء مستقبل الخلافة فى حالة ابتعاد الملك فهد عن ساحة الحكم.

■■■

Statecraft: Strategies for a Changing World

(فن الحكم: استراتيجيات من أجل عالم متغير)

Baroness Thatcher

Harper Collins, 2002, £ 25.00

يصدر الشهر المقبل أحدث كتاب لرئيسة وزراء بريطانيا السابقة البارونة تاتشر، التى تقول عنه: «أردت أن أكتب كتاباً آخر يكون هذه المرة عن المستقبل، ففى هذا العصر الذى يسوده المستشارون الصحفيون يكمن الخطر فى اتباع القادة السياسيين للموضة وليس لمعتقداتهم ومواهبهم.. يجب على الغرب أن يظل قوياً

ويقظاً وهدفى فى هذا الكتاب أن أبيّن كيفية - ووجوب - إتمام ذلك».

فى «فن الحكم» تستدعى مارجريت تاتشر خبرتها السياسية لمجابهة تحديات الألفية الجديدة، فتتناول أسس الهيمنة الأمريكية ومستقبل الدور الأمريكى، كما تتناول الأدوار المستقبلية لكل من الصين والهند ودول الشرق الأقصى، كذلك تحذر من عواقب عدم الاستقرار فى البلقان وتقدم استراتيجيات لمحاربة خطر الدول المارقة والتطرف الإسلامى والإرهاب الدولى.

سينما

المهنة كاتب سيناريو

سمير الجمل

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١

يقدم المؤلف وجهة نظره فى فن كتابة السيناريو ويرى أنها موهبة أساسًا قبل أن تكون علمًا، ويتضمن الكتاب مجموعة من الحوارات مع عدد من كتّاب السيناريو الذين أثروا الحياة الفنية بأعمال درامية مهمة.

■■■

دليل الأفلام فى القرن العشرين

محمود قاسم

تقديم كمال الشيخ

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠١

تضم هذه الموسوعة الأفلام السينمائية المصرية التى أُنتجت منذ عام ١٩٢٣ وحتى عام ٢٠٠٠، حيث تم إنتاج ما يقرب من ٢٨١٣ فيلمًا. كما تتعرض الموسوعة لأحوال السينما العربية فى الأردن والجزائر والمغرب العربى وغيرها.

■■■

دليل الفيلم الفلسطينى ١٩٢٥ - ٢٠٠٠

تيسير خلف

الدوحة: مهرجان الشاشة العربية المستقلة، ٢٠٠١

عن حال السينما الفلسطينية وأهم المشكلات التى تعانيها وتأثير الأزمات السياسية والحصار الاقتصادى على نموها، والحلول المقترحة لمواجهة مثل تلك الأزمات.

■■■

Experimental Cinema in the Digital Age

(السينما التجريبية فى العصر الرقمى)

Malcolm le Grice

British Film Istitute, 2002, 484PP.

مجموعة من المقالات التى تتناول تأثير التكنولوجيا الحديثة على السينما وخاصة السينما التجريبية فى العقود الثلاثة الماضية.

شعر

إمضاءات

شوقى عبدالأمير

عمان: بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

ديوان تحمل قصائده رؤى فلسفية عميقة تبحث فى البدايات والنهايات ورحلة الوجود والعدم وما وراء الطبيعة. ويقدم المؤلف عبر قصائده تجربة لغوية تقرّب بين القارئ والنص وتكشف غموض الرمز.

■■■

دوائر الجحيم

خوستو خورفى

ترجمة: المهدى أخريف

المغرب: دار توبقال، ٢٠٠١

مجموعة شعرية أسبانية يلتقط فيها الشاعر لحظات من عمر الإنسان تكشف عن عمق المأساة الإنسانية، عبر توظيف هائل للرمز.

■■■

زهر الرمان

مريد البرغوثى

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٢

يعيدنا الشاعر بنصوصه تلك إلى أجواء الأرض التى ينبعث عبيرها عبر نصوصه اللافتة، والتى تهيم فى عوالم الطفولة والصبا والشباب، فترسم هالات من الحزن وتتمسك بأهداب الأمل.

■■■

مانكان

ياسين عدنان

المغرب: دار النشر المغربية، ٢٠٠٢

تجربة شعرية خصبة تهتم بتفاصيل الحياة فى المجتمع المغاربى وثقافته وحياته اليومية من خلال رؤية بالغة البساطة والشفافية.

عسكرية

Ambiguous Order: Military Forces in African States

(النظام الملتبس: القوات المسلحة فى الدول الأفريقية)

Horbert M. Howe

Lynne Rienner, 2001, 327PP, $ 55.00

نظرة شاملة على القضايا الأمنية فى أفريقيا، خاصة قضية الضعف العسكرى وارتباطها بانتشار العنف الداخلى والعنف بين الدول المتجاورة وذلك فى الفترة التى تلت الحرب الباردة.

يتناول المؤلف جذور ضعف القوات المسلحة فى الدول الأفريقية خاصة بعد زوال حماية الدول العظمى، وفى ظل حكام قلقين على مواقعهم وبالتالى يفضلون جيشاً يقوده الولاء على حساب الكفاءة المهنية والعسكرية.

ثم يناقش المؤلف ثلاث دراسات حالة لوسائل العلاج التى قدمت من قبل لموازنة هذا الضعف وما تنطوى عليه من مشكلات: أولاً قوات حفظ السلام المتعددة الأطراف (مثل إكوموج)، وشركات الأمن الخاصة (مثل إجزكيوتيف أوتكامز) وأخيراً برامج إعادة التدريب الخارجية (مثل البرنامج الأمريكى آى.سى.آى.آر).

■■■

Rocket's Red Glare: Missile Defenses and the Furture of World Politics

(الدفاعات الصاروخية ومستقبل السياسة العالمية)

James Wirts & Jeffrey Larsen (editors)

Westview, 2001, 320PP., $27.50

مجموعة مقالات كتبها أكاديميون وسياسيون حول أنظمة الدفاع الصاروخى. يتضمن الكتاب دراسات عن البيئة السياسية والتكنولوجية للدفاع الصاروخى، والآراء السياسية المختلفة، والاتفاقات الدولية المتعلقة بهذه القضية.

علوم

The Miracle of Flight

(معجزة الطيران)

Stephen Dalton

Merrell, 2000, 184PP, £ 22.50

مقدمة مبسطة فى علم الطيران موجهة للقارئ العادى، تتناول تطور الطيران لدى الكائنات الحية الطائرة من الطيور والحشرات، والكيفية التى تعمل بها الأجنحة.

ثم يناقش الكتاب تاريخ تكنولوجيا الطيران التى ابتدعها الإنسان منذ الرواد الأوائل الذين حلموا بالطيران إلى آخر التطورات التى لحقت بتكنولوجيا الطيران فى العالم.

■■■

The Emperor's New Clothes Biological Theories of Race at the Millennium

(نظريات بيولوجية عن العنصرية)

Joseph L.Graves Jr.

Rutgers University Press, 2001, 253PP

يحاول عالم الأحياء النشوئية أن يثبت فى هذا الكتاب أنه لا يوجد أساس بيولوجى للفصل العنصرى بين البشر. وبالتالى فإن نظرية العنصرية ذات طبيعة أيديولوجية بحتة ولا يوجد دليل علمى على صحتها.

فكر

إشكالية العقل العربى بين الذات والآخر والآخر الجديد

ثابت مكاوى

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠١

تتجاذب العقل العربى أفكار عديدة، يمينية ويسارية وماضوية وحداثية، والالتباس والتطاحن بين هذه الأفكار بما يعوق النشاط الفكرى الصحيح، وتستنفد الطاقة فى غير مجالها، وهو ما ينبه إليه المؤلف ويرسم سبلاً للتقدم الفكرى والعطاء الحضارى على أوجهه الصحيحة.

■■■

فى نقد الإسلام الوضعى

أيمن عبدالرسول

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١

ليست الجماعات الإسلامية كتلة صماء واحدة، بل هى وإن استندت إلى أصول واحدة، فإنها متنوعة ومختلفة أحيانًا إلى حد التضاد. المؤلف يتناول الأفكار السائدة داخل كل جماعة واختلافها عن الأخرى ودواعى هذا الاختلاف. ويسعى إلى إثبات زيف مواقف بعضها. ويقدم دراسة نقدية لعديد من الأفكار السائدة بينها.

■■■

كلمات سيئة السمعة

يحيى جابر

بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١

مقالات ترصد الأوضاع المتردية فى عالمنا العربى والتى امتد تأثيرها على أجيال من الشباب تردت بالتالى أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية مما أفقدهم الأمل وحال بينهم وبين بلوغ أهدافهم.

فنون

The Tastemakers: UK Art Now

(صانعو الأذواق: الفن فى المملكة المتحدة الآن)

Rosie Millard

Thomas and Hudson, 2002, 256PP, £ 18.95

روزى ميللرد مؤلفة هذا الكتاب هى مراسلة الفن فى محطة الـ«بى.بى.سى». وقد اشتهرت روزى ميللرد بفضل طريقتها الفريدة فى نقل الأحداث الفنية وأصبحت لها شعبية كبيرة فى بريطانيا حيث يرى البعض أنها أدخلت حيوية على مجال كان يبعث على الملل. فى هذا الكتاب تقدم روزى ميللرد مشهد الحياة الفنية المعاصرة فى بريطانيا من خلال الشخصيات الرئيسية العاملة فيه، والذين بفضل مواقعهم يتحكمون فى الأذواق وفى الموضات الفنية وفى المعارض التى يتم الإنفاق عليها.

■■■

Wolfgang Tillmans: View From Above

(ولفجانج تلمانز: رؤية من أعلى)

Zdnex Felix, Rudolf Schmitz, Giorgio, Verzotti (editors)

Hantje Cants Publishers, 2002, 240PP.

حصل فنان التصوير الفوتوغرافى ولفجانج تلمانز على جائزة «ترنر» البريطانية عام ٢٠٠٠، وهى أرفع الجوائز التى تمنح للفنانين المعاصرين. هذا الكتاب يضم أشهر صوره التى عرف بها إلى جانب صور لم تنشر من قبل.

مذكرات وسير

الصدى

عبدالكريم الأشقر

حلب: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

دراسة للبُعد التاريخى والثقافى الذى نشأت فى إطاره واستمرت جامعة الإمارات،

والى ذلك يروى المؤلف من خلال مذكراته أيامه فى الجامعة منذ ١٩٧٩ وحتى ١٩٨٣.

■■■

عبدالله خالد الحاتم، الصحفى والمؤرخ والباحث

خالد سالم محمد

الكويت: رابطة الأدباء الكويتيين، ٢٠٠١

دراسة تقويمية للدور الذى لعبه عبدالله خالد الحاتم كصحفى ومؤرخ وباحث كويتى، وقد كان أول رئيس تحرير لمجلة فكاهية تصدر فى الخليج وتتناول الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية بأسلوب يتميز بالسخرية والتهكم.

■■■

Strangers in the House: Coming of Age in Occupied Palestine

(غرباء فى المنزل: الحياة فى فلسطين المحتلة)

Raja Shehadeh

Foreword by Anthony Lewis

Steer Forth, 2002, 256PP, $ 25

رؤية فلسطينية للصراع فى الشرق الأوسط مقدمة للغرب فى صورة مذكرات محام فلسطينى بارز هو راجا شحاتة، الذى ولد فى عائلة فلسطينية كبيرة إبان تأسيس دولة إسرائيل عام ٤٨. وكان والده المحامى عزيز شحاتة أول من نادى بالاعتراف بإسرائيل فى الستينيات وتبنى حل سلمى بقيام الدولتين، مما أدى فى النهاية إلى اغتياله. وفى هذه المذكرات يروى شحاتة عن تعليمه وعلاقته بأهله وحبه الأول وعمله فى مجال حقوق الإنسان وأسفاره، وذلك فوق صورة خلفية من صراعه المستمر ضد الاحتلال الإسرائيلى، حيث يقدم العديد من المشاهد التى تبين العنف والإهانة والإذلال الذى يمارسه الإسرائيليون يوميًا ضد الفلسطينيين، والتى يوضح شحاتة أنها تفسر مدى الغضب والإحباط الذى يعانى منه معظم الفلسطينيين.

" مـدن "

مدينة برقة

عبدالله عبده

القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠١

برقة مدينة مصرية قديمة تعرف حالياً باسم «المرج» وهى الآن من ضواحى القاهرة، وقد اشتملت هذه المدينة على آثار فرعونية وإسلامية، وهذا غير معروف لدى عوام الناس بل ولدى كثير من المختصين.

■■■

Berlin: A Modern History

(برلين: تاريخ معاصر)

David Clay Large

Allen Lane, 2002, 706PP, £ 25

تاريخ مدينة برلين منذ عام ١٨٧٠ ـ عام توحيد ألمانيا ـ وحتى اليوم. يتناول المؤلف مظاهر التغير والاستمرار فى هذه المدينة سواء فى أسلوب إدارتها فى الحقب المختلفة والشخصيات المالية المؤثرة فيها، وطبيعتها القاسية، والتى يرجعها البعض لما شهدته هذه المدينة من أزمات حصار وجوع وتضخم.

" نقـد "

الدوائر والزوايا

مختار أبو غالى

الكويت: رابطة الأدباء الكويتيين، ٢٠٠١

دراسة تحليلية نقدية فى شعر أحمد السقاف، موضوعاته وقضاياه وكيفية طرحها، وهو واحد من شعراء الكويت البارزين.

■■■

العطيلى

نبيل أبو حمد

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠١

يتوسل القاضى بالرمز فيلقى على لسان أبطاله ما يجسد مأساة وطن مسلوب الحرية فاقد للهوية، ومبرزًا طموحات الأفراد للانفلات من أسر هذا المصير المعتم والانطلاق نحو المستقبل.

■■■

جماليات المكان فى روايات جبرا إبراهيم جبرا

أسماء شاهين

عمان: دار الفارسى، ٢٠٠١

للمكان دور بارز حتى فى روايات جبرا إبراهيم جبرا، وهو دور ينعكس على الشخوص وعلاقتهم بزمانهم وبالمكان الذى يعيشون فيه، وهى مسألة تكتسب أبعادًا جمالية وتاريخية فى حالة جبرا على وجه الخصوص.

■■■

رواة وروائيون

ماهر البطوطى

عمان: دار الفارسى، ٢٠٠١

مرت الرواية عربيًا وعالميًا بتطورات مهمة تأثرت بالتيارات الفنية والمذاهب الفلسفية والجمالية التى سادت فى كل مرحلة تاريخية من واقعية ورمزية ورومانسية وواقعية سحرية، وهذا الكتاب يتابع تلك التيارات ونماذجها ومنهم نجيب محفوظ وجيمس جويس وكافكا وماركيز وهيمنجواى وغيرهم وتأثير هؤلاء على الفن الروائى.

■■■

شعراء السبعينيات

شعبان يوسف

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

تمثل تجربة شعراء السبعينيات فى مصر مرحلة مهمة فى تطور الشعر العربى فى مصر مثلته جماعتا إضاءة وأصوات، المؤلف يقدم تحليلاً نقديًا ومتابعة لمسيرة عديد من الرموز الشعرية لتلك المرحلة ومنهم رفعت سلام وحسن طلب وحلمى سالم وغيرهم.

■■■

كتب الحب عند العرب

أحمد الطويلى

بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١

كتاب الحب عند العرب، أى ما كُتب عن الحب نثرًا وشعرًا يملأ صفحات تمتد بعمق التاريخ العربى منذ الجاهلية وحتى اليوم. المؤلف يحلل لغة المحبين وأفكارهم عن الحب وما قاله المفكرون والفلاسفة والفقهاء فى الحب، منهم ابن قيم الجوزية وإخوان الصفا وغيرهم.

■■■

فى الأدب الهندى الحديث والمعاصر: الأم، النصيب وقصص أخرى

ترجمة: د. سمير عبدالحميد إبراهيم

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

يتضمن الكتاب قصصًا لثلاثة من أشهر الكتّاب فى الهند، ودراسة للمراحل التى مرت بها القصة الهندية والعوامل التى أثرت فيها اجتماعية وسياسية وغيرها، وارتباطها بمسار القصة فى العالم.

■■■

لن تتكلم لغتى

عبدالفتاح كيليطو

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠١

عن علاقة الثقافة العربية بلغتها فى الماضى والحاضر ودورها فى نهضة الحضارة العربية، إنه احتفاء باللغة على أكثر من صعيد بينها العلاقة بالآخر الثقافى والحضارى.

■■■

مسامرات نقدية

عبدالكريم الأشقر

حلب: دار القلم العربى، ٢٠٠٢

تعرف الحياة الأدبية العربية صالونات ومسامرات الأدباء التى تعقد أحيانًا بشكل دورى منتظم ومعلن، وأحيانًا بطريقة عفوية هدفها تبادل الرأى واستحضار الإبداع ومناقشته، والمؤلف يعرض الكثير من المسامرات والمحاورات التى كان طرفًا فيها مع عديد من المفكرين والأدباء والشعراء فى بلاده.

■■■

مسرح صلاح عبدالصبور

أحمد مجاهد

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١

تحليل نقدى لمسرح صلاح عبدالصبور والتيمات الأساسية التى دافع عنها وشكلته ومنها صراع المثقف مع السلطة ومفاهيم الحرية والعدالة والنضال ضد الاستعمار وغيرها، يتوصل المؤلف إلى هذه المعانى عبر تحليله لعدة أعمال من المسرح الشعرى لعبد الصبور ومنها: بعد أن يموت الملك ومأساة الحلاج وليلى والمجنون ومسافر ليل.

■■■

معرفة الليالى العربية

أمين الريحانى

تحقيق: جفرى ناشى

أمريكا: بلاتفورم انترناشيونال، ٢٠٠١

دراسة نقدية تحليلية لألف ليلة وليلة، عن أصل هذه الحكايات وبداياتها ونشأتها واللغات التى ترجمت لها، وتحتوى الدراسة على لوحات لبعض حكايات ألف ليلة وليلة.

■■■

ميخائيل باختين.. دراسات أخرى عن الرواية

زهير شلبية

الدنمارك: دار حوران، ٢٠٠١

دراسة عن باختين ودوره فى مسيرة الأدب الروسى، وإلى جانب هذه الدراسة عن سيرة باختين يقدم المؤلف رؤية منهجية تحليلية لتطور فن الرواية ودراسة للمستشرق الروسى بافل جرنيتشر الذى يتتبع تطور فن الرواية فى الأدب العربى والعالمى كجنس أدبى معين.

■■■

L'Excentricite Academique: Litterature, Institution, Societe

(الغرابة الأكاديمية: الأدب والمؤسسة والمجتمع)

Helene Merlin-Kajman

Belle Letters, 2002, 276PP, 20 Euros

يتناول هذا الكتاب «الأكاديمية الفرنسية» ذلك الكيان الذى تأسس عام ١٦٣٥ ليضم نخبة الكتّاب والأدباء الفرنسيين. وقد أنشئت الأكاديمية بأمر ملكى بهدف تدعيم اللغة الفرنسية والأدب الفرنسى فى المملكة الموحدة الجديدة فى ذلك الوقت، ثم ظلت تحت رعاية البلاط حتى قيام الثورة.

تتساءل المؤلفة عن دور الأكاديمية اليوم، حيث ترى أن وضعها أصبح شرفياً بالرغم من سلطتها فى حسم النزاعات اللغوية. وكانت مكانة الأكاديمية قد بدأت فى التضاؤل منذ القرن التاسع عشر مع نشوب الصراع بين الكلاسيكيين والرومانسيين وكذلك فى القرن العشرين حيث اتسعت الفجوة بين التقليديين المحافظين ورواد التجديد. بل إن الأكاديمية هاجمت أدباء موهوبين مثل أميل زولا وبودلير لأسباب أخلاقية وليس لأسباب أدبية أو فنية. وفى الأجيال القليلة السابقة أصبحت هناك قامات أدبية ترفض أن تنضم إلى هذا الكيان مثل جون بول سارتر وأندريه جيد. أما اليوم فليس من «الموضة» أن يكون الأديب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية، وخاصة إن الموضة الفكرية السائدة فى باريس الآن هى الفوضوية ومعاداة القيم المؤسسية.

■■■

Postmodern Pooh

(«بو» ما بعد الحداثة)

Frederick Crews

North Point, 2002,175PP, $22

كلمة «بو» التى تظهر فى عنوان هذا الكتاب تشير إلى اسم شخصية محببة فى قصص الأطفال الكلاسيكية، وقد استخدمها المؤلف فى مجال تحليله الساخر للحروب الثقافية التى ميزت الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين.

يرى المؤلف أن مدارس النقد الفكرى الحديثة تستخدم أساليب لغوية مراوغة لتشتيت القارئ عن ملاحظة مدى الفراغ فى حجج النقاد. يسخر المؤلف من نصوص لنقّاد مثل جاك دريدا وهارولد بلوم وعلماء مثل رتشارد داوكنز.. وغيرهم.

■■■

المخ.. والدماغ

سعدت بمقال الصديق الدكتور نبيل على لما فيه من شجاعة الطرح وما يحتوى من رؤية أراها جميلة من حيث كونها تسعى لتجسيد وحدة المعرفة وتكامل المعارف.

وأرجو أن تتاح لى الفرصة أن أشاركم ما أثاره المقال من تأملات وأفكار سأحاول أن أوجزها فيما يلى:

فى نهاية المقال جملة هى «حقًا لقد آن أوان الفزع»!! مما أثار لدى قدرًا كبيرًا من الاندهاش أن يأتى من واحد من أهل المعلوماتية وتكنولوجيتها؛ لأن ما يفزع منه الكاتب بدا لى استخلاصًا من تيار فكرى آخر مضمر فى «بطن الشاعر». لماذا؟ لأن كل ما جاء فى المقال كان استعراضًا للتقابل بين آلة الفكر وفكر الآلة، واستشرافًا لما يمكن أن يحدث من تلاقح بينهما يحسّن أداء كل منهما؛ والمسألة الجوهرية المضمرة هى أن نساوى بين إحدى وظائف العقل وبين مجمل وظائف العقل، الذى هو حال نشاط الجهاز البيولوجى المتفرد فى الإنسان وهو الدماغ.

يجوز لى هنا عشمًا فى الصديق وهو اللغوى المتحمس لضبط الترجمة أن أتحفظ على استخدامه لكلمة المخ.. وهو ليس أكثر من جزء من مكونات الدماغ Cortex Vs Brain صحيح أنه انتشر استخدامها كخطأ شائع ولكن من المهم أن نثابر على تصحيح الكلمات المترجمة أو مدلولاتها.

أوافق الدكتور نبيل أن الاندماج البيولوجى - المعلوماتى بات ضروريًا، ولكن ذلك ليس من أجل توفير عقل جديد لإنسان العصر لكى يواجه العالم الجديد.. لأن التقدم التكنولوجى الذى سيصل بالذكاء الصناعى إلى مرحلة الاستخدام اليومى كآلية جديدة تقوم بها آلات ذكية لن يؤدى إلى تغيير الدماغ نوعيًا؛ لأن ذلك السعى الحثيث الذى أتق فى وصوله إلى غاياته ليس أكثر من تحسين أو تطوير لأداء نصف المخ (وهو الفص السائد الأيسر فى معظم البشر) تاركًا الفص الأيمن وباقى أجزاء الدماغ دون تدخل أو تطوير.

لقد عظم الإنسان عبر تاريخه من حواسه التى ينتقل من خلالها الدخل أو المؤثرات البيئية - على مراحل - بدأت فى مجال العين من النظارات الطبية والتلسكوب ثم الميكروسكوب بأجياله المتعددة ليصل إلى الرادار والتصوير بالأشعة الحمراء والحرارة.. وقس على ذلك فى كل الحواس الخمس وامتداداتها «الآلية».

لكن الصخرة التى لايزال البشر يواجهونها فى ذلك المجال هى ما بعد حدوث التجربة الإحساسية من شعور وحوافز وإعطاء المعنى (الإدراك)، والعمليات التى تتم داخل النسق (الشبكات العصبية العنكبوتية) ثم المخرجات.

لذلك أرى أن موضوع الذكاء الصناعى منحاز بداية إلى دراسة آليات عمل نصف المخ السائد والخاص بعمليات تؤدى فى النهاية إلى كفاءة وسرعة اتخاذ القرار المناسب فى مواقف تتعدد فيها المتغيرات وتتشابك المكونات لحد التشواش.

وربما من المناسب هنا أن أذكر بأن الذكاء كقدرة فطرية اتضح فى العقدين الأخيرين أن درجته تزداد عندما يمتزج بالعواطف.. ومن ثم أصبحنا نتحدث عن الذكاء العاطفى والذكاء الاجتماعى بجانب الذكاء المدرسى والذكاء العملى.

إذًا.. انتبه أصحاب أو أهل المعلوماتية والحاسوب أن نهتم بالدماغ ككل، وبالجزء الأحدث تطوريًا فيه وهو المخ بفصّيه إذا كان لنا أن نستشرف ما يفزع حين يصنع الإنسان آلة ذكية تغضب فتثور أو تحبط فتمارس العنف أو تفرح فتتشتت لأنها سعيدة مبسوطة.

إننى أرى أن التقدم فى مجال الذكاء الصناعى حين يصل إلى منتهاه سيكون إضافة عبقرية إلى ما يمتلك الإنسان - بالإضافة إلى تكوينه المتفرد - من أدوات تجعله أقدر على الاحتفاظ بالسيادة فى هذا الكون.

من عرض الدكتور نبيل للمداخل للذكاء الصناعى أود أن أشير إلى الخوارزميات المعروفة فى البرمجيات لاتخاذ القرارات، وهى أبسط العمليات العقلية ومعزولة عن سياقها المكافئ فى العقل البشرى: لما يتفرد به الدماغ من شبكة هائلة من الاتصالات بين الخلايا العصبية، فمن المعروف أن عملية الإدراك تتم على أرضية من الوعى.. وفى تلك الحالة نجد خاصية اسمها الإدراك الأولى Apperception التى تسمح للخبرة الإدراكية أن تسكن فى موضعها من النسق فى السياق العام.

تلك القدرة هى التى تسمح لنا أن نقول إن الدماغ البشرى يمتاز بالمرونة والمطاوعة.. وهى كما يذكر الدكتور نبيل التحدى الأكبر أمام أهل التكنولوجيا المعلوماتية. وعند هذه النقطة من تعليقى أودّ أن أدلف إلى مسألة المنهج لدراسة نشاط الدماغ. لقد بدأت رحلة التفكير فى التفكير من خلال التأمل الذاتى Intro-spection، ثم أعطيت لبعض التأملات صدقيتها من خلال اتفاق عدد من الخبراء، ربما فى مراحل تاريخية متتالية، على نفس الرؤى ليتحقق قدر من الصدقية بالاتفاق Cousensual Validity. وظلّ الحال هكذا فى مجالى الفلسفة (نظرية المعرفة) وعلم النفس، إلى أن سيطرت اتجاهات التجريب والموضوعية مع سيادة المدرسة السلوكية فى علم النفس. لكن الحصاد من انتشار ذلك التيار السلوكى المتعارك فى نفس الوقت مع تيار التأمل الداخلى والدراسات الديناميكية كان بروز تيار جديد هو جماع التيارين مما يسمى علم النفس الإنسانى الذى وصل إلى مداه فيما يسمى علم نفس عبر الشخص Transpersonal Psych.

إن استقراء تاريخ الدراسات المختلفة لفهم الإنسان سواء فى خبراته الذاتية أو سلوكياته المرصودة والتى يمكن قياسها يشى بأن أى منهج لايجمع بين الذاتى والموضوعى لايقرّبنا من فهم آليات عمل الدماغ. صحيح أن عقد بحوث الدماغ فى التسعينيات أضاء كثيرًا من المناطق الغامضة على المستوى البيولوجى لكننى أودّ أن أؤكد هنا أن كل الفروض والاكتشافات البيولوجية تعطينا بيانات ومعلومات مبهرة لكنها متضاربة وغير نهائية.. ما أدى إلى كثير من اللايقين.. الذى لا يسمح لنا منطقيًا أن نعتمد اللايقين نفسه كنسق فكرى يتبناه العلماء لفهم الإنسان. لأن التعقد بسبب التشابك المهول الدرجة داخل أنسجة الدماغ ربما يكون هو المسئول عن استنتاجنا لهذه المقولة «اللايقين».

وأودّ هنا أن أذكر أن كل الفكر الإنسانى فى النهاية والبداية هو مفاهيم وأطر اتبعها الإنسان ليفهم العالم ويتفهم نفسه، وليعطى معنى للوجود الذى حتمًا ينتهى بالموت على المستوى الفردى. بسبب ذلك الدافع الإنسانى المتفرد اكتشفنا اللغة والتفكير بمفردات اللغة وبالصور الذهنية، لكن ذلك لايتساوى بالقطع مع حقيقة الأشياء فى ذاتها.. لأن الواقع مستقل عن ذواتنا، والحقيقة هى تصوراتنا ورؤانا لذلك الواقع، التى تتغير مع تغير وتطور أدواتنا للتعرف على الواقع رصدًا واختبارًا.. بل وإلى حد كبير تغييرًا بسبب أفعالنا وتدخلاتنا كبشر. لذلك آمل أن يمكننا الذكاء الصناعى من حصر أشمل للتعقيد فى الواقع وصولاً إلى تقليل درجة اللايقين فى عقولنا.

لكننى أكرر مرة أخرى ضرورة اهتمام أهل الذكاء الصناعى بأن تشمل دراساتهم ومغامراتهم العلمية النبيلة كل الدماغ.. لكى تصل الإنسانية إلى آلة ذات ذكاء مختلف يمتاز بالسرعة نعم، ولكنه يماثل العقل البشرى فى الشمولية والإدماج.. وربما قدر من الدافعية الذاتية للآلة.. وربما درجة ما من الشعور والانفعال؛ ولا أجرؤ على الحلم بأن تكون لدينا آلة ذكية لديها خاصية ذاتية على الدهشة والاستكشاف كنسق System مغلق ومفتوح فى آن.

أ.د. أحمد شوقى العقباوى
أستاذ الطب النفسى - جامعة الأزهر

إذاعة القدس

من دواعى الاعتزاز، أن تتقدم أسرة إذاعة «القدس» الإذاعة العربية الفلسطينية على طريق تحرير الأرض والإنسان، إلى أسرة تحرير وإدارة مجلة «الكتب.. وجهات نظر»، بالتهنئة بالعام الجديد، وبالتبريكات لجهودكم فى توالى إصدار هذه المجلة، المفخرة للإعلام العربى..

إن إذاعة «القدس» التى انطلق بثها منذ العام ١٩٨٧، وشكلت بالتفاف الجماهير حولها، صوت الانتفاضة، واستمرت، صوت الذين لا صوت لهم، وعبرت عن المواقف القومية.

إذاعة «القدس» التى ترسل «مؤقتًا» من جنوب سوريا ويغطى إرسالها، الأردن، فلسطين، وقسمًا من الوجه البحرى من مصر، لبنان، جنوب ووسط سوريا، العراق حتى واسط، السعودية حتى الطائف.. تستعد بإذن الله، لزيادة طاقتها خلال الأشهر الأولى من هذا العام.. بفضل دعم المستمعين الذين يدعمون استمرارها، واستقلالها، ويدافعون عن حرية الرأى والكلمة فيها.

إذاعة «القدس» التى مارس العدو الصهيونى، منذ انطلاقتها الأولى، ضدها حملة «تشويش» إذاعى ليمنع انتشار صوتها، ثم لجأ إلى أساليب أخرى فى محاولة منه لإيقاف بثها.. ثم حاول سرقة موجاتها العاملة:

- موجة متوسطة ٧٠٢ وهى بقوة (٢٠٠) كيلو واط.
- موجة متوسطة ٦٣٠ وهى بقوة (٥٠) كيلو واط.
- موجة إف. إم ٩٦,٧ .
- موجة إف. إم ١٠٥,٤ وكل منها بقوة ١٠ كيلو واط.

موجة قصيرة ٩٠١١ و١١٠٥ (كل منها بقوة ٢٠ كيلو واط).

متوقفة حاليًا للافتقار إلى قطع الغيار.

إذاعة «القدس» تستعد الآن لانطلاقة أقوى، فى طاقتها التقنية وبرامجها، ونغتنم هذه المناسبة.. لنتقدم إليكم، بأمنية الحصول على موافقتكم الكريمة بالسماح والموافقة على إذاعة بعض مواد مجلتكم، شهريًا عبر أثيرها، تعميمًا للفائدة ونشرًا لمادة سياسية، فكرية، ثقافية راقية على أوسع مدى يصل إليه إرسال إذاعة «القدس». شاكرين لكم تعاونكم.

المشرف العام
فضل شرورو
دمشق

المجلة ترحب بإذاعة المواد التى تنشرها من خلال إذاعة القدس وتتمنى لهذه الإذاعة النجاح والتغلب على الصعاب التى تواجهها لإيصال صوت فلسطين إلى العالم.

المحرر

مجلة مختلفة.. كيف؟

أرجو ألا يزعجكم خطابى هذا، فأنا ومجموعة من أصدقائى ننتمى إلى الجيل الذى تسمونه بالجديد. هذا الجيل الذى خرج فلم يجد للأسف صحافة مصرية تحترم عقله. ويمكن مقارنتها بالصحافة العالمية المحترمة التى تعنى بالدقة والموضوعية والمعلومة وإضافة الجديد. وكان طبيعيًا أن يجذبنا إلى مجلتكم فى البداية تميزها بكتابات الصحفى العالمى القدير محمد حسنين هيكل ووعدها لنا بأنها (مجلة مختلفة لقارئ مختلف) ولكننا - للأسف - كثيرًا ما لا نجد هذا الاختلاف، بل

الكتب وجهات نظر
رسائل

على العكس نكتشف بعد شراء المجلة ودفع عشرة جنيهات كاملة أنها تكاد لا تختلف عن مجلات تقليدية مثل الهلال بعد أن ضاعت معظم صفحاتها في تقليب صفحات التاريخ والاحتفال بمناسبات موسمية دون أن نرى معلومة أو استنتاجًا جديدًا، إذ لم يخرج مثلاً موضوع حريق القاهرة بنظرية مختلفة أو استنتاج جديد عن الجهة المسئولة عنه كما لم يأت الحديث عن السيدة زينب بأكثر من تكرار لما قاله وكتبه الشيعة ألف مرة على مدى عشرة قرون وكذلك أمر إحياء ذكرى الكواكبي المئوية.

ففي الأعداد الأخيرة مثلاً لا أذكر أن هناك ما جذبنا للقراءة والنقاش ووجدنا فيه الاهتمام بالمعلومة الجديدة والأسلوب الذي جربناه في الصحافة العالمية غير مقالات الأستاذ هيكل طبعًا والافتتاحية التي يكتبها هو أيضًا بلا توقيع، ومقال الكاريكاتير الطريف الذي يبدو أن إعداده استغرق جهدًا كبيرًا وموضوع الإنترنت المسيس المدروس جيدًا والحافل بالأرقام والمعلومات والذي ينبه للمرة الأولى إلى امبريالية الإنترنت. وتحقيقات فهمي هويدي الميدانية والمراغي الاقتصادية.

فضلاً عن إطلالة رئيس التحرير في الصفحة الأخيرة والتي نضمن مقدمًا أن نجد فيها رأيًا في قضية جديدة مثارة غير متحفية.

أرجو ألا يكون خطابي هنا مزعجًا. ولكني أردت أن أعرفكم أن هناك في هذا الجيل من يقرأ هذه المجلة ويريد أن يستمر في قراءتها شهريًا فأرجوكم ألا تكتفوا بأن كبار السن حريصون عليها. فأنا أعلم مثلاً أن جزءًا كبيرًا من حرص والدي على قراءتها يعود إلى شعور طبيعي بالحنين إلى الماضي الذي تعود فيه على قراءة هذا الكاتب العبقري كما يسميه محمد حسنين هيكل.

أما نحن فنريد أن نواظب على قراءتها لأسباب أخرى غير مجرد الحنين.

وبالمناسبة لم أرسل رسالتي تلك بالبريد الإلكتروني بعد أن نبهني أصدقائي إلى عدم وجود موقع لكم على الإنترنت مما يعني أنكم ربما لا تحرصون أيضًا على مراجعة بريدكم الإلكتروني.

د. حسن البيلاوي
hbeblawi@yahoo.com

شكرًا لك.. واسمح لنا بمناسبة رسالتك أن نؤكد على ثلاث نقاط:

١. نحن في هذه المجلة نرحب بكل نقد، بل ونلح في طلبه، وهذه الصفحة نادرًا ما تخلو من انتقادات القراء، نشكر لهم حرتهم واهتمامهم بالمشاركة في ترغ مطبوعتهم.

٢. الأستاذ هيكل لا يكتب افتتاحية المجلة، كما أنه لا يكتب بلا توقيع. الذي يكتب الافتتاحية منذ مارس ٢٠٠٠ هو الأستاذ أيمن الصياد مدير التحرير. وهو بالمناسبة صاحب موضوع «الإنترنت.. في الزمن الأمريكي» الذي أشرتَ إليه.

٣. اطمئن نراجع البريد الإلكتروني بانتظام.

المحـــرر

صـلاح عـبـد الصـبـور

سعدتُ عندما وجدت أنكم استعنتم بقصائد الشاعر صلاح عبد الصبور لملء الزوايا في العدد الأخير من مجلة «وجهات نظر». ولكن يبدو أن من قام بهذه المهمة كان في عجلة من أمره فلم يلاحظ أن القصيدة التي نشرت تحت عنوان «الفارس القديم» هي قصيدة غزل ولا علاقة لها بالقصيدة الحقيقية التي منحت الديوان اسمه. كذلك وجدت قصيدة أخرى بعنوان «ثلاث صور من غزة» مع أن المنشور فعلاً يتعلق بصورة واحدة من هذه الصور الثلاث.

د. عبد العظيم أنيس

نبحث عن.. «وجهات نظر»

قرأت كثيرًا عن صدور مجلة «الكتب.. وجهات نظر» وعرفت أن الأوساط الثقافية استقبلتها استقبالاً طيبًا.

وقد حاولت غير مرة الكتابة إليكم لأهنئكم بصدور المجلة، لكني لم أستطع لأن المجلة لا توزع في أسواق المملكة كما فهمت من الباعة وشركات التوزيع! كما أن المجلة لا تصل إلى المكتبات الوطنية ولا إلى الأندية! وقد تفضّل أحد الأصدقاء وأحضر لي منذ عامين أحد أعداد المجلة على سبيل الإعارة والاطلاع على مواد المجلة.. وقد أعجبت كثيرًا بإخراجها وأناقة طباعتها وحسن اختيار موضوعاتها واهتمامها بعروض الكتب والدراسات النقدية.

وفي الختام أرجو لمجلتنا العزيزة «الكتب وجهات نظر» اطّراد التقدم والازدهار.

سعد بن عايض العتيبي
الرياض - المملكة العربية السعودية

“ نون ”

مستقبل المجلات الثقافية العربية

في عصر تسود فيه ثقافة ما بعد النص المكتوب، حيث تصبح الصورة هي العنصر الغالب في مجتمعات تقترب فيها النصوص المكتوبة من التليفزيون، تتوارى المجلات والصحف إلى الخلف، وتتعرض الكتب والمطبوعات الثقافية لخطر المزاحمة والتراجع، أو الإهمال والمصادرة في بلاد مثل بلادنا.. ومع ذلك فقد نجد كثيراً من المثقفين مازالوا يجلسون على أرصفة الحياة الفكرية، يطالبون الدولة بأن تقدم لهم من العون ما يمكنهم من تأسيس مجلة مركزية فكرية ثقافية جامعة.

وإذا كانت الظروف العالمية والتطورات الاقتصادية والسياسية قد أجبرت الدولة بمعناها الحديث على تغيير مساراتها منذ الستينيات، لتتخلى عن التزامها المبدئي بإنتاج الثقافة وتوليد الفكر، تاركة هذه المهمة للمثقفين أنفسهم، فإن كثيراً من المثقفين في المجتمعات العربية مازال يرى أن الثقافة التي تصنع خارج نطاق سيطرة الدولة وبعيداً عن إشراف السلطة، محكوم عليها بالفشل والنقصان. ومازال لدينا هذا المفهوم الشمولي للثقافة التي لابد أن تكون جامعة مانعة.. جامعة لكل التيارات، ومانعة لكل ما يهدد بالخلاف مع الفكر السائد الذي تحتضنه الدولة، حتى وإن كان على حساب حرية التفكير والإبداع. مازال المثقفون في بلادي يبحثون عن الدعم المادي والمعنوي، يأتيهم ممن يديرون شئون الثقافة، دون أن يتبادر إلى أذهانهم أنه في اللحظة التي يفقد فيها المثقف مبادراته الخاصة، يصبح عالة على من يقدم له الدعم، متصاغراً لرؤية الموظف الجالس على مكتبه في وزارة الثقافة ومجالسها وإداراتها، خادماً مطيعاً للمثقف الحكومي الذي يتلقى التعليمات والتوجيهات من بيروقراطية لها أجندتها وأولوياتها السياسية والأمنية، الداخلية والخارجية. ومن ثم فليس غريباً أن يشكو البعض من البؤس الساجي على الحياة الثقافية في مصر والوطن العربي، حيث لا تختلف الأوضاع هنا عن هناك.

لم يزل في مصر والوطن العربي كثيرون، ونحن في القرن الواحد والعشرين، عاجزين عن التفرقة بين دور الدولة في رعاية الثقافة، ودورها في إنتاج الثقافة.. رعاية الدولة للثقافة شيء، وإنتاجها شيء آخر. فالحكومات في الدول الحديثة من شأنها أن تهيئ للمواطن أيسر السبل الكفيلة بالوصول إلى منابع الثقافة بأشكالها ومستوياتها المختلفة، وأن تزيل العقبات التي تعترض طريقها. ولكن ليس من شأنها أن تفرض نوعاً من الثقافة تؤثره وترضى عنه، أو تمنع أنواعاً أخرى تضيق بها وتسخط عليها. ومن ثم يبقى من شأن المثقفين أنفسهم أن يعثروا على أفضل السبل لإنشاء وإصدار مطبوعاتهم، حفاظاً على استقلاليتهم وتأكيداً لحريتهم.

محو الأمية، نشر التعليم، بناء المتاحف، إنقاذ الآثار، الحفاظ على التراث الثقافي والشعبي، تشجيع المبادرات التي تهيئ سبل الوصول بالثقافة إلى الفئات المحرومة والمناطق النائية، إنشاء المكتبات العامة في المدن والأقاليم، ضمان توزيع العائد الثقافي بالعدل بين المدينة والريف، وبين المجتمعات الحضرية والمجتمعات الريفية.. وغير ذلك من الأساليب المستحدثة لنشر الثقافة هي مسئولية الدولة. أما دخول الدولة كمنتج في حقل الثقافة، أي كناشر للكتب والمجلات والصحف، أو كمنتج للأفلام والمسرحيات ومالك ومدير لدور السينما والمسارح، فهذا ما أدى إلى تدهور كثير من أنشطة الإنتاج الثقافي، وظهور طبقة من المنتفعين بما تنفقه الدولة من ميزانيات ضخمة على طبع ونشر كتب وسلاسل تافهة القيمة، مجاملة للبعض من ذوي النفوذ في الحياة العامة، وإلى إنتاج مسرحيات لا ترقى إلى ما كان ينبغي أن يقدمه مسرح تملكه الدولة كالمسرح القومي، إلا فيما ندر.

وقد أثبتت تجربة الستينيات والسبعينيات في مصر حين ألقت الدولة بثقلها وراء كل صغيرة وكبيرة في الأنشطة الثقافية، سواء بتمويل هذه الأنشطة أو بدعمها مادياً ومعنوياً وتوزيعياً، أنها لم تفرز غير عدد قليل من ذوي المواهب المحدودة. ومعظم المواهب الحقيقية التي لمعت في تلك الفترة نشأت خارج نطاق السيطرة العامة للدولة، وإن استفادت بالإمكانيات المتاحة أمامها. ومع ذلك فإن الأجهزة الثقافية لم تتعلم شيئاً من التجارب السابقة. وباستثناء ما أنفقته أجهزة الثقافة من إعادة طبع ونشر عدد لا بأس به من روائع الكتب والمؤلفات القديمة لأدباء ومؤلفين عظام والتي أشبعت وملأت حياتنا الثقافية طوال نصف قرن أو يزيد، فإن معظم الأعمال الثقافية التي قامت الأجهزة الرسمية حديثاً بإصدارها لا تكاد ترتقي إلى شيء من الأعمال التي أعيد طبعها ونشرها.

وقد كان من نتيجة تصدي أجهزة الثقافة الحكومية لنشر أعمال أدبية وثقافية، أن نشبت أزمة الروايات الخاصة بوليمة أعشاب البحر وما أعقبها من أزمات مشابهة لنشر روايات ضحلة المستوى بالغة الإثارة. ولم تنجح أجهزة الثقافة في حل التناقض الذي تسبب في حدوث الأزمة، بين مسئولية الدولة كناشر يتحتم عليه مراعاة عدد من الضوابط الأدبية والأخلاقية، ومسئوليتها في حماية حرية الإبداع وتشجيع المواهب الناشئة. وهو ما حدا بنا إلى المطالبة حينذاك بأن ترفع أجهزة الدولة يدها عن الدخول كمنافس في الإنتاج الثقافي، وأن يقتصر دورها على التشجيع والدعم غير المباشرين. وهو ما يمكن أن يتحقق في صورة الجوائز الأدبية، أو تحمُّل جانب من نفقات الطبع والتوزيع والنشر للمواهب الواعدة أو الصاعدة.

ولابد أن نعترف بأن المجلات الثقافية تواجه مستقبلاً غير مأمون في المجتمع العربي، وأن اقتصار المجلة على لون واحد من فنون الفكر والثقافة كأن تكون مجلة أدبية فقط: تقتصر على الأدب والنقد أو على الشعر أو القصة أو المسرح، أو تكون مجلة فكرية تقتصر على الدراسات الفلسفية والمقاربات الفكرية، أو مجلة سياسية تهتم فقط بالمقالات السياسية والدراسات الاقتصادية أو مجلة للفنون بأنواعها المختلفة، تظل في الأعم الأغلب مقصورة على طائفة محدودة من أهل الاختصاص، وتفقد بذلك قيمتها التثقيفية في الوصول إلى قارئ عام ذي توجهات واهتمامات متنوعة. ويغلب هذا الاتجاه في الوقت الحاضر على كثير من المجلات ذات اللون الواحد في عالمنا العربي. كما يغلب عليها أن تبحث عن مصادر تمويلها من إدارات الثقافة والهيئات الرسمية، فتصبح رهناً بما تحصل عليه من دعم حكومي وليس بما تحصل عليه من دعم القارئ وتشجيعه.

على أن أخطر ما يواجه المجلات الثقافية في عالمنا العربي، هو تلك التحولات السريعة المتتابعة التي فجرتها ثورة الإعلام والنشر والتي أدت إلى نشوب منافسة حامية بين النص المكتوب والصور المرئية، وبين المجلات والصحف من ناحية والإنترنت والتليفزيون من ناحية أخرى. وقد انتشرت ظاهرة تبادل المعلومات والبيانات والمقالات بين الإنترنت والمجلات والصحف. وطبقاً لبعض التقديرات فإنه يجري تبادل أكثر من ٤ مليارات صفحة على الإنترنت بكل لغات العالم.

ولكن أحداث ١١ سبتمبر أثرت فيما أثرت على تلك الظاهرة من ناحيتين. الناحية الأولى: هي إقدام السلطات في الولايات المتحدة الأمريكية على إزالة طائفة كبيرة من المقالات وقواعد البيانات والملفات من على مواقع الإنترنت لأسباب أمنية. الأمر الذي قلل من درجة الحرية والانطلاق التي كان يتمتع بها مستخدمو الإنترنت. مما أغرى الكثيرين بالعودة إلى النص المكتوب، أي إلى المجلات ذات الدراسات الجادة والأبحاث المعمقة.

والناحية الثانية: هي ما اكتشفه الكثيرون بعد أحداث سبتمبر من أن رسائل الإعلام السريعة الساخنة التي يحملها التليفزيون لم تكن كافية لإشباع حاجة الناس إلى المعرفة. ومن ثم لجأوا إلى الإنترنت أولاً ثم إلى المجلات العامة أو إلى مجلات ذات طبيعة إنترنتية، بحثاً عن الإجابة على أسئلة ملحة فجرتها موجات إعلامية مكثفة عن الإسلام وبن لادن والقاعدة وطالبان، ولماذا الكراهية؟ وضد مَنْ، إذا كانت هناك كراهية؟ ومن هو العدو؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي شغلت عقول الكثيرين في المجتمعات الغربية وأعادت طرح كثير من الشكوك والتساؤلات، ودفعت الناس إلى الإقبال على شراء الكتب والمجلات.

ومن هنا فإن المجلات الحديثة في الغرب والمجتمعات المتقدمة التي تعيش في ظل ثورة المعلومات وهي في أوجها، لا تنافس عالم ما بعد النص المكتوب، بل تحاول تجاوزه وإقناع المستهلك أنه مازال بحاجة إليها كمصدر للمعرفة والثقافة، إلى جانب الإنترنت والتليفزيون، مستفيدة في ذلك من تعدد وسهولة الولوج إلى مصادر المعرفة بدرجة معقولة من التكامل فيما بينها.

التحدي الحقيقي بالنسبة لمجلاتنا الثقافية، ليس فقط في ضمان أكبر هامش من الحرية والاستقلالية وعدم التبعية، بل في مواجهة تحولات المستقبل وما تحمله ثورة المعلومات والنشر من مفاجآت!

سلامة أحمد سلامة

Mobile Banking

البنك العربي

ARAB BANK

بنك فى متناول يديك على مدار اليوم



فى إطار سعيه الدائم لتقديم أفضل الخدمات المصرفية، يسر البنك العربى أن يقدم لعملائه خدمة البنك المحمول التى تنفرد باحتوائها على قائمة تشغيل مباشرة تتيح للمستخدم، من خلال الضغط على أزرار التليفون المحمول، إمكانية إجراء مجموعة هائلة من العمليات البنكية المتكاملة فى أى وقت ومن أى مكان

- الإستفسار عن أرصدة حساباتك .
- طلب كشف حساب .
- الإبلاغ عن فقدان البطاقات الإئتمانية .
- الإبلاغ عن فقدان بطاقة الصراف الآلى .
- إجراء التحويلات بين حساباتك .
- الإستفسار عن آخر المعاملات التى تمت على الحساب .
- إعلامك لحظياً أينما كنت بالمعاملات التى تنفذ على حسابك .
- إصدار أوامرك للبنك لوقف صرف الشيكات المفقودة .

تمتع بمجانية الإشتراك بهذه الخدمة
من الآن ولمدة ستة أشهر

vodafone

Checkmate Adv.

لمزيد من المعلومات برجاء الإتصال بتليفون ٨٨٨ ٩٤ ٣٠
أو برقم ٨٨٨ من أى محمول فودافون

البنك العربي